
www.kotobarabia.com
ظاهرة انحلال الصفوة
القوادون
و
السياسة
تاريخ البغاء في نصف قرن
www.kotobarabia.com
عبد الله كمال

ظاهرة انحلال الصفوة

القوادون والسياسة

تاريخ البغاء في نصف قرن

عبد اللّه كمال

الفهرس

_

الصفحة رقم (٧)

التربح السياسي من الدعارة

لو أن هذا الكتاب عن الدعارة السياسية؛ ما كان يمكن أن ينتهي أبدا، وربما كان احتاج كل جزء من أجزائه إلى مجلدات كاملة كي يغطي فقط دولة واحدة.. فما بالنا بكتاب يتحدث عن أكثر من دولة.

إن الدعارة السياسية متنوعة وعديدة الأشكال، وهي أبشع وأحط وأقذر من دعارة الجسد. فالدعارة السياسية بيع للمواقف وتكسب من التبدلات، وفتح للغرف على مصراعيها لكل الأطرف، وجني للمال من كل راغبٍ في قرار. بينما دعارة الجسد بيع للشرف بدون تمييز، ومرض اجتماعي خطير، إلا أنها في النهاية قرار شخصي لا يؤثر على آلاف البشر كما تؤثر الدعارة السياسية التي يمكن أن تضر ملايين البشر؛ حين لا يجوع ممارسوها ويأكلون بأثداء الناس. إن دعارة الجسد أخف وطأة وأقل حدة، وهي في النهاية بين امرأة ورجل، أو بين الشواذ، في حين أن الدعارة السياسية أشد قسوة وأكثر إيلاما وأعتى خطورة.

ولا تختلف الدعارة السياسية في كثيـرٍ عـن الـدعارة الفكرية. بل إنه إذا كان مقبولاً من السياسيين فـي حسـابات المصالح – حسب مقاييس البعض- أن يمارسـوا الـدعارة السياسية؛ فإنه غير مقبول على الإطلاق أن يمـارس قـادة الرأي والفكر دعارتهم على الورق والصحف، وفي وسـائل الإعلام. وإذا كان هناك من السياسيين انحطاطٌ للسلوك وفق الظروف والأحوال؛ فإنه لا يمكن قبول ذلك مـن المفكـرين وأصحاب الرأي الذين يثق فيهم الـرأي العـام، وأعطـاهم بمضي الوقت المصداقية، وتوهم أنهم منزهون عن التبدلات غير المبررة، وعن بيع الأفكار، وعن الارتشـاء العقائـدي، وعن إدخال الآراء والمواقف في مزادٍ لمن يدفع أكثر.. ثـم اتضح له (أي للرأي العام) أنهم يفعلون هذا في كل دقيقة.

وفي عالم الدعارة الفكرية، وفي دنيا الدعارة السياسية؛ يمكن رصد عشراتٍ من الحالات لتقريـب الصـورة إلـى الأذهان.

لقد نشأت في العالم خلال السنوات الأخيرة ظاهرة نمت وترعرعت في كثير من الدول، تقتضي الدفاع عـن حقـوق الإنسان بكل أشكالها وفي كل المجـالات. وصـاحبت هـذه

التيارات المتنامية عملية نشوء الجمعيات والمنظمات الرسمية وغير الحكومية التي تمارس هذا النشاط. وحين عرفت مصر هذا؛ ظهرت على الساحة نماذج عديدة وغريبة راحت تلعب هذا الدور؛ ليس لأنها من أنصار هذه الأفكار الهامة، ولكـن لأنها أرادت أن تغترف من معين تحويلات هـذه الأنشـطة المملوء تماما.

وهكذا ظهر– كمثال- الأسـتاذ الجـامعي (بالجامعـة الأمريكية) الذي كان أول من أدخل إلى مصر لعبة المراكـز غير الحكومية، وراح يجني المال كلما دارت عجلة الروليت في هذه اللعبة، وتحول بمضي الوقت إلى وكيل معتمد لجهات دولية عديدة، وسمسار تمويل؛ مهمته هي إحضار المال مـن الخارج لصالح محترفي هذه اللعبة الذين لا يستطيعون ذلـك مقابل الحصول على نسبة من هذا التمويل.

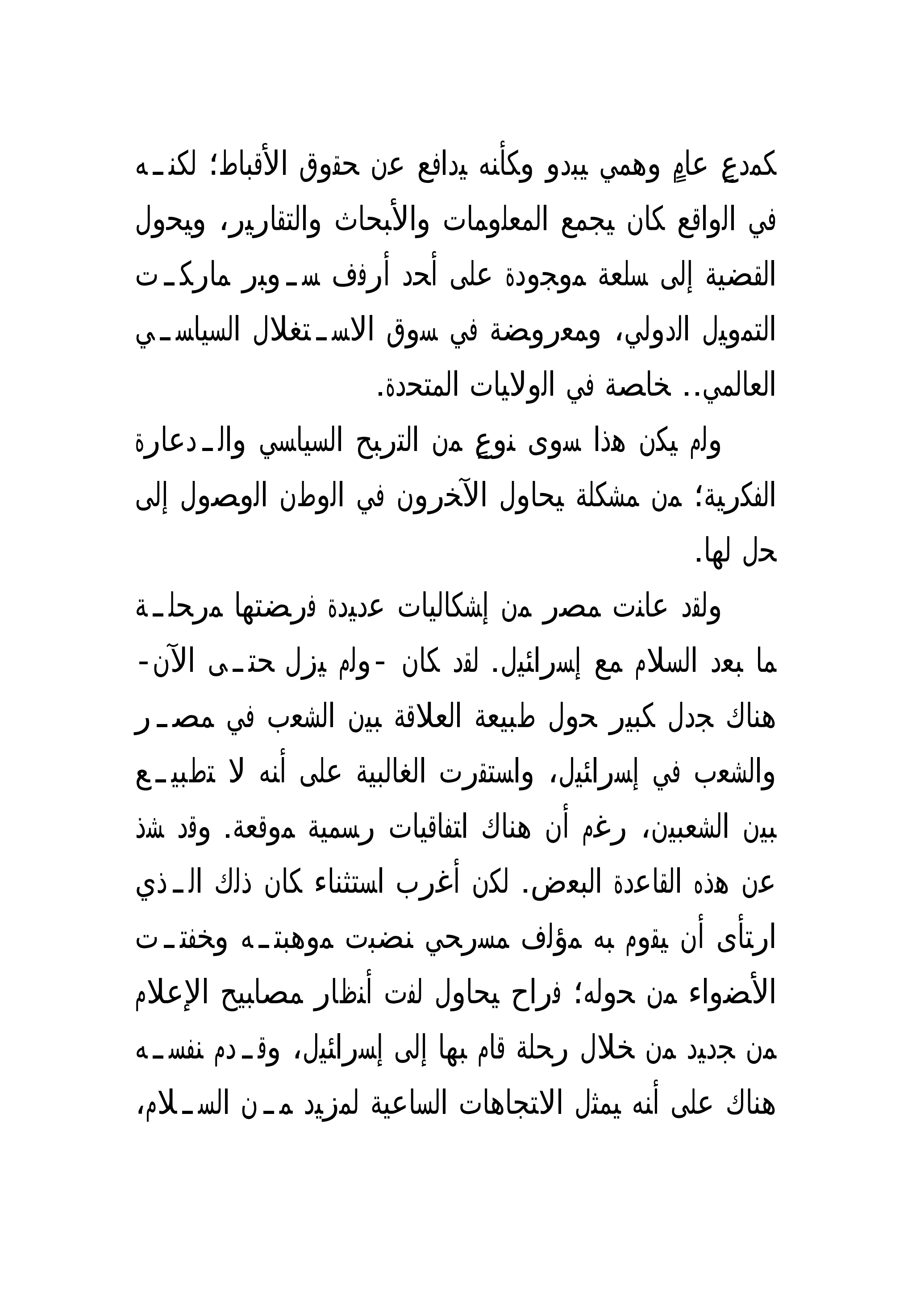
ولم يكن هذا سوى نوع من القوادة السياسية والفكريـة، وخاصة أن الهدف الأول ليس هو الدفاع عن حقوق الإنسان؛ وإنما التربح من وراء الفكرة البراقة.

إن هذا لا يعني أننـي أقـف ضـد هـذه الجمعيـات والمنظمات، ولا يعني أنني أهاجم الفكرة المجردة، خاصة أن

بعضها (وهذا البعض قليل) ساهم بجهوده في الـدفاع عـن حرية الرأي حين ساند كثيرين في قضايا مختلفة، ومن بينها قضية مصادرة كتابي "التحليل النفسي للأنبياء"، ولكنني فـي نفس الوقت أرفض متاجرة البعض الأكثر بهذه الدعوة الهامة التي أظن أنها دعوة تدعم الديمقراطية والحريـة.. أرفـض المتاجرة التي أرى أنها دعارة.

ولقد ظلت قضية الأقباط في مصر مطروحـة خـلال السنوات الطويلة الماضية، ودارت مناقشات دائمة حول مـا يمكن وصفه أنه نوع مـن الممارسـات أدت إلـى ضـعف مشاركة الأقباط في الحياة العامة. وتحركت قوى مختلفة في المجتمع في اتجاه القضاء على هذه الممارسات قبل أن تصبح عقيدة ثابتة في ذهن الدولة. لكن هذه التحركات والمناقشـات أدت إلى ظهور قوى حاولت استغلال هذه الأجواء لصالحها.

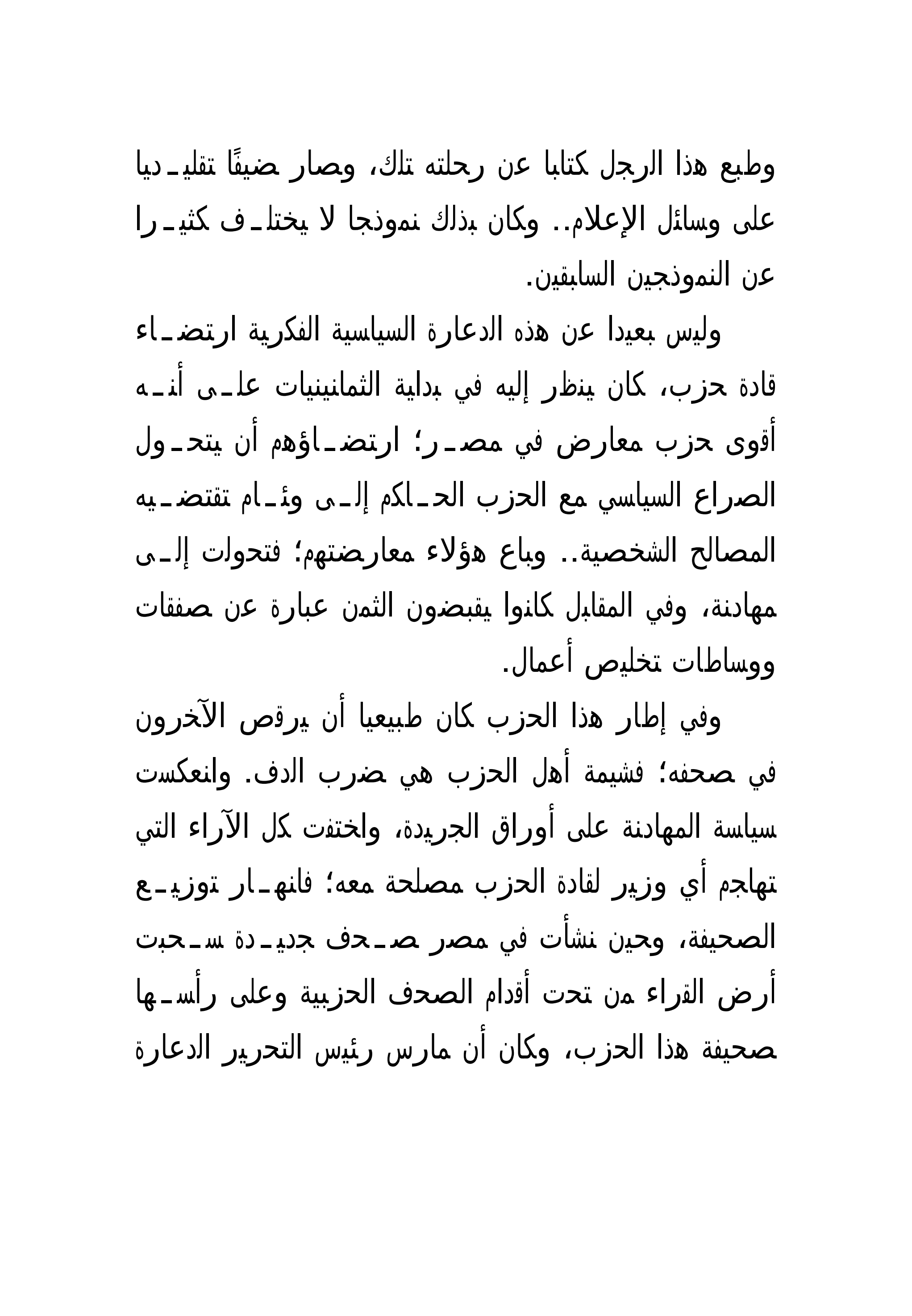
ومثال هذا؛ ذلك المحامي المسيحي المغمور، الذي كان يعيش حياته من خلال التربح الناتج عن علاقتـه بالسـلطة الدينية المسيحية (أي الكنيسة) ثم تحول من مهنـة المحـامي إلى مهنة قبطي، وبدلاً من أن يكون مع الآخرين باحثًا عـن التواصل بين عنصري الوطن؛ صار يعمل في الحياة العامة



كمدعٍ عامٍ وهمي يبدو وكأنه يدافع عن حقوق الأقباط؛ لكنه في الواقع كان يجمع المعلومات والأبحاث والتقارير، ويحول القضية إلى سلعة موجودة على أحد أرفف سوبر ماركت التمويل الدولي، ومعروضة في سوق الاستغلال السياسي العالمي.. خاصة في الولايات المتحدة.

ولم يكن هذا سوى نوعٍ من التربح السياسي والدعارة الفكرية؛ من مشكلة يحاول الآخرون في الوطن الوصول إلى حل لها.

ولقد عانت مصر من إشكاليات عديدة فرضتها مرحلة ما بعد السلام مع إسرائيل. لقد كان -ولم يزل حتى الآن- هناك جدل كبير حول طبيعة العلاقة بين الشعب في مصر والشعب في إسرائيل، واستقرت الغالبية على أنه لا تطبيع بين الشعبين، رغم أن هناك اتفاقيات رسمية موقعة. وقد شذ عن هذه القاعدة البعض. لكن أغرب استثناء كان ذلك الذي ارتأى أن يقوم به مؤلف مسرحي نضبت موهبته وخفتت الأضواء من حوله؛ فراح يحاول لفت أنظار مصابيح الإعلام من جديد من خلال رحلة قام بها إلى إسرائيل، وقدم نفسه هناك على أنه يمثل الاتجاهات الساعية لمزيد من السلام،



وطبع هذا الرجل كتابا عن رحلته تلك، وصار ضيفًا تقليديا على وسائل الإعلام.. وكان بذلك نموذجا لا يختلف كثيرا عن النموذجين السابقين.

وليس بعيدا عن هذه الدعارة السياسية الفكرية ارتضاء قادة حزب، كان ينظر إليه في بداية الثمانينيات على أنه أقوى حزب معارض في مصر؛ ارتضاؤهم أن يتحول الصراع السياسي مع الحزب الحاكم إلى وئام تقتضيه المصالح الشخصية.. وباع هؤلاء معارضتهم؛ فتحولت إلى مهادنة، وفي المقابل كانوا يقبضون الثمن عبارة عن صفقات ووساطات تخليص أعمال.

وفي إطار هذا الحزب كان طبيعيا أن يرقص الآخرون في صحفه؛ فشيمة أهل الحزب هي ضرب الدف. وانعكست سياسة المهادنة على أوراق الجريدة، واختفت كل الآراء التي تهاجم أي وزير لقادة الحزب مصلحة معه؛ فانهار توزيع الصحيفة، وحين نشأت في مصر صحف جديدة سحبت أرض القراء من تحت أقدام الصحف الحزبية وعلى رأسها صحيفة هذا الحزب، وكان أن مارس رئيس التحرير الدعارة

الفكرية والسياسية، وراح يطالب بإغلاق الصحف الجديـدة، رغم أنه من المفترض أنه يعتلي منبرا للحرية.

ولا تتوقف الأمثلة.. فالقائمة الطويلة عـامرة بالنمـاذج والحكايات.

فذلك المؤلف والمفكر السياسي الذي كان ذات يوم مـن أشد صقور اليسار والماركسية قوة، ثم تنازل عن كـل هـذا وذهب إلى مهرجان ثقافي في السعودية، وأعلن هناك توبتـه (هكذا بالنص، ودون أي مجاز لغـوي) عـن كـل أفكـاره القديمة، وعاد ليرتدي "عباءة" جديدة، وتنازل عن كل صـيغ الآراء والأفكار التي يروج لها في مجال الصـراع العربـي الإسرائيلي.. ذلك أنه كان يمارس دعارة سياسية وفكرية.

وذلك الكادر اليساري السابق الذي كان يهاجم في كـل يوم جماعات التطرف الديني وتوجهاتها وآراءها وعنفها، ثم أصبح من أكثر المدافعين عنها والمروجين لها، بل والمربي لكوادرها حتى في أضعف مراحلها.. كان هذا الآخر يمارس دعارة سياسية وفكرية.

والأمثلة والنماذج كما أكدنا من قبل عديـدة ومتنوعـة، وهي في هذا الإطار تتسع لتشمل هؤلاء الذين يبدلون مواقفهم

في لحظة، ويبيعون أرديتهم في ثانية، ويتخلصون مما كانوا يحاولون إقناع الناس به بالأمس إلى شيء آخر على النقيض اليوم.. وتشمل أيضا هؤلاء الذين يتربحـون مـن الأفكـار والنظريات والدعاية، ويخدعون الناس ويوهمونهم بما لـيس صحيحا، في مقابل ثمن تدفعه حكومة أو جماعـة أو رجـل أعمال.

إنه نموذج مميز من الدعارة.. تضاجع فيـه الأمـوال الأقلام.. وتنام فيه السلطة على فراش الفكر، وتمارس فيـه الجماعات الرذيلة مع السياسيين.

ولكن هذا ليس كتابا عن هؤلاء!

إنه بالفعل كتاب عن القوادين كما يقول عنوانه، ولـيس عن القوادين الذين سبق ذكرهم في الأمثلة السابقة، وهـؤلاء يتحولون دائما من موقف باعة الآراء والأفكار المتبدلة لمـن يدفع، إلى موقف القوادين الذين يجذبون أكبر عدد من الزبائن لبائعين غيرهم. وهو كتاب عن قوادين أقل خطورة؛ قـوادين يبيعون الأجساد ويتربحون من وراء هذا، أفرزتهم الأوضاع السياسية، أو وظفوها هم لصالح التربح.

وقوادو الأجساد هم نتيجة طبيعية لظهور قوادي الأفكار وداعري السياسة. إنهم نوع من البشر يوظف الأجسام لخدمة أغراض السياسة، أو يستفيدون منها بالعكس. وهم يمثلـون نوعا منتشرا في كل مكان.. ليس في مصر وحدها.. بل في كل بلاد العالم.. من شوارع الفقراء إلى قصور الأغنيـاء.. ومن الأرصفة الوضيعة إلى الفيلات الفخيمة.. ومن مصـر إلى لبنان وفرنسا والولايات المتحـدة والاتحـاد السـوفيتي وإسرائيل.. ومن مؤسسات الأعمال إلى جهـات الإعـلام.. ومن أجهزة المخابرات التي تتجسس إلى الأجهزة التي تكافح التجسس.

وقد كانت فكرة هذا الكتاب في البداية عـن الـدعارة؛ الدعارة بشكلٍ عام، وكانت مناسبة الفكرة كما دونتُهـا فـي أجندتي الخاصة (بناء على اقتراحٍ من محمد الصباغ صاحب ومدير دار الخيال) هي قضية الدعارة التي هزت مصر فـي عام ١٩٩٧، وكانت بطلتها هي الفنانة المعروفة حنان ترك.

ولأن هذه القضية أثارت عدة تحليلات سياسية، وأقاويل (عن صراعات وأطرافٍ تورطت قبل أن تثار) عن جريمـة الدعارة نفسها.. كان الهدف من البداية هو رصد ذلك التماس

بين الدعارة والسياسة.. وكيف أن الدعارة في كـل مراحـل تاريخها كانت غالبا لها أبعاد سياسية؛ سواء بسبب النشأة، أو بسبب توظيف الدعارة لصالح السياسة، وخدمة أغراضها.

لكني حين بدأت في رصد الظاهرة والبحث والتقصـي لإعداد هذا الكتاب؛ وجدت أننا أمام تاريخ الدعارة ننسى دوما دور القواد صانع مؤسسة الدعارة الأول، وأننا حين نكتـب عن الدعارة نذكر الأنثى وننسى من باعها، ومـن أحضـر الزبون، ومن أعد الفراش، ووفق الرءوس في الحـرام، ثـم أغلق الباب على هذه الرؤوس بعد أن قبض الثمن.

إن الداعرة في هذه المؤسسة (على كل ما تمارسه مـن رذيلة، وعلى ما بها من وضاعة) تبدو ملاكًا أمام ما يقوم به القواد؛ إنها باعت ولكنه هو الذي عقد الصفقة، قبضت الثمن ولكنه السمسار، رضيت بالدعارة ولكنه صاحب الفكرة، بـل إنها أحيانًا ما ترفض، ويقوم هو بالضغط والابتـزاز الـذي يدفعها إلى الرضوخ في قبول الأمر الصادر من مؤسسة بيع الأجساد، إنه هو الذي دبر ونظم ورتـب وهنـدس وهنـدم، واتفق وبحث عن الذي يبيع وعن الذي سيشتري وأقنع وأوهم

وكسب، ثم هرب إذا ما جاء من يضبط كل هـذا.. وتكـون الداعرة هي الضحية رقم واحد.

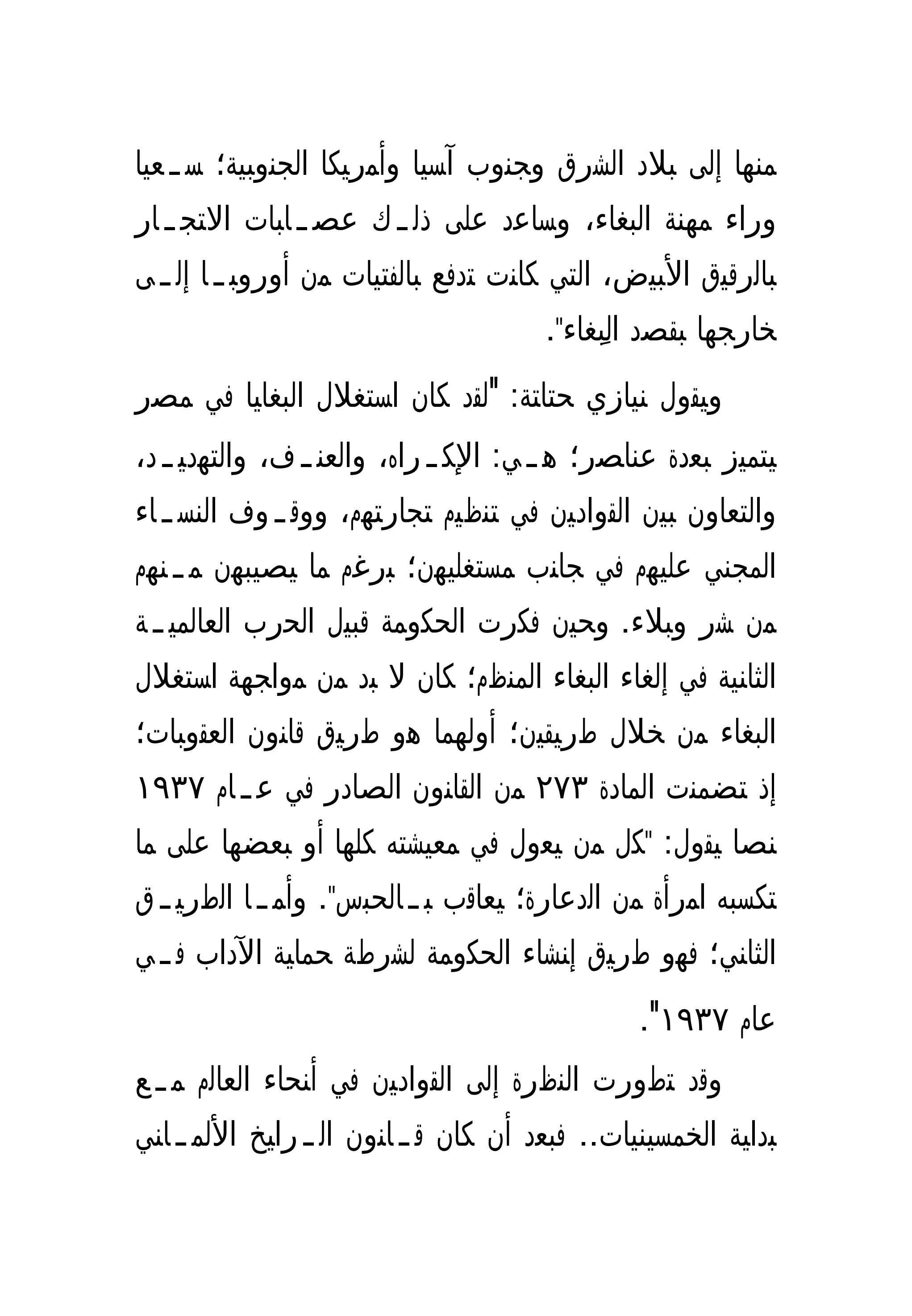
إن القواد هو الرابح الأول والمؤسـس الأول والمـنظم الأول، ولولاه – غالبا – ما كان كل شيء. ومن هنا فـإنني قررت أن أوجه بحث هذا الكتاب في هذا الطريق.. ولاسيما أن أحدا من قبل لم يتناول تاريخ الدعارة من هـذه الزاويـة بشكل عامٍ وشامل.

لقد كانت الأسباب التي دفعتني إلى هذا غيـر قاصـرة على ذلك فقط. وكان من بـين الأسـباب أننـي رأيـت أن المؤسسة صانعة الدعارة (مؤسسة القوادين) تتطور في كـل يوم، وتتحول إلى شريك أساسي في صناعة التاريخ يوما تلو آخر، لاسيما أن القواد لم يعد الآن ذلك البلطجي الذي تتبعـه مجموعة من الفتيات في حي كلوت بك في ثلاثينيات القـرن العشرين ويعيش من خلال أرباح عرقهن، ولـم يعـد ذلـك الشخص الذي تحبه فتاة فيخدعها ويصـطاد لهـا الزبـائن ويفرض عليها الحماية، ويقوم بمهمة تحصيل الأجر إذا مـا قرر الزبون أن يهرب بعد أن يقضي حاجته. لقد صار القواد رجلاً وسيما محترما في ثياب كاملة، يجلس في مبنى فـاخر

خلاف مكتب فخيم، يدير حياته بأحدث أجهـزة الاتصـالات. وصار رجل أعمال، وصار "مافيا"، وصار محاميا، وصـار في كثير من الأحيان مؤسسة رسمية معترفًا بها.

ولنأخذ مصر كمثال لهذا التطور الذي حدث.. فمنذ بـدأ تنظيم البغاء بها في عام ١٨٨٢ وحتى ألغي نهائيا في عـام ١٩٤٩؛ كانت هناك صور عديدة بشعة لاستغلال البغايا مـن قبل القوادين. ولم يكن هناك قانون مصري يحرم القِـوادة أو التعيش من البغاء، إلا من خلال نص المـادة رقـم ٢ مـن القانون رقم ٢٤ لسنة ١٩٢٣ بشأن المتشردين والمشتبه فيهم؛ وهي المادة التي كانت تعتبر بعض المتشردين هـم "قـوادو النساء العموميات ". ويقول الدكتور محمد نيازي حتاتة فـي بحث حول "مستغلي البغاء" (القوادين)، قدمه إلـى المـؤتمر الدولي الثاني والعشرين لمكافحة البغاء في أثينا (عام ١٩٦٣) إن البغاء المنظم في مصر كان يجلب البغايا؛ سواء كن مـن المحرضات أو السريات.

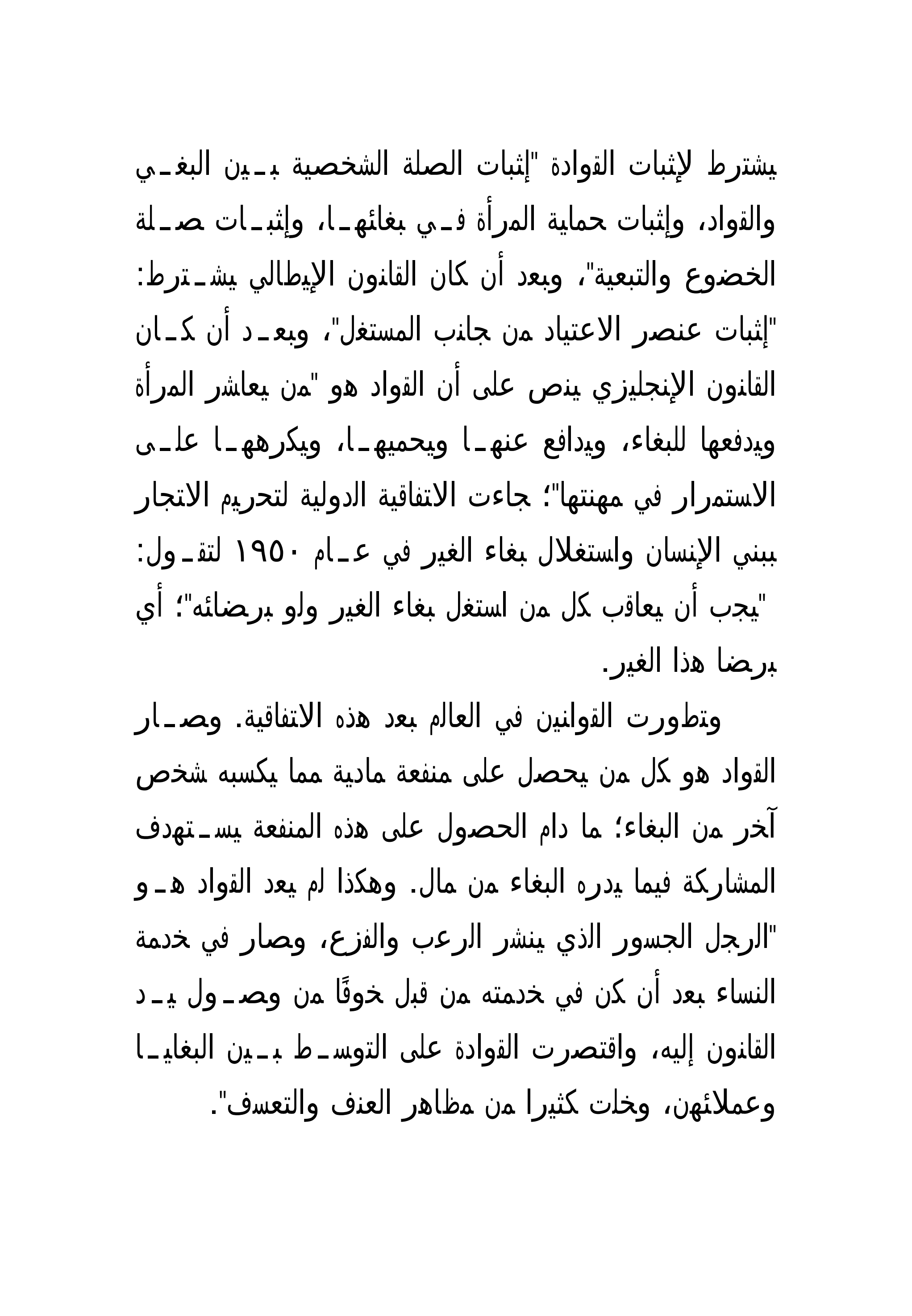
ويرصد أيضا: "لم تكن قوانين دخول الأجانب للـبلاد وإقامتهم فيها منظمة تنظيما كافيا؛ فكان يتدفق علـى مصـر الكثير من الفتيات الأوروبيات بقصد الإقامة، أو بقصد السفر



منها إلى بلاد الشرق وجنوب آسيا وأمريكا الجنوبية؛ سعيا وراء مهنة البغاء، وساعد على ذلك عصابات الاتجار بالرقيق الأبيض، التي كانت تدفع بالفتيات من أوروبا إلى خارجها بقصد البِغاء".

ويقول نيازي حتاتة: "لقد كان استغلال البغايا في مصر يتميز بعدة عناصر؛ هي: الإكراه، والعنف، والتهديد، والتعاون بين القوادين في تنظيم تجارتهم، ووقوف النساء المجني عليهم في جانب مستغليهن؛ برغم ما يصيبهن منهم من شر وبلاء. وحين فكرت الحكومة قبيل الحرب العالمية الثانية في إلغاء البغاء المنظم؛ كان لا بد من مواجهة استغلال البغاء من خلال طريقين؛ أولهما هو طريق قانون العقوبات؛ إذ تضمنت المادة ٢٧٣ من القانون الصادر في عام ١٩٣٧ نصا يقول: "كل من يعول في معيشته كلها أو بعضها على ما تكسبه امرأة من الدعارة؛ يعاقب بالحبس". وأما الطريق الثاني؛ فهو طريق إنشاء الحكومة لشرطة حماية الآداب في عام ١٩٣٧".

وقد تطورت النظرة إلى القوادين في أنحاء العالم مع بداية الخمسينيات.. فبعد أن كان قانون الرايخ الألماني

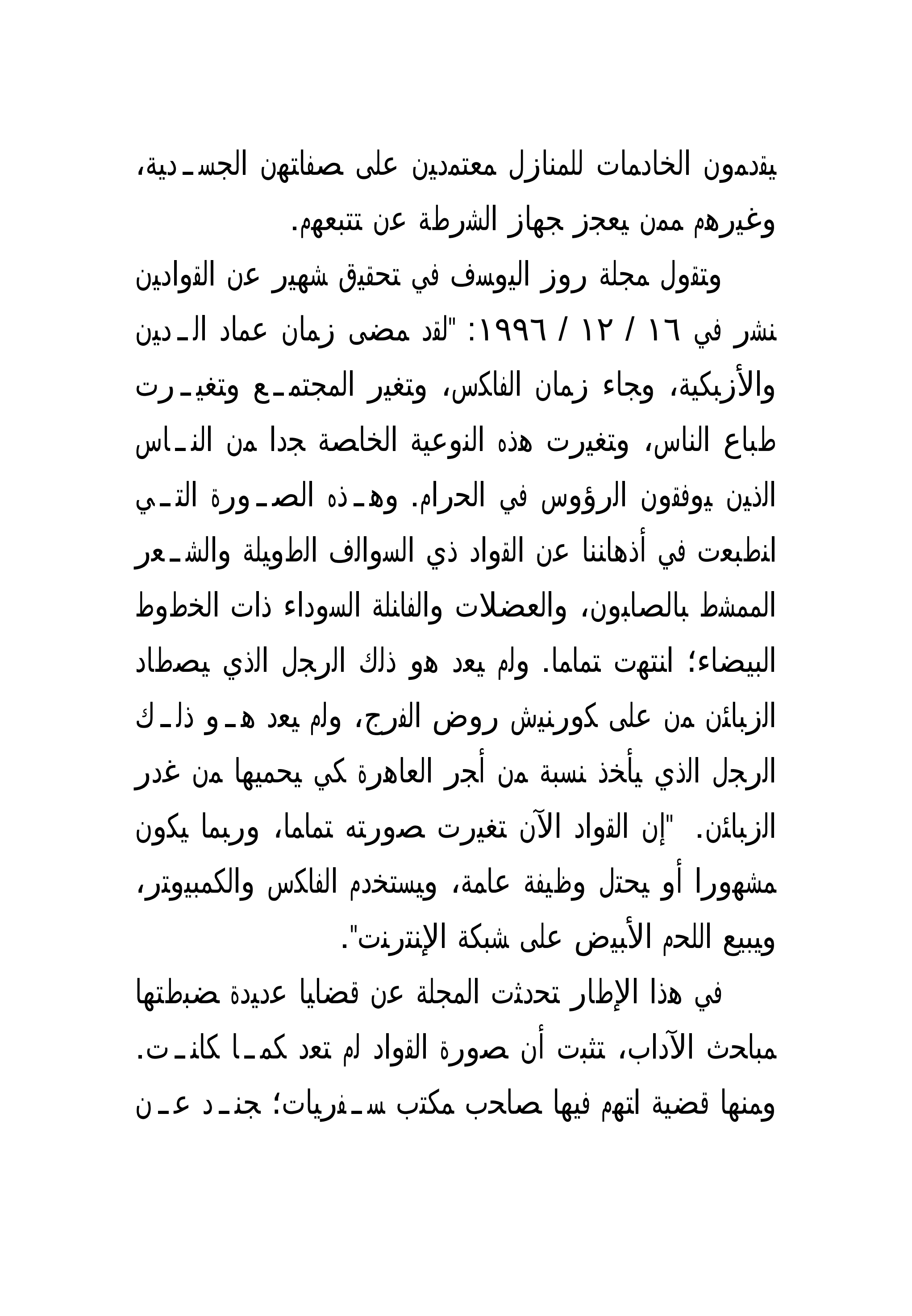


يشترط لإثبات القوادة "إثبات الصلة الشخصية بين البغي والقواد، وإثبات حماية المرأة في بغائها، وإثبات صلة الخضوع والتبعية"، وبعد أن كان القانون الإيطالي يشترط: "إثبات عنصر الاعتياد من جانب المستغل"، وبعد أن كان القانون الإنجليزي ينص على أن القواد هو "من يعاشر المرأة ويدفعها للبغاء، ويدافع عنها ويحميها، ويكرهها على الاستمرار في مهنتها"؛ جاءت الاتفاقية الدولية لتحريم الاتجار ببني الإنسان واستغلال بغاء الغير في عام ١٩٥٠ لتقول: "يجب أن يعاقب كل من استغل بغاء الغير ولو برضائه"؛ أي برضا هذا الغير.

وتطورت القوانين في العالم بعد هذه الاتفاقية. وصار القواد هو كل من يحصل على منفعة مادية مما يكسبه شخص آخر من البغاء؛ ما دام الحصول على هذه المنفعة يستهدف المشاركة فيما يدره البغاء من مال. وهكذا لم يعد القواد هو "الرجل الجسور الذي ينشر الرعب والفزع، وصار في خدمة النساء بعد أن كن في خدمته من قبل خوفًا من وصول يد القانون إليه، واقتصرت القوادة على التوسط بين البغايا وعملائهن، وخلت كثيرا من مظاهر العنف والتعسف".

ملامح التطور هذه يرصدها أيضا ياسر أيوب في كتابه "الانفجار الجنسي في مصر" حين يقول: "حتى وقت قريـب كنا نعرف أو نتخيـل أن القـوادين هـم بعـض البلطجيـة والمجرمين.. بعض بوابي العمـارات والبيـوت.. بعـض الحرفيين ومزاولي المهن اليدوية الوضيعة.. ثم دارت الأيام فانضم إلى قائمة القوادين في مصر اليـوم نـاظر مدرسـة إعدادية،وطبيب أمراض نساء، وسيدة أعمـال، ومحاميـة، ولواء شرطة سابق يدير بمنتهى القدرة والمهارة دعارة إحدى وستين فتاة".

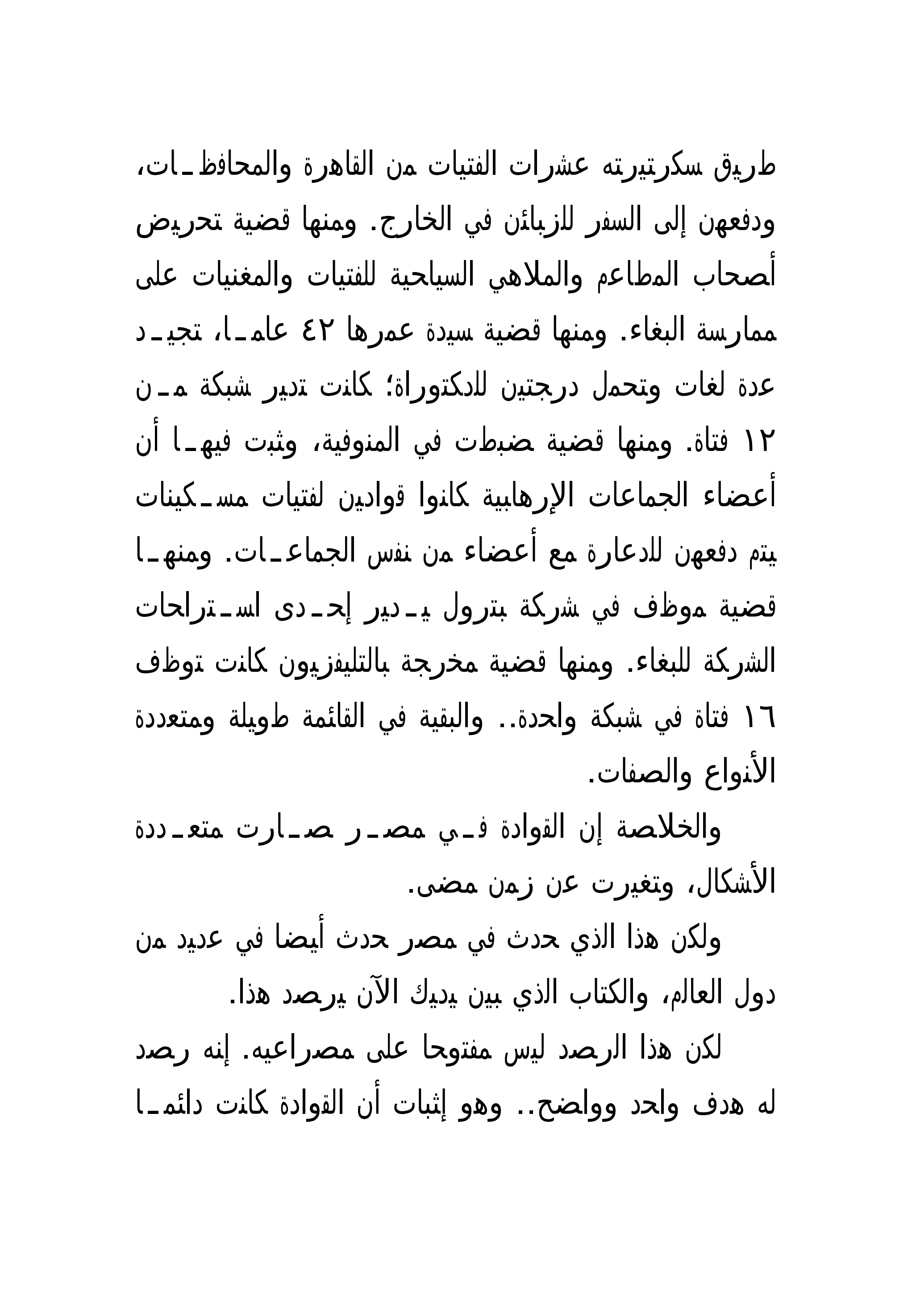
ولكن اللواء نيازي حتاتة يقول في بحثه السابق الإشارة إليه إن هناك أشخاصا صارت لهم أوضاع تسمح لهم بنشاط القوادة غير المباشر. ومنهم أصـحاب الكباريهـات الـذين يستخدمون فتيات كل رأس مالُهن هـو صـفاتهن الجسـدية وسمعتهن السيئة، وأصحاب المحال العامة الذين يسـتخدمون من يطلـق علـيهن وصـف المسـتدرجات للشـراب؛ أي الفتاحات.. فتاحات الزجاجات، وأصحاب بعـض مـدارس وأندية الرقص، وأصحاب بعض معاهـد التجميـل ومحـال التدليك وصالونات الحلاقة. وأصحاب مكاتب التخديم الـذين



يقدمون الخادمات للمنازل معتمدين على صفاتهن الجسـدية، وغيرهم ممن يعجز جهاز الشرطة عن تتبعهم.

وتقول مجلة روز اليوسف في تحقيق شهير عن القوادين نشر في ١٦ / ١٢ / ١٩٩٦: "لقد مضى زمان عماد الـدين والأزبكية، وجاء زمان الفاكس، وتغير المجتمـع وتغيـرت طباع الناس، وتغيرت هذه النوعية الخاصة جدا من النـاس الذين يوفقون الرؤوس في الحرام. وهـذه الصـورة التـي انطبعت في أذهاننا عن القواد ذي السوالف الطويلة والشـعر الممشط بالصابون، والعضلات والفانلة السوداء ذات الخطوط البيضاء؛ انتهت تماما. ولم يعد هو ذلك الرجل الذي يصطاد الزبائن من على كورنيش روض الفرج، ولم يعد هـو ذلـك الرجل الذي يأخذ نسبة من أجر العاهرة كي يحميها من غدر الزبائن. "إن القواد الآن تغيرت صورته تماما، وربما يكون مشهورا أو يحتل وظيفة عامة، ويستخدم الفاكس والكمبيوتر، ويبيع اللحم الأبيض على شبكة الإنترنت".

في هذا الإطار تحدثت المجلة عن قضايا عديدة ضبطتها مباحث الآداب، تثبت أن صورة القواد لم تعد كمـا كانـت. ومنها قضية اتهم فيها صاحب مكتب سـفريات؛ جنـد عـن



طريق سكرتيرته عشرات الفتيات من القاهرة والمحافظات، ودفعهن إلى السفر للزبائن في الخارج. ومنها قضية تحريض أصحاب المطاعم والملاهي السياحية للفتيات والمغنيات على ممارسة البغاء. ومنها قضية سيدة عمرها ٤٢ عاما، تجيد عدة لغات وتحمل درجتين للدكتوراة؛ كانت تدير شبكة من ١٢ فتاة. ومنها قضية ضبطت في المنوفية، وثبت فيها أن أعضاء الجماعات الإرهابية كانوا قوادين لفتيات مسكينات يتم دفعهن للدعارة مع أعضاء من نفس الجماعات. ومنها قضية موظف في شركة بترول يدير إحدى استراحات الشركة للبغاء. ومنها قضية مخرجة بالتليفزيون كانت توظف ١٦ فتاة في شبكة واحدة.. والبقية في القائمة طويلة ومتعددة الأنواع والصفات.

والخلاصة إن القوادة في مصر صارت متعددة الأشكال، وتغيرت عن زمن مضى.

ولكن هذا الذي حدث في مصر حدث أيضا في عديد من دول العالم، والكتاب الذي بين يديك الآن يرصد هذا.

لكن هذا الرصد ليس مفتوحا على مصراعيه. إنه رصد له هدف واحد وواضح.. وهو إثبات أن القوادة كانت دائما

وأبدا وليدة ظروف سياسية واجتماعية، وأنها في كثير من الأحيان صنيعة السياسيين. وأنها في أحيان أكثر كانت وسيلة للتربح السياسي والتكسب المالي. وأنها كانت غالبا إما ناتجة عن قرار سياسي، أو تنظيما من أجل خدمته.

وسبب هذه الفرضية التي حققها الكتاب من خلال وقائع عديدة في مختلف دول العالم؛ هو أنني وجدت من خلال قراءة تاريخ الدعارة أنه دائما ما يكون هناك سياسيون (بشكل مباشر أو غير مباشر) استفادوا أو تورطوا أو خلقوا الظروف والبيئات التي سمحت بنمو الظاهرة؛ سياسيون أصحاب مواقع وأصحاب نظريات، ولهم قدرة على إصدار القرارات، بعضهم لم يتورع عن إنشاء شبكات، وبعضهم لم يتورع عن أن يسقط في غياهب منظمات أنشأها سياسيون غيرهم.

وأسانيد هذه الفكرة عديدة؛ فلو أنك راجعت ملف قضية الجاسوس الإسرائيلي عزام عزام (الذي ضبط في مصر عام ١٩٩٦، وأثارت قضيته ضجة كبرى وتوترا رهيبا في العلاقات بين القاهرة وتل أبيب)؛ سوف تكتشف

أن عزام كان قوادا جند فتاتين للإيقاع بجاسوس مصري اسمه عماد عن طريق الدعارة.

ولو أنك راجعت قضية كريستين كيلر التي جرت وقائعها في الستينيات في بريطانيا، وسقط في أوحالها وزير مرموق في الحكومة البريطانية؛ فسوف تكتشف أن هذه الفتاة الصاروخ التي هزت الدولة كانت لعبة في يد قواد إنجليزي كان بدوره لعبة في يد قواد سوفيتي.

ولو أنك راجعت عديداً من ملفات وقصص أجهزة التخابر في العالم؛ سوف تجد أن المهام القذرة، وأبرزها القوادة من أهم أنشطة هذه الأجهزة.. والهدف في النهاية هو تحقيق أغراض سياسية.

ولو أنك قرأت ملف القضية التي حسمتها المحكمة التأديبية العليا في مصر في عام ١٩٩٧ ضد موظف عام كبير ومعروف (هو ممدوح الليثي)؛ فسوف تعرف كيف يمكن للأحكام أن تدين سياسيا مسئولاً لتضعه في خانة معينة.

وعلى الرغم من أن هذا المسئول لم يضبط في قضية آداب؛ فإن هناك مسئولاً آخر تم ضبطه مرتين في قضيتي

آداب، وكانت صفته هي دوما وكيل وزارة الصناعة، ومدير الشبكة وقوادها.

ولو أنك اطلعت على ملف قضية ميمي شـكيب، ومـا حدث في مصر من خلالها (عقب انتهـاء حـرب أكتـوبر) لأدركت إلى أي مدى وفي أي اتجاه يمكن توظيف شـبكات الدعارة لخدمة أغراض السياسة بوضوح من خلال القوادين.

ولو أنك أعدت فحص ملف انهيار الاتحاد السوفيتي، ثم نشوء المافيا القوية التي احتلـت بنفوذهـا مواقـع الحـزب الشيوعي الذي كان، وكيف وظِفت النسـاء والفتيـات فـي صناعة طويلة عريضة لبيع الجنس؛ لأدركت إلى أي مـدى يمكن أن تسهم السياسة في خلق حالة القواد المتـربح مـن السياسة.

ولو أنك راجعت ملف الزواج العرفـي فـي مصـر، وقرأت كيف لعب سماسرة الـزواج الـوهمي دورا هـائلاً وبارزا في بيع النساء من خلال عقود حلال؛ لعرفت كيـف فاز هؤلاء القوادون المستترون بمزيد من المال بسبب أزمة اجتماعية وسياسية.

ولو أنك اطلعت على ملف المهـاجرين إلـى فرنسـا، وكيف يتحولون إلى ضحايا في مجتمع النور والنار؛ لأدركت كيف يستفيد القوادون من أوضاع قانونية وسياسية عقيمـة، وكيف تتحول العنصرية إلى وقود يـدير ماكينـة الـدعارة الضخمة... والأمثلة تتوالى، ولن تتوقف.

وهدف هذا الكتاب هو رصد تلك الأمثلة وهذه الظاهرة المعقدة؛ ظاهرة التـربح السياسـي مـن الـدعارة، ونمـو إمبراطورية القوادين في أنحاء العالم، وكيف انحلت الصفوة التي يفترض فيها التميز والسمو، كما يتوهم الفقراء وأبنـاء الطبقة الوسطى، وكيف سقطوا في بئر الضـياع الأخلاقـي لصالح تحقيق غرض ما دون أن يعانوا كثيرا مـن سـلطة القانون.

وربما يتضح لك خلال قراءة هذه الأمثلـة ("الملفـات") كيف تطورت الدعارة تاريخيا خلال السنوات الأخيـرة فـي مصر والعالم.

عبد ا   كمال

فبراير ١٩٩٨

1

القوادون..جنس رابع!

"سمسار، عديم الموهبـة، جلده سميك، يمكن أن تُغرس فيه ملايين من إبر القـيم والشـرف، دون أن يتحرك، أو حتى يشـعر بشيء"

كيف يصبح الرجل، أو المرأة، قوادا؟

ليس هذا السؤال عرضا لأحد كي يمارس هذا المهنـة الوضيعة، ولن يكون هذا الفصـل التـالي كتالوجـا نقدمـه لمساعدة بعض الناس في سلوك هذا الطريق.. فهم ليسوا في حاجة لهذا؛ وإنما هو محاولة لفهم هذا الأسلوب في الحيـاة، وهذا النوع من البشر، وهذا النمط الذي لا يمكن أن يتحلـى بصفات النخوة.. إنه مـن التحليـل النفسـي والاجتمـاعي والسياسي لظاهرة إنسانية مرفوضة، ولكنها موجودة دائما.

والقواد اسم يدل على نوع من الناس، جاء مـن الفعـل يقود.. والفعل معناه واضح.. فيه تعبيـر عـن التحريـك.. تحريك الآخرين في اتجاه معين.. خاصة الأخريـات.. دون أن تكون حدود المعنى قاصرة فقط عليهم.. فالفعل في النهاية يعني تحريك الآخرين في اتجاه الأخريات والعكس. لكن هذا المعنى اللغوي لا يفي بالمفهوم الاجتمـاعي للكلمـة التـي صارت تعني أن هناك مكسبا من وراء هذه "القيادة"، وبالتالي فإن فعل القواد لا يقف عند هذا السقف الحركي فـي اتجـاه

توفيق الرءوس في الحرام، وإنما يمتد أيضا إلى التربح الناتج عن هذه القوادة.

وعلى الرغم من أن المفهوم الاجتماعي للكلمة جعلهـا قاصرة فقط على سوق الجنس ومجال الدعارة؛ إلا أن المعنى اللغوي كان ولم يزل له آفاق عديدة.. أوحت بأن هذه القوادة لا تقف فقط عند هذه النقطة؛ فهي تعني أيضا أن يقوم فرد ما أو جماعة من الناس بقيادة آخرين في اتجاه ما لصالح تحقيق غرض ما.. بمعنى آخر إنه يمكـن أن يمتـد معنـى كلمـة "القوادة" إلى ما هو أبعد وأكثر شمولاً.. وبما يعني أن الكلمة يمكن أن تدخل في إطارها أنشطة إنسانية مختلفة وكثيرة.

لكن المفهوم الاجتماعي للكلمة هـو الـذي أنقـذ هـذه الأنشطة المتنوعة من أن تقع تحت هذا البند الجنسي الداعر، خاصة أنه يمكن – وفق المعنى اللغوي الواسـع – اعتبـار عمل أجهزة الإعلام نوعا من هذا.. فهي تقود الرأي العـام لاتجاه ما.. ويمكن اعتبار عمل السياسيين نوعا مـن هـذا.. لأنهم يقودون الشعوب لاتجاه ما.. ويمكن اعتبـار سماسـرة البورصة نوعا من هذا.. لأنهم يقودون المتعاملين لاتجاه ما..

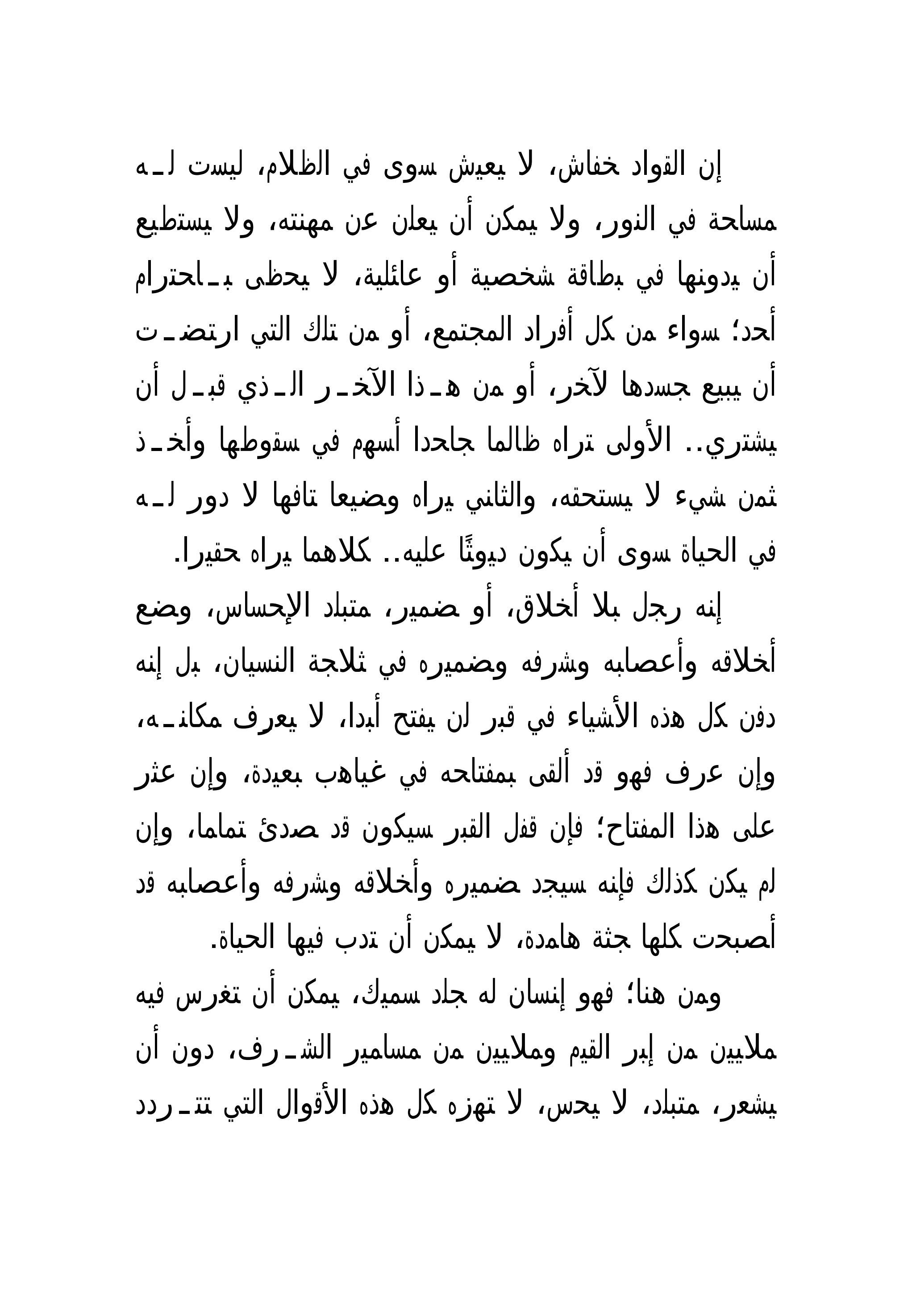
وهكذا تتنوع الأنشطة التي يمكن أن تقع تحت هذا البند. لكن المفهوم الاجتماعي للكلمة هو الذي يجعل لها سقفًا معينًا، وهو الذي يجعل هناك فرقًا واضحا بين القيـادة والقـوادة.. خاصة إذا وضعنا خطًا فاصلاً بين العمل الإنساني الراقـي، وبين العمل الإنساني المنحط.. بين هذا الذي يقـود لخدمـة أغراض نبيلة، دون أن يحقق هو مكسبا شخصيا، وهذا الذي يقود لأنه احترف هذه المهنة، وأدمن هذا السلوك، وصـارت وسيلة بقائه في الحياة بين عناصر المجتمع البشري.

وعلى الرغم من أن هناك فرقًا واضـحا، إلا أن هـذا الفرق لا يتعدى الخيط الرفيع الذي يمكن أن يقطـع فـي أي لحظة، ويمكن أيضا أن يبقى متينًا مدى الحياة.. وفي ثانيـة يمكن أن يتلاشى لتتحول القيادة إلى قواده.. وفي لحظة يمكن أن تبقى القيادة.. قيادة ذات هدف نبيل.

بجانب هذا المفهوم الحركي؛ فإن هناك صفات أخـرى في القواد تجعله بعيدا تمام البعد عن القائد. هذه الصفات كلها بذيئة بالطبع؛ وهي صفات تجعل من القائد شخصـا مختلفًـا تماما عن الديوث. لأن الأخير خلال سلوكه المعروف يلتزم بوضوح بصفة الساكت عن الحـق، الشـيطان الأخـرس،

الصامت، ويلتزم بصفة الكذب، المتربح من الحرام، النائم في العسل، الذي يقبل أن يقف بالباب حارسا إجـراءات المتعـة غير المقبولة، القابل دائما للإهانة والوضاعة، المتخلي عـن النخوة.

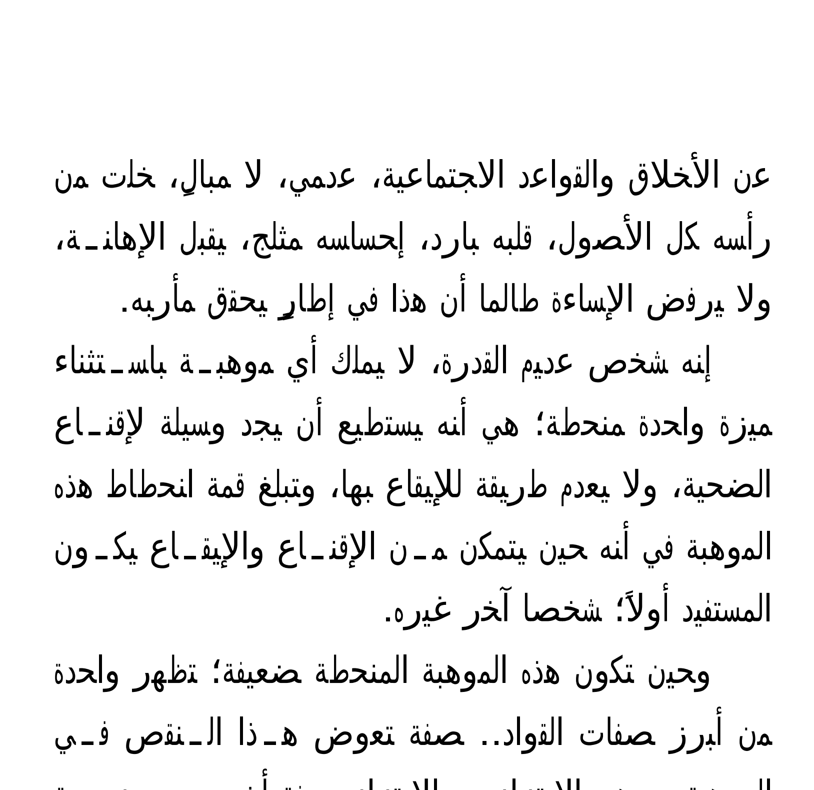
والقواد نوع مـن السماسـرة (مـع احترامـي لمهنـة الوسطاء)؛ رجل يحصل على نسبة من ثمن بيـع الأجسـاد، يختلف عن هذا السمسار الذي يتوسط في بيع البضائع وعقد الصفقات في أنه يتعامل فقط في سلعة لا يجوز بيعها وفـق كل الأعراف والتقاليد؛ وهي الجسد. إن الوسيط المقبول يبذل جهدا في البحث عن طرف بائع وطرف مشترٍ، ويبذل جهدا في الوصول إلى البضاعة المقبولة، والوصول إلـى السـعر الذي يتم التراضي عليه، بينما القواد يبيع طرفًا إلى طـرف، ويقبل أن يجني ربحه من عرق الآخرين دون مجهود منـه. وفي حين أن الوسيط العادي يمكن أن يقبل هذا العمـل فـي العلن؛ فإن القواد وضيع خفي يعمل سرا، وفي حين يوافـق الوسيط على أن يوقع عقدا بما تم الاتفاق عليه؛ فإن القواد لا يمكن أن يقبل هذا على الإطلاق.



إن القواد خفاش، لا يعيش سوى في الظلام، ليست لـه مساحة في النور، ولا يمكن أن يعلن عن مهنته، ولا يستطيع أن يدونها في بطاقة شخصية أو عائلية، لا يحظى بـاحترام أحد؛ سواء من كل أفراد المجتمع، أو من تلك التي ارتضـت أن يبيع جسدها لآخر، أو من هـذا الآخـر الـذي قبـل أن يشتري.. الأولى تراه ظالما جاحدا أسهم في سقوطها وأخـذ ثمن شيء لا يستحقه، والثاني يراه وضيعا تافها لا دور لـه في الحياة سوى أن يكون ديوثًا عليه.. كلاهما يراه حقيرا.

إنه رجل بلا أخلاق، أو ضمير، متبلد الإحساس، وضع أخلاقه وأعصابه وشرفه وضميره في ثلاجة النسيان، بل إنه دفن كل هذه الأشياء في قبر لن يفتح أبدا، لا يعرف مكانـه، وإن عرف فهو قد ألقى بمفتاحه في غياهب بعيدة، وإن عثر على هذا المفتاح؛ فإن قفل القبر سيكون قد صدئ تماما، وإن لم يكن كذلك فإنه سيجد ضميره وأخلاقه وشرفه وأعصابه قد أصبحت كلها جثة هامدة، لا يمكن أن تدب فيها الحياة.

ومن هنا؛ فهو إنسان له جلد سميك، يمكن أن تغرس فيه ملايين من إبر القيم وملايين من مسامير الشـرف، دون أن يشعر، متبلد، لا يحس، لا تهزه كل هذه الأقوال التي تتـردد



عن الأخلاق والقواعد الاجتماعية، عدمي، لا مبالٍ، خلت من رأسه كل الأصول، قلبه بارد، إحساسه مثلج، يقبل الإهانة، ولا يرفض الإساءة طالما أن هذا في إطارٍ يحقق مآربه.

إنه شخص عديم القدرة، لا يملك أي موهبة باستثناء ميزة واحدة منحطة؛ هي أنه يستطيع أن يجد وسيلة لإقناع الضحية، ولا يعدم طريقة للإيقاع بها، وتبلغ قمة انحطاط هذه الموهبة في أنه حين يتمكن من الإقناع والإيقاع يكون المستفيد أولاً؛ شخصا آخر غيره.

وحين تكون هذه الموهبة المنحطة ضعيفة؛ تظهر واحدة من أبرز صفات القواد.. صفة تعوض هذا النقص في الموهبة.. وهي الابتزاز.. والابتزاز صفة أخرى وضيعة تجعل الأضعف في يد الأقوى من خلال تأثير الأخير على نقطة ضعفه. وقد يكون هذا الابتزاز أحيانًا فضيحة يهدد بها القواد الداعرة؛ شيئًا تدمنه. وقد يكون في بعض الأحيان ضغطًا بالقوة، وتهديدا بالتشويه لإجبار الساقطة على أن تنفذ ما يريده منها.

وبعض القوادين، خاصة هذا النموذج الكلاسيكي الذي كان متعارفًا عليه من قبل، يملك القوة والتأثير. لديه مساحة

ما من البطش (فهو كلاب طريق) يستطيع بها أن يجد مشتريا لبضاعته الوضيعة، على أن يدفع، وألا يفـر بعـد أن ينـال مأربه، ويستطيع به أن يحمي نساءه ويدافع عنهن ضـد أي من كلاب الطرق الأخرى.. ليس لأن به بعض نخوة، ولكن لأنه لا يوافق أبدا على أن تمر امرأة تابعة له مـن قبضـته، ولا يقبل بتاتًا خروجها عن سطوته. ومن هنا فهو شخصـية مسيطرة.. ومن هنا أيضا فإننا نعود إلى التـذكير بـالمعنى اللغوي لاسمه؛ "القواد".

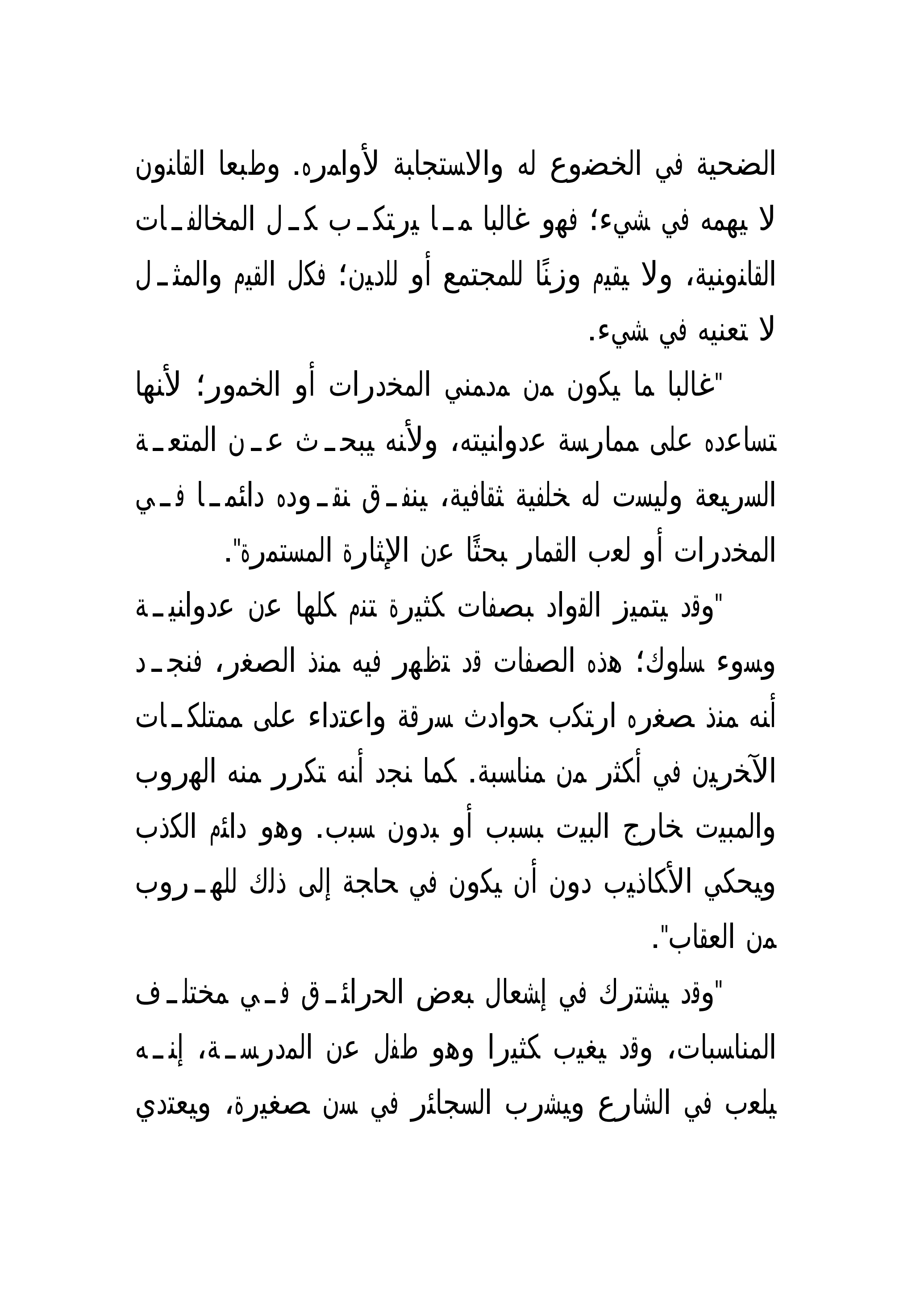
ومن المؤكد أنه إنسان كاره للمجتمـع، كـاره للنـاس، لا يقبل الصيغة التي ارتضوها للحياة، ولا يقبل قيم وأخلاق هذه الصيغة، يصر على أن يجبر كل من تقع يده عليه علـى أن يدخل دائرة الانحطاط؛ سواء الرجل أو المـرأة.. لكـن المؤكد أن كراهيته للمرأة أشد وأعظم. إلا أننا حين نرى هذه الكراهية ضد البائع وضد المشتري، والتي تنعكس في صورة الصفقة التي يعقدها؛ نظن أنه يتحول إلى جنس آخر رابـع.. جنس لا هو رجل، ولا هو امرأة، ولا هو شاذ.. بين بـين.. وإنما هو نوع يختلف عن الثلاثة، ويجد نفسه بعيدا عن كـل صفات هذا وذاك وتلك.

والجنس الرابع نوع من الشواذ، ضائع، ليست له صفة أنثربولوجية، أو فسيولوجية مقبولة من أي مجتمـع؛ فعلـى الرغم من أن الشواذ غير مقبولين في عديد من المجتمعات؛ إلا أن هناك دولاً تعترف بهم، بينما القواد لا يجد من يقـره على ما يقوم به في أي بقعة من بقاع العالم علـى مسـتوى الجغرافيا، أو في أي فترة من الزمن على مستوى التاريخ.. ومن هنا فهو ضائع.. لقيط.. تائه.. غير منتمٍ.. مرفـوض.. ملفوظ على كل المستويات... ورغم ذلك فهو موجود.

إن هذه هي بعض أفكاري حول طبيعة شخصية القواد. وهي أفكار يمكن أن تدعمها أفكار أخـرى، حاولـت رسـم صورة القواد؛ نُشرت في مجلة روز اليوسف في عـدد ١٦ ديسمبر ١٩٩٦، تحت عنوان "القوادون"، وترصد مدى تغير الصورة التي كان عليها القواد في الماضي، والتـي صـار عليها الآن. وفيها يحلل الدكتور ممتاز عبد الوهاب شخصية القواد من منظور داخلي، من منظور أعماقـه، خاصـة أن الدكتور ممتاز عبد الوهاب هو أسـتاذ الأمـراض النفسـية والعصبية في كلية طب قصر العيني..

إنه يقول: "القواد إنسان منحرف نفسيا، متبلد الأحاسيس، يتميز بجمود المشاعر. يفتقد الغيرة والحب، ويتاجر في كل شيء خصوصا الجنس، ولا يهمه شيء سوى الحصول على الفلوس؛ ولهذا فهو إنسان سيكوباتي. القيم والمبادئ لا تشغل باله. ولا يهتم بها. كما أنه لا يحس بخطئه. أو بأنه يرتكب أي إثم إزاء ما يقوم به من عمل مزر (وهو تسهيل ارتكاب جرائم الزنى أو الدعارة لغيره مقابل المال)، الضمير عنده ميت لا يحاسبه على أي شيء، ولا يشعر بأي تأنيب للضمير. إن شخصيته مغامرة؛ فهو يخاطر بنفسه وبالآخرين، ولا ينظر سوى للمقابل المادي".

"والقواد قد يتسم بالقوة الشديدة، يعتدي بالضرب ويسيء معاملة النساء اللاتي يتعاملن معه. وقد يصل به الأمر إلى الإساءة لهن إذا عصين أمره. وقد يصل به الأمر إلى تشويههن أو حتى قتلهن عقابا لهن إذا خرجن عن طاعته، وحتى يكن للأخريات عبرة؛ فهو يلجأ إلى تخويفهن وإشاعة الرعب منه حتى يستسلمن لأوامره ويطِعنَه. قد يرسم الوداعة والحب، ويتكلم بكلمات معسولة في أول الأمر حتى يوقع ضحيته، ثم بعد ذلك يكشف عن الوجه الآخر حتى تستمر



الضحية في الخضوع له والاستجابة لأوامره. وطبعا القانون لا يهمه في شيء؛ فهو غالبا مـا يرتكـب كـل المخالفـات القانونية، ولا يقيم وزنًا للمجتمع أو للدين؛ فكل القيم والمثـل لا تعنيه في شيء.

"غالبا ما يكون من مدمني المخدرات أو الخمور؛ لأنها تساعده على ممارسة عدوانيته، ولأنه يبحـث عـن المتعـة السريعة وليست له خلفية ثقافية، ينفـق نقـوده دائمـا فـي المخدرات أو لعب القمار بحثًا عن الإثارة المستمرة".

"وقد يتميز القواد بصفات كثيرة تنم كلها عن عدوانيـة وسوء سلوك؛ هذه الصفات قد تظهر فيه منذ الصغر، فنجـد أنه منذ صغره ارتكب حوادث سرقة واعتداء على ممتلكـات الآخرين في أكثر من مناسبة. كما نجد أنه تكرر منه الهروب والمبيت خارج البيت بسبب أو بدون سبب. وهو دائم الكذب ويحكي الأكاذيب دون أن يكون في حاجة إلى ذلك للهـروب من العقاب".

"وقد يشترك في إشعال بعض الحرائـق فـي مختلـف المناسبات، وقد يغيب كثيرا وهو طفل عن المدرسـة، إنـه يلعب في الشارع ويشرب السجائر في سن صغيرة، ويعتدي

ويكسر أشياء ليست ملكه؛ فهو يميل إلى إيذاء الآخرين دون أن يعرفهم، وقد يظهر مسلكًا عدوانيا ضد الحيوانات؛ فنـراه يمسك بالقطط والكلاب ويعذبها ويضربها، وقد يستمتع بقتلها. وأحيانًا يفعل هذا مع الطيور، كما أن سلوكه الجنسي قد يبدأ مبكرا؛ فهو قد يعتدي جنسيا على الأطفال الآخرين، وأحيانًـا ما يكون هو ضحية للاعتداء الجنسي ممن هم أكبر منه سنًا، وقد يمارس عمليات الاغتصاب وإجبـار الآخـرين علـى ممارسة الجنس معه باستخدام القوة أو التهديد بها".

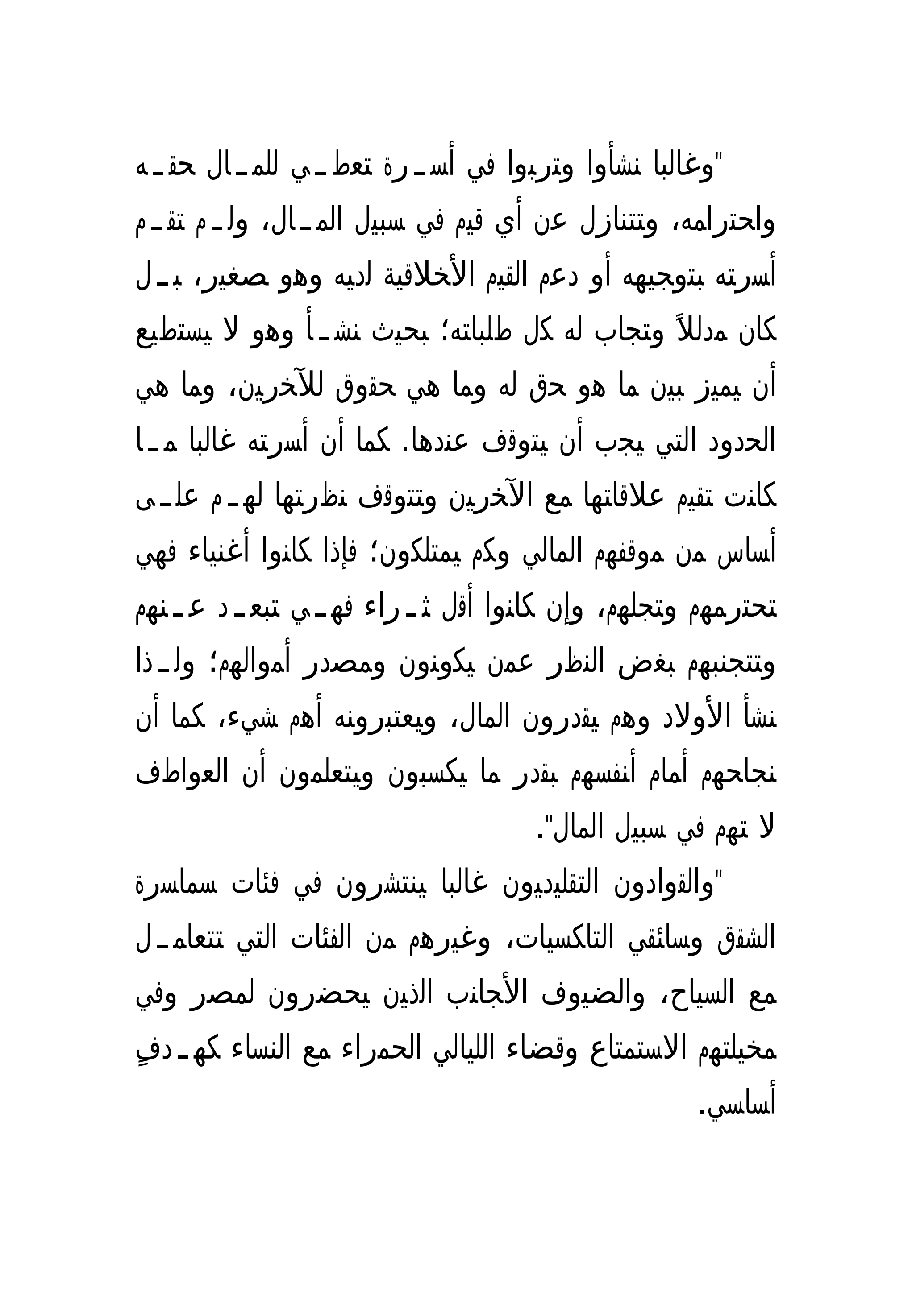
"وهو سهل الاستثارة؛ فدائما ما يتشاجر مـع الآخـرين ويعتدي عليهم بالكلام، ولكنه يفضل دائما التشاجر باليـدين، ويظْهر شراسة في التصرف مع الآخرين.

والقواد الآن أصبح لا يحتفظ بشكله التقليـدي؛ كـالفتوة الذي يحمي الراقصات أو المومسات كما يظهر في الأفـلام. ولكننا الآن نرى نوعا جديدا من القـوادين الـذين يهتمـون بمظهرهم العام، فيرتدون أشيك الملابس، ويركبـون أحـدث السيارات، ويستخدمون أحـدث وسـائل الاتصـالات مـن تليفونات وفاكسات وحتى شبكة الإنترنـت، وهنـاك أحيانًـا عصابات ومافيا منظمة لتجارة الرقيق".

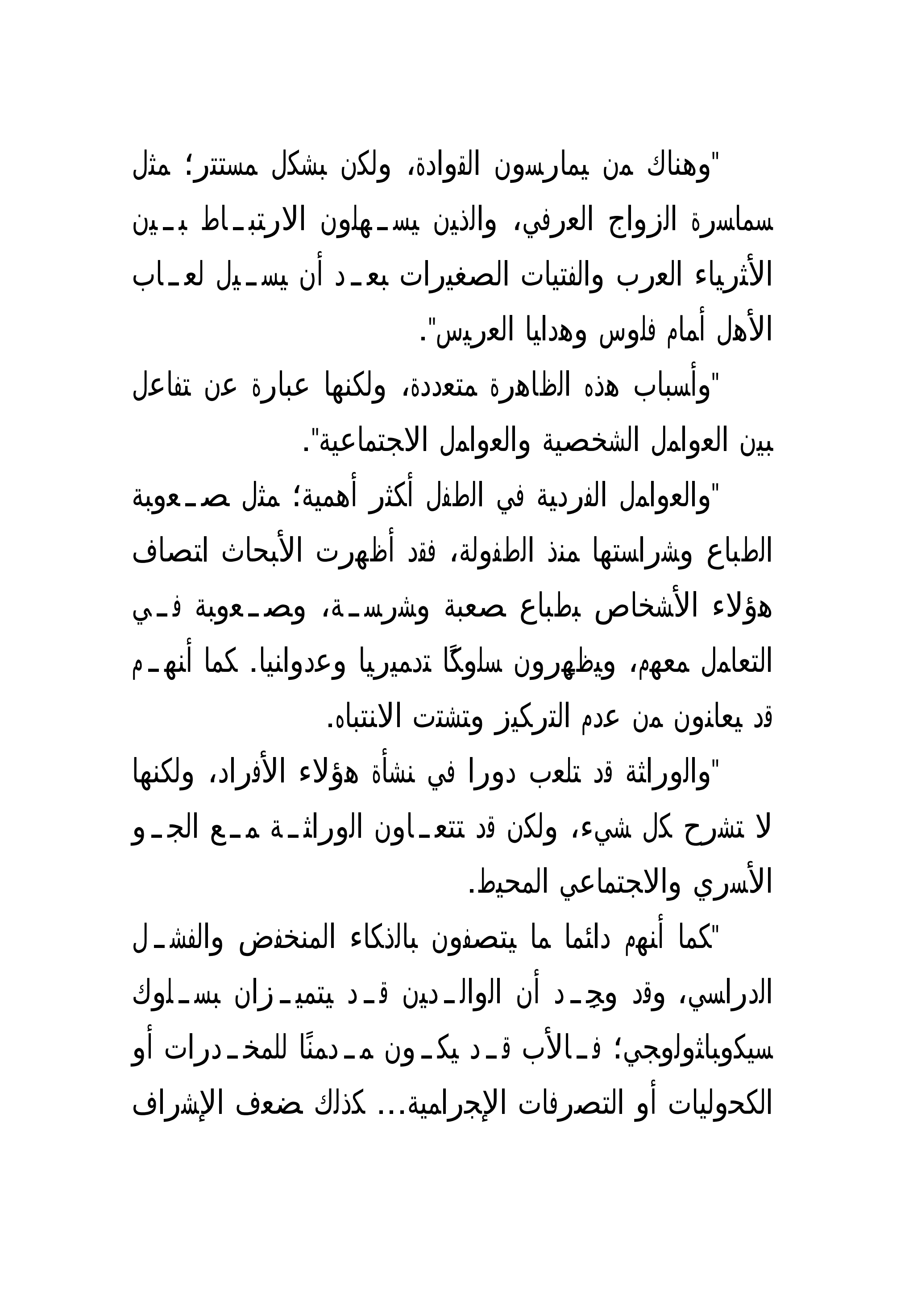
"كل هذا يضفي على بضاعتهم الصورة التي يحبونها حتى يحصلوا على أكبر مقابل، وهناك طبقات لا تتعامل إلا مع المستوى الراقي من كبار رجال الأعمال وذوي المناصب الوجيهة، وقد تضم هذه الشبكات نجوم المجتمع؛ مثل بعض الممثلات أو الراقصات اللاتي يحلم بهن الجميع، ويتمنى قضاء بعض الوقت معهن".

"وهناك نوع من القوادين لا يبحث عن الفائدة المادية المباشرة، ولكنه يبحث عن تدعيم صفقاته وعلاقاته؛ مثل بعض رجال الأعمال الذين يحيطون أنفسهم ببعض السكرتيرات اللاتي يتميزن بالشياكة والجمال والأناقة، وقد يقدمهن إلى المتعاملين معه، ويسهل لهن قضاء أوقات للمتعة الحرام في مقابل تسهيلات وصفقات وأشياء أخرى.

"هذا النوع من القوادين من الأغنياء؛ يتميزون بالطمع الشديد والجشع، يحبون المال، ويشعرون بعدم الأمان نتيجة القلق النفسي وعدم الإحساس بالاطمئنان؛ فيسعون إلى محاولة كسب أي مبالغ مالية، حتى ولو عن طريق غير شريف؛ فهؤلاء لا يرون إلا مصلحتهم، ويتصفون بضعف الضمير والأنانية الشديدة، وبضعف القيم والأخلاق عندهم.


"وغالبا نشأوا وتربوا في أسـرة تعطـي للمـال حقـه واحترامه، وتتنازل عن أي قيم في سبيل المـال، ولـم تقـم أسرته بتوجيهه أو دعم القيم الأخلاقية لديه وهو صغير، بـل كان مدللاً وتجاب له كل طلباته؛ بحيث نشـأ وهو لا يستطيع أن يميز بين ما هو حق له وما هي حقوق للآخرين، وما هي الحدود التي يجب أن يتوقف عندها. كما أن أسرته غالبا مـا كانت تقيم علاقاتها مع الآخرين وتتوقف نظرتها لهـم علـى أساس من موقفهم المالي وكم يمتلكون؛ فإذا كانوا أغنياء فهي تحترمهم وتجلهم، وإن كانوا أقل ثـراء فهـي تبعـد عـنهم وتتجنبهم بغض النظر عمن يكونون ومصدر أموالهم؛ ولـذا نشأ الأولاد وهم يقدرون المال، ويعتبرونه أهم شيء، كما أن نجاحهم أمام أنفسهم بقدر ما يكسبون ويتعلمون أن العواطف لا تهم في سبيل المال".

"والقوادون التقليديون غالبا ينتشرون في فئات سماسرة الشقق وسائقي التاكسيات، وغيرهم من الفئات التي تتعامـل مع السياح، والضيوف الأجانب الذين يحضرون لمصر وفي مخيلتهم الاستمتاع وقضاء الليالي الحمراء مع النساء كهـدفٍ أساسي.



"وهناك من يمارسون القوادة، ولكن بشكل مستتر؛ مثل سماسرة الزواج العرفي، والذين يسهلون الارتباط بين الأثرياء العرب والفتيات الصغيرات بعد أن يسيل لعاب الأهل أمام فلوس وهدايا العريس".

"وأسباب هذه الظاهرة متعددة، ولكنها عبارة عن تفاعل بين العوامل الشخصية والعوامل الاجتماعية".

"والعوامل الفردية في الطفل أكثر أهمية؛ مثل صعوبة الطباع وشراستها منذ الطفولة، فقد أظهرت الأبحاث اتصاف هؤلاء الأشخاص بطباع صعبة وشرسة، وصعوبة في التعامل معهم، ويظهرون سلوكًا تدميريا وعدوانيا. كما أنهم قد يعانون من عدم التركيز وتشتت الانتباه.

"والوراثة قد تلعب دورا في نشأة هؤلاء الأفراد، ولكنها لا تشرح كل شيء، ولكن قد تتعاون الوراثة مع الجو الأسري والاجتماعي المحيط.

"كما أنهم دائما ما يتصفون بالذكاء المنخفض والفشل الدراسي، وقد وجِد أن الوالدين قد يتميزان بسلوك سيكوباثولوجي؛ فالأب قد يكون مدمنًا للمخدرات أو الكحوليات أو التصرفات الإجرامية... كذلك ضعف الإشراف

الأسري، وضعف سيطرة الوالدين اللذين يتصفان بالسلبية والعدوانية والإهمال، وإذا انتشرت المشاكل الزوجية بين الوالدين، أو تفككت الأسرة، أو حدث طلاق، أو كانت العلاقة بين الوالدين سيئة.

"كما تكثر في حالات عدم عمل الوالدين مع كثرة الأطفال وانخفاض المستوى الاجتماعي، ويتصفون بسوء العلاقة مع الوالدين، كما أنهم يعانون من شدة التسلط من الوالدين، وطرق العقاب القاسية؛ فنجد بعض الآباء يستخدمون منتهى القسوة في عقاب أبنائهم فيلجأون إلى تكتيفهم أو كيهم باستخدام أشياء ساخنة؛ فيتولد في الأطفال الميل إلى العنف والقسوة".

"والمكان الذي يتربى فيه الطفل يلعب دورا في تشكيل شخصيته. فالانحرافات تكثر في المدن الصناعية عنها في المدن الصغيرة، وفي المدن الصغيرة أكثر من المناطق الريفية التي يقل فيها الانحراف.

"ويكثر الانحراف في الأماكن المزدحمة والمتدنية اجتماعيا؛ مثل المناطق العشوائية، ولهذا فنحن نجد أن القواد قد يعاني من بعض المشاكل والاضطرابات النفسية؛ فهو قد

يعاني من الإدمان، كما قد يكون عرضـة للآثـار النفسـية للمخدرات أو الخمور التي قد تصيبه بالبارانويا؛ فيخاف مـن الآخرين، ويتوقع أن هناك من يراقبه أو يحاول إيذاءه؛ سواء من زبائنه أو من النساء اللاتـي يتعامـل معهـن، أو مـن البوليس؛ فيصاب بداء الشك".

"كما أنه نتيجة مشاجراته الكثيرة قد يصاب في رأسـه، مع الآثار النفسية المترتبة على ذلك؛ فقد يصاب بالصداع أو التشنجات، أو النسيان واضطراب الذاكرة.

"وقد يصاب بالاكتئاب في أي فترة من حياتـه، عنـدما يستيقظ ضميره ويشعر بفداحة الجرم الذي ارتكبه؛ خصوصا إذا أصابه مرض، أو شعر بخطـر معـين اضـطره إلـى الاقتراب من الدين وصحوة الضمير، ويندم على ما فعلـه، ويصاب بتأنيب الضمير".

"أما ضحايا القواد أو السيدات اللاتي يعملـن بالـدعارة فهن مختلفات؛ فمنهن المريضات النفسيات اللاتي لجأن لهـذا الطريق نتيجة مرضهن النفسي؛ فهناك المصابات بالفصـام البسيط، وهن يتصفن بتبلد المشاعر، وانعدام الدافع والهـدف في الحياة، وهناك المنحرفات نفسيا نتيجة التفكك الأسـري،

والظروف الاجتماعية؛ مثل الظروف الاجتماعيـة القهريـة كمرض الزوج أو انحرافه ودخوله السـجن، أو أن يكـون الزوج مدمنًا للمخدرات أو ضحايا الطلاق واللاتي لا يجـدن مصدرا للكسب أو الدخل المادي إلا بالانحراف.

"كذلك فإن الظروف القاهرة مثل مرض الأب أو وفاته، وعدم وجود دخل للأسرة من مصدر شريف؛ قد يدفع بالبنات إلى الانحراف. هناك بعض السيدات أو الفتيات اللاتي يبحثن عن الغنى والثروة والفلوس، ولهـن تطلعـات أكثـر مـن مستوياتهن الاجتماعية؛ فقد يجعلهن الطمـع وحـب تقليـد الآخرين ضحية للانحراف؛ لهذا نجد أنهن يتصفن بسـهولة التأثير عليهن، وسهولة الإيحـاء لهـن؛ فيصـدقن الوعـود والأحلام، وينسقن وراء الإغراءات. كما أنهن قـد يتصـفن بحب الاستعراض وجذب الانتباه، والميـل لسـماع كلمـات الإطراء والإعجاب، وعدم النضـج العـاطفي وسـرعة رد الفعل، وعدم الروية، وعدم التفكير، والتسـرع فـي اتخـاذ القرارات. كما أنهن قد يتصفن بالبرود العاطفي.

"وهناك أخريات قد يلجأن إلى ممارسة الدعارة بعد أن يصبحن ضحايا للإدمان وتناول المخدرات، وقد يغرر القواد

بالضحية بعد إيهامها بالحب والحنان إذا كانت مفتقدة للحب والحنان والتفاهم في الأسرة. ولما كانت الضحية صغيرة السن وفي احتياج للقلب والعواطف؛ فتستجيب له، ويغرر بها، ويعتدي عليها، وقد تصبح بعد ذلك ضحية لابتزازه ولإجباره لها على ممارسة الدعارة؛ خوفًا من الاعتداء عليها.

"وقد يغريها بالحياة الرغدة والفلوس الكثيرة والملابس الفاخرة والسيارات الفارهة؛ إذا وجد أن نقطة الضعف في ضحيته هي الحاجة للمال، وكانت تعاني من الفقر والحاجة. وقد تهرب الفتاة من قسوة الأهل، خصوصا إذا كانت الأسرة مفككة ومفتقدة للحنان والفهم، وكانت تعاني من العقاب والضرب، خصوصا من زوج الأم أو زوجة الأب، وهنا تكون عرضة لذئاب الشارع. والسيدات اللاتي يعملن بالدعارة قد يصبن بالأمراض النفسية الناتجة عن الأمراض التناسلية التي قد يصبن بها. كما أنهن يصبحن عرضة لإدمان المخدرات والخمور؛ حيث يلجأن إليها هربا من تأنيب الضمير، وحتى يستطعن احتمال حياتهن القاسية. كما قد يصبن بالاكتئاب، ويلجأن للانتحار هربا من هذه الحياة ومن

تأنيب الضمير، ومـن الإحبـاط نتيجـة تطـاير الأحـلام واصطدامها بالواقع المر.

"وهن يمارسن الجنس بدون إحساس؛ وإنما مجرد تأدية واجب للحصول على النقود، ولذلك فهـن يمارسـنه بـدون مشاعر، وإن كن يجدن التمثيل ويحـاولن إقنـاع الزبـائن بقدرتهم الجنسية، ويتعلمن كيف يحصلن منهم على أقصـى فائدة مادية. وكذلك بعض الفتيات قد يهربن من أسرهن نتيجة خوف وهمي وغير واقعي؛ مثل الخوف من العقاب الشـديد نتيجة فشلن الدراسي أو رسوبهن في الامتحانـات، أو فقـد بعض الأموال، وأحيانًا أخرى يكون ذلك خوفًا من الـزواج الإكراهي؛ فأحيانًا تصمم الأسرة على زواج إحدى بناتها من رجل لا ترغبه؛ إما لارتباطها العاطفي بآخر، أو لرغبتها في استكمال تعليمها، أو لعدم مناسبته لها سنًا؛ فهنا قد تضـطر الفتاة إلى الهرب من أسرتها متوهمة أنها ستجد النجاة والعمل في مكان آخر، ولكنها غالبا ما تقع فريسة للقـوادين الـذين يطوفون الشوارع بحثًا عن هؤلاء الضحايا ليبـدأن مشـوار الألم".

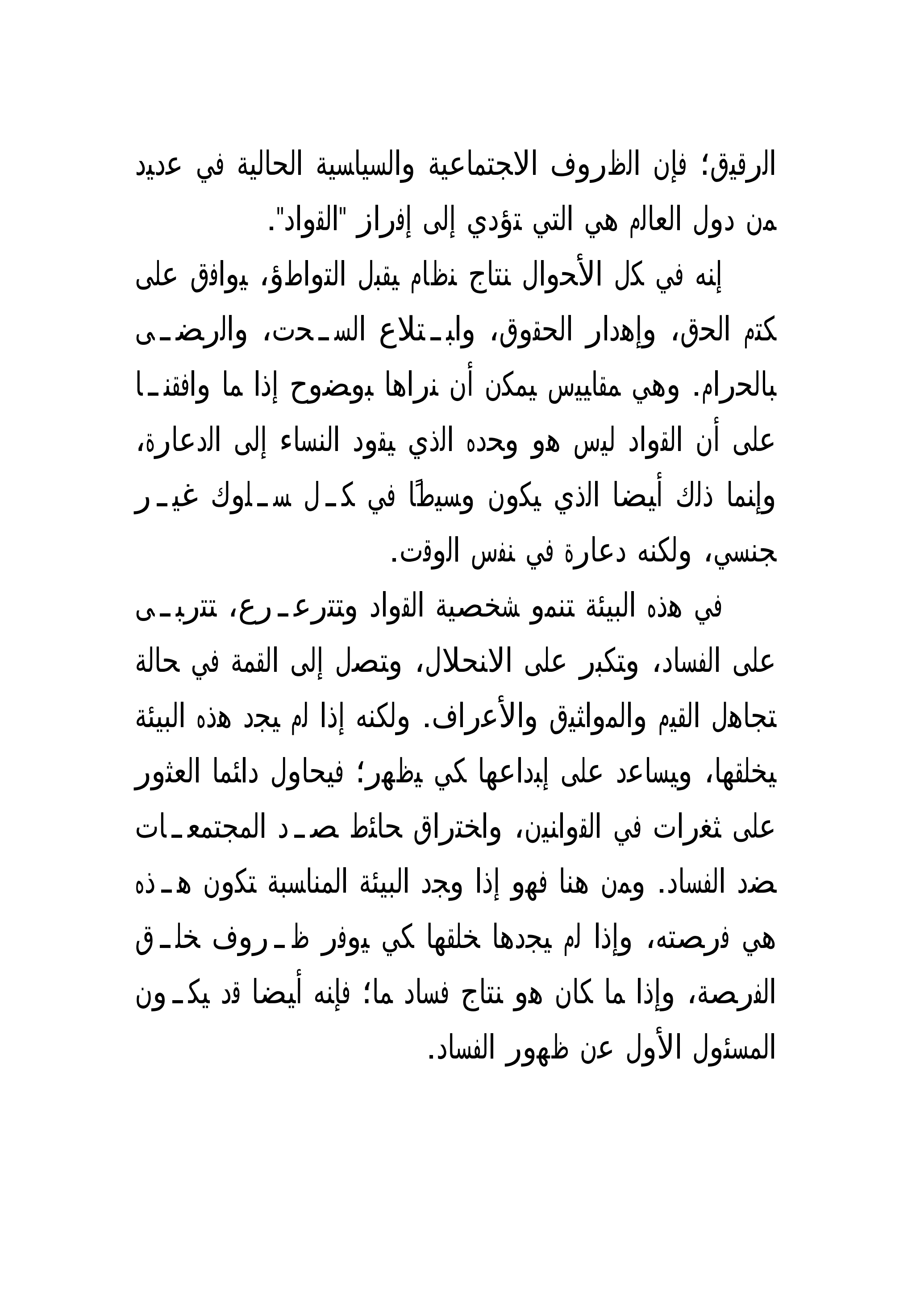
انتهى التحليل النفسي للدكتور ممتـاز عبـد الوهـاب لشخصية القواد، ولكن هذا لا يعني أننا قد انتهينا من رصـد صورة هذا الجنس الرابع بين البشر. إنه نتاج نظام اجتماعي خُلق في ظروف تاريخية بعيدة. هذه الظروف هي التي أدت إلى قيام مجموعة من البشر بالسيطرة على مجموعة أخـرى من البشر فيما عرف بنظام تجارة الرقيق. وقد تميزت هـذه التجارة بأنها كانت ولم تزل ذات صفات قاسـية وكريهـة؛ تمارس القوة والبطش، تخطف الذكور والإناث لتقوم ببـيعهم في سوقٍ من نوع خاص.. سوق البشر. وتقوم هذه التجـارة على أساس منحط؛ وهو أن هناك بشرا حرا.. وبشرا عبـدا، العبد دائما في خدمة الحر، والوسيط هو تاجر الرقيق القواد. وقد نشأ نظام تجارة الرقيق في أوضاع سياسية مشينة، تعني أن هناك دولاً وقوى في مستوى أعلى، وقوى ودول أخـرى في مستوى أقل. وعلى هذه الثانية أن تورد للأولى ما يدفعها إلى التقدم. وقد كان هذا ولم يزل يدور حول أساس عنصري يرى أن بعض البشر لهم الحق في الحيـاة الطبيعيـة، وأن البعض الآخر ليس له الحق في هذا.. ومن هنا فإن القواد هو

ابن مؤسسة عنصرية، لا تقبل المسـاواة بـين البشـر، ولا ترضى بأن يكون للجميع كل الحقوق والواجبات.

إن القواد بهذا هو ديكتاتور باطش، ظالم، يفعل أي شيء كي تسود سلطته فوق أجساد البشر الذين يـوظفهم لخدمـة أغراضه، خاصة النساء، لا يقبل الرأي الآخر، وإنما هو فقط يوافق على ذلك الرأي الذي يخدم أغراضه، وفـي حـين أن الديكتاتور يفعل كل هذا الذي يقوم به من أجل السلطة التـي يسيطر عليها؛ فإن القواد ديكتاتور من أجل المال.

والديكتاتور عادة له رعية؛ شعب يقوده في اتجاه أهدافه بالقسوة والعنف، لكن القواد، الذي له رعية أيضا، يبدو لـي وكأنه راعي غنم ليس هدفه أن يحمي غنمـه مـن الـذئاب والثعالب؛ وإنما هدفه هو أن يرعى الغنم ويحافظ عليها كـي يبيع صوفها، ويحلب لبنها، ويأكل لحمها، ثم يبيع كل الغـنم إلى أقرب ثعلب أو ذئب يمكن أن يدفع أكثر؛ كي يتحول إلى البحث عن قطيع غنم جديد يقوم معه بنفس الدور السابق.

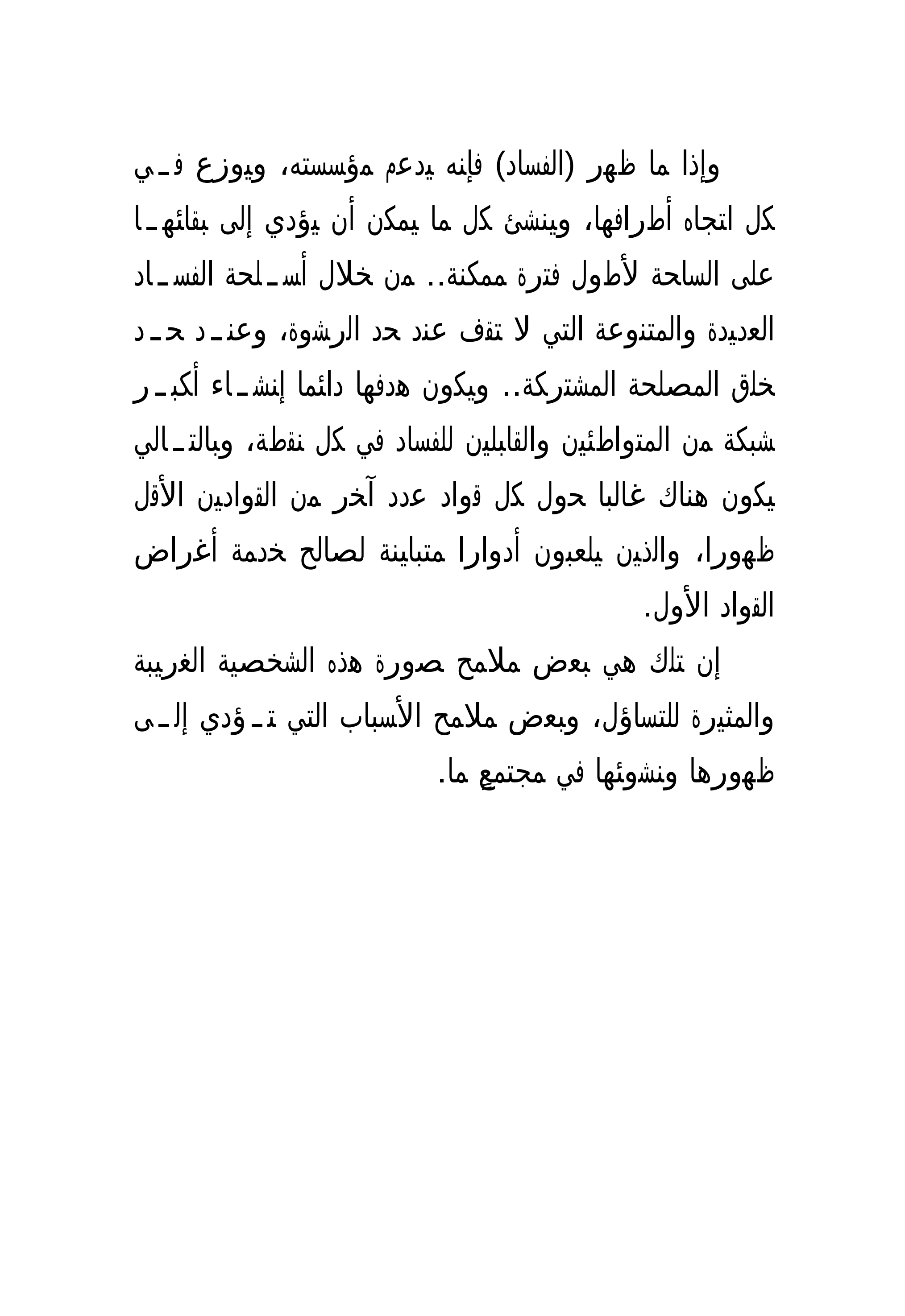
والقواد وليد سياق عام؛ إنه نتاج نظام اجتماعي وسياسي فاسد. وكما أفرزت الظروف التاريخية السيئة نظـام تـاجر



الرقيق؛ فإن الظروف الاجتماعية والسياسية الحالية في عديد من دول العالم هي التي تؤدي إلى إفراز "القواد".

إنه في كل الأحوال نتاج نظام يقبل التواطؤ، يوافق على كتم الحق، وإهدار الحقوق، وابـتلاع السـحت، والرضـى بالحرام. وهي مقاييس يمكن أن نراها بوضوح إذا ما وافقنـا على أن القواد ليس هو وحده الذي يقود النساء إلى الدعارة، وإنما ذلك أيضا الذي يكون وسيطًا في كـل سـلوك غيـر جنسي، ولكنه دعارة في نفس الوقت.

في هذه البيئة تنمو شخصية القواد وتترعـرع، تتربـى على الفساد، وتكبر على الانحلال، وتصل إلى القمة في حالة تجاهل القيم والمواثيق والأعراف. ولكنه إذا لم يجد هذه البيئة يخلقها، ويساعد على إبداعها كي يظهر؛ فيحاول دائما العثور على ثغرات في القوانين، واختراق حائط صـد المجتمعـات ضد الفساد. ومن هنا فهو إذا وجد البيئة المناسبة تكون هـذه هي فرصته، وإذا لم يجدها خلقها كي يوفر ظـروف خلـق الفرصة، وإذا ما كان هو نتاج فساد ما؛ فإنه أيضا قد يكـون المسئول الأول عن ظهور الفساد.



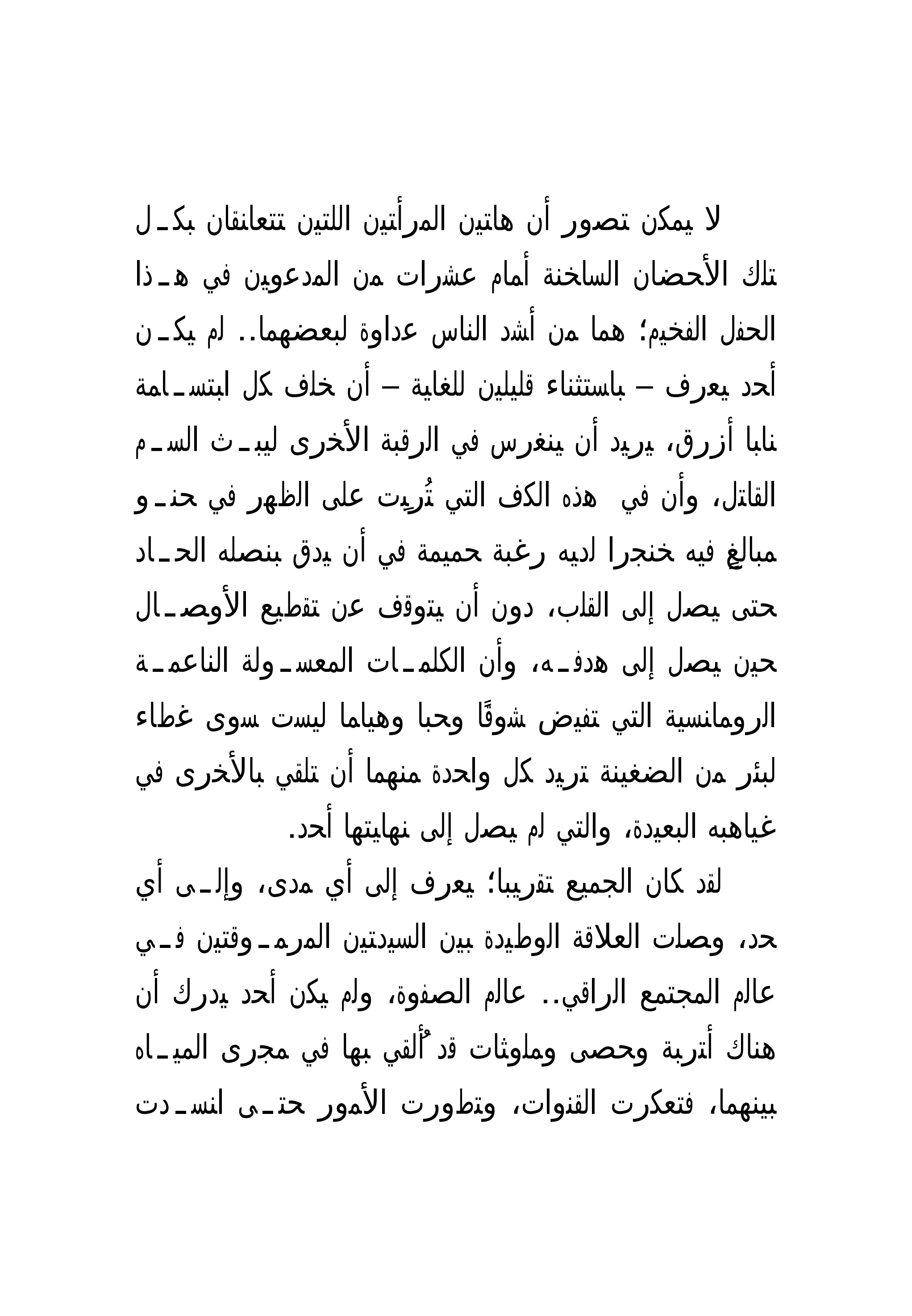
وإذا ما ظهر (الفساد) فإنه يدعم مؤسسته، ويوزع فـي كل اتجاه أطرافها، وينشئ كل ما يمكن أن يؤدي إلى بقائهـا على الساحة لأطول فترة ممكنة.. من خلال أسـلحة الفسـاد العديدة والمتنوعة التي لا تقف عند حد الرشوة، وعنـد حـد خلق المصلحة المشتركة.. ويكون هدفها دائما إنشـاء أكبـر شبكة من المتواطئين والقابلين للفساد في كل نقطة، وبالتـالي يكون هناك غالبا حول كل قواد عدد آخر من القوادين الأقل ظهورا، والذين يلعبون أدوارا متباينة لصالح خدمة أغراض القواد الأول.

إن تلك هي بعض ملامح صورة هذه الشخصية الغريبة والمثيرة للتساؤل، وبعض ملامح الأسباب التي تـؤدي إلـى ظهورها ونشوئها في مجتمع ما.

2

البحث عن فضيحة

"لا يعرف أحد كيف أفلتت كـل
منهما من قضية الآداب الكبرى. ولا
يعرف أحد لماذا انقلبت كل منهمـا
على الأخرى وقررت أن تفضحها"



لا يمكن تصور أن هاتين المرأتين اللتين تتعانقان بكـل تلك الأحضان الساخنة أمام عشرات من المدعوين في هـذا الحفل الفخيم؛ هما من أشد الناس عداوة لبعضهما.. لم يكـن أحد يعرف – باستثناء قليلين للغاية – أن خلف كل ابتسـامة نابا أزرق، يريد أن ينغرس في الرقبة الأخرى ليبـث السـم القاتل، وأن في هذه الكف التي تُربِت على الظهر في حنـو مبالغ فيه خنجرا لديه رغبة حميمة في أن يدق بنصله الحـاد حتى يصل إلى القلب، دون أن يتوقف عن تقطيع الأوصـال حين يصل إلى هدفـه، وأن الكلمـات المعسـولة الناعمـة الرومانسية التي تفيض شوقًا وحبا وهياما ليست سوى غطاء لبئر من الضغينة تريد كل واحدة منهما أن تلقي بالأخرى في غياهبه البعيدة، والتي لم يصل إلى نهايتها أحد.

لقد كان الجميع تقريبا؛ يعرف إلى أي مدى، وإلـى أي حد، وصلت العلاقة الوطيدة بين السيدتين المرمـوقتين فـي عالم المجتمع الراقي.. عالم الصفوة، ولم يكن أحد يدرك أن هناك أتربة وحصى وملوثات قد أُلقي بها في مجرى الميـاه بينهما، فتعكرت القنوات، وتطورت الأمور حتـى انسـدت

وفسدت، ولم يعد من الممكن قيام أي أحد بإحداث عملية تنقية أو منح العلاقة ترياق العلاج من سم الكراهية الذي تجرعته.

كانت العلاقة بينهما أبعد من الصـداقة، وأقـوى مـن الأخوة، وأمتن من الشراكة الموثقة بأي عقود مسجلة، وربما كانت تلك هي الأسباب التي جعلـت الآخـرين ينسـون أو يتناسون أن يبحثوا عن فروق مميزة بين السيدتين؛ فقد كانوا يتعاملون معهما على أنهما كيان واحد مـن جـزءين؛ الأول يشار له باسم وفاء، والثاني يشار له باسـم ماجـدة.. الأول تتمتع صاحبته ببشرة بيضاء، والثاني لصاحبته بشرة سمراء، الأول له نفس أهداف الثاني، والثاني نشأ وترعرع في بيئـة مماثلة تماما لبيئة الأول.. كيان واحد لا يعرف أحـد الآن أن الذي أفرزته؛ هي أيام الفساد الأولى، وأن الذي دعمته (هـذا الكيان) أوضاع داعرة، نجح الاثنان في أن يهيلا عليها الآن غطاء من النسيان، وستارا من الغموض؛ بحيث لم يعد أحـد يعرف كيف تم الدفع بهما إلى أجـواء الصـفوة المصـرية، وبحيث لم يعد أحد يعرف ما الذي تفعله كـل منهمـا فـي الكواليس، وخلف قناع الماكياج المبهر الذي تغطي به وجهها وتاريخها.

إنهما لقيطتان، يعرف السجل المدني اسم كـل منهمـا واسم أبيها وأمها وعائلتها؛ لكنهما وجـدتا علـى رصـيف المجتمع حيث التقطتهما أيدي هذا المسئول السابق؛ فوجد في كل منهما ما يمكن له أن يستغله، وما يمكن أن يجنـي مـن ورائه مزيدا من الأرباح.. مال وسياسة.. فراح يتبناهمـا.. ويرعاهما.. ويقدمهما لذلك الذي توقع أن يحصل من ورائـه على فوائد عظيمة.. وقد كان.

لقد كان هو الآخر لقيطًا في عالم السياسة. لـم تُعـرف لأصوله السياسية جذور، ولم يعرف لنموه في نظام الحكم أب حقيقي، ولم تلده منظمة أو حزب أو جهة.. فجأة ظهر، وكان سبب الظهور هو أنه نجح في أن يتزوج من ابنـة مسـئول كبير.. كبير جداً.. رحل بعد أن دفِع به إلى عـالم السـلطة، وبعد أن أدخله إلى مطبخ الحكم.. ولكن هذا الرحيل الذي لم يكن متوقعا، والذي جعل من هذا اللقيط الذي كان قد وجد له أبا؛ لقيطًا من جديد يبحث عن أب بديل.

ولم يتأخر كثيرا في العثور على هذا الوالد، وقد كـان الوالد الجديد مسئولاً كبيرا هو الآخر. كبيرا جدا. حل مكـان الأب الراحل.. حصل على كـل نفـوذه وسـلطته وقوتـه

إلا قليلا. وقد كان سبب هذا الاستثناء؛ هو أن رجـال الأب الراحل لم يكونوا راضين عن الوالد الجديد.. طعنـوا فـي شرعيته.. ولم يدعموه؛ فتصور أنهم يريدون أن ينقلبوا عليه فقرر التخلص منهم.. قرر أن يقضي تماما على كل مراكـز النفوذ والسلطة التي تقف أمامه، من بقايا عهد الأب الراحل.

هنا قدم اللقيط شهادة ميلاده الجديدة كي يوقـع عليهـا الوالد البديل. لقد كانت لمراكـز النفـوذ أسـرار وخطـط وقصص. وكان هذا الباحث عـن أب بيـنهم.. صـغيرا.. ضعيفًا.. طموحا.. يبحث عن فرصة أكبر للصعود.. للنمو.. للترقي.. وقد كان طموحه مصحوبا بمواهب عديدة يملكهـا، وظفها في الإطاحة برجال الأب الراحل حين قـدم أوراقهـم وأسرارهم إلى الأب البديل؛ فأطاح بهم، وكان تغييرا سياسيا عظيما جنى ثماره هذا الطفل الخارق بسرعة.

كانت عين هذا الرجل (واسمه شريف) على منصب أحـد رجال أبيه الراحل، وقد حاول بسرعة أن يحصل على هـذا المكان المرموق، لكن الأب البديل كان يضع ماء باردا على طموحه الساخن ويقول له: "لسه شوية عليك يا شريف.. إنت محتاج تعليم كتير"، لكنه كان دءوبا لا يتوقف عن السعي إلى

هدفه.. وكان يحاول بشتى الطرق أن يتقرب أكثر إلى قلـب أبيه البديل ونفوذه؛ مرة باستحضار العطف، وادعاء أن أسرة الأب الراحل تعاديه بسبب علاقته بالأب البديل.. ومرة حين كان يقدم نفسه كذلك بصفته الشخص القادر على أن يفعل أي شيء لا يفعله الآخرون...

وقد نجح.. بالطريقتين، وصار قريبا للغاية من الأب البديل، وبالتالي من أقوى مراكز السلطة والنفوذ.

وقد أدهش هذا التقريب وهذا التبني كل الذين أحـاطوا بالأب البديل في ذلك الوقت؛ إذ كيف لشخص أن يقوم بكـل هذه المهام التي يكلف بها؟ وما كل هذه المناصب والمواقـع التي يحصل عليها يوما تلو الآخر؟ وكان لدى الأب البـديل رد واضح وحاسم: "اتركوا شريف يفعل ما يقوم به.. إننـي أحتاجه.. إنه يقوم بكل الأعمال التي لا تسمح كرامتي بـأن أقوم بها".

إن هذا بالفعل ما كان يحدث؛ فالدولة في هذا الوقت من بداية السبعينيات كانت تعاني، تبحث عن دعم لا سيما أنهـا في الطريق إلى حرب، والحرب بحاجة إلى سـلاح وإلـى مال.. والذين يملكون المال من الجيران الأشقاء ليسوا دائمـا

عند حسن الظن.. إنهم يحتاجون إلى من يطلب منهم وقد كان شريف يطلب، ويحتاجون إلى من يداعبهم وقد كان شـريف يداعب. ويحتاجون إلى من يرضي غرائـزهم، وقـد كـان شريف يرضي. وفي سبيل هذا الإرضاء كان شريف يـوفر الجلسات الخاصة والسهرات وفاكهة اللقاءات.. النساء.. وقد كانت وفاء وماجدة اثنتين من ثمار الفاكهة التي يقدمها شريف في هذه اللقاءات. ثمار تعطي انطباعا بأنها طازجة، رغم أن هناك عشرات قد تذوقوها وأكلوها وشربوا بعـدها الخمـر ليبلعوا الوجبة. ومن خلال هذه اللقاءات وجدت كل من ماجدة ووفاء طريقهما إلى مجتمع الصفوة.

وقد كانت كل منهما من نصيب رجل بعينه؛ رجل يحتل منذ زمن وحتى الآن موقع الشخص الثاني في الأهمية فـي بلده. وكان الرجل الأول هناك يضيق الخناق عليه من حـين لآخر، يمنعه من السهر، من الشرب، من مصاحبة النسـاء.. وكان الحل دوما هو أن يلجأ الرجل الثاني إلـى شـريف.. وكان شريف يقدم له ماجدة ووفاء.. مرة هنا.. ومرة هنـاك؛ حين يكون الرجل الأول راضيا عن الرجل الثاني.. فتركـب الاثنتان الطائرة إلى بلده، وتقضـيان بعـض الوقـت، ثـم

تعودان.. قانعتين بالفتات.. بينما يكون شريف قد التهم كل الكعكة.

هنا وفي هذه الأوضاع نشأت العلاقة الوطيدة بين الاثنتين، وتحولت إلى كفين في قفاز واحد، جسدين في فستان واحد، ثمرتين على مائدة واحدة.. على فراش واحد.. توحد بينهما الأعمال القذرة والاتفاقات الوضيعة والمهام الدنيئة، وعمليات الرذيلة التي نظمها شريف.

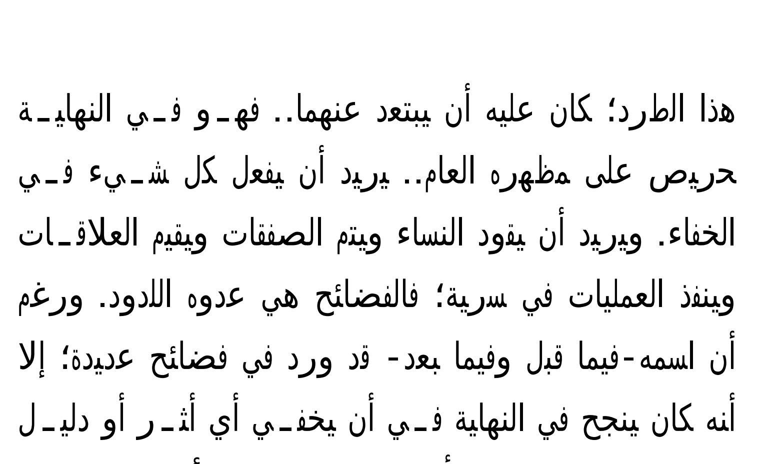
ولم يعترض هذه المسيرة سوى حادثتين؛ الأولى كانت لها أسبابها العامة، والثانية كانت لها أسباب خاصة. الأولى واقعة كانت وليدة ظروف سياسية؛ إذ سرعان ما انقلب من هم هنا على من هم هناك، وقررت الأطراف هنا أن تنتقم من جحود هناك. وكان الضحية هو الرجل الثاني، خاصة حين سقطت كل الثمار اللذيذة التي كان يتذوقها في سلة شبكة آداب هزت هنا، وراحت تصبح بطلة كل أحاديث الرأي العام؛ إلا الثمرتين وفاء وماجدة اللتين لا يعرف أحد كيف أفلتتا من هذه القضية التي ضمت أسماء رنانة ولامعة في سماء الفن. لقد انتهت هذه القضية إلى "فشوش"، ولكن بعد أن

سبب العيار الذي أطلقته مباحث الآداب مزيدا من "الدوشـة" والضجيج.

الواقعة الثانية ربما كانت لها علاقة بعيدة بالأولى؛ فبعد أن أدركت الفتاتان أن هذا الطريـق الـذي سـلكتاه صـار مسدودا؛ كان عليهما أن تبحثا عن بديل، وكانت ماجدة مـن الذكاء بحيث إنها قررت أن تبحـث عـن اسـتقرار -ولـو مؤقت- من خلال علاقة وطيدة مع شريف نفسه. وفي حـين كانت وفاء تفكر في اتجاه أشخاص آخرين، وتسلك طريقهـا نحو النجاح.. كانت ماجدة تتلقى الفشل الذريع؛ إذ سرعان ما انتبهت زوجة شريف إلى ما يحدث.

وفي حفل أقيم في بيت شـريف الريفـي فـي إحـدى ضواحي الجيزة؛ كانت كل من ماجدة ووفاء هناك.. ووجدتها زوجة شريف فرصة لإذكاء نار الفضيحة، والقضـاء التـام على كل محاولات ماجدة تجاه زوجها.. وكان أن قالت لهـا: "ألم يكفك كل رجال البلد.. ابتعدي عنه.. اطلعي برة".. وقد كان.

لقد خرجت ماجدة ثم بعدها وفاء مـن بيـت شـريف، لكنهما لم تخرجا من هذا العالم الذي أقحمهما إليه. وبسـبب


هذا الطرد؛ كان عليه أن يبتعد عنهما.. فهو في النهاية حريص على مظهره العام.. يريد أن يفعل كل شيء في الخفاء. ويريد أن يقود النساء ويتم الصفقات ويقيم العلاقات وينفذ العمليات في سرية؛ فالفضائح هي عدوه اللدود. ورغم أن اسمه -فيما قبل وفيما بعد- قد ورد في فضائح عديدة؛ إلا أنه كان ينجح في النهاية في أن يخفي أي أثر أو دليل لارتباطه بهذه الفضيحة أو تلك. ومن هنا، ولأن وفاء وماجدة انتهى دورهما؛ كان عليه أن يبتعد عنهما.

ولكن إلى أين تذهبان؟ هل إلى الرصيف الذي وجدوهما عليه بعد أن ذاقتا كل حلاوة مجتمع الصفوة؟ بالطبع لا. وكان أن بحثت كل منهما عن أب بديل.. قواد من نوع آخر. ينفي عنهما صفة اللقيطتين. ولم يجدا هذا الأب، لكنهما نجحتا في أن تحولا كل هذا الكم الهائل من العلاقات مع مجتمع الصفوة إلى أب بديل متشعب الأطراف، وبحيث صار على كل منهما أن تدير علاقاتها بنفسها، بدون شريف أو غيره، ودون أن تبتعد عن الأخرى.

ولقد مضت سنوات عديدة بهذه الطريقة، خلالها انتهت أسطورة شريف، وأُبعد عن موقع نفوذه، لكنه رغم أنه فقد

نفوذه السياسي لم يفقد سلطته المالية؛ فقد كان قد نجح في أن يصبح مليارديرا كبيرا جمع ثروة كبرى من كـل الأعمـال السابقة؛ في المال، والسياسة، والسـلاح، والنسـاء. وعلـى الجانب الآخر كانت كل منهما قد عثرت على صيغة ملائمة للحياة وسط أضواء مجتمع الصفوة.. الأولى وفاء تزوجـت من سفير، والثانية تزوجت من رجل أعمال كبير استطاع أن يرأس مجلس إدارة شركة حكومية.

إن وفاء الآن في الخمسين، وقد كانت ولم تزل تتميـز بأنها ذات مقدرة هائلة على أن تُبقي علاقاتها طي الكتمـان.. كل شيء في غموض وسرية.. كل ما يتم لا يعرف عنه أحد أي شيء؛ فهي في النهاية حريصة على الصفة الجديدة التي صارت تتمتع بها.. سيدة مجتمع.. محترمة.. لديها أبنـاء.. جميلة جدا.. متصابية للغاية.. ورقيقة جدا.. وتُسيل لعاب أي رجل.

وأما ماجدة فكانت هي الأخرى تتمتع بنفس الصـفات؛ باستثناء السرية، وفي حين أصبحت مديرة مدارس لغات من الطراز الفخم في جنوب القاهرة؛ كانت بعض فضائحها تبدو معروفة من حين لآخر. فذات يوم في نهايـة الثمانينيـات،

وخلال حفل من هذه الحفلات العديدة التي تحضرها؛ تعرفت على أميرة شقيقة حاكم عربي مرموق (هذه الأميـرة التـي عرفت بأنها ذات مزاج فسيولوجي خاص، يختلف عن النساء العاديات) وجدت ضالتها في ماجدة.. ولم تمانع الأخيـرة.. ونمت الأسرار والأحداث فيمـا بينهمـا.. وعـرف بعـض الناس.. فراحت ماجدة والأميرة تضعان غطاء إعلاميا على ما يدور.. وكان أن نظمت الأميرة رحلة حج فاخرة لماجـدة والعاملين في مدرستها، وزوجها المرموق وبعض الموظفين عنده.. لكن أحدا لم ينس القصة.

الأخرى (أي وفاء) كانت غارقة حتى أذنيها في علاقـة مع مسئول هام. رجل بقي في منصـبه المرمـوق سـنوات طالت حتى نسى هو متى بدأت، وقد كان رجـلاً صـاحب مزاج.. علاقته بوفاء واضحة ومحددة.. لكنها لا تنفي علاقته مع شابة صغيرة كان الناس يلاحظون أنها تصل إلى الأماكن التي يظهر فيها هو بالصدفة.. دائما صدفة.. وكانـت وفـاء ترتضي هذا.

وبسبب هذا الرجل فسدت العلاقة بـين الاثنتـين... لا يعرف أحد كيف نشب الخلاف؟.. أو لماذا تم؟.. ومتى؟ لكن

الذي عرفته هو أن ماجدة اتصلت بهذا المسئول وقالت له إن وفاء تحضر له أعمالاً سحرية كي يبقى مرتبطًا بها، وكـان أن قال الرجل لوفاء، وفاجأهـا ذات مـرة سـاخرا: "هـل تسيطرين علي بالأعمال السفلية يا وفاء"؟ وفُجِعت وفاء.. ما الذي أدراه.. من الذي قال له.. هل اكتشف ذلك العمل الـذي تضعه داخل كيس المخدة حين تنام معه، أما أن طعم المـاء الذي شربه لم يرق له فعرف ما به.. إلا أنـه سـرعان مـا أجاب عن تساؤلاتها الصامتة، وقـال وهـو يضـحك: "إن صديقتك ماجدة هي التي أخبرتني".

إن وفاء ليست مثلنا، تريد أن تعرف السبب، لقد فُجعت، ولكنها لم تبحث عن المبرر.. وقررت فورا الانتقام. لاسـيما أن في يدها أوراقًا عديدة يمكن استخدامها في هذا السـياق.. فالدجال الذي يقوم بإعداد الأعمال السفلية لها هو نفسه الذي يقوم بإعداد الأعمال التي تسيطر بها ماجدة على زوجها، بل إن ماجدة عرفته عن طريقها، وهي بدورها عرفته من خلال مذيعة برامج رياضية نصف معروفة. والرجل الذي يقـبض في العمل السفلي الواحد قرابة ١٥ ألف جنيه يثق في وفـاء أكثر.. وهي الآن وسيطة إلى نساء المجتمـع الراقـي.. ولا

يوافق على أي اتصال مع أي زبونة إلا من خلالها.. وبعـد أن يستمع إلى "أمارة" متفق عليها بينها وبينه.

ولم يكن صعبا بالطبع أن تحصل وفاء علـى أعمـال سحرية جديدة أعدتها ماجدة لزوجها. وقد منحتها ماجدة هذه الفرصة؛ عرضت الصلح والتراضي فوافقت وفاء في خبث، وأوهمت ماجدة أنها بالفعل تقدم لها خدمة جديدة حين ذهبـت مرة أخرى بها إلى الدجال، وقال الـدجال لماجـدة بعـد أن تركت له "أثر" زوجها أنه يحتاج عدة أيام.. وفي خلال هـذه المدة؛ كانت وفاء قد حصلت على وثائق الأعمال السـحرية التي ستنتقم بها... ثلاثة أشياء.. مطواة قرن غـزال، كتـب عليها الرجل بعض الكلمات بدماء فاسدة، بهـدف أن يعـود الزوج إلى ماجدة دائما؛ فالمطواة لا بد أن تعود إلى جرابها، وهي إذا لم تعد لا بد أن تُغمد في أحد آخر..

وبنفس الدماء الفاسدة كتب الرجل كلمات من نوع آخر على صورة للزوج؛ هذه الصورة تضـعها دائمـا (أو مـن المفروض أن يحدث هذا) تحت كعبها داخل الحـذاء؛ ليبقـى الزوج خانعا دائما.

وعلى صورة أخرى كُتبت كلمات من نوع ثالث، وكان الهدف من هذا العمل الذي يوضع عادة في حقيبة ماجـدة أن تبقى العلاقة حينئذ.. سعيدة.. بين الاثنين.

كل هذا صار في يد وفاء، اعتبرته دليلاً دامغًا، وورقة حاسمة في صراع الانتقام، وراحت تقدم كل هذه الأدلة إلـى كافة عناصر المجتمع الراقي.. كان هدفها إحداث أكبر قـدر من الفضيحة والتشهير، وخاصة أن هذه المعلومات وصـلت إلى الزوج الذي سرعان ما ثار وانزعج، وقلب المائدة علـى ماجدة وطلقها.. ولكنها استطاعت أن تعود له.

ولم تهدأ وفاء. ولن تهدأ، وراحت تبحث عـن وسـيلة تصل بها هذه الوثائق المزعومة إلـى الصـحافة.. فماجـدة شخصية مرموقة.. تخشى من الانطباع السيئ في الإعـلام. وفي خلال سعي وفاء للوصول للصحافة؛ رفضت أن تظهر بنفسها في الصدارة؛ فهي لا تريد أن يكشف أحد أسـرارها. وعثرت على فتاة لديها شكوى تريد أن تنشرها في الصحف، وأقنعتها بأن تحمل هذه الأوراق إلى مـن تـذهب لـه مـن الصحفيين. لكنها في غضون هذا انتبهت إلى أن الفتاة فيهـا

بعض من جمال وبعض من رشاقة وبعض من جاذبية؛ فكان أن حاولت إقناعها باستغلال هذه الصفات في أشياء أخرى.

إن الداعرة السرية تريد أن تصبح قوادة.. أن تلعب دور شريف.

3

بلبل.. وشيري

"وقررت بريطانيا أن تتدخل بنفسها وتطلب من الملك فاروق إزاحة هذا القواد من حاشيته"

ربما كان من المعتاد في كثير من قصور الحكم أن يكون هناك شخص من هذا النوع؛ شخص وظيفته أن يدبر الملاذ السري أو العلني لمتع الحاكم، سواء كان رئيسا أو ملكًا... شخص تكون كل مهمته هي أن يوفر الجسد والسرير والموعد والشراب.. أن يراعي تغير ذوق الحاكم، وأن يكسر حواجز ملكه، وأن يداعب مزاجه ويلاعب شهواته.. ليس من أجل صالح البلد الذي يديره هذا الحاكم؛ وإنما من أجل الحاكم نفسه.

وفي كثير من الأحيان يظل هذا الشخص مجهولاً، وفي أحيان كثيرة أخرى يصبح أمرا مفضوحا، وينكشف المستور ويبين الخفي؛ فيعرف الجميع أن هناك رجلاً يدير الدولة من غرفة سرية.. غرفة المتعة التي يتحكم منها في شهوات هذا الحاكم أو ذاك.

إن النماذج كثيرة، وكلها دليل على انحلال الصفوة، وكلها إدانة لحالة العناق بين القوادين والسياسة، وبينها مثلاً وكالة الموديلات الأوروبية التي كانت كل مهمتها (فيما بين

عامي ٩٦ و١٩٩٧) أن توفر لسلطان بروناي حسن بلقيـة أفخر وأفخم أجساد فتيات الإعلان الفرنسيات، اللاتي يسافرن بأمر من الوكالة إلى السلطنة؛ حيث يتحولن لـبعض الوقـت إلى جزء من حريم السلطان، الذي تمتد الأسـماء والأنـواع الموجودة فيه بين كل بلاد العالم. وبينها (هذه النماذج) بعض موظفي البيت الأبيض الذين كانوا يسهلون للرئيس الأمريكي كلينتون الخروج من الأبواب الخلفية في حقائب السـيارات؛ كي يذهب إلى عشيقة هنا أو هناك..

إن هؤلاء موجودون في كل زمان ومكان، فـي الـنظم الملكية وفي النظم الجمهورية.. في بداية القـرون الأولـى، وفي نهاية القرن العشرين. ولكن خطورة هؤلاء تتزايد حين يكونون داخل القصر نفسه؛ حيث يعيشون بشكل دائم، يلعبون أدوارهم القذرة باستمرار وفي كل وقت.. ويزيد معدل تأثير هذه الخطورة حين يتحول الحاكم بشهواته إلـى لعبـة فـي أيديهم.. يسـتجيب لأفعـالهم.. ولا يرضـخ لأي مطالـب بإزاحتهم؛ إنهم الحاشية.

والحاشية قد تكون خيرا،؛ وهذا أمر نادر الحدوث، وقد تكون وبالاً؛ وهذا ما يقع في غالب الأحوال حين تكون هـذه الحاشية مجموعة من القوادين والمرتزقة والسماسرة.

ويمكن ببساطة فهم معنى الحاشية؛ إلا أنني أفضل هنـا أن أستعين بواحد من أفضل تعريفات هذه الكلمة الذي كتبـه الكاتب الكبير الراحل فكري أباظة في مجلة المصور (العـدد رقم ٧٦٦ بتـاريخ ١٦ / ٦ / ١٩٣٩) حـين قـال عنهـا:

"هي تلك الشلة التي تكتنف الحاكم، والتي تحاصره، وتحيط به في أوقات الفراغ وأوقات السمر وأوقات الفسحة وترويح النفس، والتي تناجيه ويناجيها في معزل عن العمل الرسمي، والتي تنقل له الأخبار، وتدبر النمر، وتذيع عنـه الدعايـة، وتنشر له الإشاعات، وتحمسه أو تعزيه، وتضله أو تهديه".

لقد كتب هذا التعريف فكري أباظة، في وقت عرفت فيه مصر أكثر الحكام خضوعا لحاشيته.. الملك فاروق.. الـذي تقول الدكتورة لطيفة سالم أستاذ التاريخ بجامعة بنهـا فـي كتابها عنه: "لقد عاش فاروق طفولة مغلقة؛ ولهذا وجدت فيه الحاشية العجينة التي تشكلها وفق رؤيتها ومصلحتها"، "لقـد أخضعته لرغباتها، واستسلم لها تدريجيا، وأصبح لعناصرها

الدور المرموق فيما بعد انسحاب المسئولين وإخلاء الطريق لهم".

واقع الأمر إن هذه الحالة كانت معروفة للجميع فيما قبل وبعد نهاية حكم فاروق، وكـان الجميـع يـدرك أن الملـك الصغير صار ألعوبة في أيدي هؤلاء، وأيقن الـرأي العـام والمثقفون والمسئولون - بل حتى سلطة الاحتلال- أن الملك لا يخرج بعيدا عن دائرة من القوادين الذين يستفيدون تمامـا من توفير المتعة واللذة له.. وقد نقل في هذا الصدد الكاتـب الراحل مصطفي أمين في كتابه "ليالي فاروق" نـص حـوار بين الملك ورئيس الوزراء الراحل محمد محمود، يدل علـى أن هناك جزءا من الصفوة كان يعلن تبرمه من حين لآخـر على ما يقوم به هؤلاء، وما يقوم به الملك استجابة لهم.

وإن الواقعة التي نوردها هنا من ذلك الكتاب مرتبطـة حسب ما جاء فيه بتقريـر أمنـي أعدتـه وزارة الداخليـة المصرية (في عهد الوزير محمود فهمي النقراشي) حول قيام الملك بارتياد أماكن وضيعة ومقاهي فقيرة بصحبة حـلاق، ومساعده، وكهربائي؛ كلهم مـن الإيطـاليين، وكلهـم مـن الحاشية؛ وهو ما دعا الوزير لأن يطلب من رئيس الـوزراء

إبلاغ الملك أن الوزارة غير مسئولة عن تأمين الملك في مثل هذه المواقع.

وحمل محمد محمود التقرير، وذهب إلى الملك، وتحدث معه عن أن الوزارة تطلب إخراج فيرووتشي بك (أحد أفراد الحاشية) من القصر.

رد الملك: لماذا؟

محمد محمود: لأن سمعته سيئة، وأنا كرئيس وزراء لا أوافق أن يبقى بجانب الملك رجل سمعته سيئة.

الملك: ماذا تعني بالسمعة السيئة؟

محمد محمود: حكايات نساء.

الملك: قصدك بيجيب نسوان لمين؟

محمد محمود: وا بيجيب نسوان لمين.. أنا ما اعـرفش.. على كل حال مش لي.

الملك: ولا.. لي أنا

محمد محمود: ولكن الشعب يقول هذا، ومادام الشعب يقـول هذا عن رجل؛ فقد أصدر حكمه عليه، وفقد الرجل بذلك سمعته العامة، ويجب أن يخرج.

الملك: سوف أفكر في هذا، وأعدك أن أخرجه، ولكن بعد مدة قليلة حتى لا تحدث ضجة.

محمد محمود: وهناك مسألة أخطر.. إن ملك البلاد لا يجوز له أن يجلس على المقاهي.

الملك: أنا ملك ديمقراطي.

محمد محمود: ليست هذه ديمقراطية.

الملك: ألا يحدث أن تتضايق من بيتك، وتحب أن تغير المناظر؟

محمد محمود: ولكني لا أجلس على مقهى.. ولا أرضى لكرامتي أن أجلس في مقهى، وما دمت أنا لا أرضاه لنفسي لا أرضاه لك. ماذا تفعل الحكومة إذا دخل المقهى رجل سكران وضرب الملك قلما.. لو أنني قاضٍ لبرأته.

الملك: الحمد أنك لست قاضيا.

محمد محمود: ثم هؤلاء الإيطاليون الذين تمشي معهم.. بوليي وبترو وجارو.. إن هذا معناه أنك لا تجد مصريين تمشي معهم.. ولهذا اخترت إيطاليين.. فكيف يجوز أن تظهر بهذا المظهر أمام شعبك.. ثم

إن الناس يعتقدون أن هؤلاء قوادون وظيفتهم إحضار النساء لك.

الملك: هذا غير صحيح. وهذا ما تروجه الملكة فريدة عني.

محمد محمود: إن الملكة معذورة، والناس أيضا معـذورون، ولو أن جلالتك تخرج مع رجال محترمين لما قـال أحد عنهم أنهم "قوادون".

وبعد نقاش طويل عبر فيه الملك عن متاعبه الزوجيـة لرئيس الوزراء؛ قال له:

- يؤسفني أنني أحدثك في مسائل ليست من اختصاص رئيس الوزراء.

محمد محمود: أبدا.. هذا من صميم اختصاصي، وأنا شـاكر أنك حدثتني عن متاعبك الشخصية؛ فأنا مستشـارك الأول، وأرجو إن شعرت بأي شيء أن تطلبني بدلاً من أن تتحدث في هذه الأمور مع هؤلاء الإيطاليين.

الملك: إنهم مخلصون لي.

محمد محمود: ولكنهم غير مصريين، ولا يمكن أن يخلـص لك غير مصري؛ ولهذا أنصحك ألا تشـركهم فـي حياتك الخاصة.

وخرج محمد محمود من اللقاء، وطلب من الصحفيين أن ينشروا ما يأتي: "أبدى حضرة صاحب الجلالة رغبته السامية في الاستغناء عن الأجانب القليلين الموجودين في خدمة السراي؛ ليكون جميع موظفي السراي من المصريين". ثم نشر بعد ذلك: "إن المهمة التي عين من أجلها صاحب العزة أرنست فيروتشي بك في السراي على وشك الانتهاء، وإن جنابه سيبدي من تلقاء نفسه رغبة في اعتزال منصبه". وأُعطي فيروتشي إجازة.. وكان معنى هذا بالنسبة لأنطونيو بوللي وجارو الحلاق وبترو مساعده؛ أنهم في طرقهم للخروج.. ولكن هذا لم يحدث؛ إذ سرعان ما عاد الملك إلى الاستسلام للحاشية.

والواقع إن فاروق كان منذ اليوم الأول ابنًا لحاشية كان بها نماذج من أنواع مختلفة؛ بعضها (القليل جدا؛ للدقة) طيب، وكثيرها من هذا النوع القواد. ففي بريطانيا حيث كان يتلقى فاروق (حين كان وليا للعهد) تعليمه مع مصاحبة من حاشية كان أبرز من فيها أحمد حسنين (رئيس الياوران فيما بعد)، وعبد الفتاح عمرو (الذي كان يعمل في مكتب محامٍ)، والفريق عزيز المصري.. هناك أدى الصراع بين

حسنين والمصري إلى نجاح الأول في جذب ولي العهد إلـى أسوأ ما في الحياة الأوروبية؛ فدفعه إلى المغامرات النسائية، وصحبه أحمد حسنين إلى الأماكن الخاصة ليلاً، وقدم عبـد الفتاح عمرو خدماته في هذا الشأن؛ كما جـاء فـي شـهادة عباس حليم أمام محكمة الثورة.. والتـي ورد ذكرهـا فـي جريدة الأهرام في ٢ ديسمبر ١٩٥٣..

وتولى فاروق الحكم، بعد أن كانت قد غُرست فيه عـن طريق حسنين وعمرو بذرة الاستجابة إلى مـا تقـوده إليـه الحاشية. وتقول لطيفة سالم في كتابها عن فاروق ما يـوحي بأنه كان مستعدا لأن يكون في أحضان النساء دائمـا: "لقـد ارتكز هذا على اعتبارات معينة؛ إذ جاء إلى الدنيا بعد طول انتظار، واقترن منذ نعومة أظافره بـالجنس الآخـر(أمـه، ومربيته، وأخواته)، وأُعطي لـه الاهتمـام الخـاص كولـد وكوريث للعرش؛ فأحس بقوة عنصره، وحـين كـان فـي بريطانيا عرف الطريق إلى الفتيات، وعقب عودته إلى مصر حد ارتباطه بفريدة من التوسع في تلك العلاقات؛ لكن الحـال لم يستمر لأكثر من عام، فضلاً عن تدخل عوامـل أخـرى أبرزها الحاشية المقربة منه، وعلى رأسها بوللي، ورغبتـه

الكامنة في الاستيلاء على المرأة عنوة، لاسـيما أنـه لديـه إحساس بأن كل شيء خاضع له ومسخر لإرادته".

وتضيف: "إن الأميرة شويكار أسهمت بنصيب في خلق أجواء دفعت الملك إلى الرذيلة، وقد كانت الزوجـة الأولـى لفؤاد لكنه طلقها، فانتابها شعور دفين بأنها أحق من نـازلي (أم فاروق) في المكانة التي احتلتها.. ومن ثم رأت استدراج ابنها إلى تلك الحفلات التي أقامتهـا لتبعـده عـن الطريـق المستقيم، وتنتقم لنفسها من أمه، وصـار المـدعوون فـي حفلاتها بطانة للملك فيمـا بعـد، وعلـى رأسـهم هيلـين موصيري؛ وهي سيدة من القوادات المعروفات".

غير أننا نعود إلى الحاشية الأصلية.. الحاشـية التـي كانت تعيش معه في كل وقت وكل مكـان.. ونحـن حـين نعرض هنا لها، وللأسماء البارزة فيها؛ نشير إلى اعتمادنـا الأساسي على مرجع الدكتورة لطيفة سـالم عـن فـاروق، باعتباره المصدر الأهم في هذا السياق، المصدر الأكثر جمعا للمعلومات حول دور هؤلاء القوادين في حياة الملك السابق.

ولقد كان أبرز وأهم شخص في هذه الحاشية هو ذلـك الرجل الإيطالي الذي تمكن من الملك، ونجح فـي قيادتـه،

والتصق به "أنطونيو بوللي"؛ ذلك الشخص الذي وصف بأنه كان ذكيا نشيطًا، له أسلوب خاص يشهد له به.. ذلك الـذي دخل القصر في عام ١٩٢٢؛ حيث عمل كهربائيا.. إلا أنه لم يكن مرغوبا فيه، كما بدا عقب وفاة الملك فؤاد؛ حين اسـتلم أمرا بترك القصر؛ فلجأ إلى فاروق حيث أبقاه في موقعه.

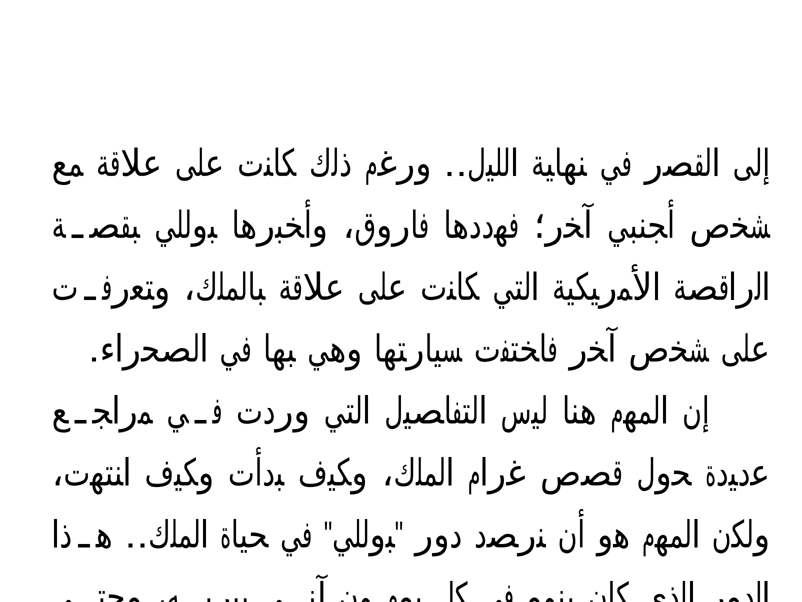
ولم يكن بوللي يرغب بالطبع في أن يأتي من جديد ذلك اليوم الذي يجد فيه نفسه مطرودا من القصر من جديد؛ ولهذا فإنه تقرب أكثر من فاروق فاستحوذ على قلبه، وتمكن من أن يوطد موقعه، حتى لقد وصل الأمر إلى أنـه تخطـى كـل حاجز، وأصبح ينادي مولاه بكلمة "شيري" (أي عزيـزي)، بينما يناديه الملك باسم "بلبل"، ووصل الموقف إلى مداه حين رقاه فاروق ليصبح مديرا لشـئونه الخصوصـية.. قـوادا رسميا.. ثم أنعم عليه برتبة البكوية، وجعل غرفته متاخمـة له، ومكتبه تحت جناحه. واتضحت المهمة الملقاة على عاتقه كقواد؛ فأداها بنجاح منقطع النظير.

وبلغ الأمر مدى بعيدا حين تمكن هذا القواد من أن يدافع عن مصالح شركائه في المهنة.. فأدت جهوده إلى الإفـراج عن القوات الأجنبية في الإسكندرية بتدخل من القصر..

وكان بوللي يقوم بمهمته القذرة في إطار شكلين؛ الأول: هو أن تقع عين الملك على امرأة، ويعلن رغبته فيها، ولو كانت بصحبة رجل؛ فيتولى بوللي إحضارها له بأي طريقة، والثاني أن يتولى بوللي بنفسه الاختيار؛ فينصب شباكه، ويدفع بالصيد إلى سرير الملك.

وفي هذا السياق تُروى قصص عديدة؛ ففي إحدى المرات بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، وبعد أزمة طلاق فريدة؛ رأي فاروق فاطمة زوجة النبيل حسن طوسون، وأرادها.. وحاول أن يلف حباله عليها في كل وقت وفي كل حفلة.. حتى إنه حين عرف أنها تحب عطر شانيل رقم (٥)؛ كلف بوللي بأن يبحث له عن زجاجة من العطر في فجر أحد الأيام، بينما كل المحلات مغلقة، والقصر خاوٍ من هذا النوع. ورغم ذلك رفضت فاطمة حب الملك.

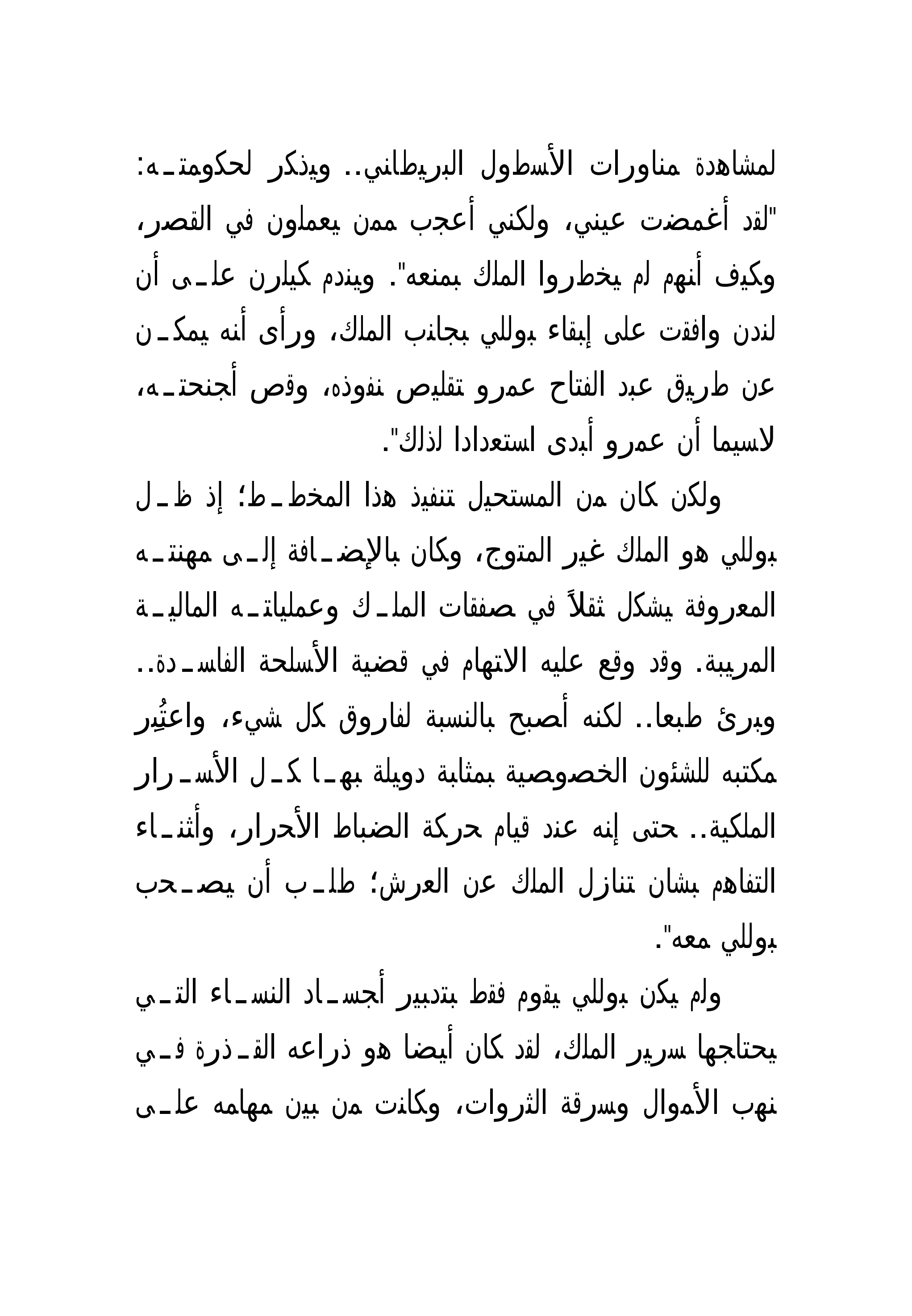
وحين أدرك بوللي أزمة الملك؛ قرر بصفته القواد الرسمي، الذي يحمل رتبة البكوية أن يعقد صفقة غرام جديدة لفاروق تنسيه حبه الفاشل لفاطمة؛ فقدم له فتاة فرنسية صغيرة اسمها "آني برييه"، وامتدت العلاقة، حتى إن بوللي كان ينتظرها بسيارته أمام الملهى الذي تغني فيه ليصحبها



إلى القصر في نهاية الليل.. ورغم ذلك كانت على علاقة مع شخص أجنبي آخر؛ فهددها فاروق، وأخبرها بوللي بقصة الراقصة الأمريكية التي كانت على علاقة بالملك، وتعرفت على شخص آخر فاختفت سيارتها وهي بها في الصحراء.

إن المهم هنا ليس التفاصيل التي وردت في مراجع عديدة حول قصص غرام الملك، وكيف بدأت وكيف انتهت، ولكن المهم هو أن نرصد دور "بوللي" في حياة الملك.. هذا الدور الذي كان ينمو في كل يوم من آني بيريه، وحتى سامية جمال الراقصة المعروفة في ذلك الوقت، وفيما بعد هذا.

وتقول لطيفة سالم: "لقد أحب فاروق بوللي رغم ظروف الضغط عليه من جانب بريطانيا مع بداية الحرب العالمية الثانية؛ بشأن إبعاد الحاشية الإيطالية من القصر. كانت إيطاليا عدوة لبريطانيا في هذه الحرب.. إلا أن تمسكه به فاق الحد، لازمه كظله في غدواته وروحاته، وشغل حيزا كبيرا في التقارير البريطانية، ونال اهتماما كبيرا من المسئولين البريطانيين.. واستاء اللورد كيلرن المندوب السامي البريطاني من مصاحبة بوللي للملك، حتى عندما خرج



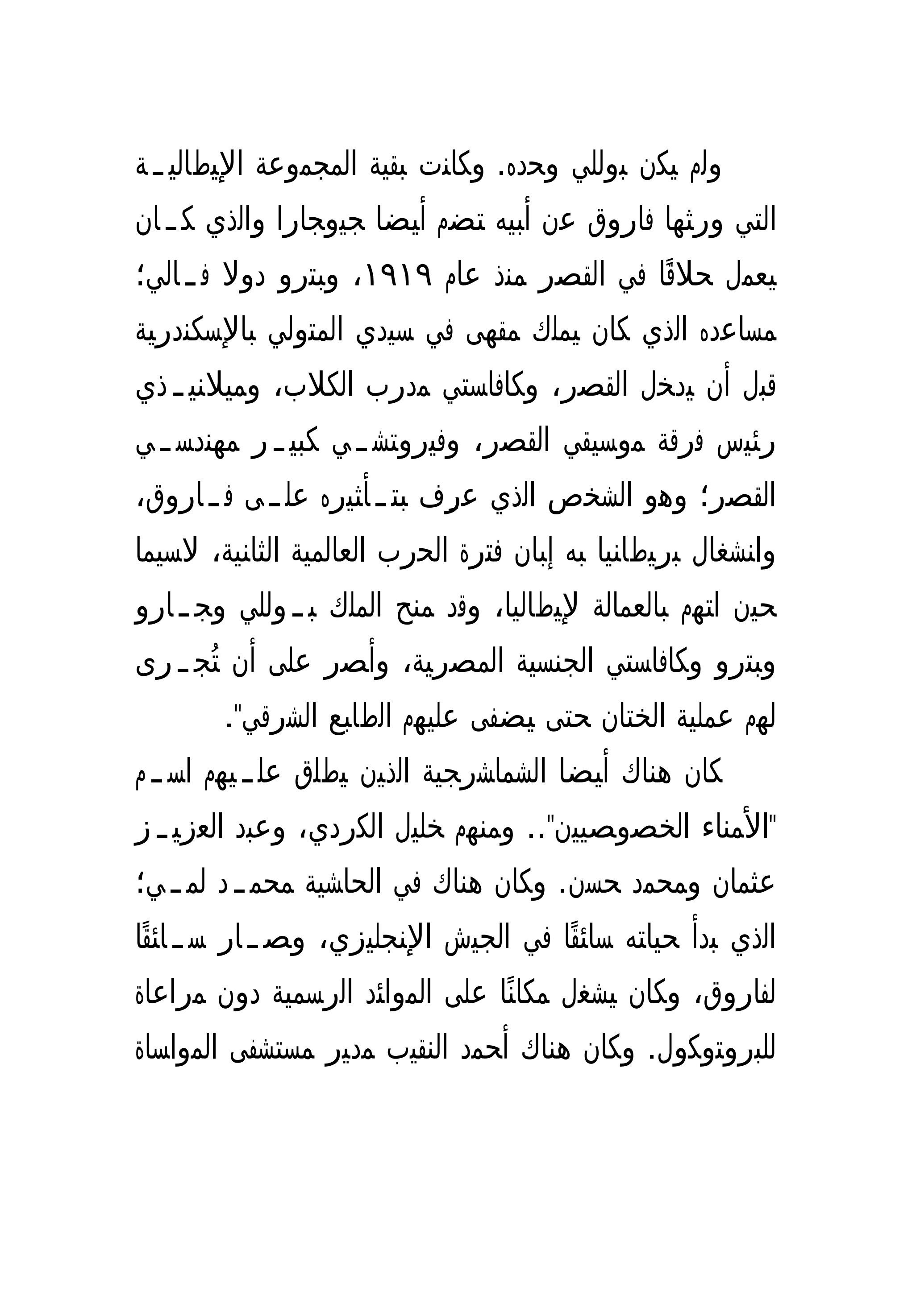
لمشاهدة مناورات الأسطول البريطاني.. ويذكر لحكومته: "لقد أغمضت عيني، ولكني أعجب ممن يعملون في القصر، وكيف أنهم لم يخطروا الملك بمنعه". ويندم كيلرن على أن لندن وافقت على إبقاء بوللي بجانب الملك، ورأى أنه يمكن عن طريق عبد الفتاح عمرو تقليص نفوذه، وقص أجنحته، لاسيما أن عمرو أبدى استعدادا لذلك".

ولكن كان من المستحيل تنفيذ هذا المخطط؛ إذ ظل بوللي هو الملك غير المتوج، وكان بالإضافة إلى مهنته المعروفة يشكل ثقلاً في صفقات الملك وعملياته المالية المريبة. وقد وقع عليه الاتهام في قضية الأسلحة الفاسدة.. وبرئ طبعا.. لكنه أصبح بالنسبة لفاروق كل شيء، واعتُبِر مكتبه للشئون الخصوصية بمثابة دويلة بها كل الأسرار الملكية.. حتى إنه عند قيام حركة الضباط الأحرار، وأثناء التفاهم بشان تنازل الملك عن العرش؛ طلب أن يصحب بوللي معه".

ولم يكن بوللي يقوم فقط بتدبير أجساد النساء التي يحتاجها سرير الملك، لقد كان أيضا هو ذراعه القذرة في نهب الأموال وسرقة الثروات، وكانت من بين مهامه على

سبيل المثال أنه كان يجمع التبرعات خلال حرب فلسـطين تحت بند الترفيه عن القوات المصرية.. وكـان إذا جمعهـا لا يرسلها إلى وزارة الحربية، وإنما إلى الملك نفسـه، بـل واستمرت التبرعات حتى بعد نهايـة الحـرب تحـت بنـد: "رعاية أسر الشهداء، وعلاج مشوهي الحرب".. وكان بوللي أيضا يقبض أموالاً تصـل إلـى الملـك لمـنح الأعيـان، أو الذين يريدون أن يكونوا كذلك؛ رتب الباكوية والباشوية".

"وكان كل ما يتلقاه الملك من الهدايا الذهبيـة يتسـلمه بوللي، ويأمر بصهرها تحت إشرافه، وتحويلها إلى سـبائك ذهبية، ثم إرسالها إلى الخارج. وكانت تأخذ طريقهـا إلـى الخارج من خلال طرق عديدة كلها يمر عبر بوللي. وكمثال؛ كان بوللي ذات مرة في طريقه إلى رومـا وبـاريس عـام ١٩٥٠، وفي اليوم التالي لسـفره أُعطيـت الأوامـر بعـدم التعرض في المطار لثلاث حقائب مملوءة ذهبا، قدرت بثلاثة ملايين جنيـه، بينمـا اصـطحب هـو معـه مجـوهرات بـ ١٦ مليون جنيه" (من شهادة أحمد كامل أمـام محكمـة الثورة").



ولم يكن بوللي وحده. وكانت بقية المجموعة الإيطالية التي ورثها فاروق عن أبيه تضم أيضا جيوجارا والذي كان يعمل حلاقًا في القصر منذ عام ١٩١٩، وبترو دولا فالي؛ مساعده الذي كان يملك مقهى في سيدي المتولي بالإسكندرية قبل أن يدخل القصر، وكافاستي مدرب الكلاب، وميلانيذي رئيس فرقة موسيقي القصر، وفيروتشي كبير مهندسي القصر؛ وهو الشخص الذي عرف بتأثيره على فاروق، وانشغال بريطانيا به إبان فترة الحرب العالمية الثانية، لاسيما حين اتهم بالعمالة لإيطاليا، وقد منح الملك بوللي وجارو وبترو وكافاستي الجنسية المصرية، وأصر على أن تُجرى لهم عملية الختان حتى يضفى عليهم الطابع الشرقي".

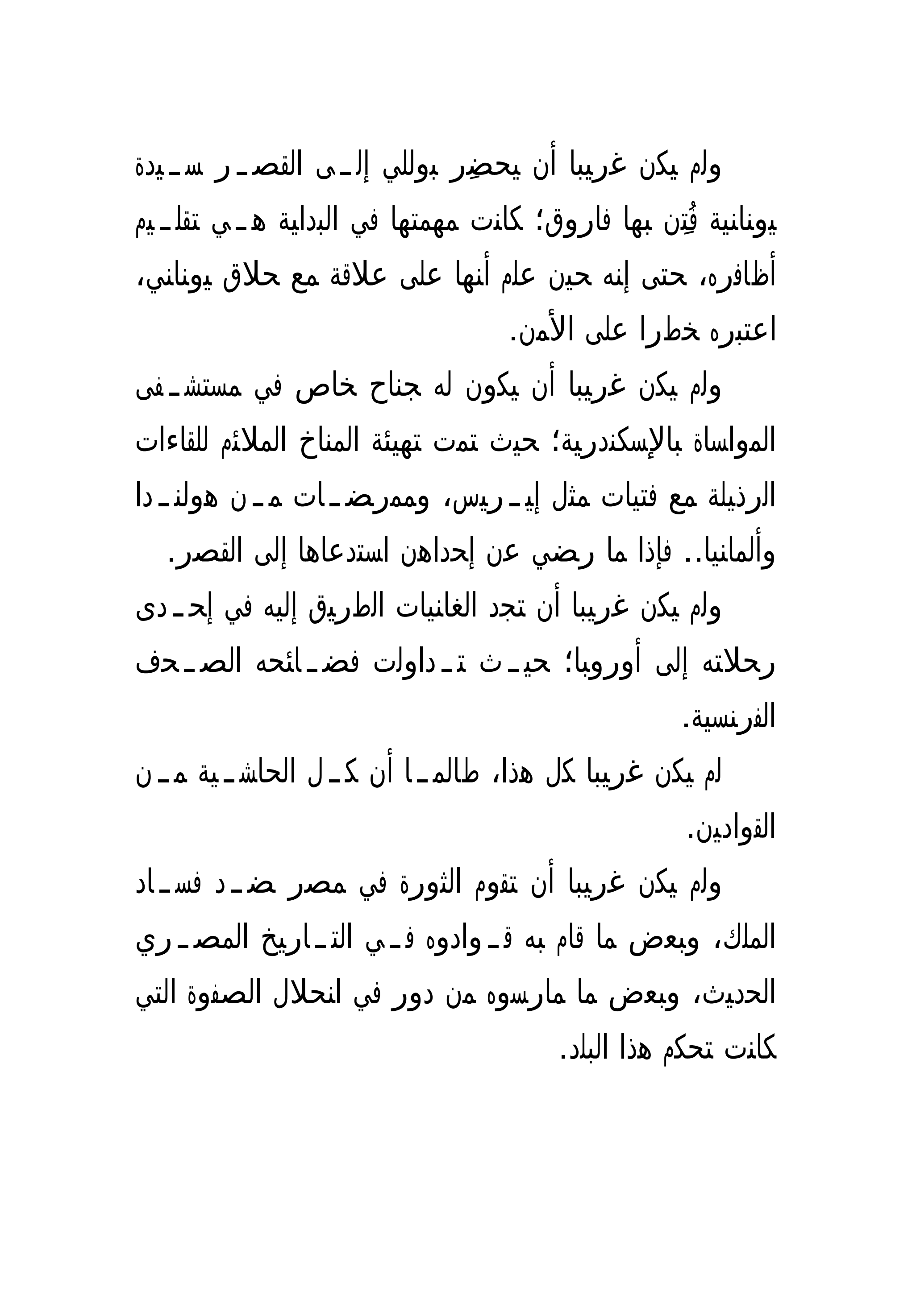
كان هناك أيضا الشماشرجية الذين يطلق عليهم اسم "الأمناء الخصوصيين".. ومنهم خليل الكردي، وعبد العزيز عثمان ومحمد حسن. وكان هناك في الحاشية محمد لمي؛ الذي بدأ حياته سائقًا في الجيش الإنجليزي، وصار سائقًا لفاروق، وكان يشغل مكانًا على الموائد الرسمية دون مراعاة للبروتوكول. وكان هناك أحمد النقيب مدير مستشفى المواساة

الذي كان يجلب الممرضات، وكان هناك إلياس أنـدراوس، وكريم ثابت.

إن هذه القائمة الطويلة كانت هي المسئولة عن إرضـاء رغبات ونزوات وشهوات الملك، وكانت تمثل شبكة معقـدة من القوادين والسماسرة الذين يديرون للملك كـل مـا هـو فاسد.. من دعارة النساء. والواقع إنهم كانوا يستفيدون ماليـا مقابل هذه التسهيلات الجنسية، وإرضاء كل مشاعر الملـك القذرة. ومن خلال هؤلاء، كل على اخـتلاف دوره.. كـان الملك يجد النساء.

ولم يكن غريبا مثلاً أن نجد في تقرير بريطاني سـري أنه خلال رحلة فاروق إلى البحر الأحمر في خريف ١٩٤٥؛ كانت هناك مجموعة من الفتيات على أحد اليخوت الملكية.

ولم يكن غريبا أنه في عام ١٩٤٦ كان الملـك غارقًـا حتى أذنيه في قصة مع ليليان كوهين، الفتاة اليهودية الممثلة التي حملت اسم كاميليا، والتي أرسل لها الملك كريم ثابـت كي يأتي بها إلى القصر، بعد أن تعرف عليها فـي أوبـرج الفيوم.



ولم يكن غريبا أن يحضِر بوللي إلى القصر سيدة يونانية فُتِن بها فاروق؛ كانت مهمتها في البداية هي تقليم أظافره، حتى إنه حين علم أنها على علاقة مع حلاق يوناني، اعتبره خطرا على الأمن.

ولم يكن غريبا أن يكون له جناح خاص في مستشفى المواساة بالإسكندرية؛ حيث تمت تهيئة المناخ الملائم للقاءات الرذيلة مع فتيات مثل إيريس، وممرضات من هولندا وألمانيا.. فإذا ما رضي عن إحداهن استدعاها إلى القصر.

ولم يكن غريبا أن تجد الغانيات الطريق إليه في إحدى رحلاته إلى أوروبا؛ حيث تداولت فضائحه الصحف الفرنسية.

لم يكن غريبا كل هذا، طالما أن كل الحاشية من القوادين.

ولم يكن غريبا أن تقوم الثورة في مصر ضد فساد الملك، وبعض ما قام به قوادوه في التاريخ المصري الحديث، وبعض ما مارسوه من دور في انحلال الصفوة التي كانت تحكم هذا البلد.

4

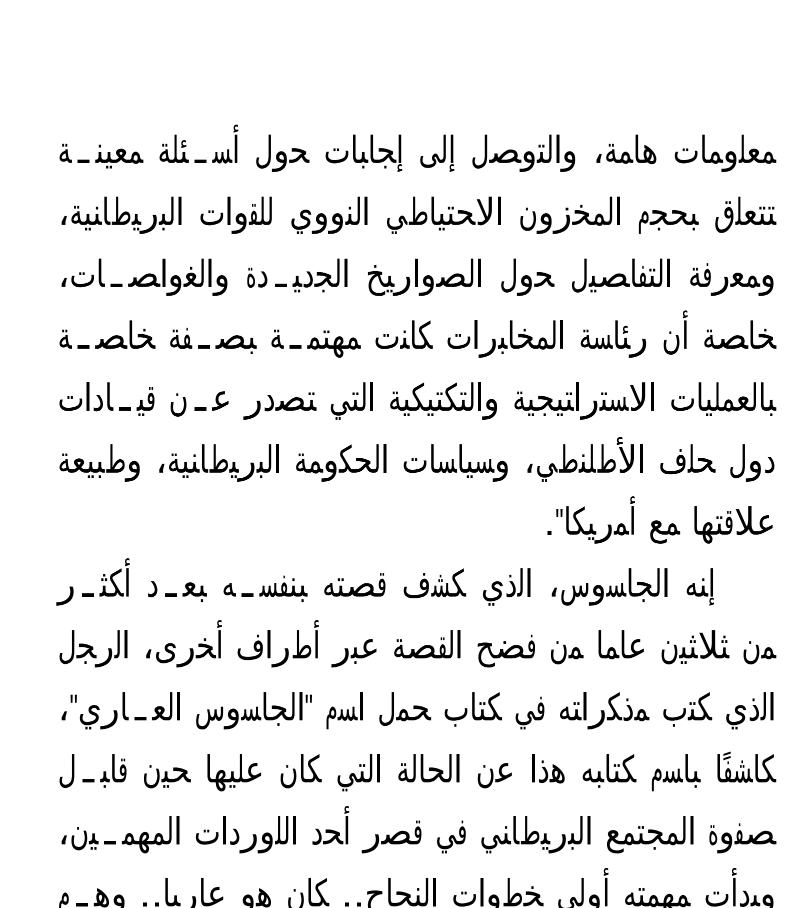
حيوان متوحش

"كل شيء في عملية هذا القواد كان مرتبا؛ علاقة آثمة، صـور فاضـحة، تقـارير مخابرات. لم يعد باقيا سـوى ابتزاز الوزير وتجنيده، لكـن الداعرة هدمت كل شيء "

كانت كل خطواته محسوبة.. العيون التي تعد أنفاسه ترصد شهيقه وزفيره في كل مكان.. والرجال الذين يراقبونه يمكن أن يسمحوا لظله بالابتعاد عنه، ولكنهم لا يسمحون أبدا لأنفسهم بهذا.. ولقد كان لديه إحساس قوي بهذا، حتى إنه كان يعتقد أنهم ينامون معه في سرير واحد.

وعلى الرغم من هذا أفلت هو منهم.. عبر كل البوابات، وتخطى كل الحواجز، واستطاع في النهاية أن يخترق نظام الأمن القومي البريطاني.. من خلال هذه الفتاة اللعوب الصغيرة التي اعتادت حياة الليل، واحترفت الإمتاع في النهار.. وكان يسيل لعاب وزراء الحكومة إذا رأوها وقابلوها في أي مكان.

إنه أوجين إيفانوف، رجل المخابرات العسكرية السوفيتية، الذي لم يكن غريبا أو عجيبا أن ترسله إدارته إلى لندن تحت غطاء صفة "مساعد الملحق البحري السوفيتي في السفارة السوفيتية في بريطانيا"؛ والذي قال فيما بعد في منتصف الثمانينيات: "كانت مهمتي هي الحصول على



معلومات هامة، والتوصل إلى إجابات حول أسئلة معينة تتعلق بحجم المخزون الاحتياطي النووي للقوات البريطانية، ومعرفة التفاصيل حول الصواريخ الجديدة والغواصات، خاصة أن رئاسة المخابرات كانت مهتمة بصفة خاصة بالعمليات الاستراتيجية والتكتيكية التي تصدر عن قيادات دول حلف الأطلنطي، وسياسات الحكومة البريطانية، وطبيعة علاقتها مع أمريكا".

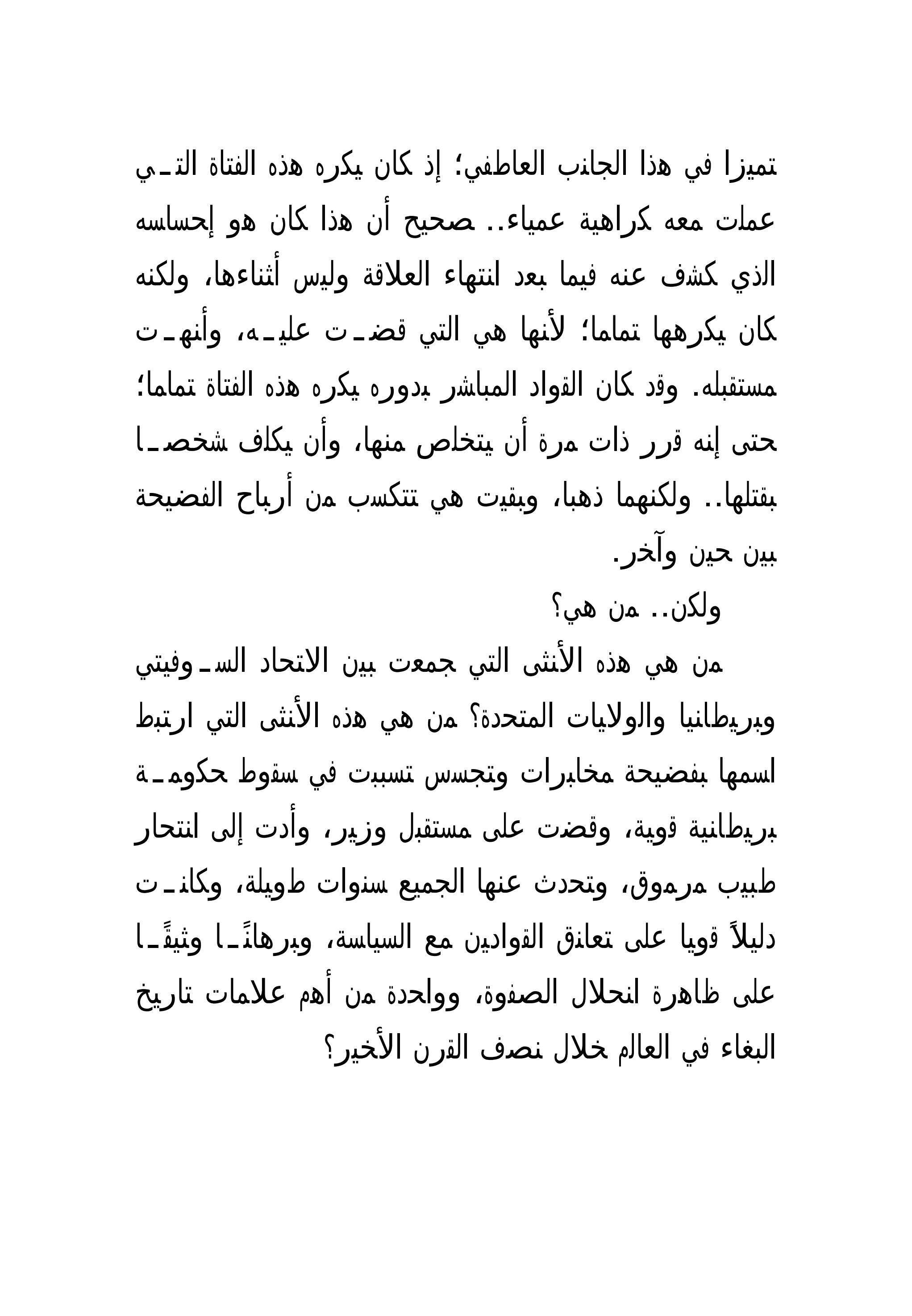
إنه الجاسوس، الذي كشف قصته بنفسه بعد أكثر من ثلاثين عاما من فضح القصة عبر أطراف أخرى، الرجل الذي كتب مذكراته في كتاب حمل اسم "الجاسوس العاري"، كاشفًا باسم كتابه هذا عن الحالة التي كان عليها حين قابل صفوة المجتمع البريطاني في قصر أحد اللوردات المهمين، وبدأت مهمته أولى خطوات النجاح.. كان هو عاريا.. وهم أيضا؛ لأنهم يمارسون اللهو في حمام السباحة.. وكانوا عارين لأنهم فضحوا.

لقد كانت فضيحة كاملة الأركان، اختلطت فيها الدعارة بالسياسة، وأسرار الحكم بفراش العهر، ورجال الدولة بالساقطات، والقوادون بالصفوة.

ولكن، قبل أن نمضي في رواية هـذه التفاصـيل فـي واحدة من قصص انحلال الصفوة؛ يجب أن نسأل: هل كـان أوجين إيفانوف قوادا؟ لقد كان جاسوسا، والجاسوسية مهمـة ذات صفات ومحاور متنوعة.. غالبا ما تكون أحد عناصرها توظيف النساء.. وتوظيف النساء ليس هدفه دوما هو التربح المالي من وراء ما يمارسنه فوق فراش الدعارة، وإنما يمكن أن يكون الهدف والمقابل هو جمع المعلومـات والأسـرار؛ وهي غالبا لا تقدر بثمن، ولا يمكن أن تُقَيم بمال.

وقد كان أوجين إيفانوف قوادا غير مباشر فـي بعـض مراحل هذه القصة.. في المراحل الأولى كـان قـوادا مـن بعيد.. بالريموت كونترول.. يمارس لعبته من خلال صـديق بريطاني له، كان هو بدوره القواد المباشر الذي يقدم النسـاء والفتيات إلى رجال الصفوة في بريطانيا.. وقـد كـان هـذا الصديق يحصل مقابل هذا على المال والعلاقات والمعلومات والنفوذ والأضواء؛ ولهذا لم يكن غريبا أن يحاكم وأن يـدان بتهمة استغلال النساء قبل أن ينتحر.

ومن الممكن أن نفهم أن كثيرا من القوادين لا يحبـون العاهرات اللاتي يعملن تحت أيديهم. لكن إيفانوف كان أكثر



تميزا في هذا الجانب العاطفي؛ إذ كان يكره هذه الفتاة التـي عملت معه كراهية عمياء.. صحيح أن هذا كان هو إحساسه الذي كشف عنه فيما بعد انتهاء العلاقة وليس أثناءها، ولكنه كان يكرهها تماما؛ لأنها هي التي قضـت عليـه، وأنهـت مستقبله. وقد كان القواد المباشر بدوره يكره هذه الفتاة تماما؛ حتى إنه قرر ذات مرة أن يتخلص منها، وأن يكلف شخصـا بقتلها.. ولكنهما ذهبا، وبقيت هي تتكسب من أرباح الفضيحة بين حين وآخر.

ولكن.. من هي؟

من هي هذه الأنثى التي جمعت بين الاتحاد السـوفيتي وبريطانيا والولايات المتحدة؟ من هي هذه الأنثى التي ارتبط اسمها بفضيحة مخابرات وتجسس تسببت في سقوط حكومـة بريطانية قوية، وقضت على مستقبل وزير، وأدت إلى انتحار طبيب مرموق، وتحدث عنها الجميع سنوات طويلة، وكانـت دليلاً قويا على تعانق القوادين مع السياسة، وبرهانًـا وثيقًـا على ظاهرة انحلال الصفوة، وواحدة من أهم علامات تاريخ البغاء في العالم خلال نصف القرن الأخير؟

إنها الفتاة البريطانية التي وصفت بأنها "مخلوق خطير، تشع من عينيها الرغبة والغدر والشـهوة والمكـر، حيـوان مفترس، ناعم، والتي قيل عنها أنها "فتـاة الليـل والرذيلـة والعاهرة"، والتي رفضت هذه الأوصاف، رغم كل ما فعلته، والتي كانت يوما ما ثرية ثراء فاحشًا، ثم صارت تعاني الفقر والعوز.. إنها الفتاة التي عاشت طفولة تعسة في مدينة "ويرز بيري"، في منطقة وادي نهر التيمس، والتي تركت بيت أهلها في سن الرابعة عشرة، وذهبت إلى لندن بحثًا عـن عـلاج لمرض الفقر الذي تعاني منه.. فكان أن صارت واحدة مـن فتيات النوادي الليلية؛ حيث بدأت قصتها مع عـالم الصـفوة البريطاني.. إنها كريستين كيلر.

هذه الفتاة التي رفضت دوما أن يقـال عنهـا عـاهرة، وقالت: "لقد كنت مجرد فتاة طائشة مستهترة". هي نفسها التي تقول: "بخلاف علاقتي مع الدكتور "سـتيفين" (وقـد كانـت علاقة حب) تعرفت على خمسة رجال في فترة هجرته فيها، ولكني لم أكن أتكسب من هذه العلاقات سوى في مرات قليلة جدا.. حين لم يكن معي أي مال".

ولكن.. وكثيرا ما سوف تصادفنا "لكن" هذه، في تلـك القصة.. ولكن: من هو ذلك الدكتور ستيفين؟

إنه القواد المباشر، الذي أدين بحكـم المحكمـة بأنـه "كان يحصل على نقود من أجور البغاء"؛ مما أوقعـه تحـت طائلة القانون البريطانية رقم ٢٣ لسنة ١٩٥٧. "الرجل الذي أدين قانونًا بأنه: "جعل فتاة يقل عمرها عن ٢١ سنة تمارس الجنس مع آخرين".. الرجل الذي لم يكن بلطجيا في الشوارع الخلفية، ولا تاجرا يوزع المخدرات، وإنمـا طبيـب عظـام مرموق، جزء من الصفوة البريطانية في بدايـة السـتينيات، عرف بميوله الفنية، وبقدرته الفائقة على رسم بورتريهـات الأشخاص.. لاسيما هؤلاء الذين كانوا ينتمون لقمة المجتمع، وكان دوما حريصا على علاقته بهم، وتوفير النساء لهم.

وبهذه الصفات كان الدكتور ستيفين هدفًا مـن أهـداف إيفانوف.

يقول الجاسوس الروسي العاري: "بقيت ستة أشهر فـي لندن أحاول وضع خطة مناسبة لتحقيق أهدافي، والوصـول إلى قلب المعلومات دون نجاح يذكر؛ حتى قابلت كولين كوت رئيس تحرير جريدة الديلي تلغراف، في حفـل أقـيم فـي

السفارة السوفيتية في نوفمبر ١٩٦٠.. كان الهدف من الحفل هو اجتذاب شخصيات بريطانية مرموقة، أختار من بينها من يصلح لتمهيد الطريق؛ حتى أفتح فجوة فـي نظـام الأمـن القومي الإنجليزي المعقد.. ولقد كنت أعرف مدى خطـورة ذلــك، وأننــي واضــح لإدارة المخــابرات البريطانيــة التي كانت تضعني تحت المراقبة ليل نهار.. ولذا كان الحفل فرصة عظيمة بعيدا عن أعين مكافحة التجسس".

هكذا عرف إيفانوف رئيس التحرير المرموق، وتوطدت العلاقة، ووصل الأمر إلى حد أن قام كولين كوت بدعوتـه على الغداء في نادي جاريك، الذي ترتاده الشخصيات الهامة، وهناك قدمه إلى الدكتور ستيفين.. ومن خلال هـذا الأخيـر وجد الجاسوس السوفيتي نفسه فجأة داخل صـفوف الطبقـة العليا في بريطانيا، خاصة حين تمت دعوته إلـى حفـلات اللورد إستور في منطقة كليفدن؛ حيث القصر الفخيم الـذي يزوره عادة عدد كبير من الشخصيات الإنجليزية البارزة.

لقد كان ستيفين صيدا سهلاً وهامـا لإيفـانوف؛ فهـو شخص له علاقات عديدة، ولا يتوقف عن الكلام، ولا يتوقف عن التفاخر بنفسه، وعن مرضاه من المشاهير.. وقد أرسـل

إيفانوف تقريرا إلى قيادته في موسكو حـول هـذا الرجـل، وحول كوخ صغيرة يستأجره في مزرعة اللـورد إسـتور. وكان الرد واضحا: "امض في طريقك، واستخدم هذا الطبيب في تحقيق أغراضك، مع التركيز بصفة خاصة على اللـورد إستور.. وتذكر أن ما يقال في قصر كليفدن (مقر اللـورد) اليوم؛ سوف يصبح السياسة التي يمارسها حزب المحـافظين في الغد" !

ومن خلال علاقته بالدكتور ستيفين عرف إيفـانوف أن طبيب العظام يجذب النساء للترفيه عن معارفـه، وعـرف أيضا أن اللورد إستور يتيح لضيوفه فرصة الاخـتلاط مـع الفتيات، وأن كثيرا من الشخصيات العامة تذهب إلى قصـره لاهتمامات جنسية.

وفي غضون هذا ظهرت كريستين كيلر: "إنهـا امـرأة ذات جاذبية خاصة، صارخة، تعيش مع ستيفين فـي شـقة مع فتاة أخرى تعمل راقصة في ملهى ليلـي، كانـت هـي الأخرى جذابة جدا.. وقد انتبهت إلى أن ستيفين يعيش مـع فتاتين في شقة واحدة في وقت واحد.. وقد سألته عن هـذا؛ فقال لي إنني أريد لهما أن يحصلا على ما في الحيـاة مـن

حب وسعادة ومال.. أنا أساعدهما علـى هـذا، وأقـدمهما لأصحاب النفوذ والأثرياء".. هكذا قال إيفانوف في مذكراته.

في إحدى هذه المرات التي كان الدكتور سـتيفين يقـدم فيها كريستين كيلر إلى الصفوة البريطانيـة؛ ظهـر بطـل الفضيحة.. الهدف.. الضحية.. الذي لم يتمكن من أن يتمالك أعصابه أمام جمالها.. إنه "جون بروفيميو" وزيـر الحـرب البريطاني، الذي وجد نفسه رغم أن زوجته كانت معه؛ قـد وقع أسير هذا الجمال شديد القسوة.. وكيف يفلت وقـد رأى هو وغيره كريستين تخرج من حمام السـباحة فـي قصـر اللورد وكأنها فينوس.. لقد دفعه هذا – في وجـود زوجتـه الممثلة المعروفة فليري هوسيون – إلى أن يطارد كريستين.. يلاحقها في كل مكان.. ويذوب ضائعا في رحابها.. حتى إنه أصر على أن ينزل معها إلى حمام السباحة في اليوم التالي؛ حيث أخذ يلعب، ويلهو، ويداك، ولمس، وأمسك، وسقط فـي فخ كريستين كيلر.

ومن المثير أن سقوط هذا الوزير في فخ تلـك الفتـاة الصاروخ كان متزامنًـا مـع تصـاعد علاقـة إيفـانوف مع ستيفين.. ومن هنا كان إيفانوف قريبا مما يحـدث بـين

الوزير وكريستين منذ اللحظة الأولى، حتى إن ستيفين قال له ذات مرة في عام ١٩٦١: "إيفانوف.. أرجوك خذ كريسـتين معك إلى لندن.. ابتعد بها عن هنا.. إن بروفيميو سوف يفقد عقله بسببها ".

وركبت كريستين السيارة مع إيفانوف في طريق العودة من قصر اللورد إستور.. وفي الطريق بدت ملامح الشخصية التي تتميز بها كريستين كيلر واضحة تماما.. إنهـا تحـب ستيفين.. وستيفين يسـتخدمها.. وهـي تحـاول اصـطياد بروفيميو.. ورغم ذلك لم يكن لديها مانع أن تمارس ضغوط الأنثى على إيفانوف داخل السيارة؛ فكان أن أدرك أنه أمـام قنبلة موقوتة، يجب أن تفجر فورا.. ومن هنا استجاب لهـا، وقبِل دعوتها إلى شقة ستيفين؛ حيث عاملته كعشيق تعرفـه من زمن، وتهيم حبا به.. وبداية من هذه اللحظة صار جسد هذه المرأة هو وسيلة الاتصال بين وزير الحرب البريطـاني والجاسوس السوفيتي.

كان الوزير صاعد النجم؛ تقول المؤشـرات إن أمامـه مستقبلاً باهرا، في الخمسين من عمره، في مرحلـة سـنية تجعله دوما في حالة حرص على أن يثبت أنه لم يزل قـادرا

على أن يفرض سطوته على امرأة صغيرة.. لكن الواقع كان يقول إن كريستين بما تملكه من سنوات الربيع البكر؛ هـي التي فرضت سطوتها عليه.. ومن هنا كان يجري وراءهـا، ويذهب إلى شقة الطبيب في غيابه.. وينام معهـا.. ويـذوب معها.. ويذوب.. ويضيع.

كان يأخذها إلى الملاهي.

كان يذهب بها إلى المطاعم.

كان يصطحبها في داخل سيارته إلى جولات في مناطق بعيدة..

ولم يكن يتراجع أمام ضغوط الرغبة عـن أن يسـتغل غياب زوجته عن البيت، وأن ينتظر موعد نوم الخـدم، ثـم يدخل كريستين إلى البيت؛ حيث يمارس عشقه لها.

وكان من الطبيعي أن يكون إيفـانوف موجـودا مـع كريستين في ما قبل وما بعد كل لقاء.. يوجه لها الأسئلة، ثم يعود ليلتقط الإجابات الاستراتيجية التي ألقى بها الوزير فوق الجسد العاري؛ فقد بدا هذا الجسد وكأنه الوثيقة التـي كـان يستقي منها الجاسوس معلوماته الهامة يوما تلو آخر.

واقع الأمر إن الجاسوس القواد لم يكن يقف بطموحه وأحلامه عند هذا الحد. كان يريد ما هو أكثر وأبعد.. فحسب ما جاء في مذكراته يقول: "كانت خطتي هي حصار الوزير بروفيميو، وتجنيده لحساب المخابرات السوفييتية؛ ليكون بذلك أكبر صيد يقع في شباكنا، من خلال تهديده بكشف علاقته مع كريستين كيلر.. كنت أخطط لالتقاط صور فاضحة لهما.. ثم أستخدم هذه الصور في تهديده.. وابتزازه.. كنت واثقًا من أنه إما أن يضحي بمستقبله المهني، ومكانته الاجتماعية، واستقراره الأسري، أو أن يتحمل الفضيحة.. كان من الطبيعي أن يرضخ في النهاية، ويصبح كالخاتم في إصبعي".

وحسب ما جاء في نفس المذكرات؛ فإن الخطة التي عرضت على موسكو، ووافقت عليها، وكانت في طريقها لإتمامها؛ كانت تقضي بأن يقوم عميل سوفيتي آخر، بخلاف إيفانوف بابتزاز بروفيميو حتى لا يكشف الأول؛ لكن الخطة لم تتم.

كانت نقطة الضعف هي كريستين كيلر نفسها.

القنبلة الموقوتة.

كان الجميع يحاول الاستفادة منها.. ستيفين من خلال لقاءاته معها، واستخدامه لها في علاقاته.. وإيفانوف الذي كان يوظفها في جمع المعلومات.. وبروفيميو الذي كان قد جعل منها عشيقة له.. ولكن الجميع وسط كل هذا الكم من الفوائد الذي كانوا يجمعونه من وراء القنبلة؛ نسوا طبيعتها الأصلية.. نسوا أنها عاهرة.. مستهترة.. منفلتة.. ساقطة.. نداء جسدها أقوى من أي نداء.. ويمكن لها في نفس الوقت الذي تنام فيه مع وزير الحرب البريطاني أن توافق على إقامة علاقة مع زنجي من أبناء جزر الهند الغربية.. فقير ضائع.. بل إنها مضت إلى ما هو أبعد حين تلاعبت بمشاعر اثنين من هذا النوع؛ الأول اسمه لاكي جوردون، والثاني اسمه إيد جكومب.. وحين تكون هذه هي طريقة كريستين كيلر في الحياة؛ فإنه لا يمكن بالتالي أن تكون مفيدة لصالح الأهداف السياسية.. فهي لم تكن مدربة.. ولم تكن تعرف خطورة اللعبة التي تمارسها.

وكان أن انفجرت الفضيحة.

وذات يوم رفضت كريستين كيلر دخول إيد جكومب إلى بيتها؛ أنكرت وجودها، ثم أغلقت صديقتها مارلين ديفينز

الباب في وجهه، فعاد إلى السيارة التي كان يركبها.. لكنـه فجأة لمح الفتاتين خلف ستائر النافذة تتأكدان من أنه كان قـد ذهب؛ فرجع غاضبا إلى البيت، وأخرج مسدسه، ووجه إلـى الباب ثلاث طلقات، ثم إلى النافذة طلقتين، وطلقـة أخـرى في الهواء. ("القصة الكاملـة لكريسـتين كيلـر، الـدكتور. سيد أبو مسلم، مكتبة مدبولي الصغير".

وعلى الرغم من أن أيا من هذه الطلقـات لـم تصـب كريستين أو صديقتها؛ إلا أن هذه الطلقات كانت كافية لإثارة القصص والحكايات حول هذه الفتاة، وكانت كافية لإطـلاق القنبلة وتفجيرها في مجد الدولة البريطانية.

لقد كانت الأرض قبل هذا الحادث قد مهدت للانفجار.. فقبل أشهر من هذا الحادث كان سكرتير عام مجلس الوزراء البريطاني السيد نورمان بروك قد دق جـرس بـاب شـقة الطبيب ستيفين وارد، وكان متأكدا من وجود جون بروفيميو في الداخل مع كريستين كيلر.. وقد فوجئ بـه بروفيمـو.. وتصور أنه جاء لينصحه بالابتعاد عن الفتاة.. لكن نورمـان قال له: "لقد جئت إلى هذا المكان كي أقول لك إنه من غيـر

المفضل أن تواصل صداقتك مع الدكتور ستيفين الذي عرف بأنه صديق للسوفييت ".

وفي اليوم التالي كتب بروفيميو خطابا إلـى كريسـتين كيلار على ورق رسمي، مسبوق بكلمة "حبيبتي"، وفـي هـذا الخطاب اعتذار عن موعد لقائهما التالي.. ولم يكن يقصد أن يقطع علاقته بها؛ لكنه كان يعبر عن حالة قلق عارمة انتابته منذ تمت زيارة نورمان بروك له، وخاصـة أنـه الرجـل المسئول عن جهاز الأمن.

واقع الأمر أن رائحة الفضيحة كانت قـد فاحـت، وأن المعلومات عنها كانت تتناثر في كل مكان.. بل إن عديدا من الصحف كانت لديها قصص كاملة عما يحدث، دون أن تملك الدليل الذي يساندها إذا ما حدث صراع قانوني مع الـوزير، ومن هنا لم تكن تتمكن من النشر.. ورغم ذلك اخترق محرر شائعات هذا الحصار، وراح يكتب في مجلة "زي كوين" عن القصة، دون أن يذكر الأسماء: "إنني أود أن أعرف إلى أين ستنتهي الأحداث؟.. ففي بيت أحد المشاهير، مـا إن تغـادر سيارة روسية من نوع زيج بابه الأمامي؛ حتى تصل سـيارة فاخرة يقودها سائق في زي رسمي لأحد كبار رجال الدولة،

والذي ينزل منها ليدخل نفس المنـزل الـذي تركتـه تلـك الشخصية السوفيتية".("المصدر السابق").

وانطلق الرصاص على منزل كريستين كيلر.

ومع انطلاقه رفعت القيود التي وجدت الصحافة نفسـها أمامها؛ ذلك أن صاحب الطلقات.. "الزنجي"، العشيق السابق لكريستين كيلر؛ أُلقي القبض عليه.. وروى بعض الحكايات، وراح يقول إن الفتاة التي عاشرها لبعض الوقت مولعة بإيقاع المشاهير والأغنياء.. وأدى هذا إلى تزايد الاهتمام بالمفتـاح الضعيف في القصة.. بالورقة الأكثر هشاشة.. بـ كريستين كيلر.

ولم تتوان هي عن أن تسـتجيب لهـذه المؤشـرات.. عاهرة.. صغيرة السن.. قليلة الخبرة.. مستهترة.. تسعى إلى المال.. وتحلم بالثراء.. وفي يدها خطاب من رجل هام كتبه على ورق رسمي.. والخطاب له ثمن باهظ.. والصحف تريد أن تشتري.. وقد اشترت بالفعل صحيفة صنداي ميرور هذا الخطاب بألفين من الجنيهات الإسترلينية.. لكنها لم تنشـره، وانتظرت لبعض الوقت، خاصة أنه كان قد سبق – في هـذه

الأثناء – أن تم سجن صحفيين رفضا الكشف عن مصادرهما في قضية جاسوس اسمه "فامال".

وراحت الصحف تنشر التلميحات.

لكن كريستين كيلر (الوحيدة غيـر الملتزمـة بقواعـد اللعبة) كانت تذهب بعيدا.. ولم يكن غريبا وإن كان مثيـرا؛ أنها حين تم استجوابها في حادث إطلاق النار تحدثت عن أن الدكتور ستيفين طلب منها أن تحصل مـن وزيـر الحـرب البريطاني جون بروفيميو على معلومات عن أمـور تتعلـق بالأسرار الذرية، وعما أعطته بريطانيـا مـن سـلاح ذري لألمانيا الغربية.

ونقل إلى الوزير هذا السر.. فنفى.. وقال: "لا أسـاس لهذا من الصحة".. وهدد بمقاضاة كـل مـن يفجـر حولـه الشائعات.

ولم تتمالك الصحف نفسها؛ فراحـت جريـدة "الـديلي إكسبريس" في هذه الأثناء تكتب قصة نصفها صحيح ونصفها كاذب؛ بهدف الضغط علـى الـدمل كـي يفـتح، ويفـرز ما فيه.. وتحت عنوان "صدمة وزير الحرب" قالت إن جون بروفيميو عرض تقديم استقالته؛ لكن رئيس الوزراء طلـب

منه البقاء في منصبه. وبجانب هذا الخبر نشرت الصـحيفة خبرا آخر عن اختفاء كريستين كيلر.

وكان الربط بين الخبرين واضحا.

وحدثت ضغوط أخرى في مجلس العموم، وراح نائـب من المعارضة يقول في البرلمان: "إن الحديث عن الشائعات التي تنال من الشخصيات الهامة يدعوني إلى التحـدث عـن شخصية لها مكانتها، وهو ليس من رجال الصحافة؛ وإنمـا هو عضو هام من الحكومة، فقد تـرددت بشـأنه شـائعات هامة.. ومصير ذلك المسئول في يد الصحافة التي لم تواتها الشجاعة حتى الآن لنشر ما لديها".

وأضاف: "إنني استعمل حقي في أن اطلب من وزيـر الداخلية أن يتحدث إلينا بشـأن الشـائعات التـي يعرفهـا، والمتعلقة بحادث إطلاق النار من أحد أبنـاء جـزر الهنـد الغربية على الآنستين كريستين كيلر ومارلين ديفنيز..".

وأمام هذه الضغوط، وخاصـة أن سـبعة مـن كبـار المسئولين واجهوا جون بروفيميو بقصة الخطـاب المثيـر؛ طلب الوزير من رئيس الوزراء أن يلقـي بيانًـا خاصـا.. فوافق.. وكان البيان الذي قال فيه: "إن كل ما يقال عن أنني

على علاقة باختفاء الآنسة كيلر لا أساس له من الصحة، لقد كانت علاقتي بها علاقة صداقة عادية، ولا توجد وراءها أي شوائب، وأنا لن أتردد في مقاضاة من يروجـون الشـائعات ضدي".

لكن هذا البيان لم ينه القضية، ولم يغلق الملف، خاصـة أنه جرى الاستعداد لإجراء استجواب جديد للوزير؛ فما كان منه إلا أن كتب إلى رئيس الوزراء هارولد ماكميلان خطاب استقالة: "لقد كنت قد ذكرت في بياني أنه لم تكـن لـي أي علاقة مشينة مع الآنسة كيلر. ويؤسفني اليوم أن أقول إن هذا كان يخالف الحقيقة، وأنني ضللت زملائي أعضـاء مجلـس العموم.. وكنت قد لجأت إلى هذا لحماية أسرتي وزوجتـي.. ولكنني تبينت أنني بهذا الخداع أذنبت.. ولا أستطيع أن أظل عضوا بالحكومة، أو بمجلس العموم البريطـاني.. إننـي لا أستطيع أن أصف مدى ندمي وشعوري بالخجل".

كان من الواضح إذن أن الرياح أقوى من الوزير. وأنه كان يحاول أن ينحني للعاصفة التي عصفت به، والتي كـان يتخيل أنه باستقالته هذه سوف يـتمكن مـن إنقـاذ الحـزب والحكومة من فضيحة بالغة القسوة.. لكن هذا لم يكـن هـو

الذي حدث؛ إذ ما إن اختفى بروفيميو حتى راحت المعارضة والصحافة تبحث عن فريسة أكبر وأهم.. ولم يكـن أمـامهم سوى هارولد ماكميلان.. رئيس الـوزراء نفسـه.. وكـان المبرر هو: كيف يؤيد رجلاً من هذا النوع، ويعينه في ذلـك المنصب الخطير؟!

وكان أن نشر الخطاب الشهير.

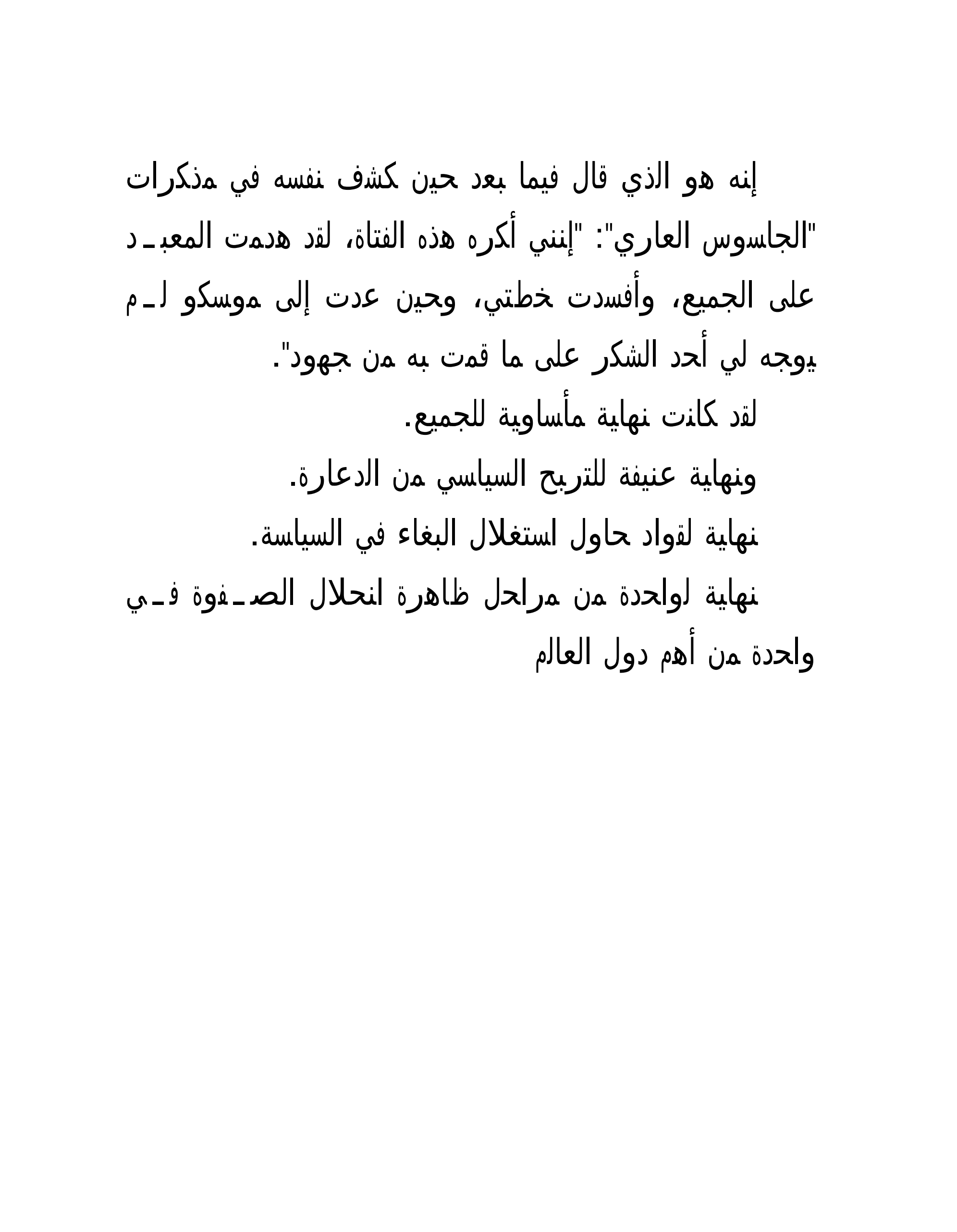
وكان أن راحت الصحف تتسابق على نشـر مـذكرات كريستين كيلر؛ فدفعوا لها ٢٤ ألف جنيه إسترليني، ومقابـل هذا المبلغ روت الكثير، وتحدثت عن العلاقـة مـع وزيـر الحرب، ومع الملحق البحري السـوفيتي، ومـع الـدكتور ستيفين.

ودارت العجلة.

وحوكم ستيفين، وعوقب.

واستقال رئيس الوزراء.

أما إيفانوف، القواد الجاسوس؛ فلم يكن أسعد حالاً، كان في أسوأ مراحل حياته، رغم أنه كان مقبلاً على إنجاز هـام خطير؛ إذ سرعان ما تم استدعاؤه إلى موسكو، وفي خـلال لحظات من إطلاق الرصاص على كريستين كيلر.



إنه هو الذي قال فيما بعد حين كشف نفسه في مذكرات "الجاسوس العاري": "إنني أكره هذه الفتاة، لقد هدمت المعبد على الجميع، وأفسدت خطتي، وحين عدت إلى موسكو لم يوجه لي أحد الشكر على ما قمت به من جهود".

لقد كانت نهاية مأساوية للجميع.

ونهاية عنيفة للتربح السياسي من الدعارة.

نهاية لقواد حاول استغلال البغاء في السياسة.

نهاية لواحدة من مراحل ظاهرة انحلال الصفوة في واحدة من أهم دول العالم

5

الجنس في عالم البزنس

"وفي سبيل صفقة الطائرات؛ كانت جودي ترقص بمايوه شفاف أمام من بيدهم قرار الصفقة".

جودي.. هذا هو اسم تلك الفتاة الأمريكية الرائعة التـي لا يمكن وصفها.

جودي.. قطعة من القمر الفضي برومانسيته التي كانت، قبل أن يفسد علماء الفضاء صـورته فـي قلـوب وعقـول العشاق.. النقطة الأولى في نهر الرقة الذي انطلق من نبـع بكر، لم يمسسه بشر، ولم يسئ إليه تلوث.. صورة الأنوثـة الحقيقية قبل أن يغرق العالم في اختراعات التزييف المعروفة باسم أدوات التجميل.. جودي.. هذه الفتاة الحلم التي لم تكـن تتوقع يوما أن جسدها سوف يقوها إلـى فضـيحة سياسـية كبرى، رغم أنها كانت تستخدمه بشكل عام.

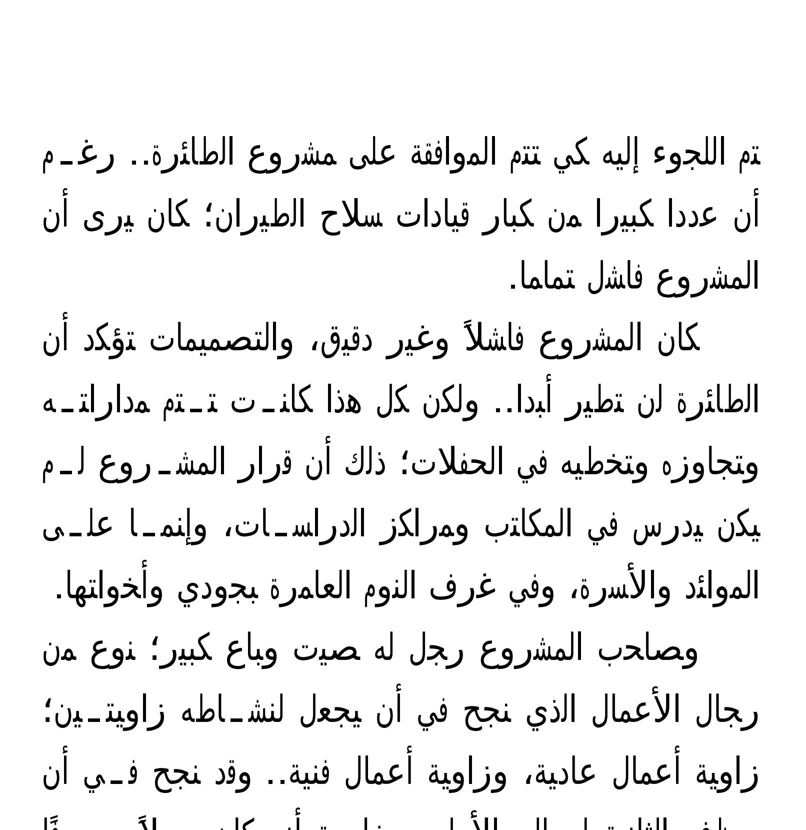
هذه الفتاة التي قبلت ذات يوم أن تُستعمل في الترفيه عن عدد من كبار المسئولين الأمريكيين، حين ارتضت أن تقـوم بالسباحة أمامهم في ثوب بحر شفاف له لون الجسد؛ تحولت إلى ورقة في ملف.. ملف أكد أن الدعارة في القرن العشرين لم تعد قاصرة فقط على نسوة الشـوارع وشـبكات البغـاء السرية والعلنية، والتي يحكمها منطق: "جسد مقابـل أجـر"؛

وإنما أيضا صارت (أي الدعارة) مؤسسة من نوع خاص لها أفرع في مجالات الحياة.

إنها فتاة نموذج، من بين نماذج عديدة أخرى؛ أكدت أن مؤسسة الدعارة تتطور في كل يوم حتى إنها يمكن أن تصل إلى مشروع بناء طائرة ضخمة لصالح جيش دولة هامة هي الولايات المتحدة.

لقد كان هذا في غضون الحرب العالمية الثانية، وكـان سبب البحث في ملف جودي وأخواتها؛ هو أن لجنة تشـكلت للتحقيق فـي أسـباب قيـام الحكومـة الأمريكيـة بإنفـاق ٢٠ مليون دولار لكي تبنى الطائرة.. وكان سـبب التحقيـق الذي وصل في بعض مراحله إلى الكونجرس؛ هو أن أربـع سنوات كاملة قد مرت دون أن ينجح المليونير هوارد هـوج الذي كلف بالمشروع، في أن ينفذ ما اتفق عليه.

كانت الفضيحة ذات رائحة تزكم كل الأنوف التي تصل إليها، وهذه الأنوف في وقت ما لم تعد هـي فقـط أنـوف المسئولين في دوائر الدولة؛ وإنما أيضا أنـوف المـواطنين العاديين، بعد أن صارت القضية محل نقاش الـرأي العـام، خاصة أن هناك تقارير أكدت أن هناك سلوكًا غير أخلاقي قد



تم اللجوء إليه كي تتم الموافقة على مشروع الطائرة.. رغم أن عددا كبيرا من كبار قيادات سلاح الطيران؛ كان يرى أن المشروع فاشل تماما.

كان المشروع فاشلاً وغير دقيق، والتصميمات تؤكد أن الطائرة لن تطير أبدا.. ولكن كل هذا كانت تتم مداراته وتجاوزه وتخطيه في الحفلات؛ ذلك أن قرار المشروع لم يكن يدرس في المكاتب ومراكز الدراسات، وإنما على الموائد والأسرة، وفي غرف النوم العامرة بجودي وأخواتها.

وصاحب المشروع رجل له صيت وباع كبير؛ نوع من رجال الأعمال الذي نجح في أن يجعل لنشاطه زاويتين؛ زاوية أعمال عادية، وزاوية أعمال فنية.. وقد نجح في أن يوظف الثانية لصالح الأولى.. خاصة أنه كان رجلاً معروفًا في مجال الإنتاج السينمائي في هوليوود منذ العشرينيات.. وبهذه الصفة كان يستطيع أن يوفر عددا هائلاً من النجوم والنجمات كي يحضرن حفلاته التي يوظفها لصالح المشروعات التي يبحث عنها.

واسم هذا الرجل -كما سبق- هو هوارد هوج. ولم يكن هذا الرجل يقوم بكل هذا بنفسه؛ ذلك أنه أدرك بذكاء عالٍ أن

تلـك مهمـة تحتـاج إلـى رجـل مـن نـوع خـاص.. جوني ماير.. مساعد هوج الأول، ومسئول العلاقات العامـة في مؤسسته، والذي تؤكد خلفيته أنه رجل من هذا الطـراز الذي يصلح لأن يكون قوادا؛ فهو قد عمل في الماضي فـي نادٍ ليلي، ثم عمل مندوبا للدعاية، ثم مسئولاً عـن العلاقـات العامة في شركة وارنر للأفلام، ثم مع مستر هـوج؛ حيـث كان "يفعل كل ما يأمره به".. كما قال هو بنفسه حين سـأله السيناتور فرجسون مسئول اللجنة التي كلفها مجلس الشـيوخ بالتحقيق في الموضوع.

لقد كان ماير قوادا مبدعا، وقانونيا، لديه دفاتر حسابات متكاملة عن كل مليم قام بإنفاقه، لاسيما أن هذه الدفاتر كانت تقدم إلى سلطات الضرائب؛ كي تخصمها من أرباح مؤسسة هوج.. وهي نفسها الدفاتر التي قدمت فيما بعد إلـى لجنـة مجلس الشيوخ؛ حيث كانت الفضيحة بجلاجل.

وقـد كـان مثيـرا للغايـة أن هـذه اللجنـة تحقيـق في مشروع طائرة حربية، وتجد أمامها مستندات من نـوع داعر.. كأن ترى تقريرا عن المصروفات قدمه جوني مـاير إلى هوارد هوج عن عمل يوم قام به.. دون فيه: "٣٧ دولارا

قيمة عشاء فـي مطعـم، ومائـة دولار للآنسـة كرافـت، و٧٥ دولارا للآنسة بلاك.. وبجانب هذين الاسـمين سـجل عبارة "ترفيه"، وفي نفس الوقت لم يكن "ماير" يخجل من أن يضيف إلى التقرير إيصالات عديدة، وقوائم أسماء سـيدات، وأرقام غرف في فنادق، مع اسـمين لمسـئولين بـارزين؛ أحدهما وزير، والثاني حاكم ولاية، وكلاهما يـتم "الترفيـه" عنهما على نفقة هوج.

ودارت عجلة التحقيق.

وتدخلت الصحف. وكان أن ظهرت جودي من خـلال صحيفة هيرالد إكسبريس؛ حيث روت قصتها: "أعمل مسـاء في مصنع خاص للطيران، وأقوم بالتمثيل نهارا، ثم ظهـرت صورتي في إحدى مجلات الشركة وهي تحكي قصة عالمي المزدوج في الليل والنهار، وقد أطلقت علي المجلـة ألقابـا عديدة؛ منها "السباحة العارية"، وبعد أيام من نشر هذه القصة اتصل بي جوني ماير، وحدثني عن عملي، وقـال لـي إن المستر هوج رآني بالمايوه.. وهو يريد أن أصبح في حفلاته، مقابل أن يساعدني في تنفيذ اختراع لي.. والاختراع عبـارة عن حوض استحمام من نوع جديد.. مغطى بالمرايا من كل

جوانبه؛ بحيث يعطي المتفرج شعورا بأن الماء يمتلئ بعدد لا حصر له من الحسناوات في اللباس العاري.. وقد وافقت".

ولكن ما الذي كان يحدث في الحفلات بالضبط؟

تقول جودي: "كانت تبدأ بالعشاء فـي ملهـى فـاخر، أو في النادي الليلي في بيفرلي هيلز.. وعادة ما يكون هناك عشرة رجال.. كل رجل معه امرأة.. بعد العشـاء يتحـرك الجميع إلى عزبة هوج الخاصة. العزبة بها قصر واسع. وقد اشتراها هوج لأن الضيوف يحتاجون إلى خـدمات الفنـادق الفاخرة؛ وهذا لم يكن متوافرا أيام الحرب العالميـة.. وفـي العزبة بار متنقل يمر على الضيوف وهم يشاهدون الترفيه.. والترفيه عبارة عن استعراض السباحة في مايوه له لون لحم الأنثى؛ بحيث يتوهم المشاهدون أن جسد المـرأة أمـامهم لا يغطيه شيء".

ورغم الضجة التي أثارها التحقيق، وأثارتهـا شـهادة جودي؛ إلا أن هوارد هوج لم يكن مكترثًا؛ إذ قال أمام لجنة التحقيق: "ما الخطأ في الترفيه عن الأصدقاء.. إن اسـتخدام الخمر والفتيات والترفيه الباهظ للإنفاق على عقود الشـراء

ليس حدثًا شاذًا.. فهو أسلوب استخدمته الشركات من قبل وسوف تستخدمه من بعد".

هذه القصة الهامة وردت بالتفصيل في كتاب sex in business للمؤلف الأمريكي اليساري جاري جوردون، وقد ترجمته زينات الصباغ في كتاب حمل اسم "تجارة الجنس"، صدر عن مركز الحضارة العربية، وقد كان كل موضوعه هو الحديث عن استخدام الدعارة في مؤسسة الأعمال في الولايات المتحدة.

ولم تكن هذه هي القصة الوحيدة التي رواها جاري جوردون، ومع ذلك فقد كان هدفه من كل الحكايات التي استند إليها أن يقول إن فتاة الترفيه ليست سوى عاهرة.. وأن رجل الأعمال الذي يستخدمها ليس سوى قواد. هذا الواقع الصريح، أو تلك الحقيقة البشعة؛ هي التي تجعلنا هنا في هذا الفصل نبقي وقتًا أطول مع جاري جوردون؛ باعتباره الوحيد تقريبا الذي رصد هذه الظاهرة في المجتمع الغربي.. ولاسيما في الولايات المتحدة.

لقد نقل جاري جوردون عن برنامج إذاعي حمل اسم "تجارة الجنس" في عام ١٩٥٩ أنه؛ يوجد في نيويورك

وحدها نحو ٣٠ ألف فتاة ترفيه.. سكرتيرات وفتيات استقبال ومدرسات، عارضات أزياء، وفتيات مجتمـع، وممـثلات، وربات بيوت يحتجن المال.. وفي بعض الحـالات يشـترك كبار الرؤساء في ترتيب الترفيه، وفي أحيان أخرى يقوم بهذا من هم في مستوى أقل.. وقال البرنامج الإذاعـي إن هـذا الرجل "المختص باسم الجنس" في قسم المبيعـات؛ يسـتطيع في لحظة واحدة أن يحضر أي فتاة، ومن أي نـوع إذا مـا شعر لوهلة أن قرارا الشراء سوف يتم.. وفي هـذا السـياق يروي أن مسئولاً في شركة نجح في أن يجمع فـي الترفيـه الذي قدمه للمشتري الصيد مع الجنس في وقت واحد. حـين أعد قاربا عبأه بصناديق البيرة والويسكي، مع أدوات الصيد وفتاتين شقراوين".

واقع الأمر إن هذا الكتاب لا يقـف عنـد ذلـك الحـد من ضرب الأمثلة عن حالة بعض شركات المال والأعمـال الأمريكية التي تستخدم الجنس في إتمـام صـفقاتها.. إنـه يتجاوز هذا إلى أمثلة عديدة ومختلفة، تؤكد أن هناك مؤسسة كاملة تقوم بهذا في هذا المجال.. مؤسسة وهمية.. نشأت من خلال اتفاق عام على توظيف الدعارة للترفيه في الأنشـطة،

وبحيث تحولت الشركات إلى مكاتب قوادة عريضة ومتعددة ومتفرعة، يمكن أن يصل الحال بأحد العاملين فيها؛ أن يطلب من فتاة عاملة في شركة أن ترتدي ملابس داخلية رخيصة من قماش تافه، وأن تتصرف في الغرفة التي حجزها في الفندق بسذاجة وخجل؛ لأن العميل يحب هذا.

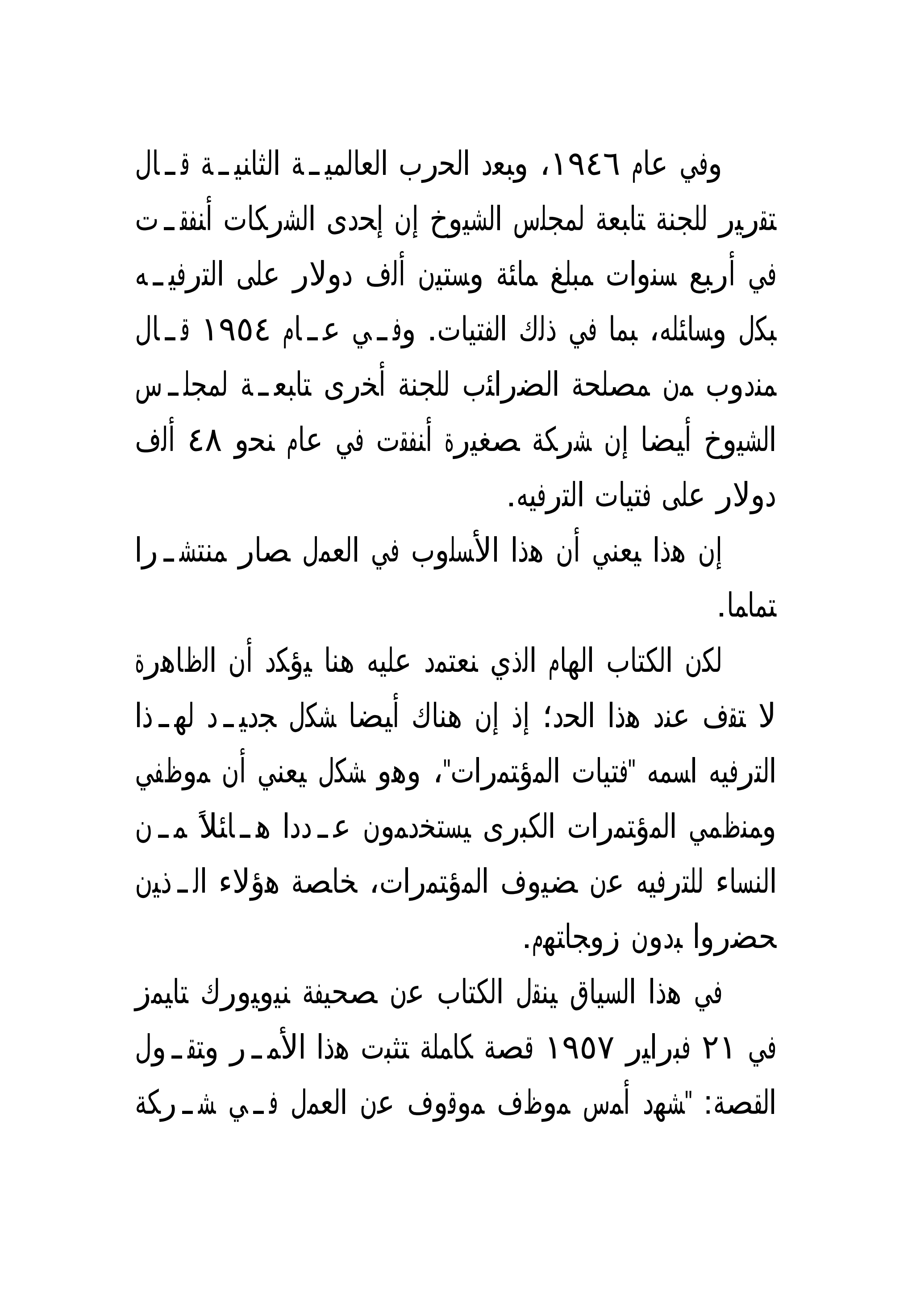
ولقد وصل الأمر مداه في يناير ١٩٥٥ حين قتل شخص اسمه "سيرج روبنشاين".. بدأ حياته بأن اشترى حصة من الأسهم في شركة مطاعم باريسية، واستخدم الجنس في أن يدعم نشاطه المالي في فرنسا، ثم في إنجلترا، وقد بلغ الأمر أنه كان يضع أجهزة تصنت في فراش المومسات اللاتي يوظفهن، خاصة في ليالي العمل مع كبار العملاء؛ حتى تصبح المحادثات السرية بين العميل والداعرة وسيلة يستطيع أن يسيطر بها على هذا العميل أو ذاك.

وحين قتل هذا الرجل اتضح للبوليس أن لديه قائمة بأسماء وأرقام تليفونات نحو ألف شخص.. رجل وامرأة.. واتضح أيضا أن هناك عددا مساويا من البشر لديه الدافع كي يقتل سيرج روبنشاتين.

إنه نموذج لقواد من نوع خاص.

قواد العصر الحديث، الذي تختلف صورته عن الصورة التي كونها الناس من قبل عن القوادين. قواد من هذا النـوع الذي يوظف النساء لصـالح صـفقة طـائرات، ويـوظفهن للسيطرة على أثرياء البترول الراغبين في عقـد الصـفقات، أو لترويج بضائع في طول العالم وعرضه.

والغريـب فـي الأمـر أن هـؤلاء القـوادين الجـدد لا يخجلون من أن يسجلوا في الدفاتر ميزانيات هذه الأنشطة؛ كي تخصم من حسابات الضـرائب. والمثيـر أن الوضـع القانوني في الولايات المتحدة سمح لهـم بهـذا فيمـا بعـد (عام ١٩٣٠)؛ حين تم إرساء ما يسمى بمبدأ "كوهـان" فـي حكم محكمة.. صار بعد ذلك القاعدة التي يسير عليها التعامل مع مصلحة الضرائب؛ ففي عام ١٩٢٨ سجل "كوهان" هـذا في حساباته أنه أنفق ٢٢ ألف دولار مـن أجـل الترفيـه. ورفض مكتب الضرائب هذا الاستقطاع، ورفـض كوهـان بدوره أن يدفع.. وقدم أدلته إلى محكمة الضرائب. وقال إنه رجل مشهور ينفق كما ينفق المشاهير، وأحضر كل الشيكات التي سلم بها مبالغ كبيرة للممثلـين والممـثلات.. وحكمـت المحكمة لصالحه.



وفي عام ١٩٤٦، وبعد الحرب العالميـة الثانيـة قـال تقرير للجنة تابعة لمجلس الشيوخ إن إحدى الشركات أنفقـت في أربع سنوات مبلغ مائة وستين ألف دولار على الترفيـه بكل وسائله، بما في ذلك الفتيات. وفـي عـام ١٩٥٤ قـال مندوب من مصلحة الضرائب للجنة أخرى تابعـة لمجلـس الشيوخ أيضا إن شركة صغيرة أنفقت في عام نحو ٤٨ ألف دولار على فتيات الترفيه.

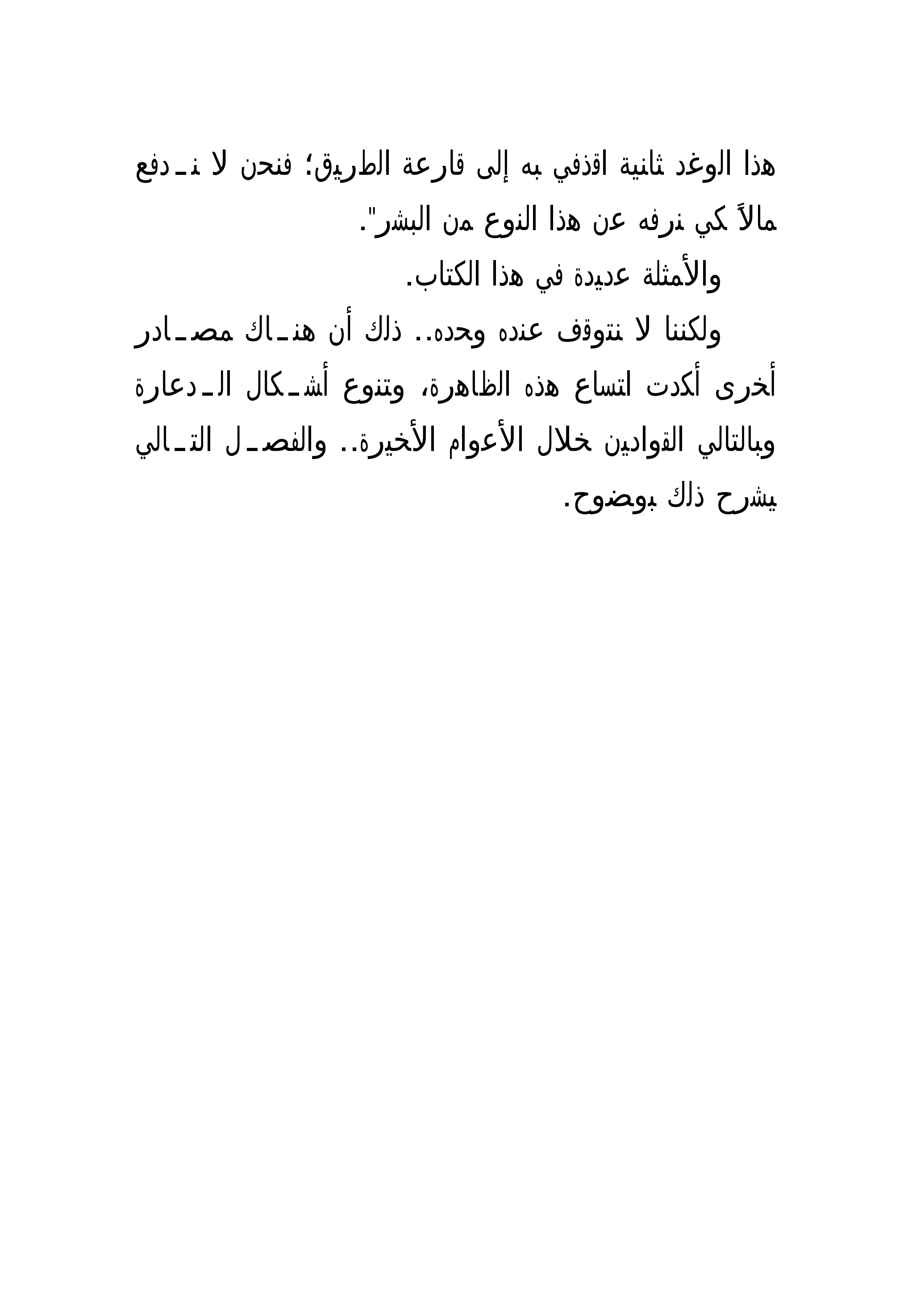
إن هذا يعني أن هذا الأسلوب في العمل صار منتشـرا تماما.

لكن الكتاب الهام الذي نعتمد عليه هنا يؤكد أن الظاهرة لا تقف عند هذا الحد؛ إذ إن هناك أيضا شكل جديـد لهـذا الترفيه اسمه "فتيات المؤتمرات"، وهو شكل يعني أن موظفي ومنظمي المؤتمرات الكبرى يستخدمون عـددا هـائلاً مـن النساء للترفيه عن ضيوف المؤتمرات، خاصة هؤلاء الـذين حضروا بدون زوجاتهم.

في هذا السياق ينقل الكتاب عن صحيفة نيويورك تايمز في ٢١ فبراير ١٩٥٧ قصة كاملة تثبت هذا الأمـر وتقـول القصة: "شهد أمس موظف موقوف عن العمل فـي شـركة

للإمدادات الكهربائية؛ بأنه بناء على طلب أحد رؤسائه دعا فتاتين لحضور مؤتمر الشركة لكي تقوما بخدمات الدعارة". والشاهد الذي تحول إلى شاهد ملك حين اعترف بهذا العمل قال إنه اتصل بداعرة اسمها مس بوجارت، وقال لها إنه يريد فتاتين؛ لأن العملاء تكاثروا على مدير المبيعات، وقد يزيدون أوامر الشراء إذا لقوا من الشركة الاهتمام المناسب. ولسوء الحظ كان هناك تداخل في الخطوط، ووصل الأمر إلى علم البوليس؛ الذي كان مهتما في هذه الأيام باستخدام الجنس في أغراض الشركات.

وقالت فتاة من بين الفتاتين: "لقد كان مطلوبا مني أن أبيع جسدي إلى جانب بضائع الشركة. وقد كنت أحاول أن أخدم الشركة بقدر ما أستطيع. إن هذه ليست المرة الأولى التي أقوم فيها بهذا؛ فمن قبل قمت بمثل هذه المهمة، وتمكنت أن أحصل للشركة على عقد بيع سبع عربات محملة بالبضائع. ولكن الذي حدث أن الزبون خفض قيمة الصفقة في اليوم التالي إلى أربع عربات فقط.. وما كان من مسئول الشركة الذي كلفني بالمهمة إلا أن اتصل بي وقال: إذا جاءك



هذا الوغد ثانية اقذفي به إلى قارعة الطريق؛ فنحن لا ندفع مالاً كي نرفه عن هذا النوع من البشر".

والأمثلة عديدة في هذا الكتاب.

ولكننا لا نتوقف عنده وحده.. ذلك أن هناك مصادر أخرى أكدت اتساع هذه الظاهرة، وتنوع أشكال الدعارة وبالتالي القوادين خلال الأعوام الأخيرة.. والفصل التالي يشرح ذلك بوضوح.

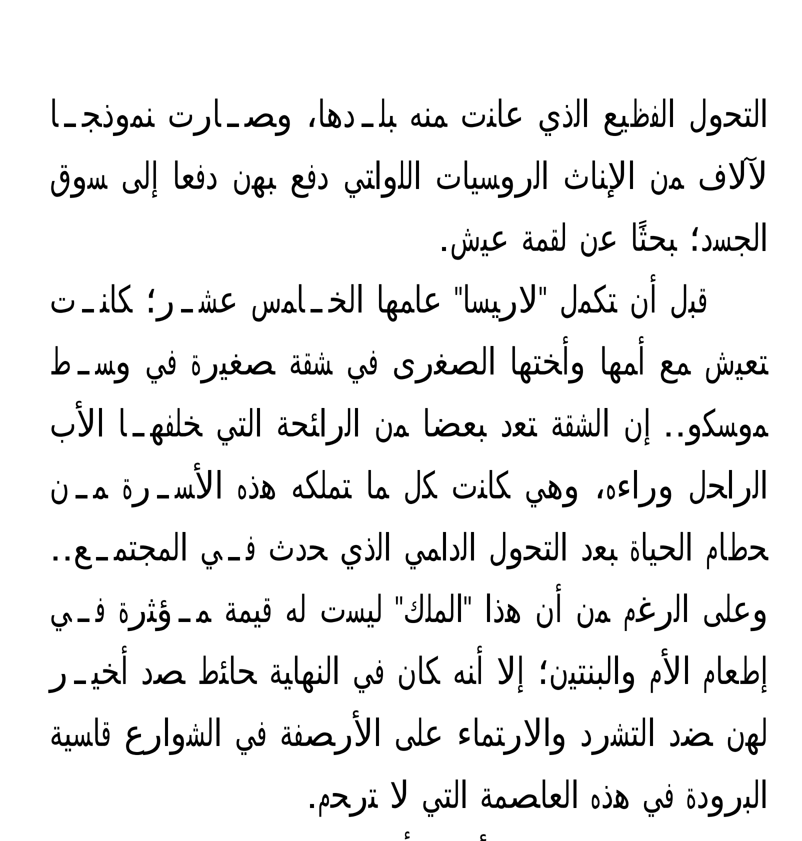
6

غزو فراشات الليل !

"كان طبيعيا للغايـة أن تنهار الدولة، وحين انهـارت ساد الفساد، وظهرت المافيا، وانتعشت سـوق القـوادين؛ فصدروا نصف مليون فتـاة إلى جميع أنحاء العالم"

"لاريسا".. فتاة روسية صغيرة، لم تتخط الربيع السادس عشر، بها ملامح جمال هذه المنطقة التي تقع في الشمال الغربي من العالم.. واحدة من أبناء جيل جديد لم ير العالم السوفيتي القديم الذي كان يحمل علامتي المنجل والمطرقة تعبيرا عن اتحاد الطبقة العاملة من العمال والفلاحين.. بل إنها حتى لم تعرف شيئًا عن الشيوعية، ولم تلقن تعاليمها في المدرسة والحزب، وكافة المؤسسات السياسية الأخرى؛ كما حدث مع أبيها وأمها، ومن قبلهما والديهما؛ حين كان الاتحاد السوفيتي هو القطب الثاني في العالم.. وحين كان لم يزل هناك مذهب سياسي اسمه الشيوعية.

إنها إحدى بنات هذا الجيل الذي جاء إلى الدنيا بعد البروسترويكا، بعد الانهيار، الذي حول هذه الدولة العظمى إلى فتافيت دول.. وكيانات أصغر حجما.. كل منها صارت تسعى إلى اتجاه آخر.. إحدى بنات جيل عاش الانفتاح الروسي على الغرب؛ فذاق مساوئه قبل أن يعرف إيجابياته. فتاة ليست لها علاقة بأي أنشطة سياسية أو أي أيديولوجيات سقطت، وأخرى ارتفعت.. ولكنها رغم ذلك عانت من هذا



التحول الفظيع الذي عانت منه بلدها، وصارت نموذجا لآلاف من الإناث الروسيات اللواتي دفع بهن دفعا إلى سوق الجسد؛ بحثًا عن لقمة عيش.

قبل أن تكمل "لاريسا" عامها الخامس عشر؛ كانت تعيش مع أمها وأختها الصغرى في شقة صغيرة في وسط موسكو.. إن الشقة تعد بعضا من الرائحة التي خلفها الأب الراحل وراءه، وهي كانت كل ما تملكه هذه الأسرة من حطام الحياة بعد التحول الدامي الذي حدث في المجتمع.. وعلى الرغم من أن هذا "الملك" ليست له قيمة مؤثرة في إطعام الأم والبنتين؛ إلا أنه كان في النهاية حائط صد أخير لهن ضد التشرد والارتماء على الأرصفة في الشوارع قاسية البرودة في هذه العاصمة التي لا ترحم.

لكن هذه الحماية الأخيرة أيضا راحت.

ففي يوم في بداية عام ١٩٩٧؛ طرقت مجموعة من الرجال باب الأسرة. وكان هدف هذه الطرقات هو تقديم عرض للأم والبنتين: "اتركوا الشقة، وخذوا بدلاً منها منزلاً في الريف".

لم يكن هناك خيار؛ فالأيدي الثقيلة التي جاءت كانت من القوة والبطش بحيث يجب الإنصات تماما لعرضها، رغم أن الأسرة لم تكن قد عرضت أو طلبت ترك الشقة للاستفادة من قيمة الثـروة العقاريـة التـي يملكونهـا. وبالتـالي كـان من الطبيعي أن تستجيب الأسرة للشق المميز في العـرض؛ أن تذهب الإناث الثلاث إلى هذا المنزل الريفـي المزعـوم للمعاينة. وقد كان منزلاً مزعوما بالفعل.. رغم أنه موجـود وقائم.. إنه خرابة.. لا يقبل حيوان أن يعيش فيها.. فما بالنـا بإنسان.

ووفق منطق ساذج، أو لنقل أمل أخير واهم؛ كـان أن ذهبت الأسرة إلى قسم الشرطة؛ إذ لم يكن لديهم أي نوع من أنواع السطوة أو القوة التي يمكن أن يقاوموا بها هذا العرض الإجباري.. لكن هذا المنطق الذي دفع الأسرة للذهاب إلـى الشرطة كان ساذجا وواهما، ولا يدرك حجم التغيـر الـذي حدث في هذا البلد؛ فالبوليس لم يتحرك.. والسبب بالطبع أن رجال الشرطة متواطئون مع أصحاب العرض الإجبـاري، وأصحاب العرض هم بعض عناصر المافيـا التـي تحكـم

موسكو الآن.. وكان الحل البديل أمام الأم وابنتيها هو الحياة في مأوى للفقراء.

وفي هذه البيئة السياسية الفاسدة والعفنة؛ ولد واحد من أهم أشكال الدعارة في القرن العشرين، ونشأت واحدة من أبرز مؤسسات القوادة في العالم.. ولم لا.. وقد توافرت العناصر الثلاثة اللازمة لهذا.. الفقيرات.. والنظام السياسي المهترئ.. والمافيا.. في مدينة ليس في قلبها الآن ذرة من رحمة.

لقد اختفي الحزب، وانهار الحلم القديم؛ هذا الحلم الذي كان قادرا على أن يوفر لكل الناس الخبز.. صحيح أنه كان خبزا رديئًا مليئًا بالرمال والحصى.. لكنه على الأقل كان قادرا على سد البطون الجائعة.. أما النظام البديل؛ فقد كان قادرا فقط على أن يوفر الجاتوه.. والجاتوه في كل الأحوال يكون من نصيب فئة قليلة في المجتمع.

والواقع إن الجاتوه يمكن أن يكون أقل كثيرا من مستوى هذه الطبقة الجديدة التي خلفها النظام البديل في روسيا الآن. فحسب ما ذكره العدد السنوي من مجلة "فوربس" الأمريكية في عام ١٩٩٧؛ فإن هناك ستة من أغنى

أغنياء العالم يعيشون الآن في موسكو.. أغنياء من نوع غير متخيل.. يلعبون بالبلايين، في ظل أوضاع سمحت بأن يتحول مصنع قماش شهير على أحد جانبي النهر الذي يمر في موسكو إلى فندق خمسة نجوم مكون من ٣٠٠ غرفة فاخرة.. وفي ظل أوضاع جعلت موسكو هدفًا لمليونيرات العالم الغربي.. فصارت بها أفرع لمحلات ماكدونالدز وكنتاكي.. وصارت هدفًا للملياردير الأمريكي دونالد ترامب، الذي ظل طويلاً يبحث عن مكان بارز يقيم فيه فندقًا هاما داخل العاصمة الروسية.

هذا النظام الذي كان يقدمه الغرب إلى العالم على أنه رمز لإمبراطورية الشر (حيث لا حرية ولا ديموقراطية) كان قادرا من قبل على أن يفي بالاحتياجات الأساسية للناس.. كان حريصا على بناء المصانع قبل أن يبني الفنادق.. كان حريصا على أن يساوي بين الناس.. وعلى الرغم من أنه كانت لهذا النظام مساوئه العديدة؛ إلا أنه في النهاية لم يخلق هذا التفاوت الطبقي الفادح الذي دفع بالروس إلى أن يفروا من الفقر إلى كافة البلاد الأخرى.. ومن هنا لا أظن أن أي مصري كان يمكن أن يتخيل أنه سيأتي ذلك

اليوم الذي يجد أمامه في سوق العتبة، وفي حـدائق ميـدان سفنكس عددا من الروسـيات يقفـن فـي انتظـار البحـث عن مشترٍ لكاميرا قديمة، أو جهاز راديو به عبق الصـناعة التي كانت تتمتع بسمعة خاصة.

إن نفس المشهد يمكن أن تراه على شـريط القطـار، وعلى بعد ٨٠ كيلو مترا من جنوب موسكو؛ حيـث يقـف طابور طويل من باعة متجولين فقراء، يحاولون بيع الأجهزة الصغيرة؛ كاميرات، أجهزة تدليك، أواني منزلية، مفكـرات، أقلام.. ولكن لا مشتري.

وتقول مجلة نيوزويك الأمريكية في عدد خاص أصدرته بمناسبة مرور ٨٥٠ عاما على إنشاء موسكو: "هذا النوع من القسوة صار معروفًا الآن في موسكو؛ حيث يمكن أن تجـد خياطات في مصنع قمصان تقبض كـل واحـدة مـنهن ٥٣ دولارا في الشهر.. مبلغ ضئيل جـدا.. بـدون أي عـلاوة متوقعة.. وكثيرات منهن أرامل أو مطلقات. تريد منهن إدارة المصنع أن يعملن لمدة ثماني ساعات كل يوم، مقابـل هـذا الأجر التافه.. وإلا فإن العقاب هو الطـرد.. وبيـع شـقق العاملات.. دون أدنى اهتمام من أي شخص في السلطة".

في هذه الظروف تحولت هذه المدينة التي كانت رمزا لمحاربة الإمبريالية فيما قبل ذلك؛ إلى عاصمة للجريمة، حيث يمكن ببساطة أن تجد في الشارع سيارة مرسيدس محطمة، وقتيلين على جانبيها؛ الأول كان يملك ناديا ليليا والثاني حارسه.. والسبب هو خلاف مع أحد عناصر المافيا التي صارت وكأنها حزب بديل.. وحيث رصدت الإحصائيات ٩٥٢ قتيلاً في العاصمة خلال عام ١٩٩٦، و٨٥٠ قتيلاً خلال العام التالي. وتقول مجلة نيوزويك: إن نسبة الجريمة انخفضت بمعدل ٣٠% عما كانت عليه في عام القمة ١٩٩٥. وانخفضت جرائم الاغتصاب والاختطاف والسطو المسلح بنسب تتراوح بين ٣٣,١٧%.. وليس هذا بسبب عودة سطوة الحكومة ممثلة في وزارة الداخلية، ولكن لأن الحروب الداخلية بين عصابات المافيا قد تم التوصل إلى حل لها. ولا يعني هذا أن المافيا قد اختفت، وإنما يعني أن الأسطورة قد بدأت في استعمال وسائل رفيعة المستوى كي تحقق أغراضها؛ فابتعدت عن جرائم تتم في الشوارع، وتم استبعاد الهواة

من الساحة، وحلت مكانها مجموعات ليس هـدفها الحـرب؛ وإنما هدفها في الأساس جمع المال".

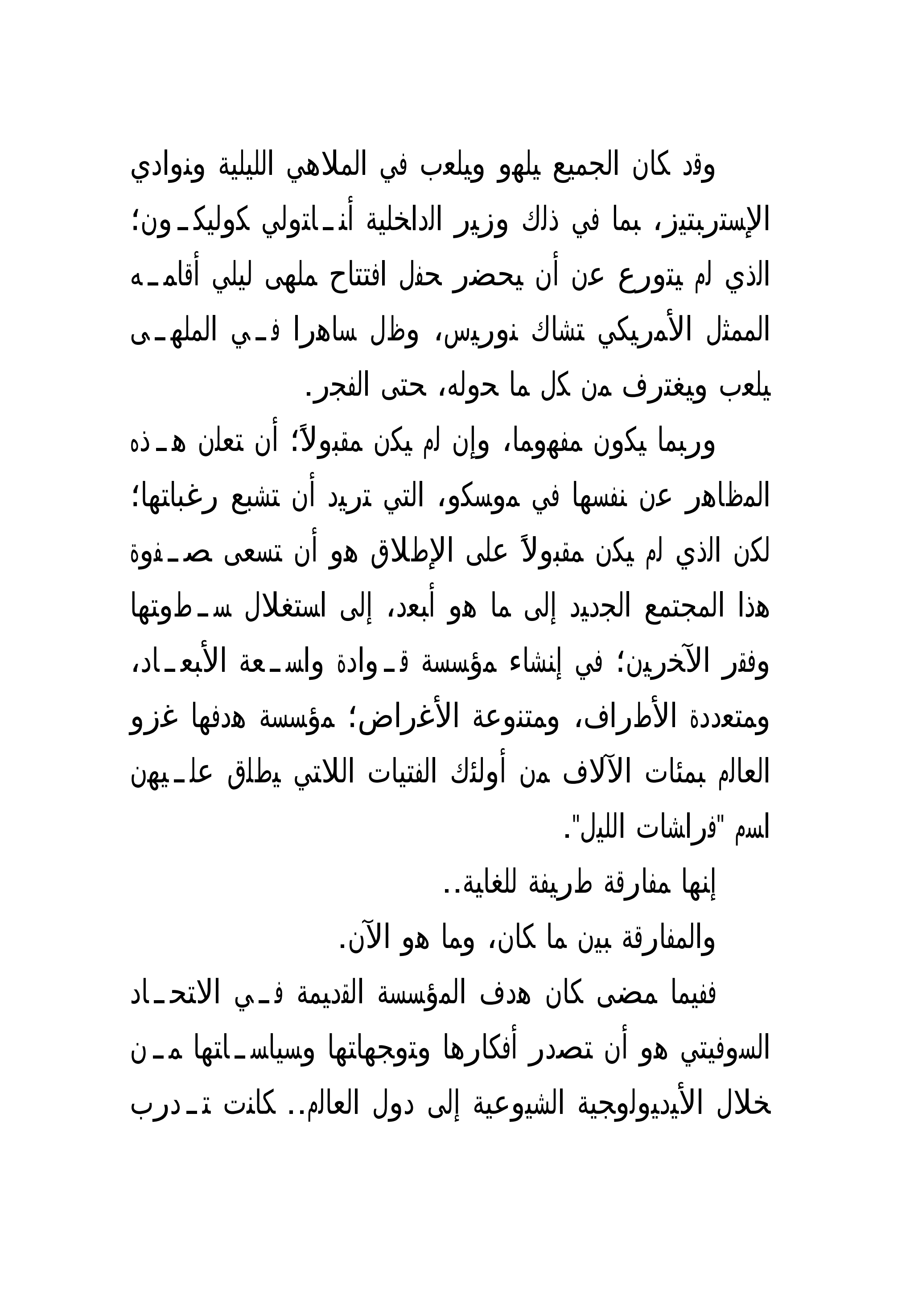
في هذه الأجواء من الطبيعي إذن أن تفـرض المافيـا سطوتها، وأن تدفع المؤسسات الكبيرة لها إتاوة كي تحـافظ على مصالحها.. هذه الإتاوة التي يطلق عليها فـي روسـيا وصف "كرشا".. أو "الغطاء"؛ وهـي التـي ارتضـى بهـا الكثيرون من رجال الأعمال، والذين يقولون: "إن الشـرطة تكسب كثيرا حين تعين رجالها لحماية المتـاجر والنـوادي الليلية كحراس أمن.. لكن الأفضل بالنسبة لنا أن نلجـأ إلـى أحد رؤساء المافيا كي نحصل على الحماية"!

إن الصورة التي خلقت ظاهرة جديـدة مـن ظـواهر الدعارة لم تكتمل بعد؛ ذلك أن هذه البيئة هي التي خلقت على الجانب الآخر مؤسسات فاسدة.. كي يلهـو فيهـا الأغنيـاء الجدد.. والطبقة النامية الصاعدة إلى أعلى.. ومن الطبيعـي الآن أن ترى في موسكو زحاما شديدا وطوابير يقـف فيهـا بعض الناس كي ينتظروا دورهم في دخول مكان تتصـاعد منه نغمات موسيقى الروك الصاخبة في الداخل؛ حيث يقـدم أصحاب المكان عرضا للترويج يقضي بأن يحصل الزبـون

على عشرة أكواب من مشروب التكيلا المسكِر جدا إذا طلب كوبين فقط.. سوف ترى عددا هائلاً من الزبائن يرقصـون فوق البار.. وعددا لا يحصى من النساء تم تـوظيفهن كـي يقمن بعروض الإستربتيز.

هذا المكان اسمه "البطة العرجاء".. ربمـا يعنـي دون قصد الإشارة إلى النظام السياسي القديم والنظـام السياسـي الذي حل بديلاً له؛ فكلاهما كان أعرجا.. وربما كـان اسـم ملهى آخر تعبيرا موازيا عن الحالة الآنية في روسيا؛ فهـو يحمل اسم "فوق وتحت up and down".. إنه المكان الـذي لا يدخله سوى من هم "فوق"، والذين يدفعون عشـرة آلاف دولار في كل عام كاشتراك يحق لهم بـه دخـول الملهـى، والذين يدفعون هذا المبلـغ بـالطبع هـم رجـال الأعمـال الفاسدون. وهنا يمكن أن يختار أي رجل واحدة من النسـاء الجمـيلات المتـوافرات بشـدة، ويـدفع لهـا ٥٠٠ دولار في الساعة كي تفعل أي شيء له.

وكأن موسكو أرادت أن تعوض كل الكبت القديم، وكأن كل الغرائز كانت حبيسة، وكأنها كانت مقيدة.. عطشى تماما، وحين وصل إلى يديها الماء راحت تشرب حتى غرقت.



وقد كان الجميع يلهو ويلعب في الملاهي الليلية ونوادي الإستربتيز، بما في ذلك وزير الداخلية أنـاتولي كوليكـون؛ الذي لم يتورع عن أن يحضر حفل افتتاح ملهى ليلي أقامـه الممثل الأمريكي تشاك نوريس، وظل ساهرا فـي الملهـى يلعب ويغترف من كل ما حوله، حتى الفجر.

وربما يكون مفهوما، وإن لم يكن مقبولاً؛ أن تعلن هـذه المظاهر عن نفسها في موسكو، التي تريد أن تشبع رغباتها؛ لكن الذي لم يكن مقبولاً على الإطلاق هو أن تسعى صـفوة هذا المجتمع الجديد إلى ما هو أبعد، إلى استغلال سـطوتها وفقر الآخرين؛ في إنشاء مؤسسة قـوادة واسـعة الأبعـاد، ومتعددة الأطراف، ومتنوعة الأغراض؛ مؤسسة هدفها غزو العالم بمئات الآلاف من أولئك الفتيات اللاتي يطلق علـيهن اسم "فراشات الليل".

إنها مفارقة طريفة للغاية..

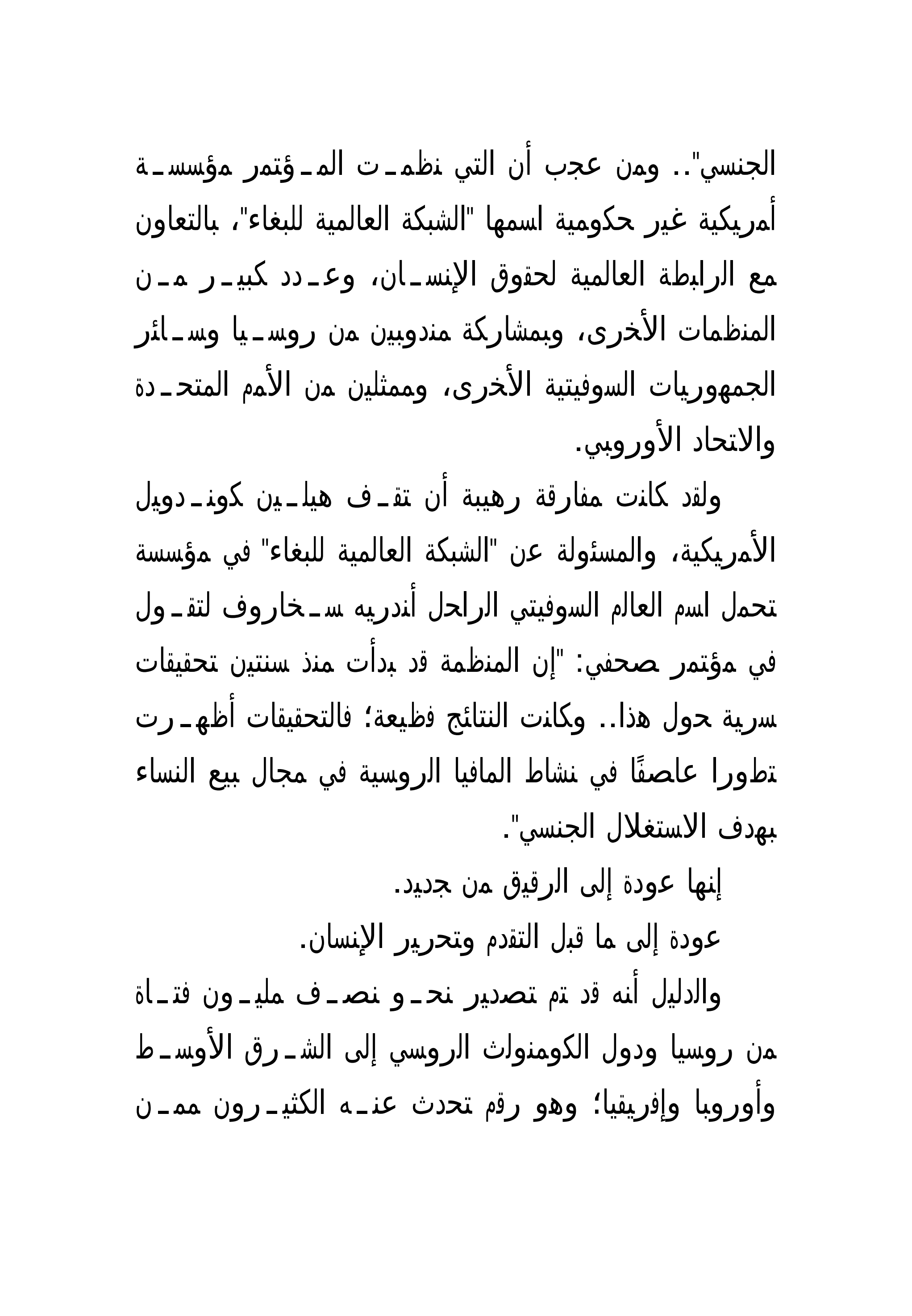
والمفارقة بين ما كان، وما هو الآن.

ففيما مضى كان هدف المؤسسة القديمة فـي الاتحـاد السوفيتي هو أن تصدر أفكارها وتوجهاتها وسياسـاتها مـن خلال الأيديولوجية الشيوعية إلى دول العالم.. كانت تـدرب

الكوادر والقيادات وتعيد التصدير، وكـان مقيـاس نجاحهـا هو مدى قدرتها على أن تجند أكبر عدد ممكن مـن البشـر يروجون لها أفكارها هذه. أما الآن؛ فإن المؤسسـة الجديـدة البديلة ("المافيا") لا تصدر هـذه الأشـياء؛ وإنمـا خلفـت "كومنترن" جنس (إذا جاز التعبير) هدفه هو تصدير البنـات، والاستفادة من ذلك إلى أقصى مدى.

ومن المؤكد أن هذه الظاهرة قد لفتت أنظار الكثيـرين في العالم، خاصة إذا كانت عديد من دول العالم قد اعتبـرت سوقًا لهذه التجارة التي ينظمها عدد هائل من قوادي المافيـا الروسية باهتمام شديد. وهو ما يمكن القول إنه دفع دولاً(مثل هولندا وسويسرا والإمارات وألمانيا وتركيا.. وغيرها.. على الرغم من التباعد الجغرافي فيما بينها) إلى أن يكون لها قاسم مشترك واحد؛ هو أنها صارت هدفًا لعمليات القوادين المسماة "غزو فراشات الليل".

ومن المؤكد أن كثيرين في العالم قـد رصـدوا هـذا، موسكو نفسها فعلت ذلك.. وكان هـذا فـي خـلال شـهر نوفمبر (١٩٩٧)، حين عقِد هناك مؤتمر له عنوان خطيـر: "تجارة النساء من دول الكومنولث السوفيتي بهدف الاستغلال



الجنسي".. ومن عجب أن التي نظمت المؤتمر مؤسسة أمريكية غير حكومية اسمها "الشبكة العالمية للبغاء"، بالتعاون مع الرابطة العالمية لحقوق الإنسان، وعدد كبير من المنظمات الأخرى، وبمشاركة مندوبين من روسيا وسائر الجمهوريات السوفيتية الأخرى، وممثلين من الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي.

ولقد كانت مفارقة رهيبة أن تقف هيلين كوندويل الأمريكية، والمسئولة عن "الشبكة العالمية للبغاء" في مؤسسة تحمل اسم العالم السوفيتي الراحل أندريه سخاروف لتقول في مؤتمر صحفي: "إن المنظمة قد بدأت منذ سنتين تحقيقات سرية حول هذا.. وكانت النتائج فظيعة؛ فالتحقيقات أظهرت تطورا عاصفًا في نشاط المافيا الروسية في مجال بيع النساء بهدف الاستغلال الجنسي".

إنها عودة إلى الرقيق من جديد.

عودة إلى ما قبل التقدم وتحرير الإنسان.

والدليل أنه قد تم تصدير نحو نصف مليون فتاة من روسيا ودول الكومنولث الروسي إلى الشرق الأوسط وأوروبا وإفريقيا؛ وهو رقم تحدث عنه الكثيرون ممن

حضروا المؤتمر، وقالوا إنه بذلك جعل مـن روسـيا ودول الكومنولث منافسا قويا وهاما في هذه التجارة لـدول آسـيا وأمريكا اللاتينية. وقد تحدثوا أيضا عـن أن هـذه التجـارة متعددة الجنسية تحقق للمافيا الجنسية فـي كـل عـام نحـو ٧٠ بليون دولار؛ إنه رقم يكفي لإقامة دولة صغيرة.

ولكن كيف يتم هذا؟

هناك عدة طرق.

الطريقة الأولى تعتمد الغموض. وخداع الضحية، ومن خلال اسـتغلال الفقـر الـذي تعـاني منـه النسـاء الآن في الاتحاد السوفيتي.. وهي الإغراء.. والإغراء يعتمد على إقناع الفتاة بأنها قد تلقت مثلاً "عرض زواج"، أو ربما "عقـد عمل".. وبسرعة وتحت ضـغط الحاجـة؛ تقـع الفراشـة في النار، وتسافر.. حين تصل إلـى البلـد الهـدف؛ تـرى الصورة الحقيقية، وهنـاك تكتشـف أنـه لا يوجـد زواج أو أي عمل؛ وإنما المطلوب منها أن تقدم خـدمات جنسـية، وأن هذا قد تم الاتفاق عليه مسبقًا مع القوادين الذين أرسـلوا بها.

وربما ترفض الفتاة تشبثًا منها ببعض أخلاق؛ لكن هـذا التشبث سرعان ما ينهار ويسقط تمامـا؛ بسـبب عمليـات الضغوط والابتزاز التي يمارسها عليها وكلاء القوادين.

ولقد كان مروعا أن تنشـر صـحيفة روسـية هامـة (هي جريدة "موسك فسكي كمسيولسكي") نص عقد إذعـان رفضه بعض الفتيات مع شركة يابانية للقيام بعمليات جنسية من خلال هذه المافيا.. يقول هذا العقد في شروطه:

١- تقدم الفتاة خدماتها لما لا يقل عن أربعة زبائن فـي اليوم.

٢- مدة العمل ستة أيام في الأسبوع، في كل يوم ثمـاني ساعات.

٣- تتقاضى الفتاة من الزبون ٢٠٠ دولار.

٤- يحصل مالك النادي الليلي على ٣٠ % من الأجر.

٥- إذا أخلت الفتاة بشروط العقد، أو قامت بـأي مهـام خارج الإطار؛ فإنه يحـق لمالـك النـادي الليلـي أن يحصل على كافة المبالغ الأخرى، ويصادرها.

هذا هو نص العقد؛ وهو نص واضح، يعني أن المافيـا صارت مؤسسة، وأن القوادين الروس لهم الآن أفرع في كل

مكان، وأنه لا توجد طريقة أو وسيلة للفـرار أمـام فراشـة الليل؛ فالفقر من ورائها، والبغاء من أمامها.. والحل الوحيـد أمامها معروف، خاصة إذا كانت تُدفع إليه بكل قـوة تحـت ضغط الابتزاز وأشياء أخرى.

هذه هي الطريقة الأولى. أما الطريقـة الثانيـة فهـي معروفة، وخلاصتها هي موافقة الفتاة على أن تعمل بشـكل مباشر.. وبدون أي ضغوط؛ ذلك أن الفقر والضياع لم يتركا لها فرصة كي تختار.. وليس هناك أي احتمـال لأي مهنـة أخرى كي يسدوا بطون الجوع المفتوحة؛ سواء في روسـيا وداخل شارع "تفير سكايان" في وسط موسكو (حيـث يعـج بعديد من فراشات الليل)، أو في الخارج.

وفي المؤتمر الذي تحدثنا عنه مـن قبـل؛ كـان هـذا الموضوع قد تم طرحه. لكن النقطة الأهم التي ركز عليهـا أولئك الذين حضروه هي أن المشكلة لا تكمـن فقـط فـي إخضاع هؤلاء الفتيات لعمليـات الابتـزاز كـي يمارسـن "الجنس"، وإنما أيضا في أنهن لا يستطعن العودة إلى الوطن؛ فالطريق مسدود، ولا توجد فرصة.. ومن هنا طالب المؤتمر بتوفير سبل العودة لهن.

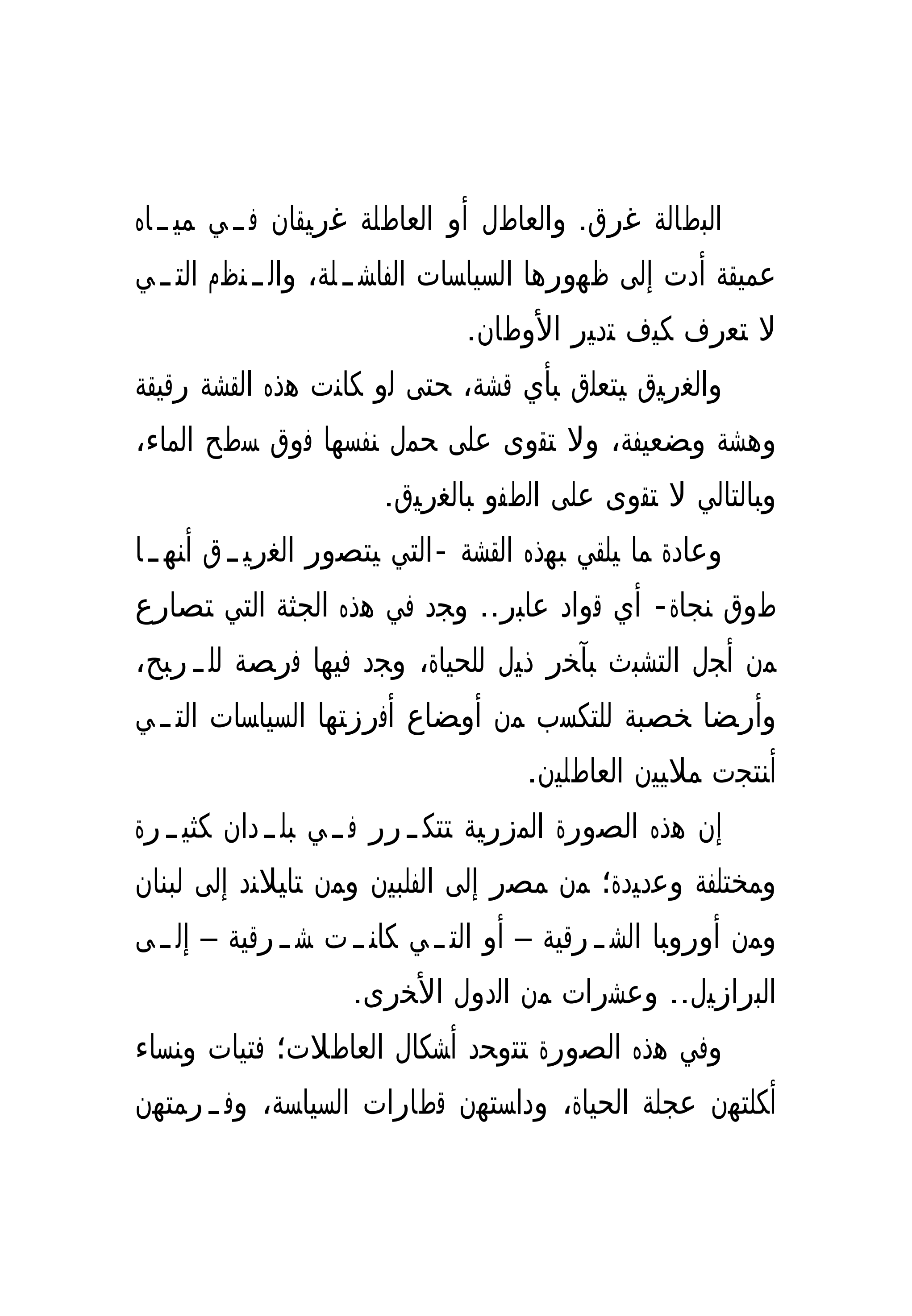
إنهـا صـورة معقـدة لاسـتفادة شـبكات القـوادة من الأوضاع السياسية المهترئة.. استفادة من أوضاع سـيئة خلقت الفقر، وخلقت الفساد.. وبالتالي خلقت تطور هذا الفساد حين لم يجد من يردعه، خاصة أنه لا يوجد قانون في روسيا يحرم عمليات استغلال النساء.. ولو كان موجودا فالدولة أمام مافيا القوادين لا تملك قوة تنفيذه.

إن الدولة حين تختفي.. يسيطر القوادون.

7

وحش الفقر الجائع

"حين رفضت ممارسـة الدعارة؛ أحضروا لها ابنتها، وخلعوا ملابسـها، وراحـوا يطفئون فـي جسـد الطفلـة سجائر مشتعلة".



البطالة غرق. والعاطل أو العاطلة غريقان في مياه عميقة أدت إلى ظهورها السياسات الفاشلة، والنظم التي لا تعرف كيف تدير الأوطان.

والغريق يتعلق بأي قشة، حتى لو كانت هذه القشة رقيقة وهشة وضعيفة، ولا تقوى على حمل نفسها فوق سطح الماء، وبالتالي لا تقوى على الطفو بالغريق.

وعادة ما يلقي بهذه القشة -التي يتصور الغريق أنها طوق نجاة- أي قواد عابر.. وجد في هذه الجثة التي تصارع من أجل التشبث بآخر ذيل للحياة، وجد فيها فرصة للربح، وأرضا خصبة للتكسب من أوضاع أفرزتها السياسات التي أنتجت ملايين العاطلين.

إن هذه الصورة المزرية تتكرر في بلدان كثيرة ومختلفة وعديدة؛ من مصر إلى الفلبين ومن تايلاند إلى لبنان ومن أوروبا الشرقية – أو التي كانت شرقية – إلى البرازيل.. وعشرات من الدول الأخرى.

وفي هذه الصورة تتوحد أشكال العاطلات؛ فتيات ونساء أكلتهن عجلة الحياة، وداستهن قطارات السياسة، وفرمتهن

ماكينات الفقر، وكادت أن تقضي عليهن أوضاع اقتصـادية مأساوية؛ حيث لا يصبح هناك أي سبيل للنجاة سوى بيع هذا الجسد الذي أوشك على الفناء، بعد أن فشلت كل محـاولات توظيف طاقات هذا الجسد في أعمـال شـريفة؛ فلـم تعـد المواهب تفيد، ولم تعد الإمكانيات العملية والمهارات الفردية تجدي، ولم تعد الشهادات تقدم لقمة العيش.

وفي هذه الصورة يكون طـوق النجـاة الـذي يقدمـه القوادون ناعم الملمس، يـوحى بأنـه قـوي، وأن الحبـل المربوطة به نهايته في أيدٍ أمينة، هدفها الظاهر هو الإنقـاذ؛ لكن الواقع سرعان ما يؤكد أن النتيجة الطبيعية لعملية الإنقاذ تلك هي مزيد من الغرق، والنهاية الحتمية.

وفي هذه الصورة يكون القواد هو الحل البديل، البـديل للدولة التي تركت مهمتها في توظيف الناس، البديل لمجتمـع لفظ هؤلاء وتركهم للتشرد، البديل الذي يقدم حلما بديلاً. حلم لقمة العيش والشرب والسرير والأسرة.. الحلم الذي سرعان ما يتضح أنه وهم.. أقل حتى من أن يوصف بأنه سراب.

وفي بعض الأحيان يكون القواد الذي قدم هـذا البـديل (طوق النجاة) واضحا.. جليا.. كاشفًا عـن أهدافـه.. وفـي

أحيان كثيرة أخرى يكون القواد مستترا، يضع ستار الغموض على ما يقدمه، ويغطي طوق نجاته بعديد من أزياء التنكـر، ويخفي وهمه وحلمه الذي يبيعه بمزيد من أغطية، تـزعم أن هدفها الحقيقي هو الإنقاذ ليس إلا.

وفي وقت من الأوقات وحتى الآن؛ كانت الفلبين واحدة من الدول التي تعبر عن هذه الصورة التـي نرسـمها الآن بوضوح شديد؛ أوضاع اقتصادية متردية، سياسيون فاشـلون وفاسدون، على رأسهم ديكتاتور يسـرق كـل شـيء؛ هـو ماركوس، وفقر كالوحش الجائع دائما، يلتهم كل يوم ألـوف البشر العاطلين. ولم يكن هناك أي حل سوى الهروب بعيـدا عن أنياب هذا الوحش. هروب تمثل في الهجرة من الفلبـين بعيدا إلى دول أخرى؛ حيث توهم الفقراء أن هناك أملاً.

إن فريقًا من الهاربين لم يكن أمامه من مفر سـوى أن يعمل في مهن وضيعة فـي دول الخلـيج، وفـي مصـر، وغيرها؛ خادمات.. مربيات.. جليسـات أطفـال.. عمـال نظافة.. عمال حراسة.. طباخات.. أي شـيء.. المهـم أن يحصلوا وأن يحصلن على ما يمكن أن ينقـذهن مـن هـذا الوحش الجائع دائما في بلادهم.. الفقر.

وفي أحيان كثيرة كان هذا الفريق يكتشف أنه قد هرب من الرمضاء إلى الجمر؛ حيث تصادف النساء (بعضهن) تحرشات جنسية، واعتداءات عنيفة في بعض بيوت الخليج؛ حولتهن من خادمات إلى رفيقات، ومن مربيات إلى عشيقات، ومن جليسات أطفال إلى أمهات أطفال في الحرام، وحيث صادفن وحشًا آخر، بعد أن كان يحمل اسم الفقر في بلادهن؛ صار يحمل اسم الاستغلال في البلاد الأخرى..

الفريق الآخر من الهاربين سلم نفسه بوضوح، وباتفاق مسبق إلى قواد كشف نفسه من البداية. هذا الفريق لم يخدع ذاته، وارتضى أن يقع في أسر وحش الاستغلال بدون أن يكلف القواد ممارسة أي ضغوط. وهكذا تحولن من نساء فقيرات إلى داعرات مكشوفات، معلنات، مؤكدات، من خلال شبكة دولية عريضة تشبه تلك الشبكات التي نشأت في روسيا فيما بعد، ووظفت وأجبرت عددا هائلاً من العاطلات السوفيتيات في رحاب الترفيه العالمي، كما أوضحنا في فصل خاص من هذا الكتاب.

في منتصف الثمانينيات كانـت هنـاك ثـلاث طـرق لاجتذاب هؤلاء الفقيرات من الفلبين إلـى شـبكات القـوادة الدولية.. وهذه الطرق-كما قالت جريدة السياسـة الكويتيـة (في ٩ فبراير ١٩٨٥) تحت عنوان: "فتيات الفلبين وتايلانـد يقعن في مصيدة الرقيق الأبيض"- هي:

١- دعوة الفتيات إلـى المشـاركة فـي المهرجانـات والاحتفالات المختلفة التي تنظمها الدولة خارجها.

٢- دعوتهن من المؤسسات وأصحاب العمل الخاص.

٣- دعوتهن من قبل فنانين، وبصفة شخصية، للعمل في دور الترفيه.

وحسب نفس التقرير المشار إليه، وحسب ما تقول نفس الجريدة؛ فإن النوعين الأول والثاني سرعان ما كن يتحـولن إلى داعرات مستترات في دول مختلفـة (منهـا اليونـان)، وتحمـيهن إجـراءات قـدومهن إلـى هـذه الدولـة من خلال علاقات رسمية عبر وزارة الخارجية. بينما كـان الفريق الثالث يأتي عن طريق عشرات من وكلاء الفنـانين، الذين كانوا يقدمون أسماء الفتيات لمراكز التعامل الرسـمي مع الأجانب؛ فيحصلن على تصاريح إقامة وعمل.

وأيا ما كانت طريقة الدخول إلى البلـد الهـدف؛ فـإن المرحلة التالية معروفة ومؤكدة، فالبنات اللاتي أتين هروبـا من وحش الفقر الجائع، دائما يكون مطلوبا منهن أن يتدربن على بعض الرقصات واستعراضات الترفيـه. وحـين يـتم التدريب يكون عليهن العمل، والعمل دائمـا فـي محـلات رخيصة. بعد هذا إما أن يتعرضن لضـغوط مـن هـؤلاء الوكلاء، وتهديدات أقلها الطرد والعودة إلى الفلبين، وأشـدها القتل، وإما أن يفاجأن بأن أجور الرقص والترفيه لا تكفـي، وفي الحالتين لا يكون أمام الفتيات سوى ممارسة الـدعارة؛ إما بالإكراه أو بالاختيار.

إنه وحش الاستغلال مرة أخرى.

وهذا الوحش ليس رحيما بالطبع.

ولا يوجد وحش رحيم بالتأكيد.

إن صورتهن في دولة مثل اليونان دليل علـى ذلـك؛ فتيات متعبات، خائفات مهددات؛ كلما ازداد الاعتداء، وكلمـا ازدادت قسوة التهديد؛ كلما ازدادت المساحة التـي يكشـفنها من أجسادهن. الابتسامات الباهتـة التـي تغطـي وجـوهن في أغلب الأحوال لا تخفي كيف أنهن يحاولن إنقاذ حيـاتهن

بمزيد من السقوط في رذيلة الحيـاة؛ ضـائعات، تائهـات، مقيدات بسلاسل قوية مع شبكات قذرة؛ سلاسـل لا تنقطـع إلا حين تتدخل أجهزة الدولة التي ذهبوا لهـا كـي تطبـق القوانين؛ فتطردهن، ويعدن من جديد إلى حيـث سـيلتهمهن وحش الفقر الجائع دائما في بلادهن.

والصورة التي التقطت في الفلبين لا تختلف كثيرا عـن الصورة التي يمكن أن تلتقطها في مصر؛ فتيـات فقيـرات وقوادون، الدعارة هي طوق النجاة من الضياع، واسم المهنة الجديد قد يكون أيضا فنانة، وقد يكون كوافيرة، وقد يكـون مربية، وفي كل الأحوال فإن القـوادين يسـتغلون الوضـع المزري لهؤلاء؛ فيلقون بهن في غياهب دول أخرى؛ حيـث الأنياب الراغبة في امتصاص الدماء في الانتظار.

في منتصف الثمانينيات أيضا، وفـي ديسـمبر ١٩٨٥ بالتحديد؛ كانت نفس ملامح هذا الوضع السيئ ترصـد فـي القاهرة (جريدة الأخبار ٢ / ١٢ / ١٩٨٥) امرأة في نحـو الخامسة والأربعين من عمرها، مات زوجها، ترك لها أربعة أبناء، ثلاثة ذكور وبنت واحدة، وكانت تعيش حيـاة عاديـة للغاية، ليس بها شيء غير طبيعي، ولكن فجأة انتبهت شرطة

مكافحة جرائم الآداب إلى أنها تدير شبكة للرقيق الأبـيض، بها أكثر من مائة فتاة، أغلبهن يذهبن إلى الإمـارات. وقـد عرفت المباحث كيف تدير هذه السيدة تلك الشبكة؛ لكنها لـم تعرف أبدا كيف تحولت من امرأة عادية إلى قوادة تسـتغل فقر النساء، وتحتـال علـى حلـم الراغبـات فـي السـفر إلى الخارج، وتهدد، وتدفع، وتجبر الحالمات بـأن يتحـولن إلى داعرات.

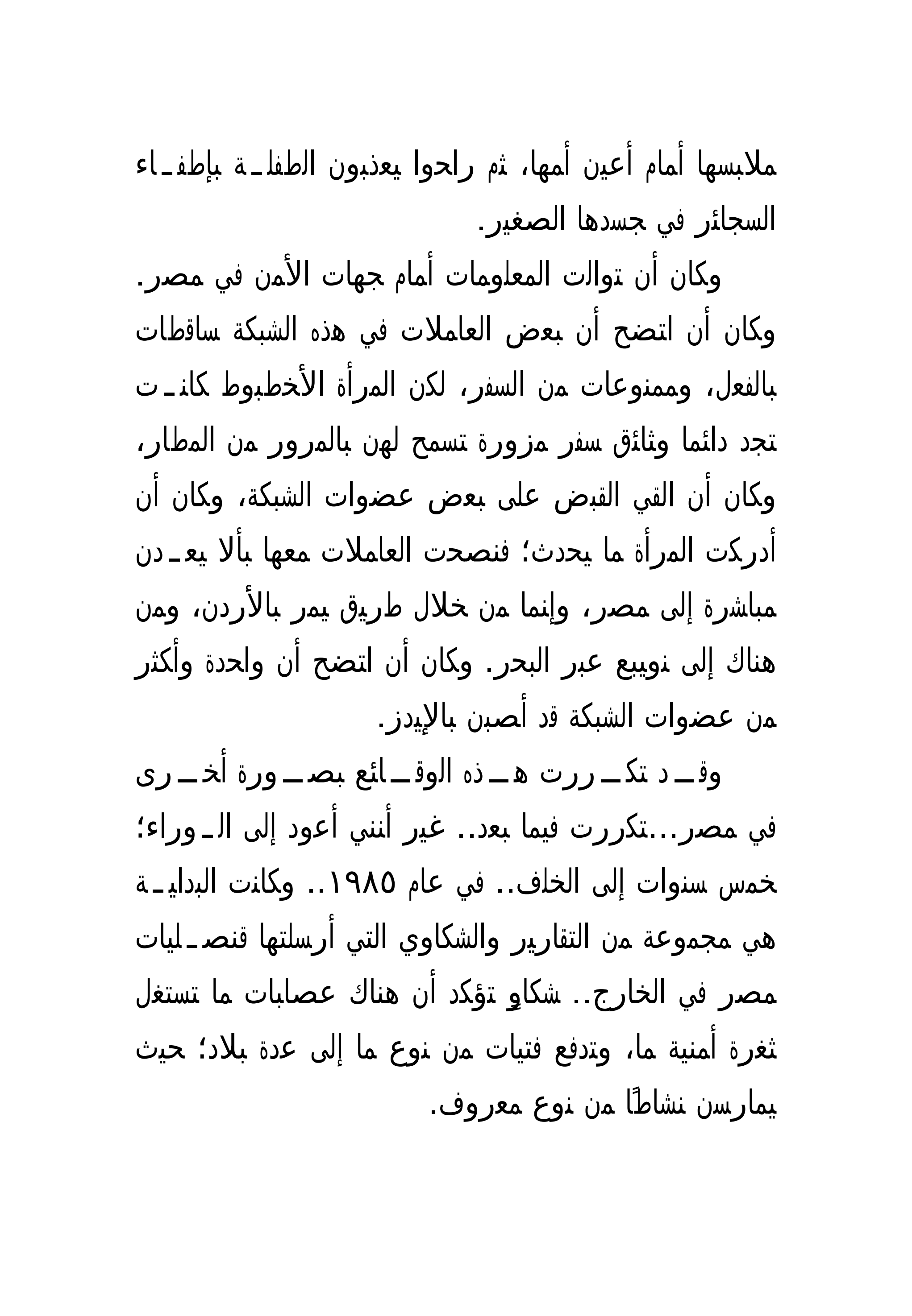
لقد وصفت بأنها امرأة أخطبوط، لها عشـرات الأذرع في أكثر من مكان، وقد كانت بعض أذرعها في الإمـارات؛ حيث عدد كبير من المتعاونين معها، وقـد كانـت أذرعهـا الأخرى في محافظات مصر، تلتقط بعين خبيرة النساء اللاتي تبحث عنهن، تستدرجهن على بساط حلم العمل في الخلـيج. تقول لهذه إنك ستعملين كوافيرة، ولتلك إنك عاملة تطريـز، وتوحي للأخريات بغير هذا. وهناك، وبعد السفر، وبعـد أن تصل الفتيات إلى حيث يتصورن أنه مكان الرزق الحـلال؛ يفاجأن بأن المطلوب الحقيقي مـنهن هـو الحيـاة الدائمـة في شقق ثلاث عمارات تستأجرها المرأة الأخطبوط لممارسة الدعارة.

إن الرفض بمثابة القهر والإذلال.وقد بلغت قوة سـطوة هذه المرأة حد أنها أجبرت فتاة على أن تمارس الرذيلة مـع أربعـين رجـلاً خـلال يـوم واحـد.. لا أعـرف متـى أو كيف؟! ولكنها معلومات وصلت للشرطة!.

والأساليب عديدة ومتنوعة.إنها مـثلاً تبـدأ بخيرزانـة يمسك بها رجل تابع لهذه المرأة، ينهال بها ضربا على جسد كل من ترفض.. ولكـي تهـرب الرافضـة مـن لسـعات الخيرزانة؛ فإن عليها أن تستسلم لسياط الحرام.

إنها أيضا (أي أساليب القهر والإذلال) تمتد إلـى حـد تصوير بعض النساء في أوضـاع مزريـة ومخجلـة بعـد التخدير، ثم استخدام هذه الوثائق الموجودة على شرائط فيديو في إجبار اللاتي تم تصويرهن على الطاعة.

وقد اعترفت سيدة وقعت في براثن هذه الشـبكة التـي تدار بأساليب أجهزة التخابر؛ بأنها كانـت تريـد الحصـول على فرصة عمل لائقة في الخارج. وحين اتضـح لهـا أن المطلوب شيء آخر؛ رفضت، وكانت النتيجة هـي التهديـد بقتل ابنتها. وقد تخيلت لوهلة أن هذا تهديد أجوف؛ فرفضته مرة أخرى.. وما كان منهم إلا أن جاءوا بابنتهـا، وخلعـوا


ملابسها أمام أعين أمها، ثم راحوا يعذبون الطفلـة بإطفـاء السجائر في جسدها الصغير.

وكان أن توالت المعلومات أمام جهات الأمن في مصر. وكان أن اتضح أن بعض العاملات في هذه الشبكة ساقطات بالفعل، وممنوعات من السفر، لكن المرأة الأخطبوط كانـت تجد دائما وثائق سفر مزورة تسمح لهن بالمرور من المطار، وكان أن القي القبض على بعض عضوات الشبكة، وكان أن أدركت المرأة ما يحدث؛ فنصحت العاملات معها بألا يعـدن مباشرة إلى مصر، وإنما من خلال طريق يمر بالأردن، ومن هناك إلى نويبع عبر البحر. وكان أن اتضح أن واحدة وأكثر من عضوات الشبكة قد أصبن بالإيدز.

وقــد تكــررت هــذه الوقــائع بصــورة أخــرى في مصر...تكررت فيما بعد.. غير أنني أعود إلى الـوراء؛ خمس سنوات إلى الخلف.. في عام ١٩٨٥.. وكانت البدايـة هي مجموعة من التقارير والشكاوي التي أرسلتها قنصـليات مصر في الخارج.. شكاوٍ تؤكد أن هناك عصابات ما تستغل ثغرة أمنية ما، وتدفع فتيات من نوع ما إلى عدة بلاد؛ حيث يمارسن نشاطًا من نوع معروف.

والقواد في هذه المرة لم يكن شخصـا واحـد، كـانوا أربعة؛ ثلاثة من الإسكندرية، وواحد من القاهرة.. كلهم لهـم ملفات، ومسجلون في مباحث الآداب.. لكن هذا لم يمـنعهم من أن يعودوا إلى ممارسة هذا الإدمان الذي يسقط في بئره عدد من البشر؛ بئر القوادة. وقد كانت الطريقة هي الإيهـام للجميع بأن هناك فرص عمل في الخارج، وأنهـم يوظفـون القوى العاملة في الدول العربية، إلا أنهم كانوا فـي الواقـع لا يقومون سـوى بتسـفير النسـاء، خاصـة المسـجلات والممنوعات من السفر، وبجوازات سفر مزورة؛ إلى حيـث يقابلهن مندوب تابع للعصابة في الدولة الهدف.

وهذه المجموعة كانت عادية وسـاذجة.. هكـذا تقـول طريقة العمل التي كانت تتبعها في تجنيد الفتيات؛ فهي دائما أمام نوعين من النساء.. نوع يوافق.. ونوع يرفض.. الـذي يوافق غالبا ما يسافر مستترا خلف عقد زواج وهمي.. والذي يرفض كان يوقع على إيصال أمانة بألف جنيه (كـان هـذا الرقم كبيرا حينئذ) حتى يقع تحت ضـغط هـذا الإيصـال. والمثير أنه في نفس التوقيت كانت هناك مجموعات أخـرى

تعمل في نفس الاتجاه، ولكـن بأسـلوب آخـر ("الأهـرام ١٤ / ٦ /١٩٨٠").

المجموعة الأبرز من هؤلاء القوادين كانت تضم شابين؛ الأول اسمه جورج، والثاني اسمه جمال.. ينشرون إعلانًا في الصحف.. الإعلان يطلب فتيات يصلحن للعمل كوجوه جديدة في مجال الفن، والتدريب على الـرقص، والإعـلان كـان يتكرر، وعدد هائل من الإناث كان يستجيب للإعلان، وفـي كل مرة كانت عيون الشابين القوادين تقلب وتفرز، وتـرى وتنقب عن النوع الأكثر صلاحية للإغراء؛ للإغراء بالعرض الذي يقدمانه، ولإغراء الآخرين.

وحين يستقر الاختيار على واحدة أو أكثر مـن أولئـك الهاربات من وحش الجوع؛ كان القوادان يوهمـان الفتيـات بأنهن سوف يعملن في السينما، ويقنعانهن بالظهور كوجـوه جديدة في تابلوهات راقصة، ويبدأ الفخ في الاتسـاع حـين يطلب القوادان من كل فتاة مبلغ ٤٠٠ جنيه مصري نظيـر استخراج جواز سفر، يتضح فيما بعد أنه مزيف، وعقد عمل يتضح فيما بعد أنه غير حقيقي.

بهذه الطريقة حصل القوادان على عشر فتيات؛ هـرب بعضهن إلى السودان ودول إفريقية وعربية، واتضح أن هذا كله يتم لصالح شبكة دولية للرقيق، وأن الهدف هو توظيـف الفتيات في الدعارة تحت ستار الفن، وبإغراء قتل شبح الفقر الجائع دائما.

إن القصة بحذافيرها تتكرر من حين لآخر.

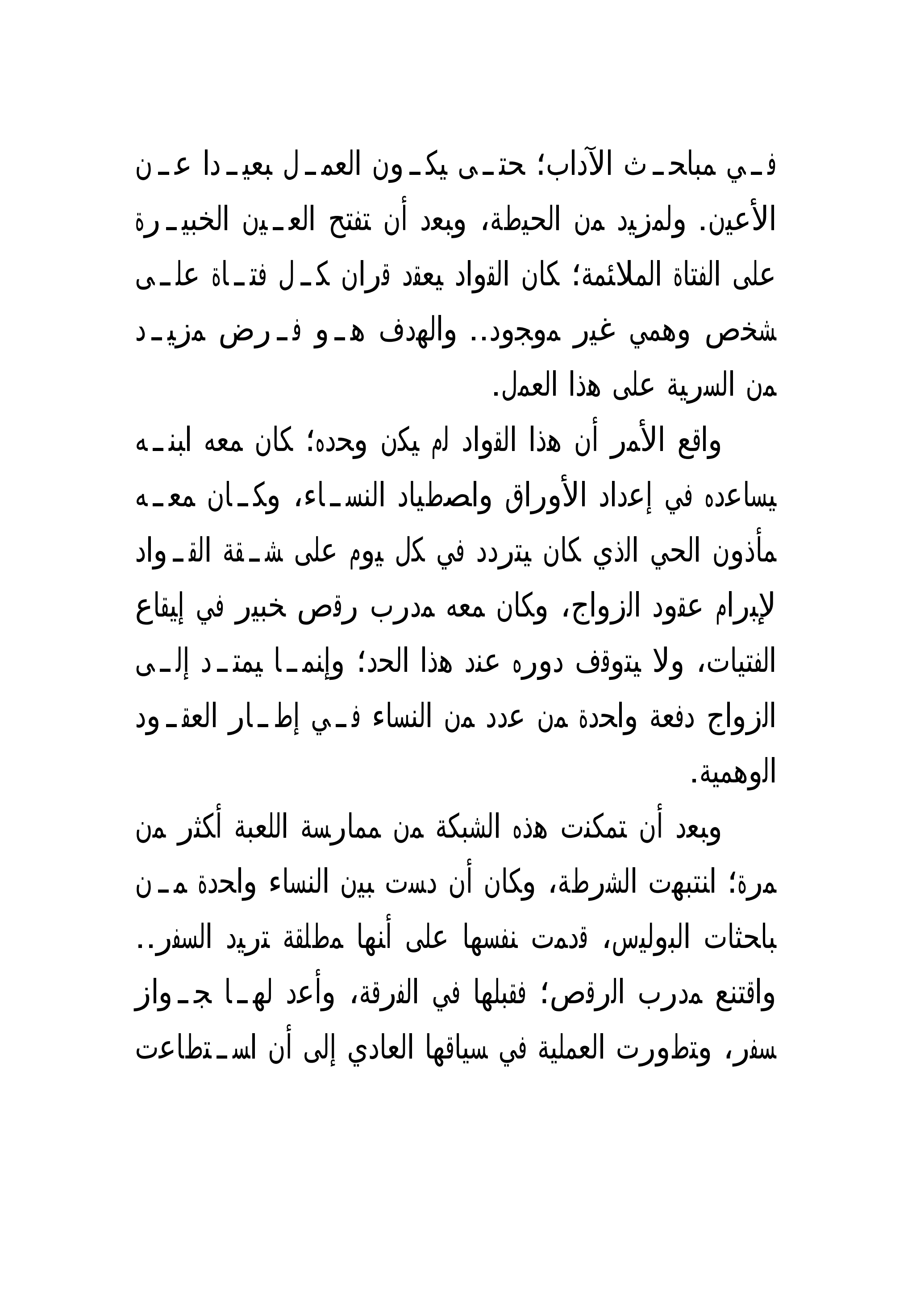
نفس اللعبة..

ونفس أساليب القوادين.

سواء جرى هذا في السبعينيات أو بعدها.

ففي عام ١٩٧٥، وفي عز صيف القاهرة الساخن، فـي يوليو؛ تحول وكيل فنانين إلى هذا النوع من القـوادة. لقـد كانت كل مهمته في مصر تنظيم الحفلات، وإقامتها في أماكن مختلفة، وفق ما يطلب منه. هذه الوظيفة سهلت لـه فرصـة التعرف على عدد كبير من هذا النوع من الفتيـات السـاعي للرزق والأضواء؛ هروبا من ضغوط وآلام الشوارع الخلفية المتعبة.

كان الستار هو إنشاء فرقة للفنون الاستعراضية، وكان الهدف هو السعي إلى نسـاء وفتيـات لـيس لهـن ملفـات


فـي مباحـث الآداب؛ حتـى يكـون العمـل بعيـدا عـن الأعين. ولمزيد من الحيطة، وبعد أن تفتح العـين الخبيـرة على الفتاة الملائمة؛ كان القواد يعقد قران كـل فتـاة علـى شخص وهمي غير موجود.. والهدف هـو فـرض مزيـد من السرية على هذا العمل.

واقع الأمر أن هذا القواد لم يكن وحده؛ كان معه ابنـه يساعده في إعداد الأوراق واصطياد النسـاء، وكـان معـه مأذون الحي الذي كان يتردد في كل يوم على شـقة القـواد لإبرام عقود الزواج، وكان معه مدرب رقص خبير في إيقاع الفتيات، ولا يتوقف دوره عند هذا الحد؛ وإنمـا يمتـد إلـى الزواج دفعة واحدة من عدد من النساء فـي إطـار العقـود الوهمية.

وبعد أن تمكنت هذه الشبكة من ممارسة اللعبة أكثر من مرة؛ انتبهت الشرطة، وكان أن دست بين النساء واحدة مـن باحثات البوليس، قدمت نفسها على أنها مطلقة تريد السفر.. واقتنع مدرب الرقص؛ فقبلها في الفرقة، وأعد لهـا جـواز سفر، وتطورت العملية في سياقها العادي إلى أن اسـتطاعت

الشرطة منع سفر ١٧ فتاة في المطار، لكن في الطريق إلـى إيطاليا .("الأهرام، ١٢ / ٧ / ١٩٧٥").

واقـع الأمـر أن تلـك كانـت موضـة القـوادين في السبعينيات في مصر. وفي عام ١٩٧٣ وحده ضـبطت مباحث الآداب ١٣ قضية، اتهمت فيهـا عصـابات تتـاجر في الأعراض خلف اسم الفن، وترسل الفتيات إلـى لبنـان وسوريا ونيجيريا، وكانت الأمثلة عديدة في ذلك الوقت؛ منها مثلاً سيدة كانت تعمل كوافيرة، وهي وزوجها كانا يسـفران الفتيات إلى لبنان وليبريا أيضا؛ حيث كان يعمل شقيق الزوج الذي يكشف هناك عن أن هوية العمل الحقيقي ليسـت هـي الفن؛ وإنما الدعارة..

ووفقًا لما ذكره ضابط مباحث في ذلك الوقـت لمجلـة صباح الخير ("عـدد ١٢ / ١٢ / ١٩٧٤")؛ فإنـه بمجـرد وصول الفتيات إلى الدولة الهـدف، يقـوم القـواد بسـحب جوازات السفر لإجبارهن على العمل القذر. وفـي القـاهرة يكون قد سبق هذا توقيع شيكات وكمبيالات بمبـالغ كبيـرة لمزيد من التهديد والضغط، وفي المقابـل تزيـد إغـراءات

الثراء الفاحش والهدايا والأموال؛ حيث غالبا ما تقع الفتاة أسيرة للإغراء خشية التهديد.

ورغم أن المشكلة واضحة؛ إلا أن الدولة في مصر كانت حريصة -ولم تزل- على أن تعالج مثل هذه الأمور بمزيد من الإجراءات، التي سرعان ما يكتشف فيها القوادون الثغرات ويلتفون حولها. وهكذا فإن مباحث الآداب اقترحت أن تشكل لجنة من أهل الخبرة ("فنانة كبيرة، وأساتذة في معاهد فنية") لتحديد من هي الراقصة التي يجب أن تسافر، لكن هذا الاقتراح لم يتحقق، وكان أن أمرت السفارات في الخارج بأن تراجع أوراق هؤلاء قبل أن يصرح لهن بالعمل في الملاهي الليلية في الخارج، كما تحدد لهن الملاهي التي يمكن أن يعملن بها، ويبتعدن عن الأماكن سيئة السمعة.

وفي الحقيقة فإن هذه الإجراءات لم تتم، وكان من الممكن أن تسافر أي سيدة بمهنة أخرى في جواز السفر، ثم تتحول إلى المهنة التي تريدها في الدولة التي ذهبت إليها. وكمثال؛ فإن خياطة وصلت بيروت في ذلك العام، وراحت

تعمل راقصة في كباريه، وربة منزل فعلت نفـس الشـيء، وفي القاهرة كانت مباحث الآداب تقف مكتوفة الأيدي.

ولم تكن المشكلة في الإجراءات والقوانين.

والدليل أن الظاهرة تكررت فيما بعد في التسعينيات.

والدليل قضية ضبطت فيها ٢٥ فتاة كن في الطريق إلى البحرين.

وقلبت الدنيا، وتحدثت النقابات، ومصلحة الجـوازات، ولم تختلف التفاصيل؛ فالمشكلة الأكبر كانت قائمة، وهي أن الفقر الذي يدفع البنات إلى السفر كان يساعد دائما القـوادين في أداء مهمتهم بسهولة.

8

الدعارة القانونية

"وبعد أن يملأ الزبـون بطنه بالطعام، يعرض عليـه القواد صور النساء؛ فيختـار واحدة، وينتظر إلى أن يـأتي قواد جديـد يضـفي الصـفة القانونية على تجارة الرقيق"

لا تختلف الصورة كثيرا في مصر عن ذلك الذي يحدث في روسيا وفي أماكن أخرى من العالم.

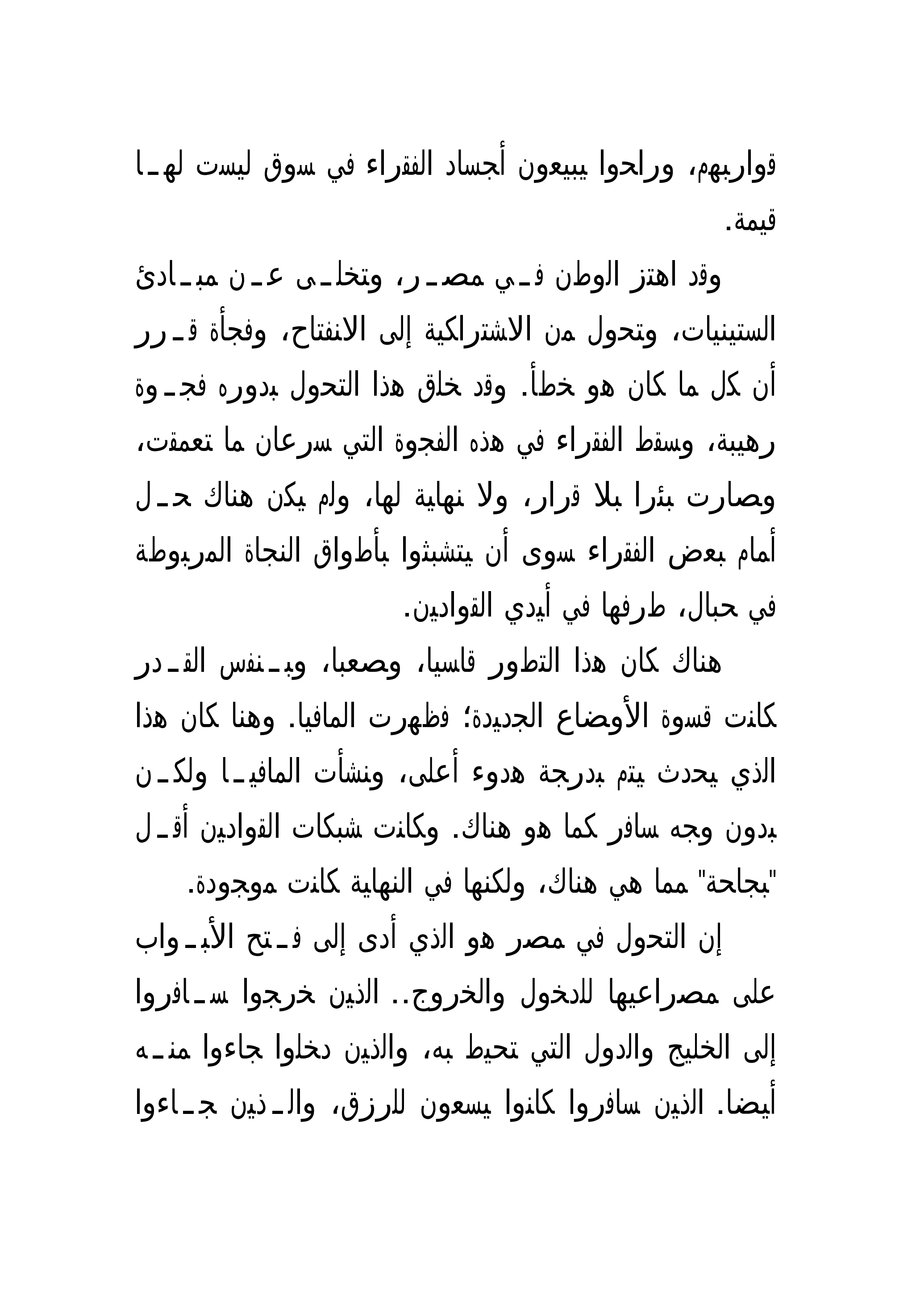
ربما كانت أبعاد تلك الصورة حادة جدا هناك، وأقل حدة هنا، وربما كانت الأوضاع أكثر سوءا هناك عنها هنا، وربما كانت سطوة المافيا هناك أكبر منها هنا؛ إلا أننا في النهايـة أمام تحول سياسي واقتصادي واجتماعي أدى لإفراز ظاهرة تجار الرقيق هناك، ودفع بها إلى السطح هنا.

وحسب طبيعة هذا التحول كانت النتيجة.

وحسب طبيعة المجتمع كان الإفراز.

وحسب مفاهيم المواطنين كان ظهور القوادين.

لقد اهتز الوطن في روسيا، تخلى عن مبادئ كان يؤمن بها، وتحول من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وفجأة قرر أن كل ما كانت تسير عليه عجلات الدولة كان قضبانًا ملتوية لا تصل إلى الهدف. وقد خلق هذا التحول أوضاعا فاسـدة، وفقراء استغلتهم هذه الأوضاع، وقوادين انتهـزوا الفرصـة وتربحوا من الوضع الجديد، وطوعوا الموجـة إلـى اتجـاه



قواربهم، وراحوا يبيعون أجساد الفقراء في سوق ليست لها قيمة.

وقد اهتز الوطن في مصر، وتخلى عن مبادئ الستينيات، وتحول من الاشتراكية إلى الانفتاح، وفجأة قرر أن كل ما كان هو خطأ. وقد خلق هذا التحول بدوره فجوة رهيبة، وسقط الفقراء في هذه الفجوة التي سرعان ما تعمقت، وصارت بئرا بلا قرار، ولا نهاية لها، ولم يكن هناك حل أمام بعض الفقراء سوى أن يتشبثوا بأطواق النجاة المربوطة في حبال، طرفها في أيدي القوادين.

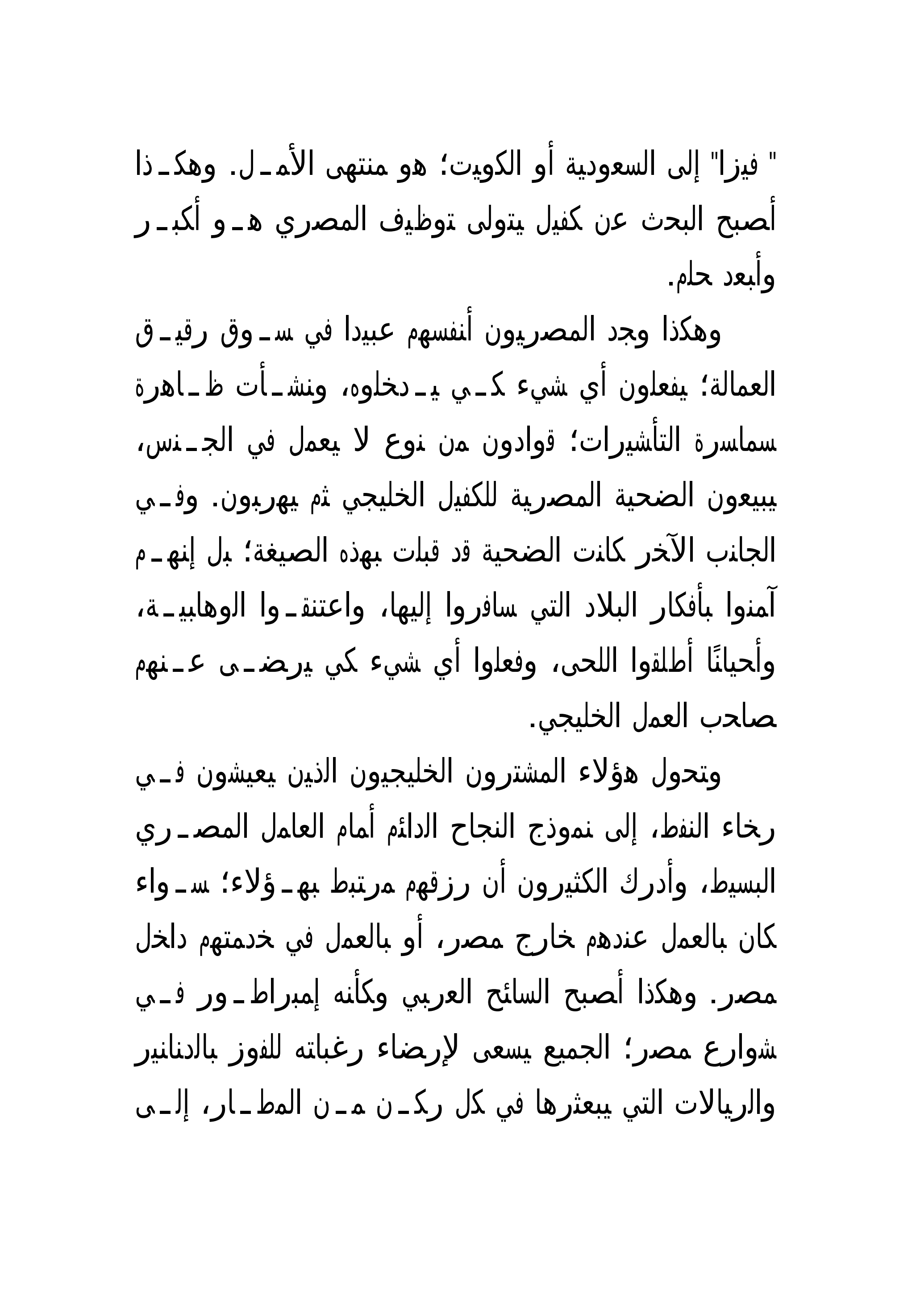
هناك كان هذا التطور قاسيا، وصعبا، وبنفس القدر كانت قسوة الأوضاع الجديدة؛ فظهرت المافيا. وهنا كان هذا الذي يحدث يتم بدرجة هدوء أعلى، ونشأت المافيا ولكن بدون وجه سافر كما هو هناك. وكانت شبكات القوادين أقل "بجاحة" مما هي هناك، ولكنها في النهاية كانت موجودة.

إن التحول في مصر هو الذي أدى إلى فتح الأبواب على مصراعيها للدخول والخروج.. الذين خرجوا سافروا إلى الخليج والدول التي تحيط به، والذين دخلوا جاءوا منه أيضا. الذين سافروا كانوا يسعون للرزق، والذين جاءوا

كانوا يبحثون عن المتعة.. الذين سافروا مصريون، والـذين جاءوا خليجيون.. والفريق الذي سافر ارتبطـت مصـالحه بالفريق الذي جاء؛ فكان دائما يحاول إرضـاءه ومداعبتـه، والسماح له بأن يفعل أي شيء كي يظل رضاؤه باقيا ودائما، وتظل فرصة السفر قائمة؛ إذ لو تلاشت هذه الفرصـة لـن يكون أمام هؤلاء في الوطن سوى بئر البطالة والضياع.

ولكن هذه الحالة لم تفرز مافيا القوادين المستترين فـي مصر بسرعة؛ وإنما حدث هذا حين ساءت الأحوال أكثـر، حين أدرك الناس أن الانفتاح الذي كان يتحدث عنه الـرئيس السادات وهم كبير، وحين مات بعد أن كشف المستور، وبدت خزانة الدولة خاوية وغارقة في الديون، والحكومة عـاجزة عن أن توقف فضيحة إعلان إفلاس البلد، وبعض الـوزراء منهمكون مع مافيا الفساد في سرقة ما تبقـى مـن الكعكـة الخالدة التي تسمى مصر.

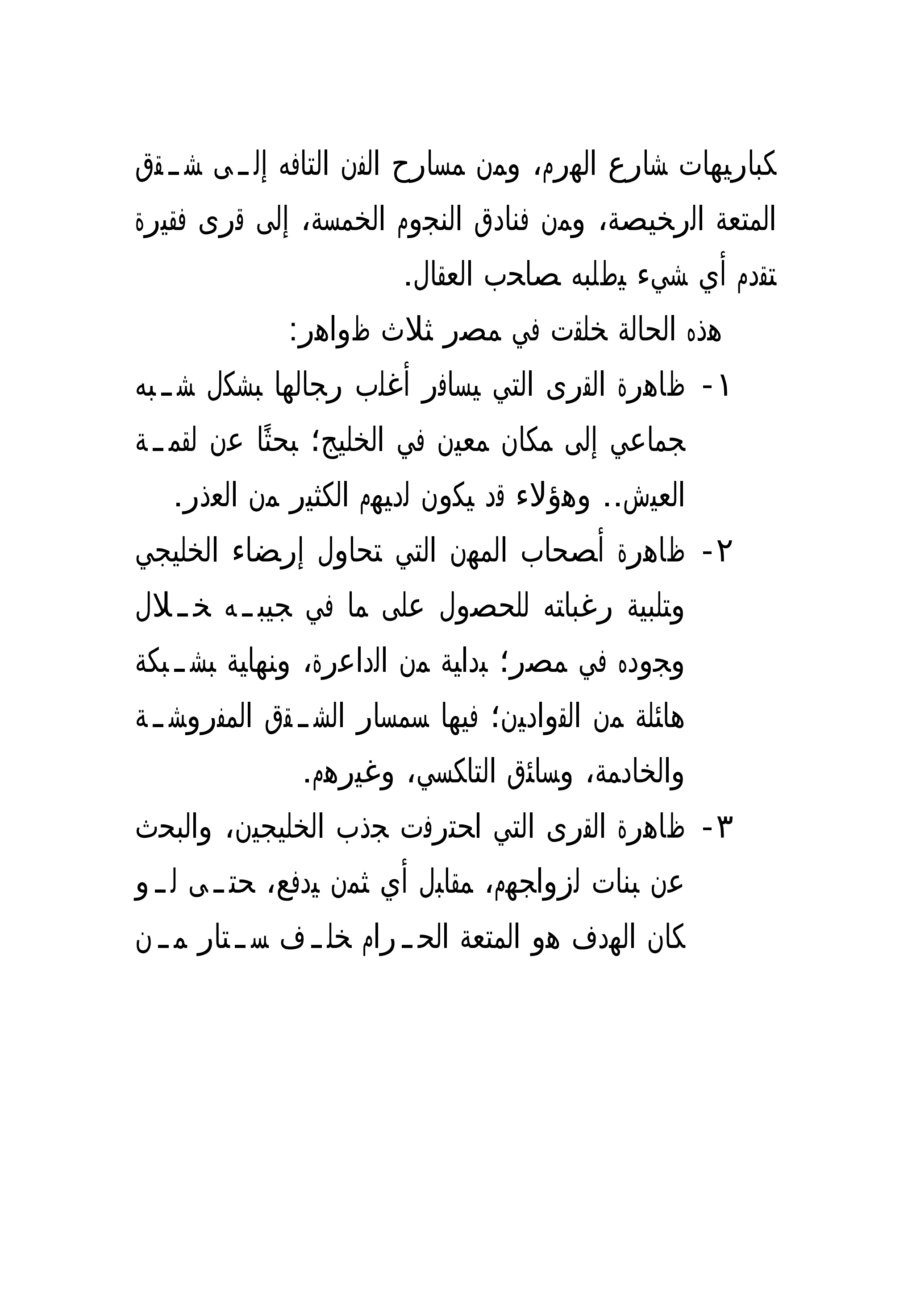
ولأن غالبية المصريين لا يميلون إلـى التبـرم علـى حكوماتهم، ويفضلون دائما أن يبحثوا عن حل بطريق آخـر غير العصيان والتمرد؛ كان أن سـافرت الملايـين للبحـث عن لقمة عيش خارج البلاد. وهكذا أصبح حلم الحصول على



" فيزا" إلى السعودية أو الكويت؛ هو منتهى الأمـل. وهكـذا أصبح البحث عن كفيل يتولى توظيف المصري هـو أكبـر وأبعد حلم.

وهكذا وجد المصريون أنفسهم عبيدا في سـوق رقيـق العمالة؛ يفعلون أي شيء كـي يـدخلوه، ونشـأت ظـاهرة سماسرة التأشيرات؛ قوادون من نوع لا يعمل في الجـنس، يبيعون الضحية المصرية للكفيل الخليجي ثم يهربون. وفـي الجانب الآخر كانت الضحية قد قبلت بهذه الصيغة؛ بل إنهـم آمنوا بأفكار البلاد التي سافروا إليها، واعتنقـوا الوهابيـة، وأحيانًا أطلقوا اللحى، وفعلوا أي شيء كي يرضـى عـنهم صاحب العمل الخليجي.

وتحول هؤلاء المشترون الخليجيون الذين يعيشون فـي رخاء النفط، إلى نموذج النجاح الدائم أمام العامل المصـري البسيط، وأدرك الكثيرون أن رزقهم مرتبط بهـؤلاء؛ سـواء كان بالعمل عندهم خارج مصر، أو بالعمل في خدمتهم داخل مصر. وهكذا أصبح السائح العربي وكأنه إمبراطـور فـي شوارع مصر؛ الجميع يسعى لإرضاء رغباته للفوز بالدنانير والريالات التي يبعثرها في كل ركـن مـن المطـار، إلـى



كباريهات شارع الهرم، ومن مسارح الفن التافه إلى شقق المتعة الرخيصة، ومن فنادق النجوم الخمسة، إلى قرى فقيرة تقدم أي شيء يطلبه صاحب العقال.

هذه الحالة خلقت في مصر ثلاث ظواهر:

١- ظاهرة القرى التي يسافر أغلب رجالها بشكل شبه جماعي إلى مكان معين في الخليج؛ بحثًا عن لقمة العيش.. وهؤلاء قد يكون لديهم الكثير من العذر.

٢- ظاهرة أصحاب المهن التي تحاول إرضاء الخليجي وتلبية رغباته للحصول على ما في جيبه خلال وجوده في مصر؛ بداية من الداعرة، ونهاية بشبكة هائلة من القوادين؛ فيها سمسار الشقق المفروشة والخادمة، وسائق التاكسي، وغيرهم.

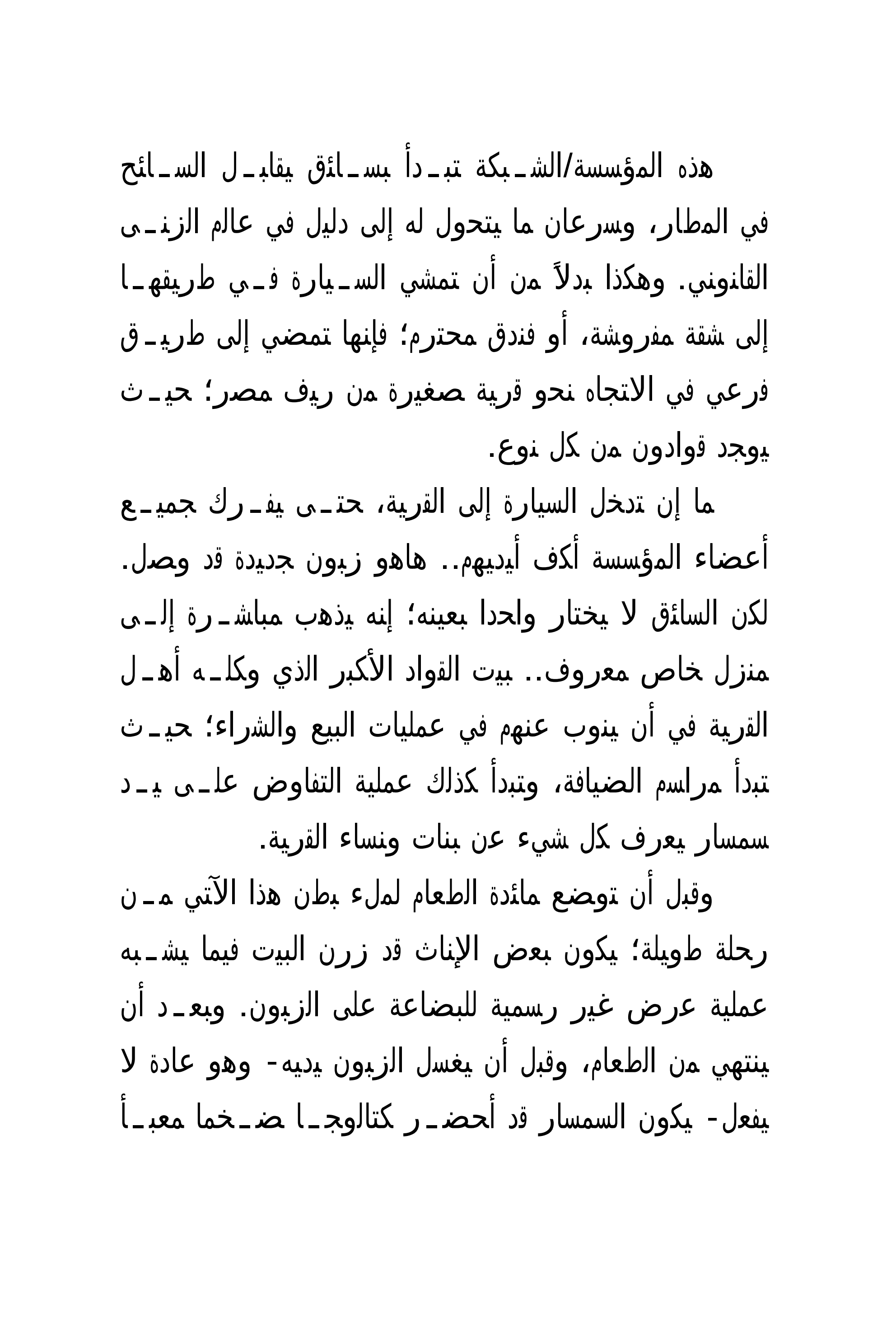
٣- ظاهرة القرى التي احترفت جذب الخليجين، والبحث عن بنات لزواجهم، مقابل أي ثمن يدفع، حتى لو كان الهدف هو المتعة الحرام خلف ستار من

الحلال،والذي يسمى هنا زواجا.. وهذه الظاهرة هي محور ذلك الفصل من الكتاب(*).

ذلك أن هناك نوعين من السائحين العرب؛ نوع بـادي الفجور، لا يخجل من أن يمضي في الشوارع بحثًا عن متعة؛ وهذا ليس أمامه سوى القواد العادي، ونوع فـاجر أيضـا، ولكنه يستر فجوره بالبحث عن الجنس مـن خـلال إطـار شرعي فيما أسميه "بالدعارة الحـلال"؛ أي الـدعارة التـي تلتحف بالإطار الشرعي. وهؤلاء (أصحاب هذا النوع) ظهر لهم قواد من طـراز مختلـف، أفـرزه الوضـع السياسـي والاجتماعي.

هذا القواد، ليس واحدا؛ إنه أكثر من شـخص، فهنـاك السمسار، والأب الذي يبيع ابنته، وسائق التاكسي الذي يجلب السائح، والمحامي الذي يوثق اتفاق هؤلاء جميعا في إطـار عقد حلال يستمر لبعض الوقت، ثم ينتهي الأمـر. هـؤلاء خلقوا مؤسسة متشعبة الأطراف من القوادين.

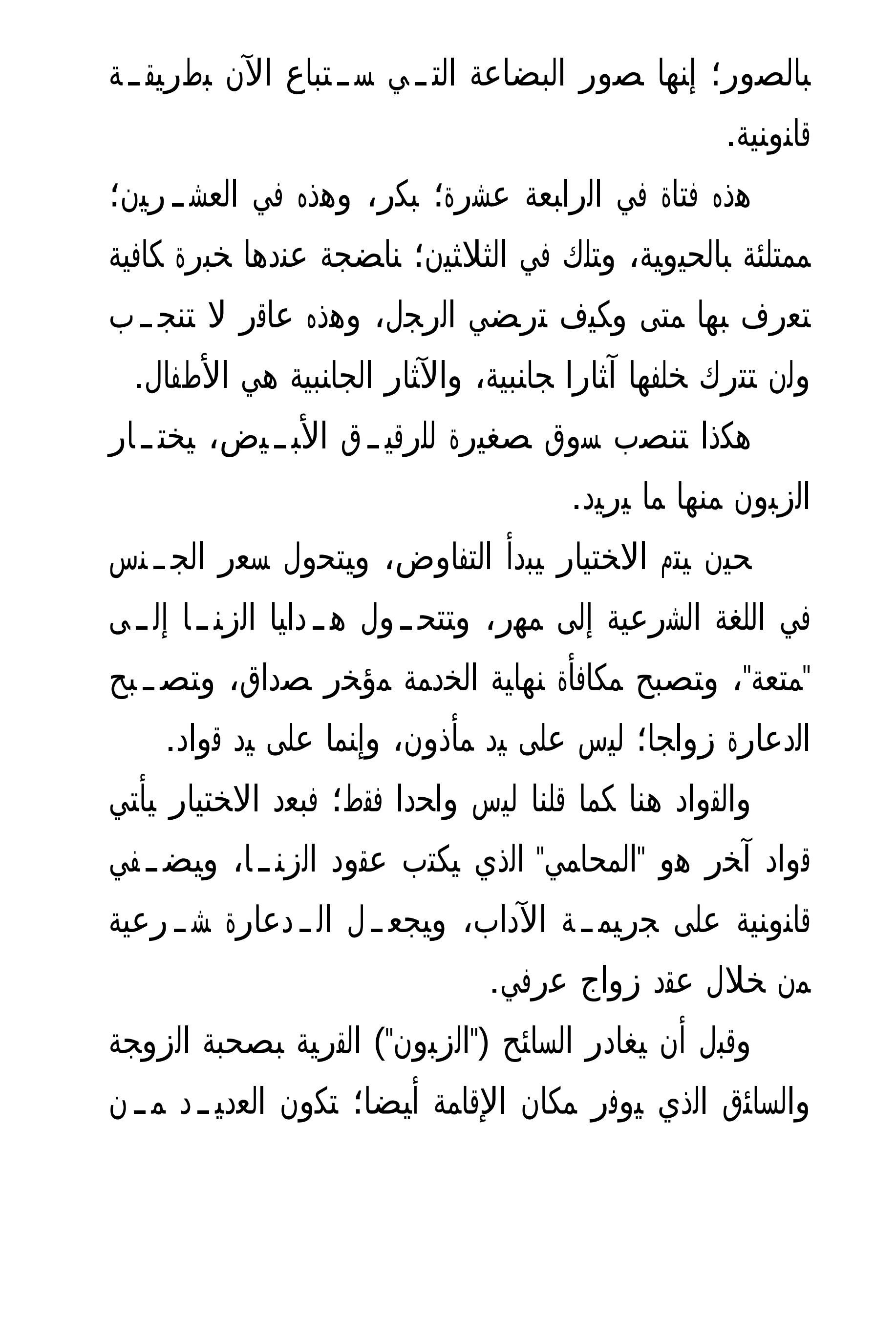
(*) راجع للمؤلف كتابه "الدعارة الحلال" .. المؤسسة الحديثة للـزواج في مصر والسعودية وإيران .



هذه المؤسسة/الشبكة تبدأ بسائق يقابل السائح في المطار، وسرعان ما يتحول له إلى دليل في عالم الزنى القانوني. وهكذا بدلاً من أن تمشي السيارة في طريقها إلى شقة مفروشة، أو فندق محترم؛ فإنها تمضي إلى طريق فرعي في الاتجاه نحو قرية صغيرة من ريف مصر؛ حيث يوجد قوادون من كل نوع.

ما إن تدخل السيارة إلى القرية، حتى يفرك جميع أعضاء المؤسسة أكف أيديهم.. هاهو زبون جديدة قد وصل. لكن السائق لا يختار واحدا بعينه؛ إنه يذهب مباشرة إلى منزل خاص معروف.. بيت القواد الأكبر الذي وكله أهل القرية في أن ينوب عنهم في عمليات البيع والشراء؛ حيث تبدأ مراسم الضيافة، وتبدأ كذلك عملية التفاوض على يد سمسار يعرف كل شيء عن بنات ونساء القرية.

وقبل أن توضع مائدة الطعام لملء بطن هذا الآتي من رحلة طويلة؛ يكون بعض الإناث قد زرن البيت فيما يشبه عملية عرض غير رسمية للبضاعة على الزبون. وبعد أن ينتهي من الطعام، وقبل أن يغسل الزبون يديه- وهو عادة لا يفعل- يكون السمسار قد أحضر كتالوجا ضخما معبأ



بالصور؛ إنها صور البضاعة التي ستباع الآن بطريقة قانونية.

هذه فتاة في الرابعة عشرة؛ بكر، وهذه في العشرين؛ ممتلئة بالحيوية، وتلك في الثلاثين؛ ناضجة عندها خبرة كافية تعرف بها متى وكيف ترضي الرجل، وهذه عاقر لا تنجب ولن تترك خلفها آثارا جانبية، والآثار الجانبية هي الأطفال.

هكذا تنصب سوق صغيرة للرقيق الأبيض، يختار الزبون منها ما يريد.

حين يتم الاختيار يبدأ التفاوض، ويتحول سعر الجنس في اللغة الشرعية إلى مهر، وتتحول هدايا الزنا إلى "متعة"، وتصبح مكافأة نهاية الخدمة مؤخر صداق، وتصبح الدعارة زواجا؛ ليس على يد مأذون، وإنما على يد قواد.

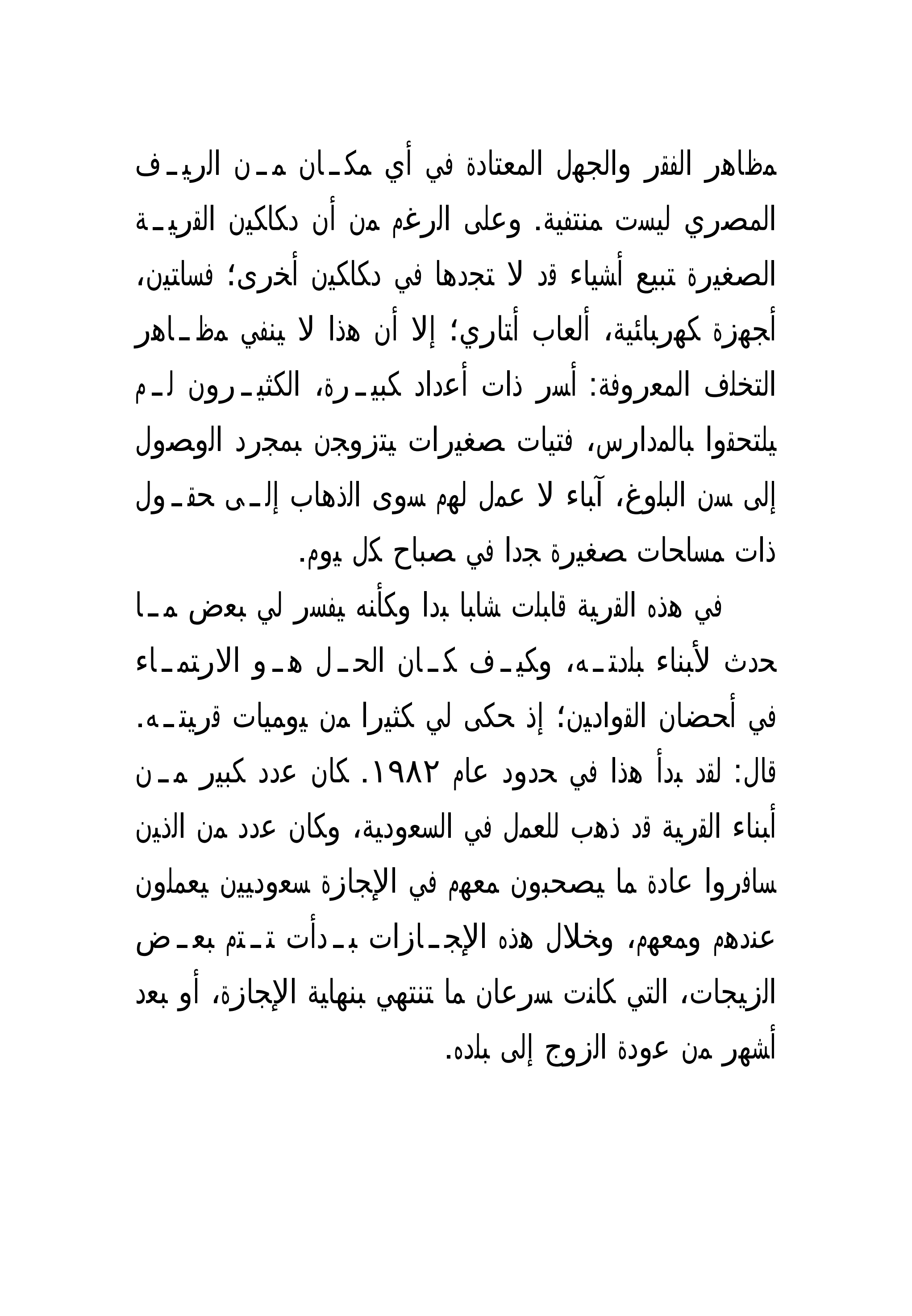
والقواد هنا كما قلنا ليس واحدا فقط؛ فبعد الاختيار يأتي قواد آخر هو "المحامي" الذي يكتب عقود الزنا، ويضفي قانونية على جريمة الآداب، ويجعل الدعارة شرعية من خلال عقد زواج عرفي.

وقبل أن يغادر السائح ("الزبون") القرية بصحبة الزوجة والسائق الذي يوفر مكان الإقامة أيضا؛ تكون العديد من

عناصر المؤسسة قد اقتسمت الأنصبة في عملية بيع الرقيق؛ فيحصل والد البنت على جزء يسير من المال، تأخذ منه الزوجة أقل القليل، ويحصل السائق على "حسنته"، ويتوزع الباقي بين المحامي وسمسار الزواج؛ الذي تحول إلى تاجر رقيق.

هذه القصة تتم في كل يوم تقريبا، ولها مواسم بالطبع. وفي الصيف (وهذا موسم) حين تروج السياحة العربية؛ يمكن أن تتم في اليوم أكثر من مرة.

وقد ثارت في ذهني تساؤلات عديدة حول هذه الأوضاع المثيرة والغريبة؛ فحاولت أن أعثر على إجابة شافية عنها في داخل قرية تابعة لمركز الحوامدية تشيع فيها هذه التجارة المحرمة. تجولت في الأزقة بعض الوقت على أمل أن أعرف السبب الذي يمكن أن يدفع عائلات بأكملها أن تدخل ضمن شبكة هذه المؤسسة غير الرسمية. إن المكان لا يختلف كثيرا عن أي قرية مصرية أخرى؛ فقط هناك نسبة أكبر من البيوت التي تم بناؤها بطريقة شبه عصرية، تعبر عن مدى الازدهار الحرام الذي عاشته وتعيشه القرية. الطرق الرئيسية الموصلة إلى الطرق الكبرى مرصوفة، لكن



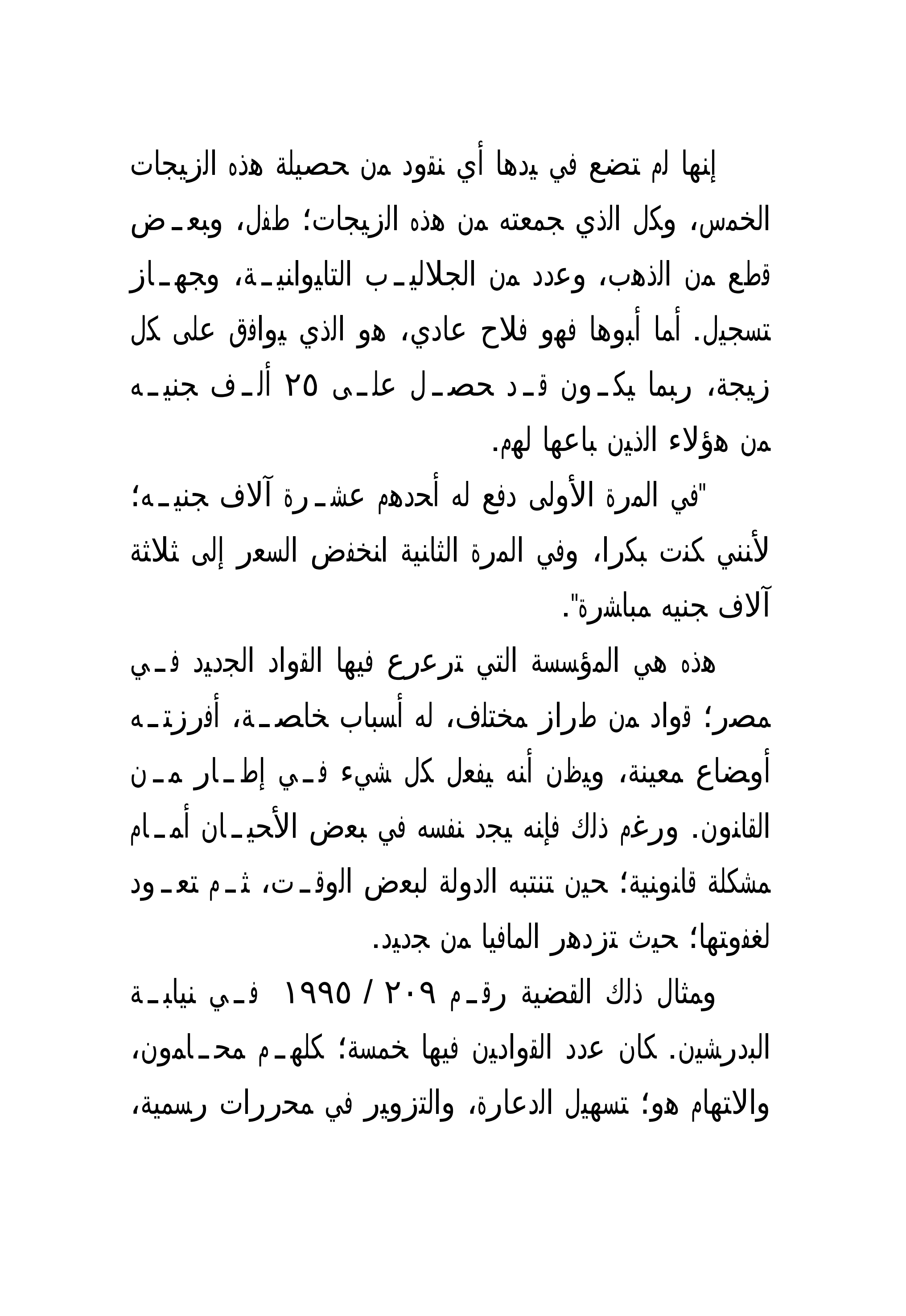
مظاهر الفقر والجهل المعتادة في أي مكـان مـن الريـف المصري ليست منتفية. وعلى الرغم من أن دكاكين القريـة الصغيرة تبيع أشياء قد لا تجدها في دكاكين أخرى؛ فساتين، أجهزة كهربائية، ألعاب أتاري؛ إلا أن هذا لا ينفي مظـاهر التخلف المعروفة: أسر ذات أعداد كبيـرة، الكثيـرون لـم يلتحقوا بالمدارس، فتيات صغيرات يتزوجن بمجرد الوصول إلى سن البلوغ، آباء لا عمل لهم سوى الذهاب إلـى حقـول ذات مساحات صغيرة جدا في صباح كل يوم.

في هذه القرية قابلت شابا بدا وكأنه يفسر لي بعض مـا حدث لأبناء بلدتـه، وكيـف كـان الحـل هـو الارتمـاء في أحضان القوادين؛ إذ حكى لي كثيرا من يوميات قريتـه. قال: لقد بدأ هذا في حدود عام ١٩٨٢. كان عدد كبير مـن أبناء القرية قد ذهب للعمل في السعودية، وكان عدد من الذين سافروا عادة ما يصحبون معهم في الإجازة سعوديين يعملون عندهم ومعهم، وخلال هذه الإجـازات بـدأت تـتم بعـض الزيجات، التي كانت سرعان ما تنتهي بنهاية الإجازة، أو بعد أشهر من عودة الزوج إلى بلده.

ولم ينتبه أهل القرية إلى أنه صار لديهم عدد من المطلقات، وعدد من الأبناء الذين لم يشاهدوا آباءهم، ولن يروهم. وانتبهوا فقط إلى أن اتباع العرب يؤدي إلى بعض المكاسب، وتزامن هذا مع إدراك عدد من أهل القرية أن المتعة يمكن أن تتحول إلى مهنة وصناعة؛ من خلال تحويل القرية إلى سوق رقيق، وهكذا نشأ السماسرة.

وهكذا تحت ضغط الفقر تم بيع الفتيات إلى السائحين العرب، في إطار مؤسسة متعددة الأطراف؛ لكل طرف فيها غرض واحد هو بيع الجسد، ولكل طرف فيها صفة واحدة هي القوادة.

ولقد قابلت واحدة من إناث هذه القرية التي تزوجت أكثر من خمس مرات من خلال هؤلاء القوادين؛ اسمها "منى"، حين رأيتها كانت تحمل بين يديها طفلاً عمره نحو عام، أبوه اسمه مطلق، من مدينة جدة، عاشت معه شهرا واحدا في حي المهندسين؛ تزوجته بعقد عرفي، وسرعان ما عاد هذا الزوج إلى أهله دون أن يطلقها، وبعد أن دفع لأبيها خمسة آلاف جنيه.



إنها لم تضع في يدها أي نقود من حصيلة هذه الزيجات الخمس، وكل الذي جمعته من هذه الزيجات؛ طفل، وبعـض قطع من الذهب، وعدد من الجلاليـب التايوانيـة، وجهـاز تسجيل. أما أبوها فهو فلاح عادي، هو الذي يوافق على كل زيجة، ربما يكـون قـد حصـل علـى ٢٥ ألـف جنيـه من هؤلاء الذين باعها لهم.

"في المرة الأولى دفع له أحدهم عشـرة آلاف جنيـه؛ لأنني كنت بكرا، وفي المرة الثانية انخفض السعر إلى ثلاثة آلاف جنيه مباشرة".

هذه هي المؤسسة التي ترعرع فيها القواد الجديد فـي مصر؛ قواد من طراز مختلف، له أسباب خاصـة، أفرزتـه أوضاع معينة، ويظن أنه يفعل كل شيء فـي إطـار مـن القانون. ورغم ذلك فإنه يجد نفسه في بعض الأحيـان أمـام مشكلة قانونية؛ حين تنتبه الدولة لبعض الوقـت، ثـم تعـود لغفوتها؛ حيث تزدهر المافيا من جديد.

ومثال ذلك القضية رقـم ٢٠٩ / ١٩٩٥ فـي نيابـة البدرشين. كان عدد القوادين فيها خمسة؛ كلهـم محـامون، والاتهام هو: تسهيل الدعارة، والتزوير في محررات رسمية،

والتحايل على القانون من خلال تزويج إناث مصريات لأشباه أثرياء عرب بعقود زواج باطلة.

والتفاصيل من القرية التابعة للبدرشين لا تختلف كثيرا عن القرية السابقة في الحوامدية؛ يأتي طالب الشراء إلى مكتب أحد هؤلاء المحامين الذين اختاروا لأنفسهم موقعا مميزا ومعروفًا في حلوان، والطلب المعروف هو فتاة شابة من أجل المتعة. وبسرعة يجد المحامي القواد هذه الفتاة؛ إذ إن لديه قائمة طويلة تضم أسماء محترفات هذا النوع من الدعارة. ويعقد المحامي عقد زواج عرفي "باطل"، وهنا تكون أول جريمة قد اكتملت؛ لأن القانون يشترط موافقة سفارة الدولة التي ينتمي لها الزوج قبل أن يتزوج في مصر؛ حتى يكون هناك تأكد قانوني من أن هذه الزيجة لن تكون غير دينية؛ إذ من الذي يضمن ألا تكون هذه هي الزوجة الخامسة للرجل، بينما النص الشرعي يؤكد على أربع زوجات فقط.

ودائما لا تأتي موافقة السفارة، لكن المحامي القواد يمضي في طريق تقنين علاقة الدعارة التي تكون قد بدأت في إحدى الشقق المفروشة. وسرعان ما تبدأ إجراءات رفع

الدعوى لإثبات صحة الزواج. وبمجرد أن يحصل المحـامي على ورقة مختومة من المحكمة؛ تقدم فورا إلى الـزوجين، ويصبحان بالتالي في حماية من القانون، والاتهام في جريمة آداب.

إن الواقع يقول إن الزوج لا يقف أبدا أمام هذه المحكمة التـي تثبـت صـحة الـزواج. وكمثـال فـإن الـدائرة ١٢/ أجانب في محكمة الجيزة؛ عرفت أشخاصـا انتحلـوا صفات الأزواج الأجانب، وعرفت زوجة واحدة قدمت ثلاث دعاوي إثبات صحة زواج في أقل من ثلاثة أشهر. في المرة الأولى قالت إنها تزوجت في يوليو ١٩٩٤ من زوج عربي، ووعد بتقديم كافة المستندات التي تؤكد هذا الزواج؛ لكنه أخل بوعده، وفي المرة الثانية بعد أيام رفعت نفس الزوجة دعوى أخرى ضد زوج آخر بعد أن غيرت عنوانها، وفـي المـرة الثالثة بعد أربعة أيام من الزواج الثاني رفعت دعوى ضـد زوج يعيش في المهندسين؛ زاعمة أنها لم تتزوج من قبـل. وفي كل القضايا كان محرر العقد محامٍ واحد؛ هو هو القواد نفسه.

في قضية أخرى، وعن طريق محامٍ واحـد؛ تزوجـت سيدة من ثلاثة أشخاص في ٣ أبريـل، وفـي ١٩ يونيـو، وفي ١٨ يوليو ١٩٩٤(أي بدون أدنـى اعتـراف بـالنص الشرعي) لشهور العدة. وفي قضية ثالثة رفعت زوجة واحدة عن طريق محامٍ واحدٍ أربع دعاوي إثبـات صـحة زواج؛ حملت الأرقـام "٥١٩"، "٤١٨"، "٣٢٧"، "٤٤٢" (المصـدر روز اليوسف – ٤ / ٩ / ١٩٩٥).

وتتوالى القضايا.

وتتوالى الزيجات

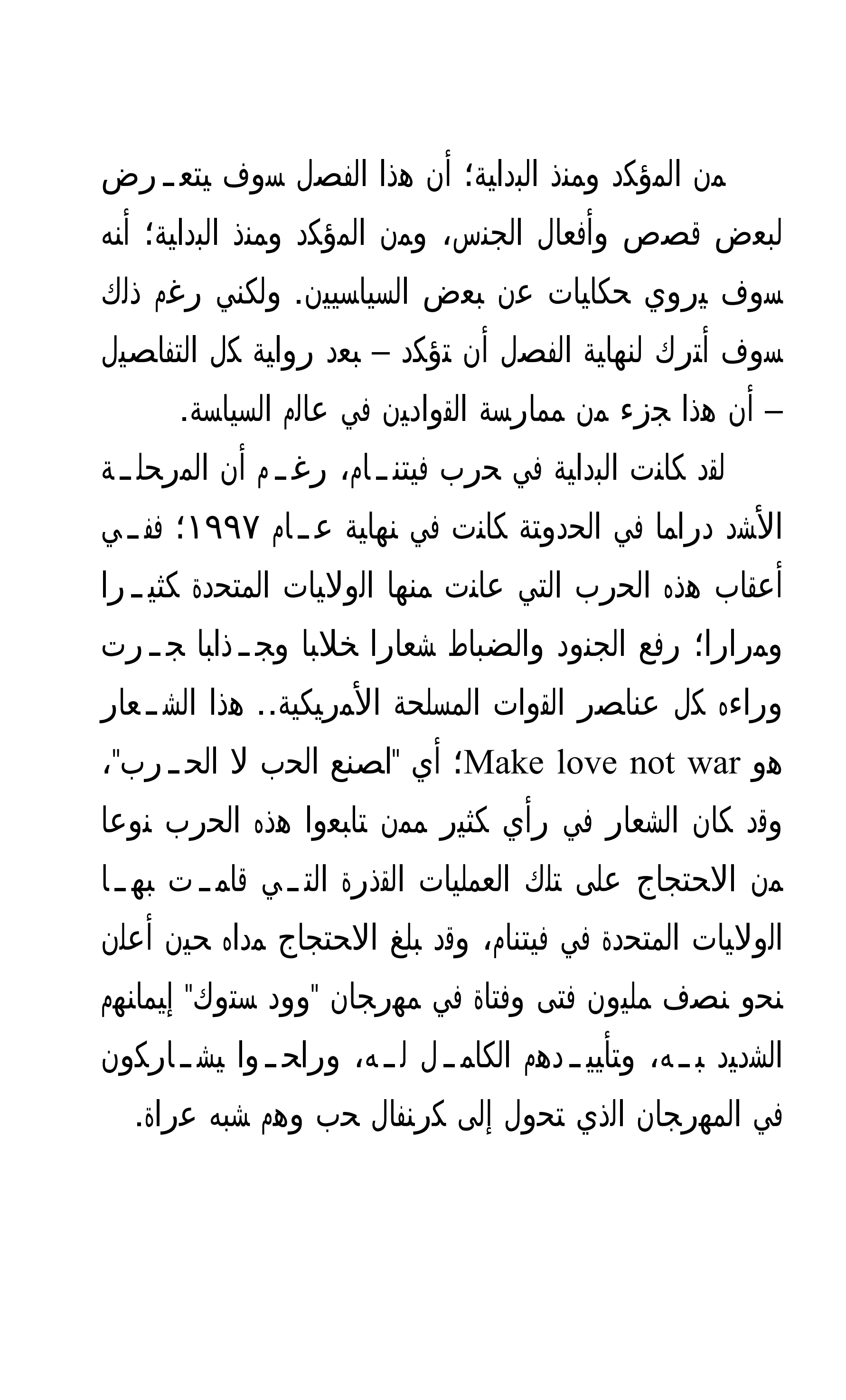
ويتوالى عقد القوادين لصفقات هذه الدعارة القانونية.

ولكنها في النهاية واحدة من مظاهر استفادة القوادين من واقع اجتماعي سياسي خـاص، أدى إلـى بـروزهم علـى الساحة، وانتشار أعمالهم.. صحيح أنهـا لا تقـارن علـى الإطلاق بالمافيا في روسيا، ولكنها واحـدة مـن الأشـكال المستحدثة.

9

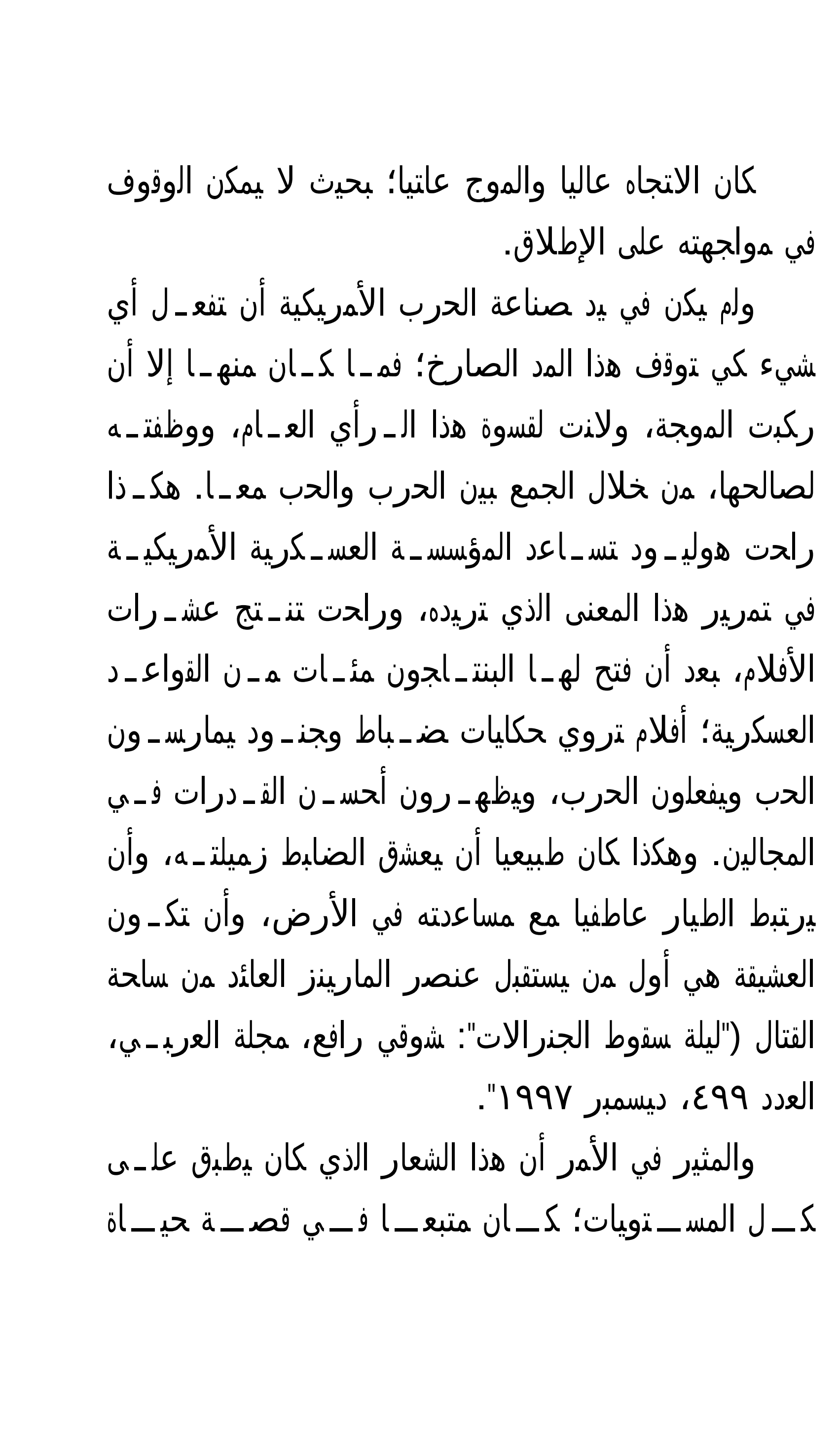
جنرالات المتعة!

"لو أخذنا بمقياس الخيانة
الزوجية؛ فإنه لن يعود لـ دينا
أي جيش في فرنسا كلها"



من المؤكد ومنذ البداية؛ أن هذا الفصل سوف يتعرض لبعض قصص وأفعال الجنس، ومن المؤكد ومنذ البداية؛ أنه سوف يروي حكايات عن بعض السياسيين. ولكني رغم ذلك سوف أترك لنهاية الفصل أن تؤكد – بعد رواية كل التفاصيل – أن هذا جزء من ممارسة القوادين في عالم السياسة.

لقد كانت البداية في حرب فيتنام، رغم أن المرحلة الأشد دراما في الحدوتة كانت في نهاية عام ١٩٩٧؛ ففي أعقاب هذه الحرب التي عانت منها الولايات المتحدة كثيرا ومرارا؛ رفع الجنود والضباط شعارا خلابا وجذابا جرت وراءه كل عناصر القوات المسلحة الأمريكية.. هذا الشعار هو Make love not war؛ أي "اصنع الحب لا الحرب"، وقد كان الشعار في رأي كثير ممن تابعوا هذه الحرب نوعا من الاحتجاج على تلك العمليات القذرة التي قامت بها الولايات المتحدة في فيتنام، وقد بلغ الاحتجاج مداه حين أعلن نحو نصف مليون فتى وفتاة في مهرجان "وود ستوك" إيمانهم الشديد به، وتأييدهم الكامل له، وراحوا يشاركون في المهرجان الذي تحول إلى كرنفال حب وهم شبه عراة.



كان الاتجاه عاليا والموج عاتيا؛ بحيث لا يمكن الوقوف في مواجهته على الإطلاق.

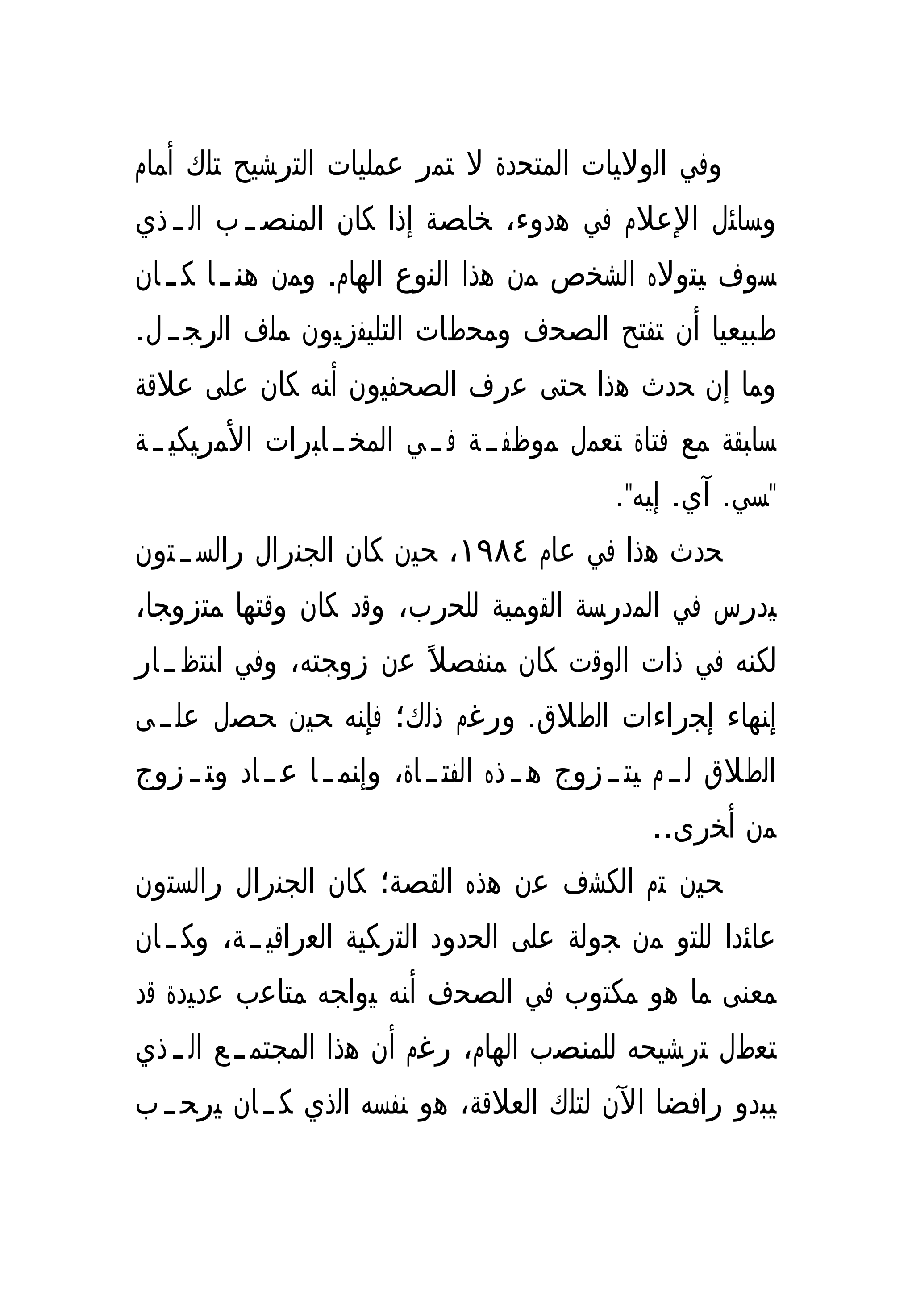
ولم يكن في يد صناعة الحرب الأمريكية أن تفعل أي شيء كي توقف هذا المد الصارخ؛ فما كان منها إلا أن ركبت الموجة، ولانت لقسوة هذا الرأي العام، ووظفته لصالحها، من خلال الجمع بين الحرب والحب معا. هكذا راحت هوليود تساعد المؤسسة العسكرية الأمريكية في تمرير هذا المعنى الذي تريده، وراحت تنتج عشرات الأفلام، بعد أن فتح لها البنتاجون مئات من القواعد العسكرية؛ أفلام تروي حكايات ضباط وجنود يمارسون الحب ويفعلون الحرب، ويظهرون أحسن القدرات في المجالين. وهكذا كان طبيعيا أن يعشق الضابط زميلته، وأن يرتبط الطيار عاطفيا مع مساعدته في الأرض، وأن تكون العشيقة هي أول من يستقبل عنصر المارينز العائد من ساحة القتال ("ليلة سقوط الجنرالات": شوقي رافع، مجلة العربي، العدد ٤٩٩، ديسمبر ١٩٩٧".

والمثير في الأمر أن هذا الشعار الذي كان يطبق على كل المستويات؛ كان متبعا في قصة حياة

"دوايت أيزنهاور" رئيس الولايات المتحدة؛ الذي كان قائدا لقوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وكان يحب زوجته، لكنه في نفس الوقت كان يعشق قائدة سيارته، في ذات الوقت الذي يحقق فيه مزيدا من الانتصارات العسكرية.

وقصة "دوايت أيزنهاور" مع سائقته؛ هذه التي كان اسمها "كاي سامرز باي"؛ كان يمكن أن تبقى كما هي طي الكتمان، أو في ملفات النسيان؛ لولا أن القيادة العسكرية الأمريكية التي قبلت فيما قبل نشوء العلاقات الغرامية بين الرجال والنساء؛ قررت في مرحلة لاحقة أن تتوقف عن دعم فكرة "الحب والحرب معا"، وأن تدعم فقط صناعة الحرب وحدها.

وكانت المناسبة التي أثارت هذا الكلام هي ما تفجر في يونيو ١٩٩٧؛ إذ حدث أن قام وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي بترشيح جنرال اسمه "جوزيف رالستون" لمنصب قائد هيئة الأركان المشتركة، وكان من بين دعائم هذا الترشيح أن الجنرال رالستون البالغ من العمر ٥٣ عاما كان قد حصل على عدد من الأوسمة في حرب فيتنام.



وفي الولايات المتحدة لا تمر عمليات الترشيح تلك أمام وسائل الإعلام في هدوء، خاصة إذا كان المنصب الذي سوف يتولاه الشخص من هذا النوع الهام. ومن هنا كان طبيعيا أن تفتح الصحف ومحطات التليفزيون ملف الرجل. وما إن حدث هذا حتى عرف الصحفيون أنه كان على علاقة سابقة مع فتاة تعمل موظفة في المخابرات الأمريكية "سي. آي. إيه".

حدث هذا في عام ١٩٨٤، حين كان الجنرال رالستون يدرس في المدرسة القومية للحرب، وقد كان وقتها متزوجا، لكنه في ذات الوقت كان منفصلاً عن زوجته، وفي انتظار إنهاء إجراءات الطلاق. ورغم ذلك؛ فإنه حين حصل على الطلاق لم يتزوج هذه الفتاة، وإنما عاد وتزوج من أخرى..

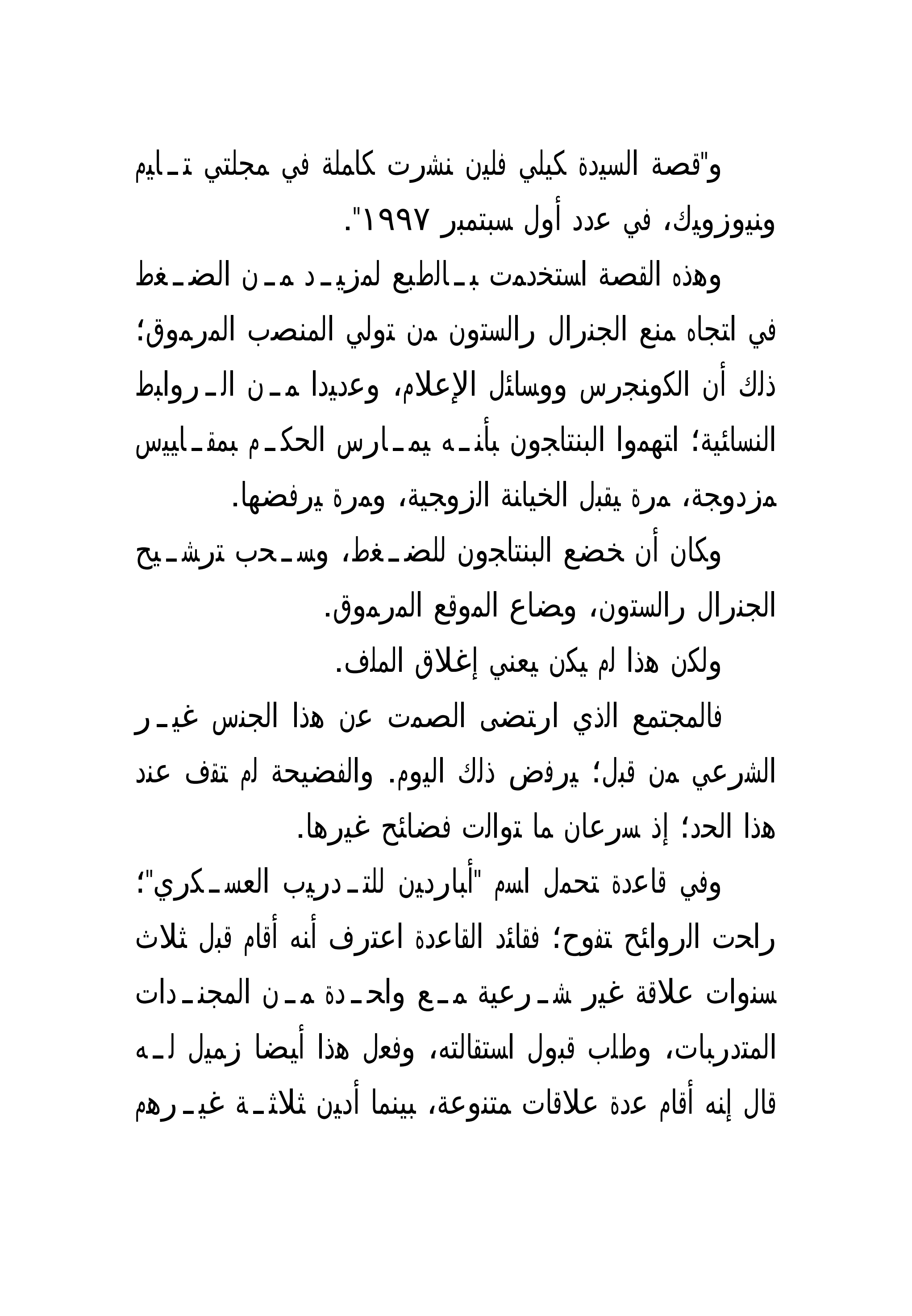
حين تم الكشف عن هذه القصة؛ كان الجنرال رالستون عائدا للتو من جولة على الحدود التركية العراقية، وكان معنى ما هو مكتوب في الصحف أنه يواجه متاعب عديدة قد تعطل ترشيحه للمنصب الهام، رغم أن هذا المجتمع الذي يبدو رافضا الآن لتلك العلاقة، هو نفسه الذي كان يرحب

بمثلها من قبل، إلا أن وزير الدفاع الـذي رشـحه حـاول التدخل، وقرر في وضوح أن أحاديث هذه العلاقة لن تثنيـه عن ترشيحه ذلك، وأنه لا يجب الخلط بين الخيانة الزوجيـة وما يجري في ساحات القتال.

هل كان وليام كوهين وزير الدفاع يمارس نوعـا مـن القوادة؟ ربما. وربما كان أيضا يحاول ألا يخلط بين ما يدور في الحياة الشخصية، وما يدور في الحياة العامة.

وقد كان من الممكن قبول هذا التفسير الأخيـر، لـولا واقعة سبقت قرار ترشيح الجنرال جوزيف رالستون لمنصب قائد هيئة الأركان المشتركة.

فقبل أسبوع من الكشف عن هـذه الفضـيحة؛ كانـت محكمة عسكرية أمريكية قد أصدرت حكما بطرد سيدة هـي "الليفتانت" كيلي فلين من الخدمـة، رغـم أنهـا أول امـرأة أمريكية في سلاح الطيران تقود قاذفة قنابـل مـن طـراز "ب ٥٢"؛ بسبب علاقتها العاطفية مع موظف مـدني.. وقـد طلبت المحكمة من "كيلي فلين" قطـع هـذه العلاقـة غيـر الشرعية، أو أن تُطرد من الخدمة، وكان أن رفضت إنهـاء العلاقة، وضحت بوظيفتها المميزة.



و"قصة السيدة كيلي فلين نشرت كاملة في مجلتي تايم ونيوزويك، في عدد أول سبتمبر ١٩٩٧".

وهذه القصة استخدمت بالطبع لمزيد من الضغط في اتجاه منع الجنرال رالستون من تولي المنصب المرموق؛ ذلك أن الكونجرس ووسائل الإعلام، وعديدا من الروابط النسائية؛ اتهموا البنتاجون بأنه يمارس الحكم بمقاييس مزدوجة، مرة يقبل الخيانة الزوجية، ومرة يرفضها.

وكان أن خضع البنتاجون للضغط، وسحب ترشيح الجنرال رالستون، وضاع الموقع المرموق.

ولكن هذا لم يكن يعني إغلاق الملف.

فالمجتمع الذي ارتضى الصمت عن هذا الجنس غير الشرعي من قبل؛ يرفض ذلك اليوم. والفضيحة لم تقف عند هذا الحد؛ إذ سرعان ما توالت فضائح غيرها.

وفي قاعدة تحمل اسم "أباردين للتدريب العسكري"؛ راحت الروائح تفوح؛ فقائد القاعدة اعترف أنه أقام قبل ثلاث سنوات علاقة غير شرعية مع واحدة من المجندات المتدربات، وطلب قبول استقالته، وفعل هذا أيضا زميل له قال إنه أقام عدة علاقات متنوعة، بينما أدين ثلاثة غيرهم

بتهمة الخيانة الزوجية("ليلة سقوط الجنرالات"، مصدر سبق ذكره).

والمثير أن الكونجرس دخل على الخط بقوة، وطلب من وزارة الدفاع الأمريكية أن تجري تحقيقات موسعة في كل القواعد العسكرية داخل وخارج أمريكا لضبط الخونة ومحاكمتهم، والمثير كذلك أن الشبهة وحدها صارت كافية للطرد من الخدمة.

وكما يقول الدكتور شوقي رافع؛ فإن "أمريكا التي راجت فيها المكارثية من قبل بحثًا عن الشيوعيين الحمر؛ صارت تمارس في نهاية التسعينيات المكارثية بحثًا عن أصحاب الليالي الحمر"

الواضح هنا أننا أمام ظاهرة غير متوقعة تمامًا في سياق هذا الكتاب؛ ذلك أن المجتمع الأمريكي اعتاد مثل هذا النوع من الممارسات السرية للأزواج، وفي وقت من الأوقات كان المجتمع نفسه هو الذي يدفع وزارة الدفاع لأن توافق وترتضي وتصمت عن هذه الخيانات في صفوف قواته المسلحة؛ رافعا شعار: "اصنعوا الحب لا الحرب"، لكن الأوضاع تغيرت وتبدلت، خاصة في حالة الجنرال رالستون

الذي ربما كان يمكن أن تمر قصته لولا أن قصة "كيلي فلين" كانت قد سبقتها، وبالتالي لعبت روابط النسـاء وجمعيـاتهم دورا فــي الضــغط علــى المجتمــع؛ كــي لا يقبــل أن يكون قوادا مع رجل، في نفس الوقت الذي يرفض فيه أن يكون قوادا مع امرأة.

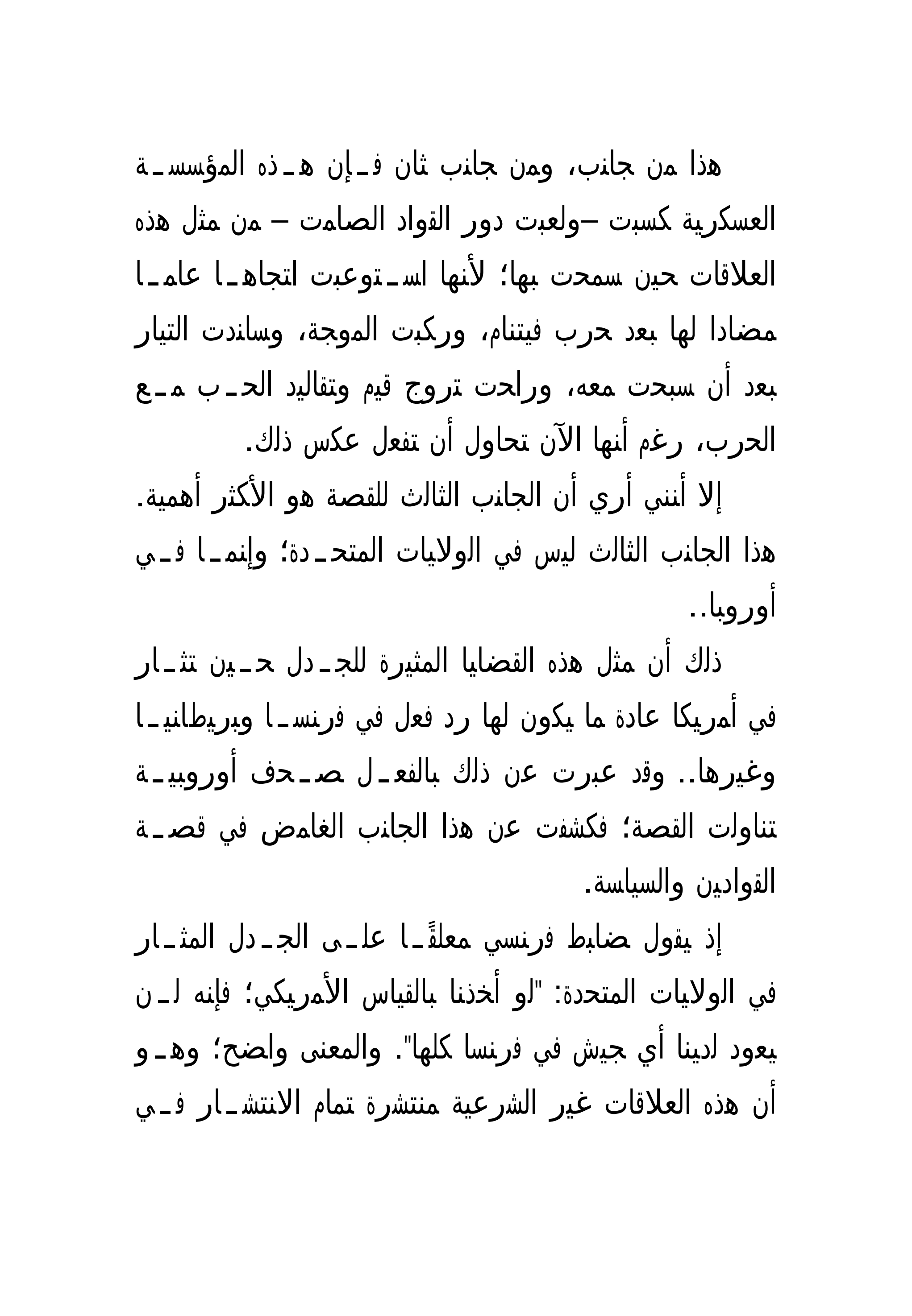
والطريف أن هذا الانقلاب الحاد من النقيض لـم يقـف عند حدود قصة التسعينيات؛ وإنما راح يمتد إلى ما هو قابع في ملفات التاريخ، ومن هنا راح الكثيرون يعيدون فتح هـذه الملفات، وكأنهم يريدون إعادة محاكمة الأبطال القدامى الذين كان المجتمع يوافق ويرتضي أن يصـمت عـن خيانـاتهم الزوجية.

هكذا راح البعض يعيد مـن جديـد محاكمـة داويـت أيزنهاور، ويطالب بسحب هذه المنزلة السامية التي حصـل عليها في قلوب الشعب الأمريكي؛ لأنه كان على علاقة مـع سائقه سيارته، كما تؤكد ذلك رسائل تم الكشف عنهـا فـي الأرشيف العسكري، أكدت أن ما بينهما كـان نوعـا مـن العواطف النارية.

هكذا راحت الصحف ومحطات التليفزيون تنشر الوثائق، وتذيع الأفلام التي يظهر فيها الجنرال إيزنهاور مع سائقته في جلسات كلها ألفة، مع صوت معلق التليفزيون وهو يقتبس من أحاديث الرئيس ترومان ومذكرات السائقة ما يدل على هذه الخيانة التي قام بها الرئيس الراحل، ولاسيما أنه كان قد أصدر قرارا بتعيين هذه السائقة العشيقة سكرتيرة له.

ومن جانبها واجهت حفيدة أيزنهاور هذه الادعاءات، ونشرت ردودا في الصحف ترفض تلك القصص؛ لكن هذا لم يمنع من تفجر قصة أخرى حول الرئيس الراحل توماس جيفرسون، الذي قيل أنه كانت لديه ست عشيقات.

حسنًا إن هذه القصة برمتها لا تتحدث عن نوع واضح من الدعارة؛ ذلك النوع الذي تأخذ فيه المرأة مقابل ما تعطي من متعة؛ لكن هذا النوع هو في الواقع لا يختلف كثيرا عن مثيله العادي، والسبب واضح، والعلة جلية؛ فالعلاقة غير الشرعية بين الجنرالات والعشيقات كان لها مقابل في كثير من الأحيان، والدليل هو أن سائقة الرئيس أيزنهاور صارت سكرتيرة له؛ أي قبضت الثمن. وليس مستبعدا أن هذا كان يحدث بشكل أو بآخر في حالات أخرى.



هذا من جانب، ومن جانب ثان فإن هذه المؤسسة العسكرية كسبت –ولعبت دور القواد الصامت – من مثل هذه العلاقات حين سمحت بها؛ لأنها استوعبت اتجاها عاما مضادا لها بعد حرب فيتنام، وركبت الموجة، وساندت التيار بعد أن سبحت معه، وراحت تروج قيم وتقاليد الحب مع الحرب، رغم أنها الآن تحاول أن تفعل عكس ذلك.

إلا أنني أري أن الجانب الثالث للقصة هو الأكثر أهمية. هذا الجانب الثالث ليس في الولايات المتحدة؛ وإنما في أوروبا..

ذلك أن مثل هذه القضايا المثيرة للجدل حين تثار في أمريكا عادة ما يكون لها رد فعل في فرنسا وبريطانيا وغيرها.. وقد عبرت عن ذلك بالفعل صحف أوروبية تناولت القصة؛ فكشفت عن هذا الجانب الغامض في قصة القوادين والسياسة.

إذ يقول ضابط فرنسي معلقًا على الجدل المثار في الولايات المتحدة: "لو أخذنا بالقياس الأمريكي؛ فإنه لن يعود لدينا أي جيش في فرنسا كلها". والمعنى واضح؛ وهو أن هذه العلاقات غير الشرعية منتشرة تمام الانتشار في

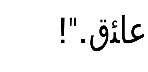
الجيش الفرنسي، وأن هذا الجيش يوافـق ويرتضـى ذلـك. والدليل تعليق ضابط آخر يقـول: "إن القـوانين العسـكرية تتحدث عن الكرامة، والشرف، والإقدام المتبادل، والابتعـاد عن المخدرات، وليس في كتبنا كلها ما يتحدث عن خيانـات أو علاقات غير شرعية." وأضاف: "ما هي علاقة ذلك بقيادة طائرة، أو وضع خطة مستديمة لمواجهة جيش معادٍ".

في نفس الوقت قال تقريـر للهيرالـد تربيـون حـول الموضوع في بريطانيا: "تصل نسبة المجندات إلى ١٠% من أفراد القوات المسلحة، والجيش لا يعاني أي عقدة فـي هـذا الإطار، والكنيسة في بريطانيا لا تفـرض الحرمـان علـى المتهمين بالخيانة الزوجية، أو إقامة علاقات غير شرعية".

ومن جانب آخر أشارت وسائل الإعلام البريطانية إلـى أن الائتلاف المسيحي في الولايات المتحدة بات قادرا رغـم الفصل بين الكنيسـة والدولـة علـى فـرض قـيم جديـدة على المؤسسات القوية في أمريكا، وبينها الجيش.

ويقول شوقي رافع إن أطرف تعليق على هذه القصـة هو الذي أطلقته صحيفة الجارديان البريطانية حين قالت: "لو أن مقاييس مشابهة حول الطهارة الأخلاقية للمحاربين طبقت

في بريطانيا خلال الحـروب النابليونيـة؛ فـإن الأسـطول البريطاني لن يكون بقيادة فيلد، ولن تسلم القيادة البرية إلـى ويلنجتون، وكان باستطاعة فرنسا المنتصرة في ذلك الوقـت أن تعلن ضم أمريكا إليها ودون عائق."!



10

مؤسسة النور والنار

" في هذه النار خضـع الفقراء لقواعد الشواء؛ دهنوا أجسادهم بالزيوت، ووضعوا عليها المتبلات، ثـم لفوهـا بأنفسهم فوق الجمر".

أحيانًا يبدو الفقر مثل جمل يريد المرور من خرم إبـرة الحياة الضيق. وفي كل الأحوال هذا مستحيل، إلا في حالـة واحدة فقط؛ يمر جمل الفقر من خرم الإبرة بمنتهى السـهولة إذا ما دهن جسده بفازلين الدعارة.

هذا الفازلين يصبح الحل الوحيد في المدن ذات الطـابع شديد القسوة.. المدن التي تبدو مـن بعيـد جميلـة جاذبـة وجذابة.. تبدو من بعيد سهلة المراس.. فيها كل شيء متاح.. وكل عمل مباح.. تبدو من بعيد حرة وديمقراطية، تسـاوي بين الجميع، ترفع شعارات الحق والعدل.. فإذا مـا اقتربـت أكثر اتضحت بعـض ملامـح الصـورة المعذبـة؛ حيـث الديمقراطية لها أنياب القانون، وحيث الحرية تملك سياطًا لا ترحم من يتجاوز القواعد، وحيث الناس لا يقبلون بسهولة أي غريب يريد أن يقتسم معهم كعكة مدينتهم.

باريس مدينة من هذا النوع؛ قبلة الباحثين عن الحريـة، وعشـاق الفـن والنـور والأضـواء، ووجهـة الـراغبين في حياة من طراز مختلف، بعيدا عن هـذا الـذي يحـدث في العالم الثالث؛ حيث العذاب فقرا وتعبا وبطالـة وقهـرا.

ومن هنا لم يكن غريبا أن يولي فقـراء إفريقيـا (الشـمال والوسط والغرب) وجوههم شطر باريس بحثًا عـن الأمـل. لكنهم ما لبثوا أن اقتربوا من أضواء مدينـة النـور؛ حتـى اكتشفوا أنها نار، والنار لا ترحم، لكنه لا يوجد لـديهم حـل آخر سواها؛ فالنار في الوطن أشد وطأة، ومن هنـا لا مفـر من تعايش هؤلاء مع هذه النار التي يتخيلون أنهـا تحـوي ترياق الحياة.

في هذه النار لا يكون أمام هؤلاء سـوى أن يخضـعوا لقواعد الشواء؛ فيدهنون أجسادهم بالزيوت، ويضعون عليها المتبلات، ويلفونها فوق الجمر، وإلا فإن أمـامهم ضـغوط العنصرية ومفرمات القوانين، وبالتالي فإن الشوارع تصـبح مأوى، والخرابات مسكنًا، والعصابات ملجئًا، والجريمة زادا للحياة، والمخدرات وهما يسكن آلام الشواء.

إن هذا يحدث كل يوم باستثناءات قليلة، وأبطـال هـذه الاستثناءات هم أشخاص من نوع خاص، قـبلهم المجتمـع الغربي بصعوبة؛ لأنه أدرك أنه يمكـن أن يسـتفيد مـنهم، فاستحالت ناره لهم نورا.

ومن عجب أن هذه المدينة (وهي مثال لمـدن أخـرى) التي تجذب هؤلاء الفقراء الباحثين عن الأمل؛ هي نفسها التي تجذب الذين تسببوا في فقرهم؛ حكام بلادهم وأغنياءهم، لكنهم لا يبحثون فيها عن الأمل؛ وإنما عـن فرصـة لاسـتغلال ما حققوه من مال وثراء في الترفية والاستمتاع، والبحث عن مأوى إذا تبدلت الأوضاع، وإذا ما ثـارت ثـورة الفقـراء في البلاد البعيدة ضد الظلم، ثم طردوهم إلى الخارج.

وبمعادلة عجيبة تستطيع مدينة النار والنور أن تجمـع الأضداد؛ أن تجمع هذا الفقير، وذلك الغني.. أن تتحول إلـى قواد من طراز خاص يعطي جسد الهـارب مـن الجحـيم إلى جسد الباحث عن المتعة.. والمثير أن هذا الآتـي وذاك؛ يجدان في المدينة حلاً أفضل، والمثير أن هذا الفقير يتحـول إلى بائع متعة للذي تسـبب فـي فقـره.. وهكـذا يصـبح المهاجرون الفقراء لحما مطلوبا على فراش باريسي؛ لصالح أغنياء دفعوهم إلى أن يهجروا بلادهم. هكذا يمكـن أن يقبل حاكم ما من دولة عربية جسد فتاة مغربية، وهكذا يمكن أن يقبل ثري من دولة عربية جسد شابة من أدغال إفريقيـا،

في رحاب المدينة القوادة، وهكذا يمكن أن يكـون الوسـيط مهاجرا من دولة أخرى.

هذه المفارقة العجيبة رصدتها في تلك القضـية التـي هزت فرنسا في عام ١٩٩٧؛ حيث الوقائع المرعبة تدور بين اللحم الأبيض أو حتى الأسود، وبين أصحاب الأموال التـي سال لعابهم، وحيث العائلات العربية (بعضها علـى الأقـل) تحض بناتها على البغاء، وحيث تؤمن المتعة لأثرياء عرب.

ولكن الغريب هنا هو: لماذا تنفجر مثل هذه القضايا من حين لآخر إذا كانت هذه المدينة قد ارتضت تلك الصيغة؟

والواقع إن هذا يحدث فقط في حالة واحدة؛ حالة تجاوز القواعد. فالدعارة مباحة، ولكن لها قانون، والمتعة تباع ولكن لها شروط، والمدينة تقبل أن تكون قوادة، ولكن فـي إطـار أصول متعارف عليها.. ومن هنا فإن الخروج عن القواعـد والقانون والأصول يؤدي إلى الضجة. لكن المدينـة القـوادة سرعان ما تستعيد معادلتها القديمة في الجمـع بـين فقـراء وأثرياء الدول الأخرى حين تهدأ الضجة.

وهكذا جرت الوقائع.

ففي ٣٠ يناير ١٩٩٧ ألغت الشرطة الفرنسية القـبض على شبكة آداب، تضم فتيات يمارسـن الـدعارة. زعيمـة الشبكة امرأة فرنسية من أصل سويسري، عمرها خمسـون عاما، واسمها "أنيكا برومارك".. هذا هو اسمها. ولزعيمـة الشبكة شريك اسمه جون بيير بورجوا.. خمسون عاما عمره هو الآخر.. مهنته مصور. وبجانب هذا، هو يعمل في أشغال الجرافيك الجنسية لمجلات مثل "لوي" و"نيولوك".

هذه المهنة هي التي أتاحت له أن يتعرف على عدد أكبر من الوجوه المثيرة، وعدد أكبر من الأجساد الناعمة التي تقبل قيم صاحبتها أن تتعرى. وقد كانت لديه عين خبيرة مميـزة، تعرف الفرق بين جسد يقبل أن يظهـر عاريـا فقـط أمـام الكاميرا، وجسد يقبل ما هو أبعد من هذا.. فإذا ما قبل؛ فـإن "جون يبيير" يوفر الزبون، دون أن ينسى بالطبع أن يحصـل على ١٠% من الأجر.. إنه قواد قنوع.

ولم يكن هدف "جون بيير" و"أنيكا" توريد الفتيات لفنادق باريس كما هو معتاد في سوق الدعارة الفرنسية؛ فالإناث كن يسافرن بانتظام إلى موناكو ولندن ونيويورك وغيرها؛ حيث العملاء من كل لون (بعضهم شخصيات عربية من الـوزن

الثقيل)، وحيث الأجر المتفق عليه يكون غالبا ٢٠ ألف فرنك فرنسي، دون أن ينسى الزبون منح البضاعة بعض البقشيش.

ودارت عجلة التحقيق.

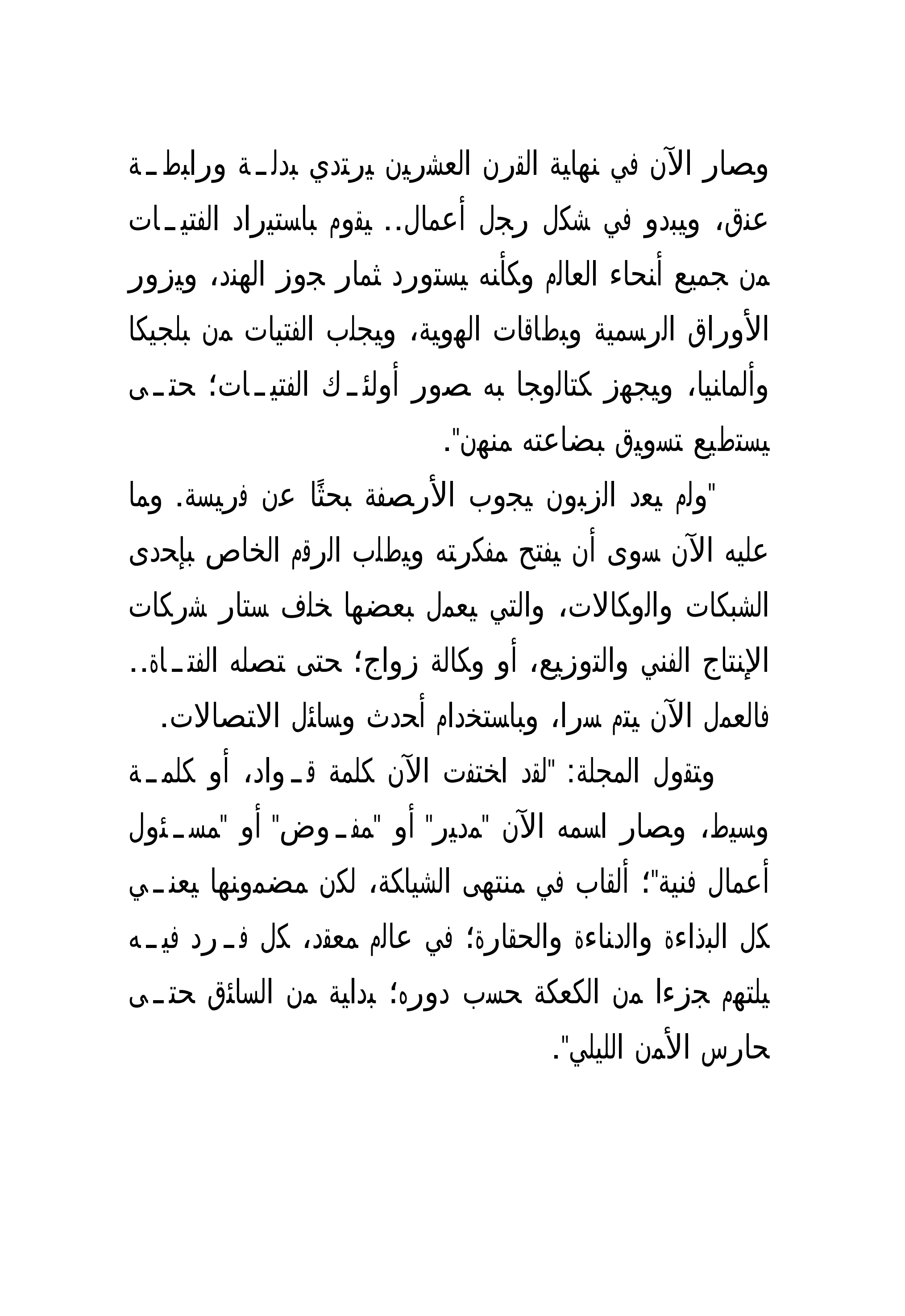
والزعيمان الفرنسيان للشبكة دفعا إلـى الأوراق باسـم شخص عربي اسمه "عزيـز"؛ اتضـح أنـه وسـيط بعـد الوسيطين، بدوره ينقل السلعة المباعة إلى ضـابط فرنسـي اسمه "الكابتن جول باربل"؛ وهو حارس سابق فـي قصـر الإليزية، ويعمل منذ زمن ضمن حراس حاكم عربـي مـن أمراء النفط، وهو بدوره كان موجودا في العمل حين كـان هذا الأمير يعيش في قصره في مدينة "كان"؛ حيـث تصـله السلعة.

وفي حين كانت كل الوقائع تتوالى؛ كانت أيضا يكتنفهـا الغموض، خاصة بعد أن فرضت الدوائر السياسية مزيدا من السرية على ما يدور فـي التحقيقـات؛ فالأسـماء كبيـرة، والزبائن؛ للدولة مصالح معهم، وبالتالي صارت هذه السرية سلوكًا من قوادين آخرين لم يلعبوا دورا فـي العمليـة منـذ البداية؛ وإنما غطوا عليها في النهاية. وهكذا تقلصت الأسئلة العديدة إلى سؤال واحد هو: هل كان الكابتن "بول" يعرف ما

يحدث؟.. وكان الكابتن "بول" يرد قائلاً: "لم أكن على درايـة بما يفعله هذا الشخص العربي؛ كنت فقط أستقبل الفتيات في المطار، ولا أعرف ما الذي يجري.!

ولكن سياج السرية الذي أحاط بالملف وأدى بـه فـي النهاية إلى المواراة؛ لم يمنع الصحافة الفرنسية والمؤسسات غير الأهلية من أن تقلب في بقية أوراق نظام الـدعارة فـي هذا البلد العريق، خاصة من زاوية القوادين؛ فكما تقول مجلة "حدث يوم الخميس" الفرنسية: "لا يزال السذج يعتقـدون أن الداعرات عددهن ٧ آلاف أنثى في باريس وحدها، لا يعملن إلا لحسابهن الخاص، ولا يبعن أجسادهن من أجـل أنـاس آخرين يربحون من ورائهن الكثير من المال؛ لكن الحقيقـة الواضحة هنا أن عشرات المليارات من الفرنكات الفرنسـية تعتبر جزءا لا يتجزأ من دخل فرنسا القومي؛ تأتي من تجارة الرقيق".

"إن ذكر كلمة "عاهرة" يعني أن هناك "قوادة"، وأي فتاة تحتاج دوما إلى مرشد في هذه الغابة. وقد تغير وضع هـذا المرشد من زمن بعيد.. وبعد أن كان هو حبيب الفؤاد الـذي يدفع بالفتاة تارة باللين وتارة بالشدة إلى الرصيف... تغير،



وصار الآن في نهاية القرن العشرين يرتدي بدلة ورابطة عنق، ويبدو في شكل رجل أعمال.. يقوم باستيراد الفتيات من جميع أنحاء العالم وكأنه يستورد ثمار جوز الهند، ويزور الأوراق الرسمية وبطاقات الهوية، ويجلب الفتيات من بلجيكا وألمانيا، ويجهز كتالوجا به صور أولئك الفتيات؛ حتى يستطيع تسويق بضاعته منهن".

"ولم يعد الزبون يجوب الأرصفة بحثًا عن فريسة. وما عليه الآن سوى أن يفتح مفكرته ويطلب الرقم الخاص بإحدى الشبكات والوكالات، والتي يعمل بعضها خلف ستار شركات الإنتاج الفني والتوزيع، أو وكالة زواج؛ حتى تصله الفتاة.. فالعمل الآن يتم سرا، وباستخدام أحدث وسائل الاتصالات.

وتقول المجلة: "لقد اختفت الآن كلمة قواد، أو كلمة وسيط، وصار اسمه الآن "مدير" أو "مفوض" أو "مسئول أعمال فنية"؛ ألقاب في منتهى الشياكة، لكن مضمونها يعني كل البذاءة والدناءة والحقارة؛ في عالم معقد، كل فرد فيه يلتهم جزءا من الكعكة حسب دوره؛ بداية من السائق حتى حارس الأمن الليلي".

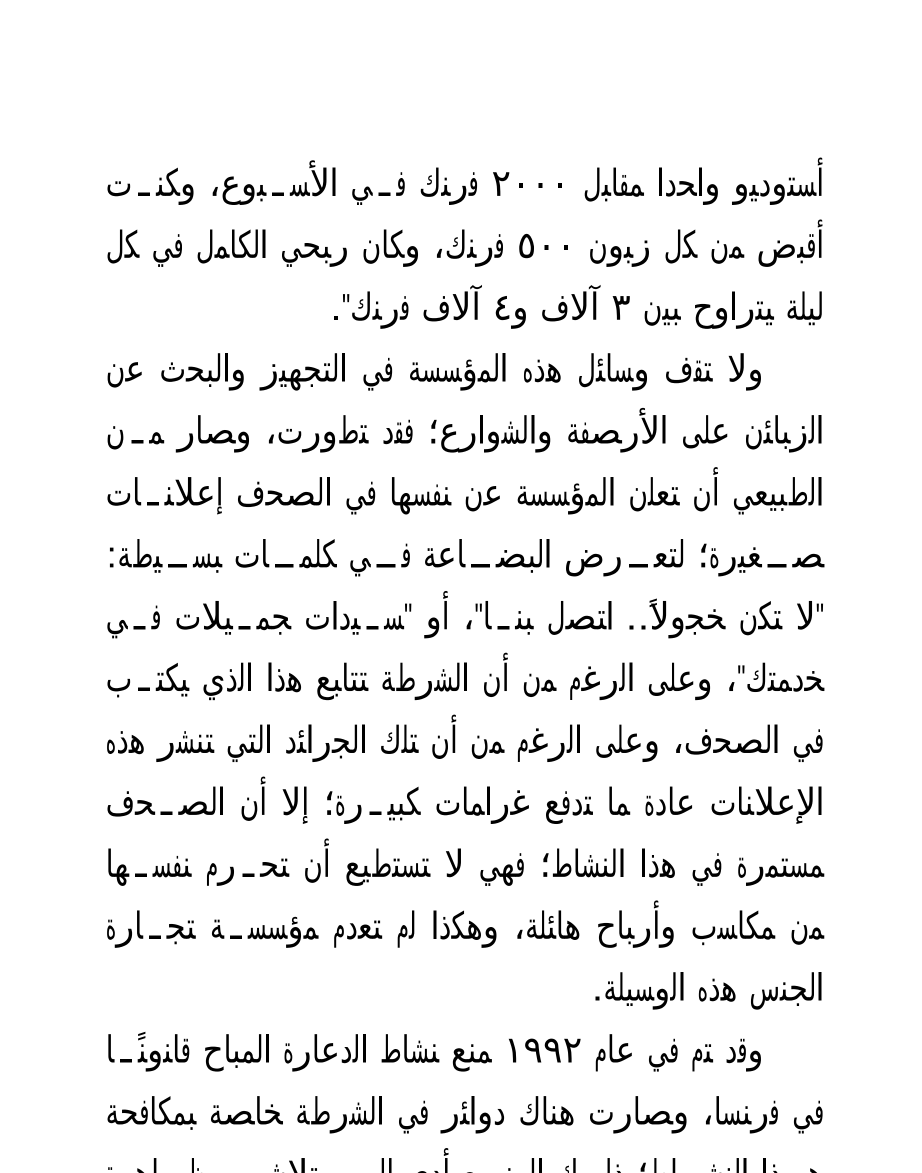
إنها مؤسسة إذن، وعناصرها متكاملة، وأوراقها مرتبة، وعالمها خاص، وتعاليمهـا تلقـن فـي كـل يـوم لمئـات من الذين يعملون معها، لها القدرة على الجـذب، وإمكانيـة التوظيف، والاستفادة من الأوضاع، والتهرب من كل عوامل المقاومة..

هذه المؤسسـة (مؤسسـة القـوادين) يمكـن ببسـاطة أو بضغوط، أن تجند في كل يوم كوادر جديدة. وكمثال؛ فإن فرانسواز الشابة التي لم تتخط عامها الثاني والعشرين دفعت إلى هذا العالم من خلال عشاء تعارف تم مع قواد، عـرض عليها يد العون، وفجأة وجدت نفسها اسما موجودا على قائمة المطلوبات في شبكة اتصالات خاصة؛ كل ما عليها هـو أن تنتظر اتصالاً فتجيبه، ثم تذهب إلى الزبون الذي يدفع بدوره الحساب من خلال هذه الشبكة، ومن خلالها كان القواد أيضا يحصل على نسبته؛ ولهذا كان يقول لها: "أترين أن المسـألة سهلة، وأنت حرة نفسك، دون أن تدفعي مليما ".. وكان مـن الطبيعي أن تتحول فرانسواز إلى طريقها الخاص بمفردهـا، بعيدة عن القواد؛ فالمؤسسة تملك ميزة منح الصغار فرصـة للنمو والترقي.

هذه المؤسسة التي من المعتاد أن تجد بها الصغيرات في السن؛ من المعتاد أيضا أن تجد بها كبيرات السن؛ مثل هذه السيدة التي تحمل اسم مدام أوديت، وهي عجوز في الثالثة والسبعين، عندها خمسة أستوديوهات (شقق صغيرة)، توصف بأنها لطيفة حنونة؛ اتضح أنها تدير هذه الأستوديوهات في مدينة فرنسية صغيرة لصالح الأزواج الخونة منذ عشرات السنين، وتقبض في المقابل من كل فتاة ما بين مائة ومائة وخمسين فرنكًا، على الرغم من أنها سيدة مستريحة، ولديها ثروة هائلة ورثتها عن زوجها.

وفي هذه المؤسسة يمكن أن تجد أيضا نموذجا مثل كاترين؛ دخلت إليها في عمر الخامسة عشرة، وكانت تتنزه في أحد الطرق، وقابلت رجلاً فرنسيا طلب منها سيجارة، ثم تناولا العشاء معا، وبعدها ظلت معه أسبوعا. وفجأة أفلست؛ فاتجهت له، فذهب بها إلى منزل مجهول حيث سمعت أصواتًا غريبة تصدر من غرف عديدة، وفي النهاية كان نصيبها هي الأخرى غرفة مستقلة.

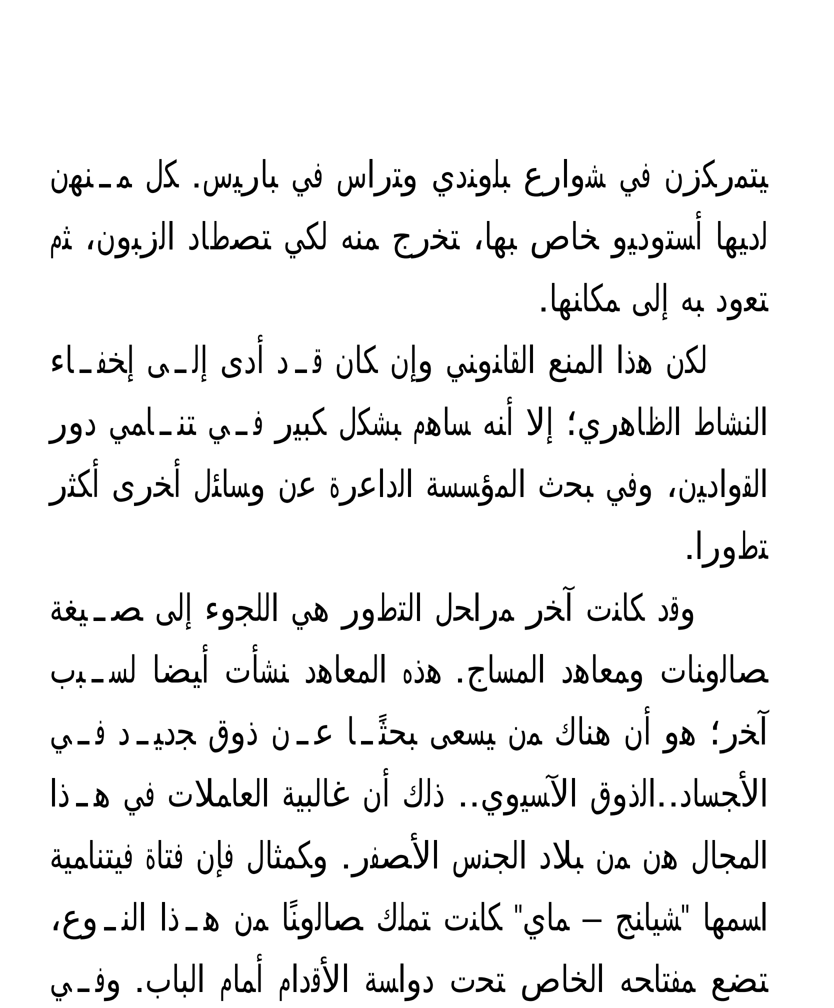
إن كاترين هي الأخرى سرعان ما عملت هي أيضا، ولكن ليس وحدها، وإنما مع فتاة أخرى: "كنا نستأجر



أستوديو واحدا مقابل ٢٠٠٠ فرنك في الأسبوع، وكنت أقبض من كل زبون ٥٠٠ فرنك، وكان ربحي الكامل في كل ليلة يتراوح بين ٣ آلاف و٤ آلاف فرنك".

ولا تقف وسائل هذه المؤسسة في التجهيز والبحث عن الزبائن على الأرصفة والشوارع؛ فقد تطورت، وصار من الطبيعي أن تعلن المؤسسة عن نفسها في الصحف إعلانات صغيرة؛ لتعرض البضاعة في كلمات بسيطة: "لا تكن خجولاً.. اتصل بنا"، أو "سيدات جميلات في خدمتك"، وعلى الرغم من أن الشرطة تتابع هذا الذي يكتب في الصحف، وعلى الرغم من أن تلك الجرائد التي تنشر هذه الإعلانات عادة ما تدفع غرامات كبيرة؛ إلا أن الصحف مستمرة في هذا النشاط؛ فهي لا تستطيع أن تحرم نفسها من مكاسب وأرباح هائلة، وهكذا لم تعدم مؤسسة تجارة الجنس هذه الوسيلة.

وقد تم في عام ١٩٩٢ منع نشاط الدعارة المباح قانونًا في فرنسا، وصارت هناك دوائر في الشرطة خاصة بمكافحة هذا النشاط؛ ذلك المنع أدى إلى تلاشي ظاهرة "المترجلات".. والمترجلات لفظ أطلق على نحو ٥٥٠ فتاة

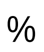


يتمركزن في شوارع بلوندي وتراس في باريس. كل منهن لديها أستوديو خاص بها، تخرج منه لكي تصطاد الزبون، ثم تعود به إلى مكانها.

لكن هذا المنع القانوني وإن كان قد أدى إلى إخفاء النشاط الظاهري؛ إلا أنه ساهم بشكل كبير في تنامي دور القوادين، وفي بحث المؤسسة الداعرة عن وسائل أخرى أكثر تطورا.

وقد كانت آخر مراحل التطور هي اللجوء إلى صيغة صالونات ومعاهد المساج. هذه المعاهد نشأت أيضا لسبب آخر؛ هو أن هناك من يسعى بحثًا عن ذوق جديد في الأجساد..الذوق الآسيوي.. ذلك أن غالبية العاملات في هذا المجال هن من بلاد الجنس الأصفر. وكمثال فإن فتاة فيتنامية اسمها "شيانج – ماي" كانت تملك صالونًا من هذا النوع، تضع مفتاحه الخاص تحت دواسة الأقدام أمام الباب. وفي الداخل هناك ثلاث فتيات من جنسيتها يعملن معها.. وفي نهاية كل شهر يقدر رقم الدخل الذي تحققه بنحو ٥٠ ألف فرنك فرنسي؛ أي نحو مليون و ٨٠٠ ألف فرنك فرنسي في كل عام.

إن صورة هؤلاء الفيتناميات الثلاث وقوادتهن لا تختلف عن صورة أربع فتيات من تايلاند، لديهن صالون تدليك خاص، به رجل يتلقى الطلبات ويقوم بالتدليك أولاً، ثم يرسل الزبون إلى واحد من الفتيات الأربع، وتحصل الواحدة منهن على ما بين ٥٠٠ وألف فرنك، ويكون نصيب المدلك ٢٠ % من هذا المبلغ.



والآسيويون والآسيويات ليسوا وحدهم في هذه المؤسسة؛ ذلك أنها استطاعت وحدها أن تستوعب بدون أي عنصرية كل هؤلاء الذين لم يجدوا دورا في مجتمع النار والنور. وبشكل خاص تجاوزت هذه المؤسسة عن كافة الإشكاليات التي يثيرها المجتمع حول أوضاع هؤلاء، واستوعبت طاقاتهم.. وبعد أن كان الحلم الذي دفعهم إلى الهجرة هو البحث عن أمل، وتقلص إلى البحث عن عمل، ثم تلاشي إلى البحث عن أي شيء تافه، تمكنت المؤسسة من أن تستفيد من هذا المأزق السياسي ذي الوجه القانوني، وخاصة أنهم لا يملكون التصاريح الرسمية للإقامة.

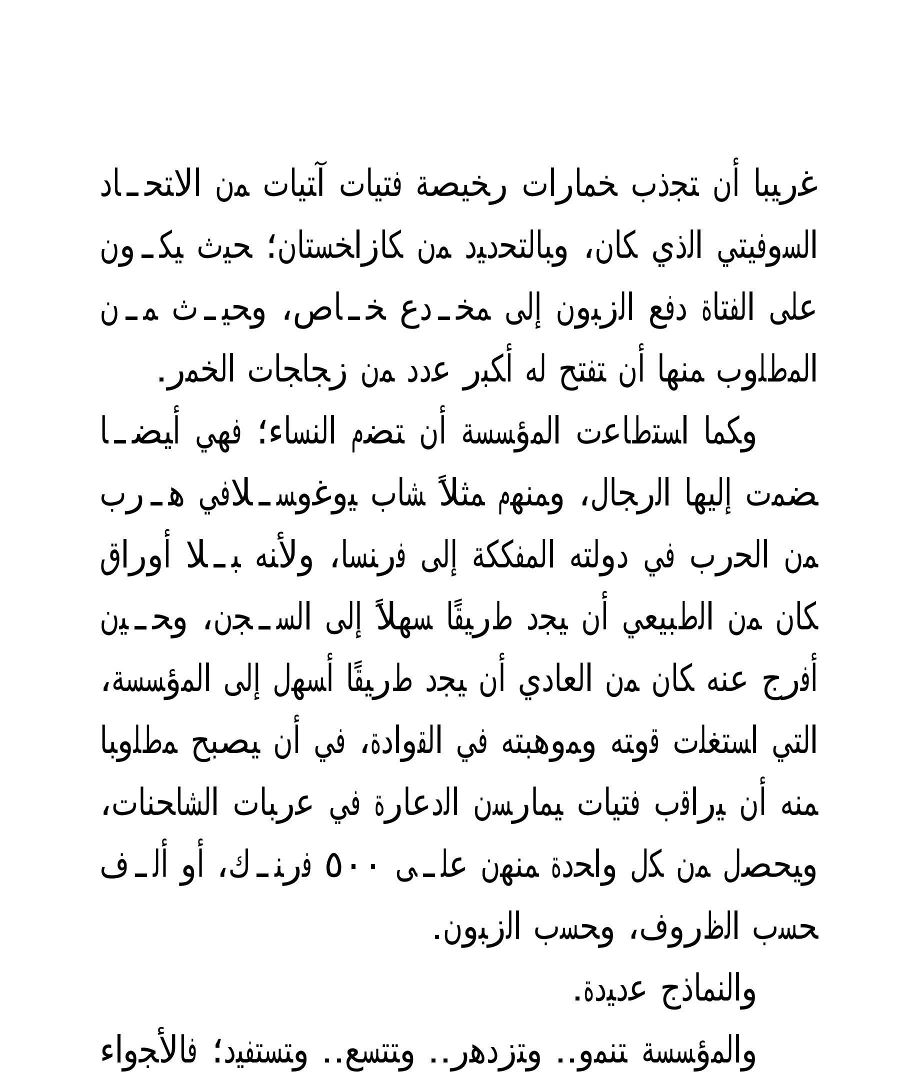
لقد تساوي في هذا الجميع.. العرب والأفارقة والآسيويون.

ففي شمال باريس، وحسب ما تقول الصحف الفرنسية؛ يوجد عدد كبير من هؤلاء الأفارقة.. من غينيـا والسـنغال ونيجيريا. كثير منهم حصل على حـق اللجـوء السياسـي، وعديد منهم يسعى إلى الحصول علـى الجنسـية، ولكـنهم سقطوا في فخاخ الأمـراض الجنسـية والشـذوذ وإدمـان المخدرات، وتحول أغلبهم إلى التجارة ذات العلاقـة بهـذه الأمراض؛ فإما تجارة وتوزيع المخدرات، أو البغاء بشـكله العادي والشاذ؛ لكي يحصل هؤلاء على الجرعـة السـحرية من المادة التي يدمنونها.

وفي مكان آخر من باريس مكان وضيع؛ حيث رائحـة الفقر والغربة، وحيث عسكرت عائلات أتت من المغـرب.. قبلت هذه العائلات من خلال الأمهات إخضاع بناتهن للعمـل في إطار المؤسسة. وفي كل يوم يـدور سـيناريو روتينـي معتـاد؛ حيـث يـتم اصـطياد الزبـائن، وحيـث يمكـن أن تتم المزايدة على الفتاة لمن يدفع أكثر.. وفي نهاية النهار ترتفع أصوات الغنج والتأوهات من خلـف الأشـجار التـي ارتضى بها الجميع ستارا لممارسة الرذيلة خلفها.

ومن المؤكد أن هذه العائلات لم تكن لتفعل هـذا فـي الوطن الأصلي؛ حيث يتشدق الجميع بالقيم والأخلاق. لكنهم لجأوا إلى هذا الحل وفق منطق الغربة؛ حيث لا يعرف أحـد أحدا، وحيث تتطور الأوضاع، وتظهر نماذج مثـل نمـوذج أبو داود العربي، الذي ظلت الشرطة الفرنسية تراقبه شهورا طويلة في عام ١٩٩٦؛ حتى أدركت أنه قـواد مـن نـوع محترف ومعقد، سمعته تخطف الآفاق، ورائحة مقـر عملـه الكريهة العفنة وصلت إلى كل الأنوف، فزكمتها بكل ما بهـا من نتانة؛ ذلك أن النشاط عنده متنوع ومتعدد، ولا يقف عند حد استخدام الفتيات؛ وإنما يمتد أيضا إلى المرقص وصـالة القمار.

إن الأمر لم ينته، ولم يقتصـر علـى أصـحاب هـذه الجنسيات؛ ذلك أن مؤسسة القوادة قادرة دوما على الاستفادة من كل تغيير سياسي يدفع إلى الغرب بالمطرودين والهاربين من الجحيم، وهكذا استطاعت المؤسسة أن تسـتوعب إلـى جانب هذه الفئات أولئك الذين فروا من أوروبا الشرقية؛ حيث الحروب والثورات، والتحولات التي أكلـت تحـت وطـأة عجلاتها الثقيلة مئات الآلاف من البشر. ومن هنا لـم يكـن



غريبا أن تجذب خمارات رخيصة فتيات آتيات من الاتحـاد السوفيتي الذي كان، وبالتحديد من كازاخستان؛ حيث يكـون على الفتاة دفع الزبون إلى مخـدع خـاص، وحيـث مـن المطلوب منها أن تفتح له أكبر عدد من زجاجات الخمر.

وكما استطاعت المؤسسة أن تضم النساء؛ فهي أيضـا ضمت إليها الرجال، ومنهم مثلاً شاب يوغوسـلافي هـرب من الحرب في دولته المفككة إلى فرنسا، ولأنه بـلا أوراق كان من الطبيعي أن يجد طريقًا سهلاً إلى السـجن، وحـين أفرج عنه كان من العادي أن يجد طريقًا أسهل إلى المؤسسة، التي استغلت قوته وموهبته في القوادة، في أن يصبح مطلوبا منه أن يراقب فتيات يمارسن الدعارة في عربات الشاحنات، ويحصل من كل واحدة منهن علـى ٥٠٠ فرنـك، أو ألـف حسب الظروف، وحسب الزبون.

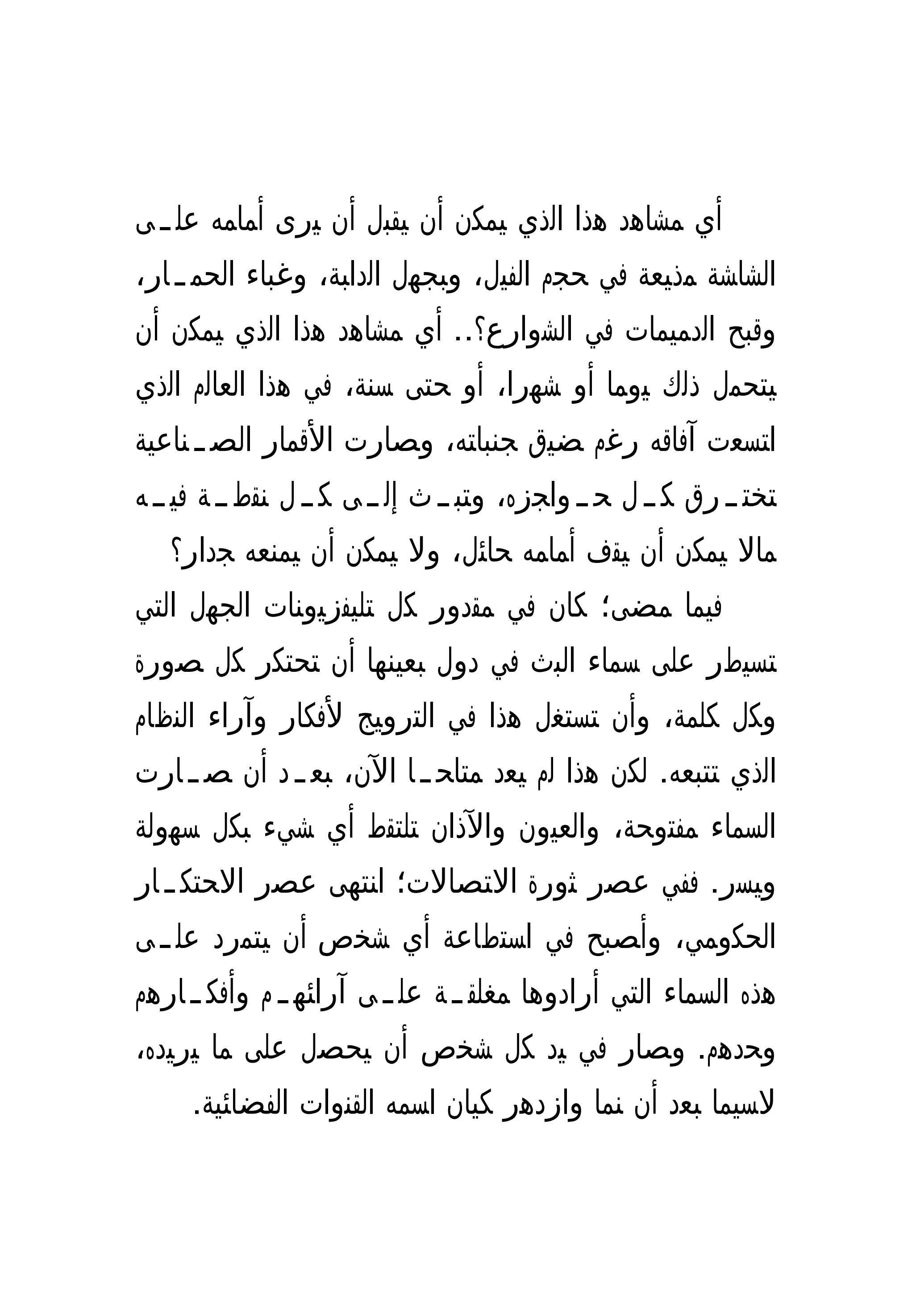
والنماذج عديدة.

والمؤسسة تنمو.. وتزدهر.. وتتسع.. وتستفيد؛ فالأجواء السياسية تقدم لها في كل يوم مزيدا من البضاعة، ومزيدا من الباحثين عنها في مجتمع النور والنار.

11

المذيعات العاريات

"وارتبطت نجومية كـل
مذيعة بما تقدمه من خـدمات
خاصة خـارج الأسـتوديو؛
حيث تحول مديرو المحطات
إلى قوادين من نوع جديد"



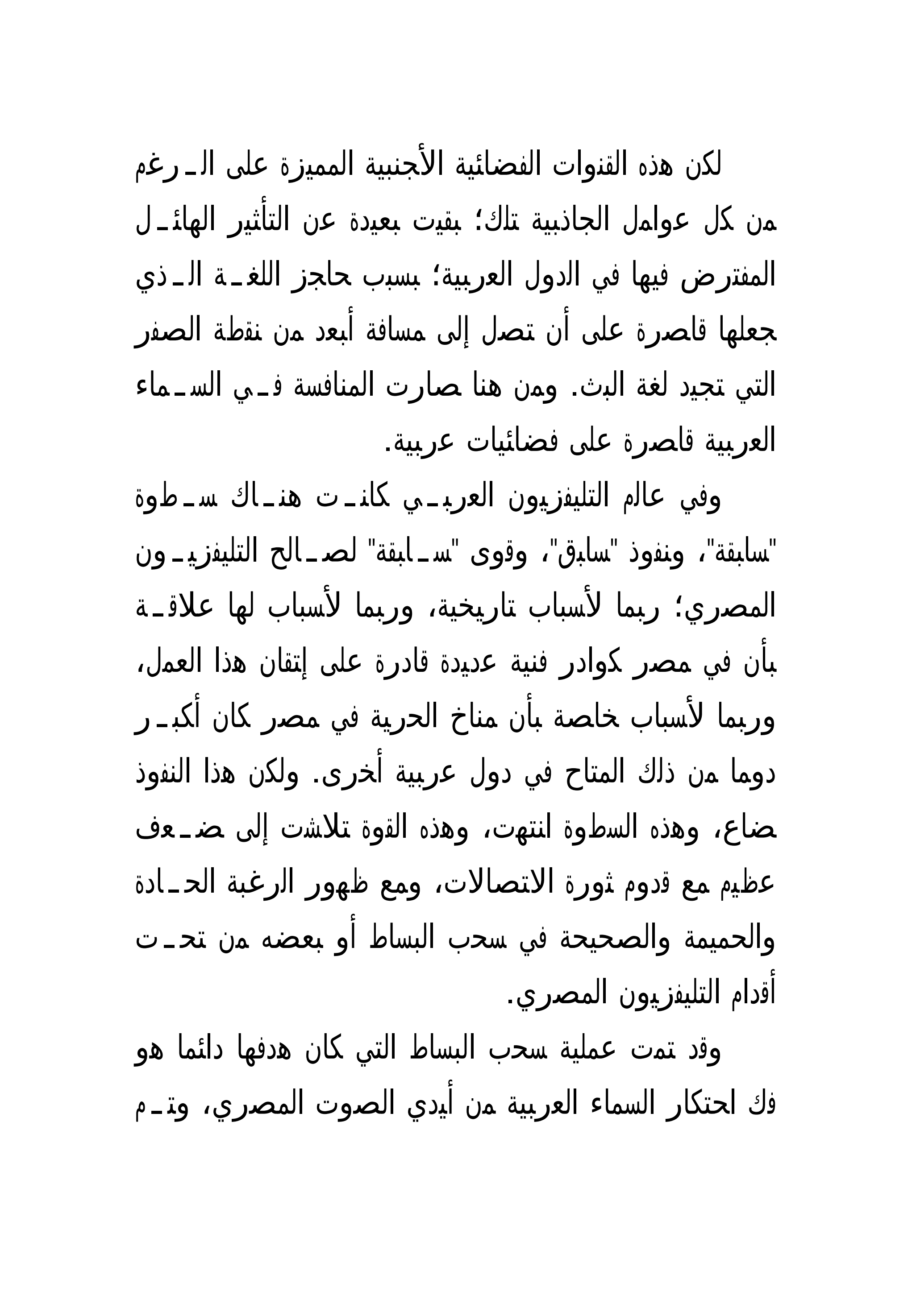
أي مشاهد هذا الذي يمكن أن يقبل أن يرى أمامه على الشاشة مذيعة في حجم الفيل، وبجهل الدابة، وغباء الحمار، وقبح الدميمات في الشوارع؟.. أي مشاهد هذا الذي يمكن أن يتحمل ذلك يوما أو شهرا، أو حتى سنة، في هذا العالم الذي اتسعت آفاقه رغم ضيق جنباته، وصارت الأقمار الصناعية تخترق كل حواجزه، وتبث إلى كل نقطة فيه مالا يمكن أن يقف أمامه حائل، ولا يمكن أن يمنعه جدار؟

فيما مضى؛ كان في مقدور كل تليفزيونات الجهل التي تسيطر على سماء البث في دول بعينها أن تحتكر كل صورة وكل كلمة، وأن تستغل هذا في الترويج لأفكار وآراء النظام الذي تتبعه. لكن هذا لم يعد متاحا الآن، بعد أن صارت السماء مفتوحة، والعيون والآذان تلتقط أي شيء بكل سهولة ويسر. ففي عصر ثورة الاتصالات؛ انتهى عصر الاحتكار الحكومي، وأصبح في استطاعة أي شخص أن يتمرد على هذه السماء التي أرادوها مغلقة على آرائهم وأفكارهم وحدهم. وصار في يد كل شخص أن يحصل على ما يريده، لاسيما بعد أن نما وازدهر كيان اسمه القنوات الفضائية.

هذه الثورة أدت إلى الظاهرة الحالية.

ولكن هذه الثورة كانت حتى وقت قريب محدودة الانتشار؛ فوسيلة التعامل معها قاصرة على فئة بعينها من الناس، وهذه الوسيلة هي الدش (طبق التقاط وبث وإرسال الأقمار الصناعية). وحتى يحين هذا الوقت الذي يمكن فيه لكافة الناس التقاط الإرسال بدون تلك الوسيلة المكلفة؛ كان لا بد من البحث عن كافة عوامل الجذب التي تثير المشاهد، وتدفعه لأن يفعل أي شيء كي يتعامل مع هذه الثورة.

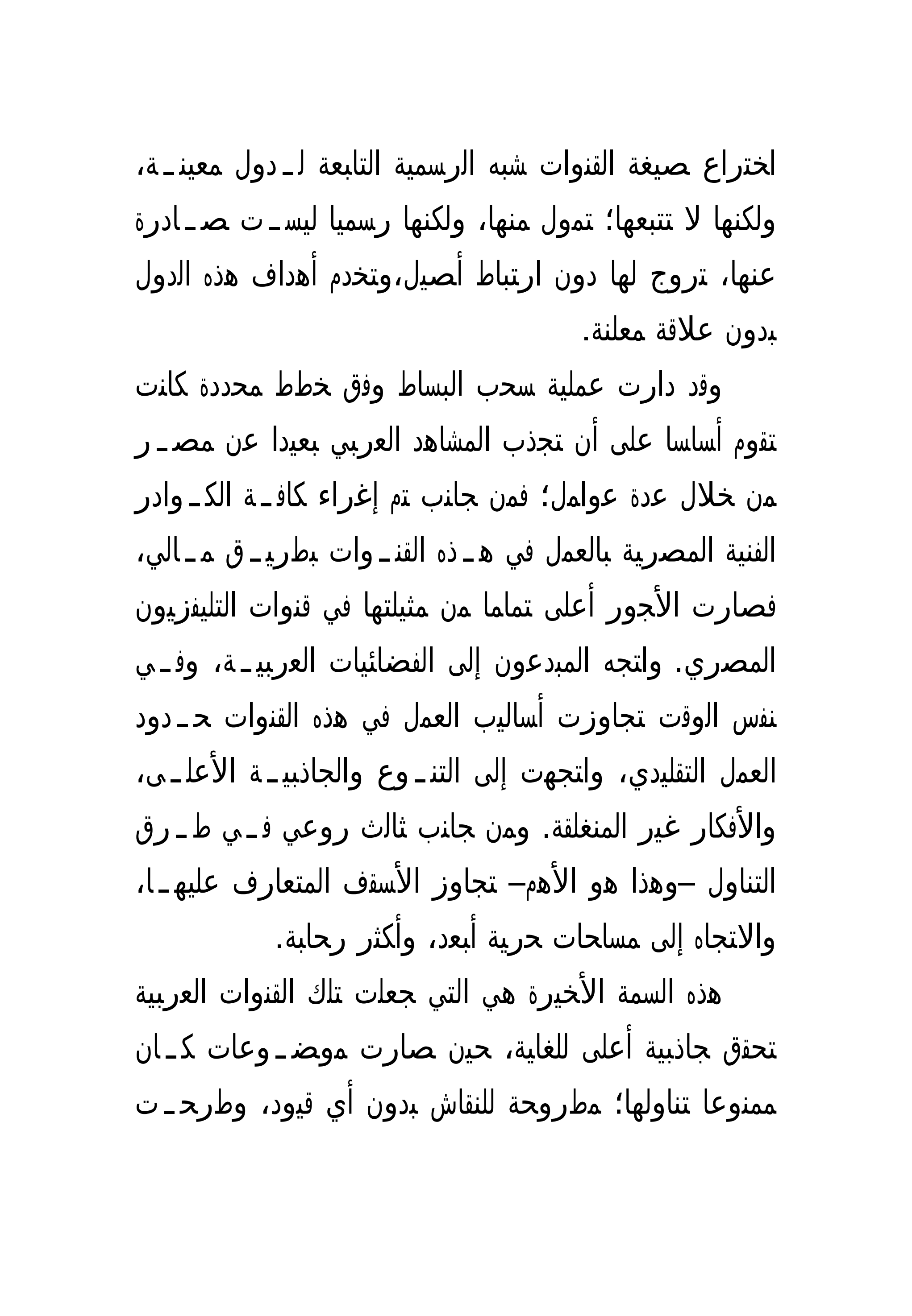
وفي ظل غباء وجهل تليفزيونات الانحطاط الفكري في الدول غير الديمقراطية؛ كان من السهل على القنوات الفضائية الآتية من الدول الحرة أن تجذب المشاهدين من هذه النوعية المتخلفة من الدول. فهي تقدم وجبة متكاملة فيها خليط من كل شيء محترم؛ الحرية، المعلومة الصحيحة، المناقشة المفتوحة، الصناعة الجيدة، الوجوه الجميلة، النجوم، الأفكار الجديدة، وأشياء كثيرة أخرى لا يوجد مثلها في تليفزيونات الجهل.



لكن هذه القنوات الفضائية الأجنبية المميزة على الرغم من كل عوامل الجاذبية تلك؛ بقيت بعيدة عن التأثير الهائل المفترض فيها في الدول العربية؛ بسبب حاجز اللغة الذي جعلها قاصرة على أن تصل إلى مسافة أبعد من نقطة الصفر التي تجيد لغة البث. ومن هنا صارت المنافسة في السماء العربية قاصرة على فضائيات عربية.

وفي عالم التليفزيون العربي كانت هناك سطوة "سابقة"، ونفوذ "سابق"، وقوى "سابقة" لصالح التليفزيون المصري؛ ربما لأسباب تاريخية، وربما لأسباب لها علاقة بأن في مصر كوادر فنية عديدة قادرة على إتقان هذا العمل، وربما لأسباب خاصة بأن مناخ الحرية في مصر كان أكبر دوما من ذلك المتاح في دول عربية أخرى. ولكن هذا النفوذ ضاع، وهذه السطوة انتهت، وهذه القوة تلاشت إلى ضعف عظيم مع قدوم ثورة الاتصالات، ومع ظهور الرغبة الحادة والحميمة والصحيحة في سحب البساط أو بعضه من تحت أقدام التليفزيون المصري.

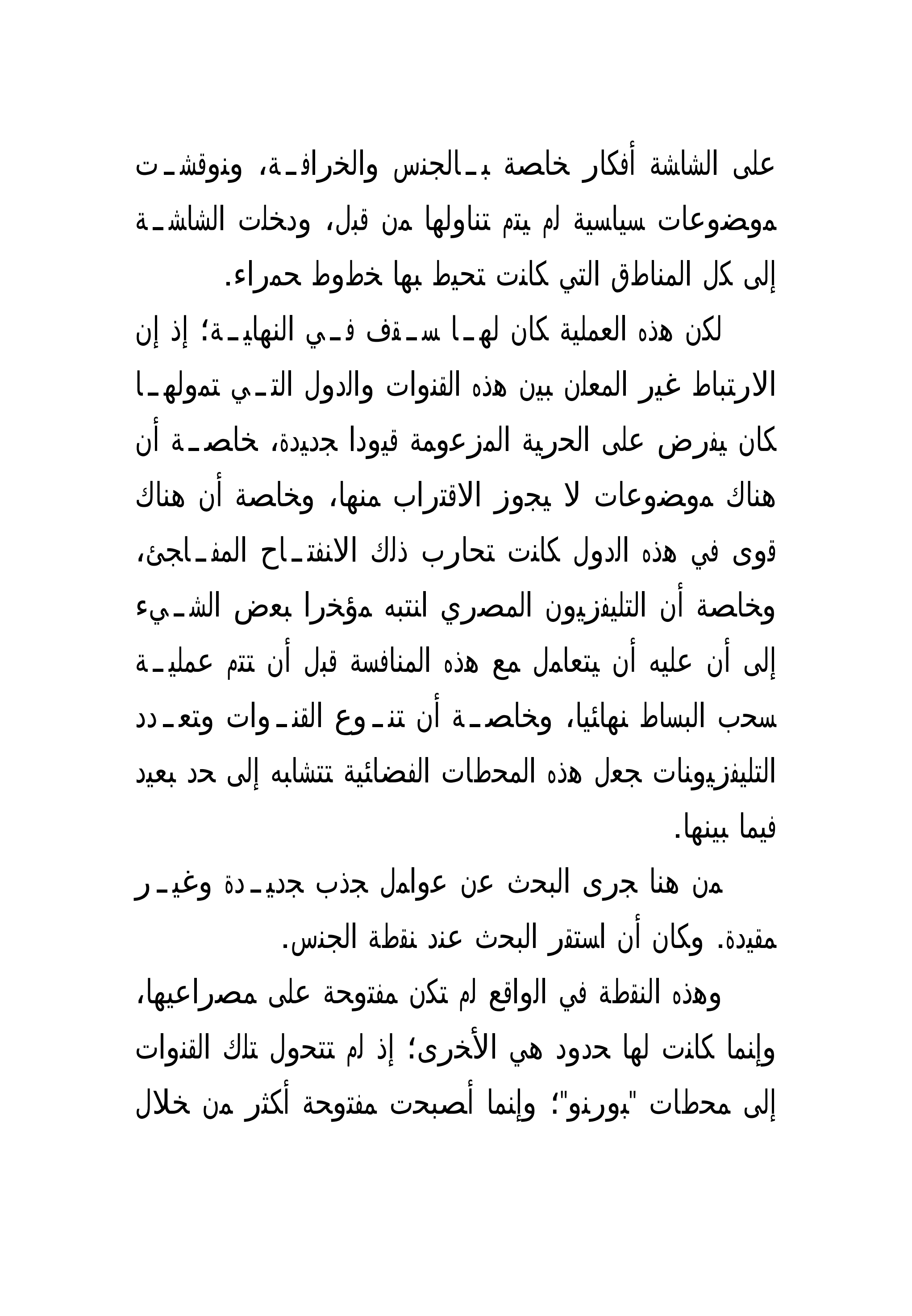
وقد تمت عملية سحب البساط التي كان هدفها دائما هو فك احتكار السماء العربية من أيدي الصوت المصري، وتم



اختراع صيغة القنوات شبه الرسمية التابعة لـدول معينـة، ولكنها لا تتبعها؛ تمول منها، ولكنها رسميا ليسـت صـادرة عنها، تروج لها دون ارتباط أصيل،وتخدم أهداف هذه الدول بدون علاقة معلنة.

وقد دارت عملية سحب البساط وفق خطط محددة كانت تقوم أساسا على أن تجذب المشاهد العربي بعيدا عن مصـر من خلال عدة عوامل؛ فمن جانب تم إغراء كافـة الكـوادر الفنية المصرية بالعمل في هـذه القنـوات بطريـق مـالي، فصارت الأجور أعلى تماما من مثيلتها في قنوات التليفزيون المصري. واتجه المبدعون إلى الفضائيات العربيـة، وفـي نفس الوقت تجاوزت أساليب العمل في هذه القنوات حـدود العمل التقليدي، واتجهت إلى التنـوع والجاذبيـة الأعلـى، والأفكار غير المنغلقة. ومن جانب ثالث روعي فـي طـرق التناول –وهذا هو الأهم– تجاوز الأسقف المتعارف عليهـا، والاتجاه إلى مساحات حرية أبعد، وأكثر رحابة.

هذه السمة الأخيرة هي التي جعلت تلك القنوات العربية تحقق جاذبية أعلى للغاية، حين صارت موضـوعات كـان ممنوعا تناولها؛ مطروحة للنقاش بدون أي قيود، وطرحـت

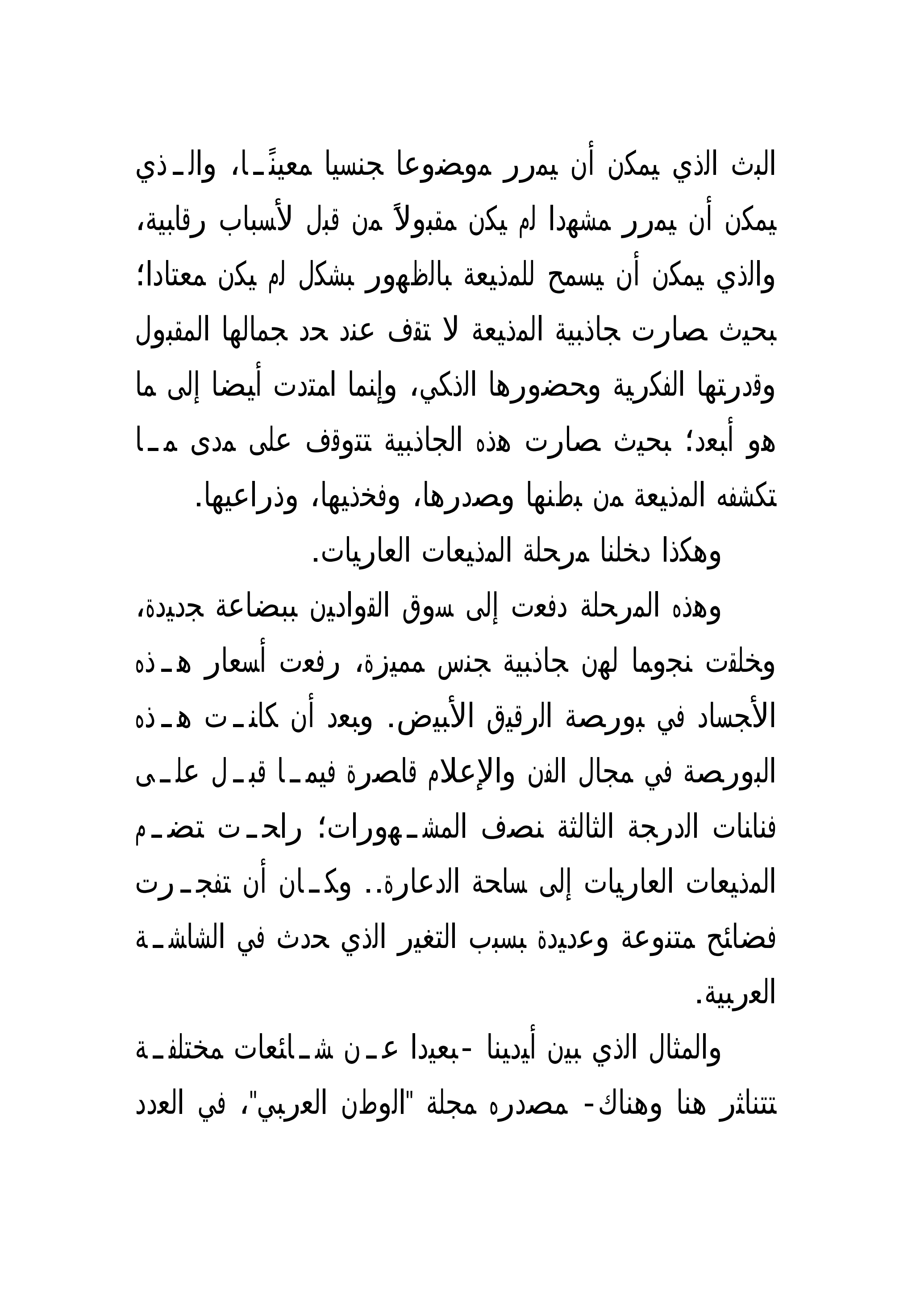


على الشاشة أفكار خاصة بالجنس والخرافة، ونوقشت موضوعات سياسية لم يتم تناولها من قبل، ودخلت الشاشة إلى كل المناطق التي كانت تحيط بها خطوط حمراء.

لكن هذه العملية كان لها سقف في النهاية؛ إذ إن الارتباط غير المعلن بين هذه القنوات والدول التي تمولها كان يفرض على الحرية المزعومة قيودا جديدة، خاصة أن هناك موضوعات لا يجوز الاقتراب منها، وخاصة أن هناك قوى في هذه الدول كانت تحارب ذلك الانفتاح المفاجئ، وخاصة أن التليفزيون المصري انتبه مؤخرا بعض الشيء إلى أن عليه أن يتعامل مع هذه المنافسة قبل أن تتم عملية سحب البساط نهائيا، وخاصة أن تنوع القنوات وتعدد التليفزيونات جعل هذه المحطات الفضائية تتشابه إلى حد بعيد فيما بينها.

من هنا جرى البحث عن عوامل جذب جديدة وغير مقيدة. وكان أن استقر البحث عند نقطة الجنس.

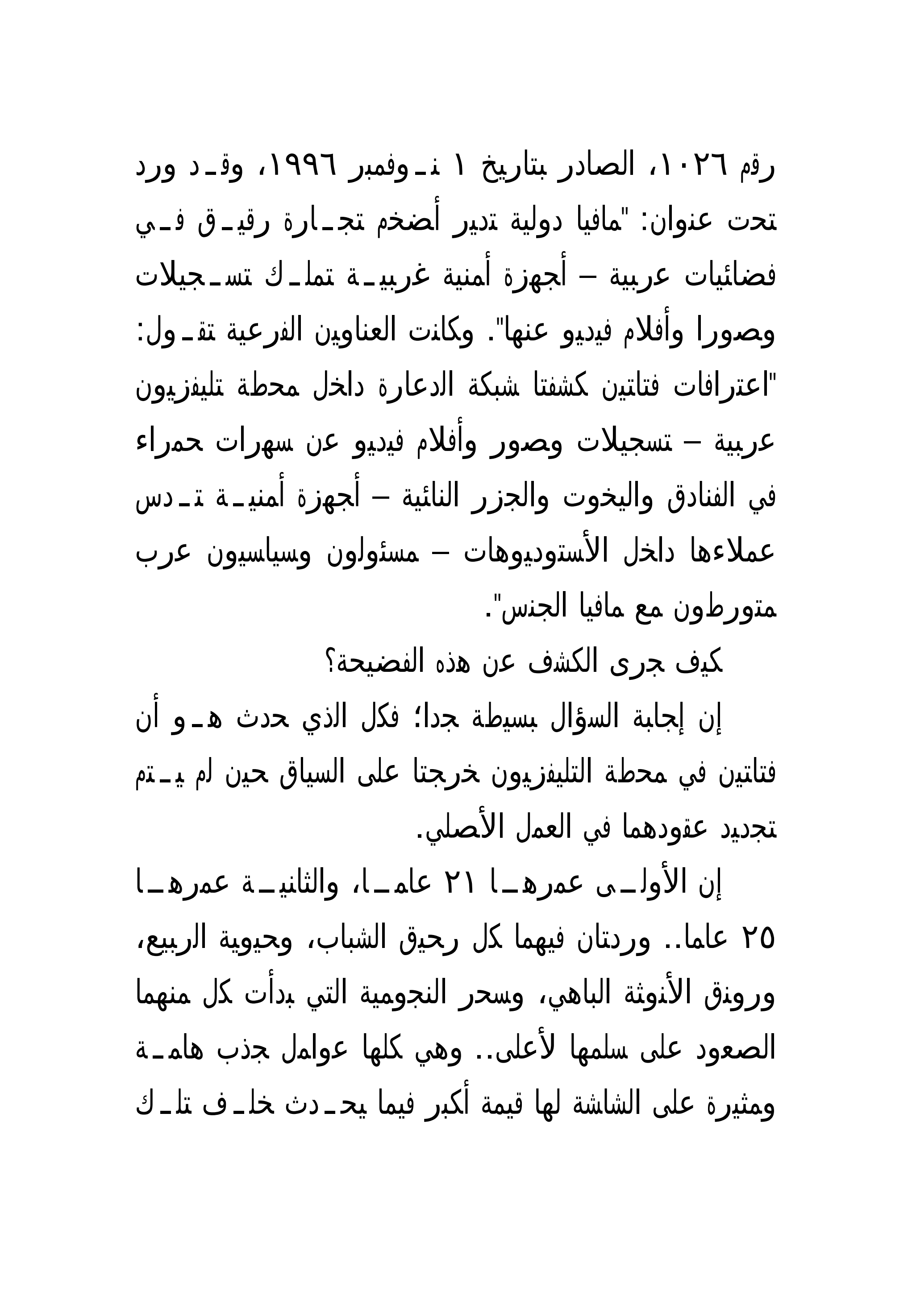
وهذه النقطة في الواقع لم تكن مفتوحة على مصراعيها، وإنما كانت لها حدود هي الأخرى؛ إذ لم تتحول تلك القنوات إلى محطات "بورنو"؛ وإنما أصبحت مفتوحة أكثر من خلال


البث الذي يمكن أن يمرر موضوعا جنسيا معينًـا، والـذي يمكن أن يمرر مشهدا لم يكن مقبولاً من قبل لأسباب رقابية، والذي يمكن أن يسمح للمذيعة بالظهور بشكل لم يكن معتادا؛ بحيث صارت جاذبية المذيعة لا تقف عند حد جمالها المقبول وقدرتها الفكرية وحضورها الذكي، وإنما امتدت أيضا إلى ما هو أبعد؛ بحيث صارت هذه الجاذبية تتوقف على مدى مـا تكشفه المذيعة من بطنها وصدرها، وفخذيها، وذراعيها.

وهكذا دخلنا مرحلة المذيعات العاريات.

وهذه المرحلة دفعت إلى سوق القوادين ببضاعة جديدة، وخلقت نجوما لهن جاذبية جنس مميزة، رفعت أسعار هـذه الأجساد في بورصة الرقيق الأبيض. وبعد أن كانـت هـذه البورصة في مجال الفن والإعلام قاصرة فيمـا قبـل علـى فنانات الدرجة الثالثة نصف المشـهورات؛ راحـت تضـم المذيعات العاريات إلى ساحة الدعارة.. وكـان أن تفجـرت فضائح متنوعة وعديدة بسبب التغير الذي حدث في الشاشـة العربية.

والمثال الذي بين أيدينا -بعيدا عـن شـائعات مختلفـة تتناثر هنا وهناك- مصدره مجلة "الوطن العربي"، في العدد



رقم ١٠٢٦، الصادر بتاريخ ١ نـوفمبر ١٩٩٦، وقـد ورد تحت عنوان: "مافيا دولية تدير أضخم تجـارة رقيـق فـي فضائيات عربية – أجهزة أمنية غربيـة تملـك تسـجيلات وصورا وأفلام فيديو عنها". وكانت العناوين الفرعية تقـول: "اعترافات فتاتين كشفتا شبكة الدعارة داخل محطة تليفزيون عربية – تسجيلات وصور وأفلام فيديو عن سهرات حمراء في الفنادق واليخوت والجزر النائية – أجهزة أمنيـة تـدس عملاءها داخل الأستوديوهات – مسئولون وسياسيون عرب متورطون مع مافيا الجنس".

كيف جرى الكشف عن هذه الفضيحة؟

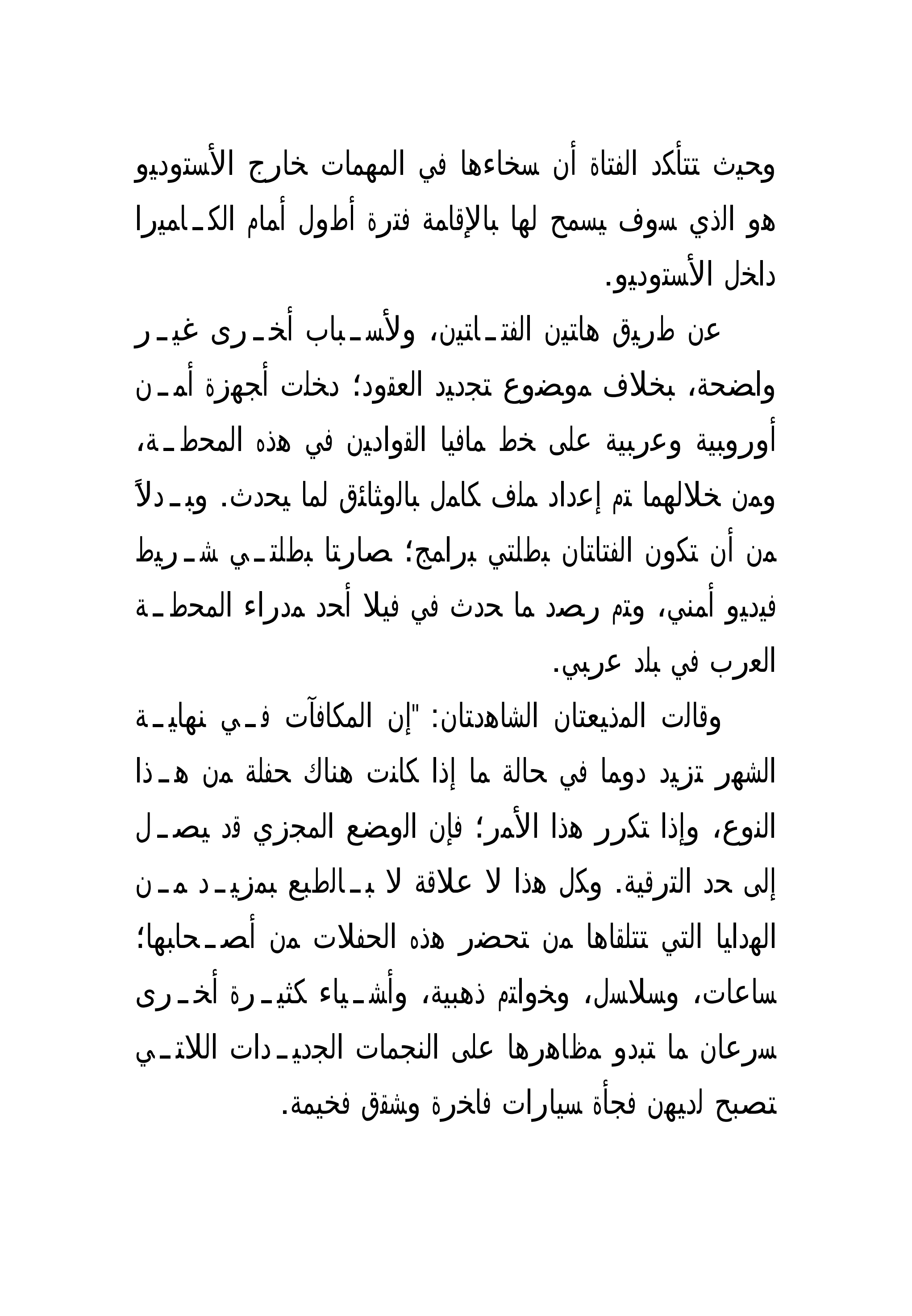
إن إجابة السؤال بسيطة جدا؛ فكل الذي حدث هـو أن فتاتين في محطة التليفزيون خرجتا على السياق حين لم يـتم تجديد عقودهما في العمل الأصلي.

إن الأولـى عمرهـا ٢١ عامـا، والثانيـة عمرهـا ٢٥ عاما.. وردتان فيهما كل رحيق الشباب، وحيوية الربيع، ورونق الأنوثة الباهي، وسحر النجومية التي بدأت كل منهما الصعود على سلمها لأعلى.. وهي كلها عوامل جذب هامـة ومثيرة على الشاشة لها قيمة أكبر فيما يحـدث خلـف تلـك

الشاشة؛ حيث تتحول الأنثى من صحفية إلى واحدة من بنات الهوى، وحيث أدركت الفتاتان أن طريق الصعود إلى سلم النجومية وقمة الشهرة مرتبط دائما بما تقدمه كل منهما في الكواليس، وحيث اتضح أن طريق التليفزيون مفروش دائما وأبدا بالقوادين.

والقوادون في هذه المحطة يديرون شبكة، بها فتيات من كل نوع: مذيعات، ومقدمات برامج، وسكرتيرات، وموظفات إداريات.. عربيات وأوروبيات.. ويكون الطريق دائما بادئًا باختيارات توظيف هدفها العلني البحث عن كوادر تليفزيونية، ثم يتضح أثناء سير هذه الاختبارات أن لجنة الاختبار (وهي هنا الشكل المحترم للقوادة والقوادين) لا تبحث عن عاملات في المحطة؛ وإنما عن ملكات جمال بمقاييس من نوع خاص، تناسب ذوقًا معينًا.

حين تتم إجازة الفتاة، ومرورها من بوابة لجنة الاختبار؛ تبدأ حقيقة الأمر تتضح لها خطوة خطوة، ويبدأ الإغراء والاستدراج؛ مرة باللين، ومرة بالضغط؛ حيث يتضح بمضي الوقت أن النجومية على الشاشة مرتبطة دائما بالمهام الفائقة التي يتم تكليف النجمة الجديدة بها في الخفاء،



وحيث تتأكد الفتاة أن سخاءها في المهمات خارج الأستوديو هو الذي سوف يسمح لها بالإقامة فترة أطول أمام الكاميرا داخل الأستوديو.

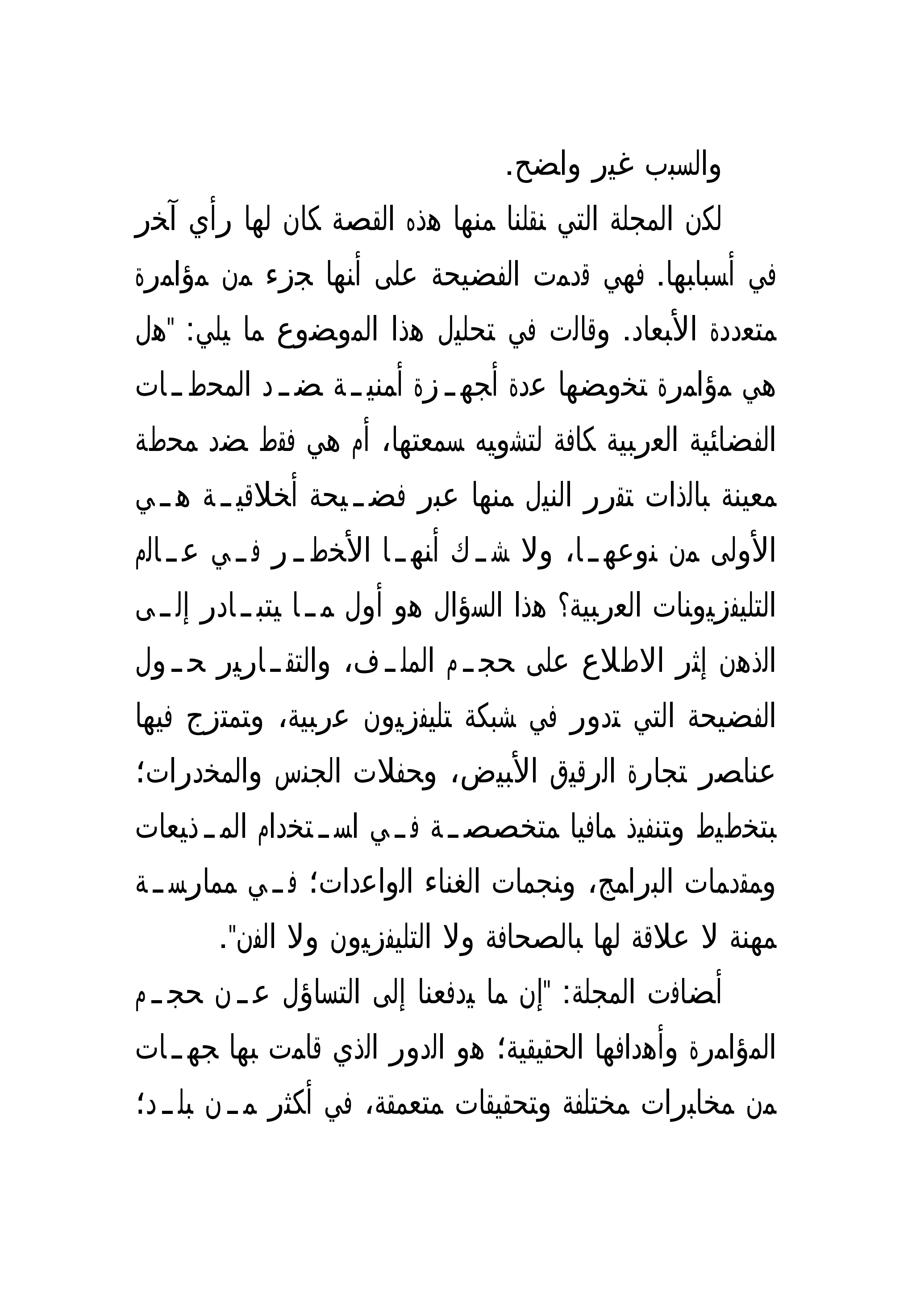
عن طريق هاتين الفتاتين، ولأسباب أخرى غير واضحة، بخلاف موضوع تجديد العقود؛ دخلت أجهزة أمن أوروبية وعربية على خط مافيا القوادين في هذه المحطة، ومن خلالهما تم إعداد ملف كامل بالوثائق لما يحدث. وبدلاً من أن تكون الفتاتان بطلتي برامج؛ صارتا بطلتي شريط فيديو أمني، وتم رصد ما حدث في فيلا أحد مدراء المحطة العرب في بلد عربي.

وقالت المذيعتان الشاهدتان: "إن المكافآت في نهاية الشهر تزيد دوما في حالة ما إذا كانت هناك حفلة من هذا النوع، وإذا تكرر هذا الأمر؛ فإن الوضع المجزي قد يصل إلى حد الترقية. وكل هذا لا علاقة لا بالطبع بمزيد من الهدايا التي تتلقاها من تحضر هذه الحفلات من أصحابها؛ ساعات، وسلاسل، وخواتم ذهبية، وأشياء كثيرة أخرى سرعان ما تبدو مظاهرها على النجمات الجديدات اللاتي تصبح لديهن فجأة سيارات فاخرة وشقق فخيمة.

وفق أوراق نفس الملف؛ فإن هذه الحفلات ليست قاصرة على بلد معين، وهي تمتد بين عواصم دول مختلفة وفنـادق عديدة؛ من باريس إلى هاواي والباهاما، وجزيرة سيشل؛ بل أحيانًا على متن يخوت في عرض البحر. وفي هذه الأمـاكن يكون الستار في بعض الأحيان هو تصوير أعمـال فنيـة؛ أغاني الفيديو كليب التي سرعان ما تصبح خلال لحظة حفلة مجون صاخبة.

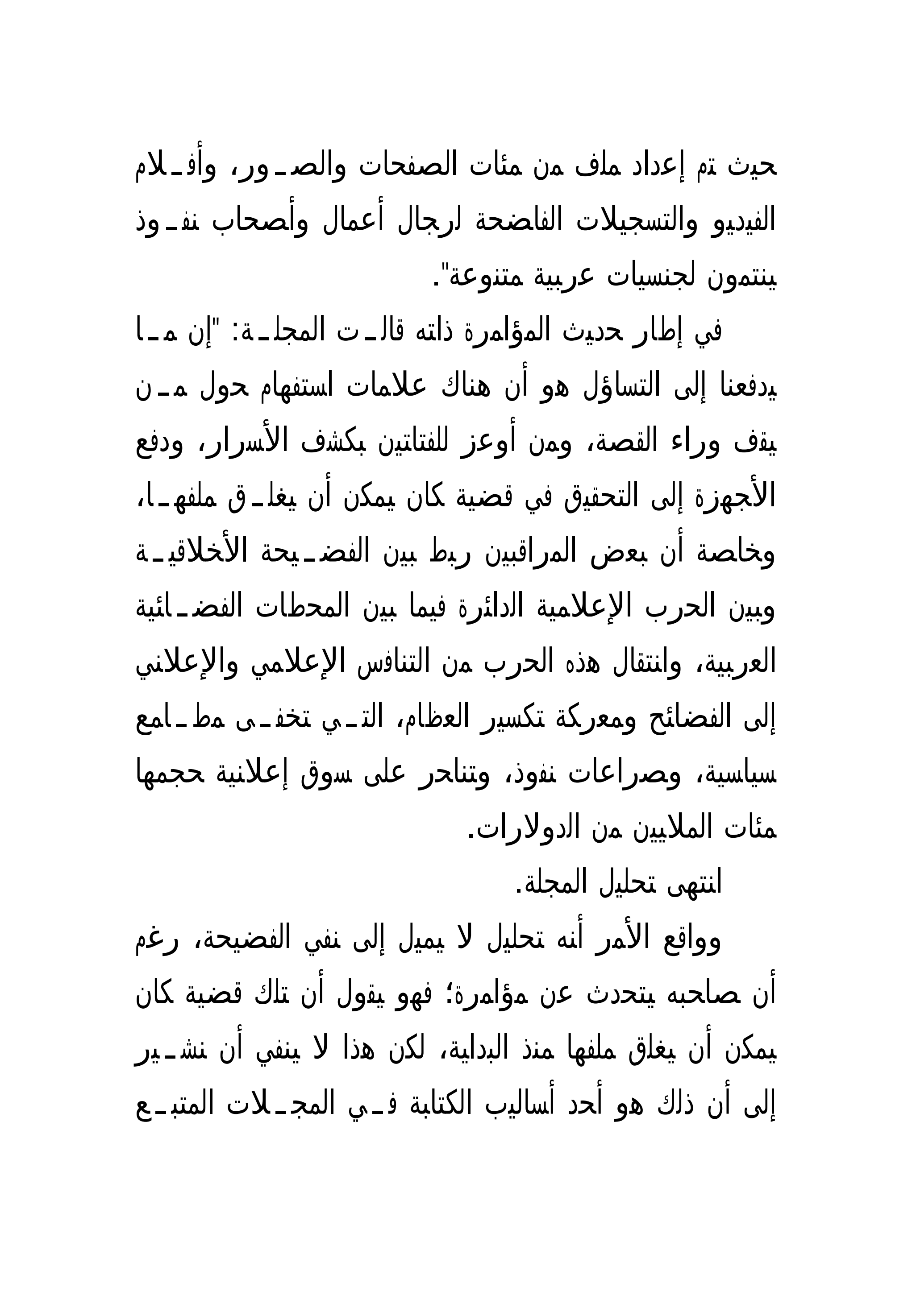
في هذا الإطار يحترف القوادون التنوع، والبحث عـن أي وسيلة للتجديد، ومن هنا ليس غريبا على الإطلاق أن تجد المذيعات العاريات معهن في هذه الحفلات المثيـرة فتيـات إعلان. ثم في مرة أخرى مطربـات جديـدات، خاصـة أن بعض الزبائن يفضل هذا النوع المغني، الذي تتحول مهنتـه من الطرب إلى الإطراب، وحيث تنفجر طاقـات أصـواتهن على فراش المتعة؛ ليس في اتجاه الغناء، وإنما فـي اتجـاه الغنج مدفوع الثمن.

وهذا الملف الساخن رغم اكتمال أوراقه، بقي هكذا معلقًا دون أن يتفجر، رغم أن به عشرات من أسـباب التفجيـر، ورغم أن هناك ضحايا حاولت التمرد على رباط القوادين.


والسبب غير واضح.

لكن المجلة التي نقلنا منها هذه القصة كان لها رأي آخر في أسبابها. فهي قدمت الفضيحة على أنها جزء من مؤامرة متعددة الأبعاد. وقالت في تحليل هذا الموضوع ما يلي: "هل هي مؤامرة تخوضها عدة أجهـزة أمنيـة ضـد المحطـات الفضائية العربية كافة لتشويه سمعتها، أم هي فقط ضد محطة معينة بالذات تقرر النيل منها عبر فضـيحة أخلاقيـة هـي الأولى من نوعهـا، ولا شـك أنهـا الأخطـر فـي عـالم التليفزيونات العربية؟ هذا السؤال هو أول مـا يتبـادر إلـى الذهن إثر الاطلاع على حجـم الملـف، والتقـارير حـول الفضيحة التي تدور في شبكة تليفزيون عربية، وتمتزج فيها عناصر تجارة الرقيق الأبيض، وحفلات الجنس والمخدرات؛ بتخطيط وتنفيذ مافيا متخصصـة فـي اسـتخدام المـذيعات ومقدمات البرامج، ونجمات الغناء الواعدات؛ فـي ممارسـة مهنة لا علاقة لها بالصحافة ولا التليفزيون ولا الفن".

أضافت المجلة: "إن ما يدفعنا إلى التساؤل عـن حجـم المؤامرة وأهدافها الحقيقية؛ هو الدور الذي قامت بها جهـات من مخابرات مختلفة وتحقيقات متعمقة، في أكثر مـن بلـد؛

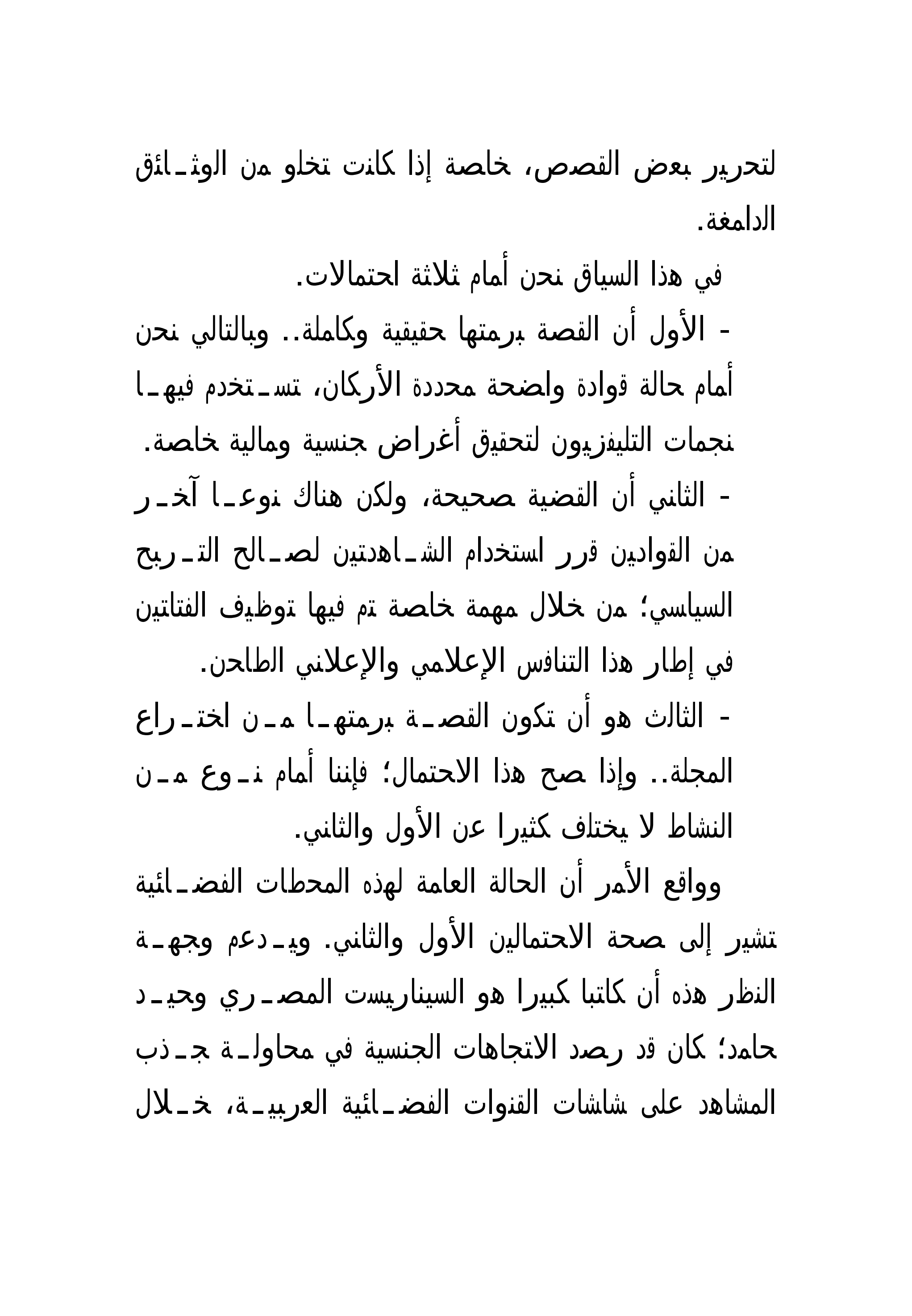


حيث تم إعداد ملف من مئات الصفحات والصور، وأفلام الفيديو والتسجيلات الفاضحة لرجال أعمال وأصحاب نفوذ ينتمون لجنسيات عربية متنوعة".

في إطار حديث المؤامرة ذاته قالت المجلة: "إن ما يدفعنا إلى التساؤل هو أن هناك علامات استفهام حول من يقف وراء القصة، ومن أوعز للفتاتين بكشف الأسرار، ودفع الأجهزة إلى التحقيق في قضية كان يمكن أن يغلق ملفها، وخاصة أن بعض المراقبين ربط بين الفضيحة الأخلاقية وبين الحرب الإعلامية الدائرة فيما بين المحطات الفضائية العربية، وانتقال هذه الحرب من التنافس الإعلامي والإعلاني إلى الفضائح ومعركة تكسير العظام، التي تخفي مطامع سياسية، وصراعات نفوذ، وتناحر على سوق إعلانية حجمها مئات الملايين من الدولارات.

انتهى تحليل المجلة.

وواقع الأمر أنه تحليل لا يميل إلى نفي الفضيحة، رغم أن صاحبه يتحدث عن مؤامرة؛ فهو يقول أن تلك قضية كان يمكن أن يغلق ملفها منذ البداية، لكن هذا لا ينفي أن نشير إلى أن ذلك هو أحد أساليب الكتابة في المجلات المتبع



لتحرير بعض القصص، خاصة إذا كانت تخلو من الوثائق الدامغة.

في هذا السياق نحن أمام ثلاثة احتمالات.

- الأول أن القصة برمتها حقيقية وكاملة.. وبالتالي نحن أمام حالة قوادة واضحة محددة الأركان، تستخدم فيها نجمات التليفزيون لتحقيق أغراض جنسية ومالية خاصة.

- الثاني أن القضية صحيحة، ولكن هناك نوعا آخر من القوادين قرر استخدام الشاهدتين لصالح التربح السياسي؛ من خلال مهمة خاصة تم فيها توظيف الفتاتين في إطار هذا التنافس الإعلامي والإعلاني الطاحن.

- الثالث هو أن تكون القصة برمتها من اختراع المجلة.. وإذا صح هذا الاحتمال؛ فإننا أمام نوع من النشاط لا يختلف كثيرا عن الأول والثاني.

وواقع الأمر أن الحالة العامة لهذه المحطات الفضائية تشير إلى صحة الاحتمالين الأول والثاني. ويدعم وجهة النظر هذه أن كاتبا كبيرا هو السيناريست المصري وحيد حامد؛ كان قد رصد الاتجاهات الجنسية في محاولة جذب المشاهد على شاشات القنوات الفضائية العربية، خلال

مهرجان التليفزيون الذي أقيم في القاهرة في يوليـو ١٩٩٧، وعبر عن هذا في مقال نشره فـي مجلـة روز اليوسـف. ويدعمها أيضا (أي وجهة النظر هذه) أقوال وقصص تتـردد من حين لآخر عن مذيعات تليفزيون من جنسـيات مختلفـة تظهر بين حين وآخر.

ولكن الذي يؤكد أن الفضائيات صارت شاشة لعـرض الأجساد قبل الأخبار؛ هو قضية أخرى تم التحقيق فيها فـي مصر خلال شهر مـايو ١٩٩٧.. وكانـت بطلـة القضـية الأساسية هي إحدى مذيعات هذه القنـوات، بجانـب فتيـات إعلان، وطالبات جامعة، ومطربة، وفنانة.. وكان القواد فيها رجل أعمال مصري، ونجما معروفًا، وثريا عربيا.

هذه القضية التي كان عدد المتهمـين فيهـا ١٧ فتـاة، بالإضافة إلى طباخ وسائق وسيدة؛ تم التحقيق فيها في نيابـة مدينة نصر؛ حيث قالت الأوراق أن أعمال مراقبـة أجهـزة الاتصالات استمرت ثلاثة أشهر؛ مما دفع القوادة الأساسـية إلى أن تقوم بتغيير رقم تليفونها عدة مرات، وتستخدم هواتف محمولة للهروب من الرقابة.. لكن هذا لـم يمنـع الشـرطة

من أن ترصد ما تقوم به الشبكة في شقق في مصر الجديـدة والزمالك والمهندسين، وبعض الفنادق الفاخرة.

إن بقية تفاصيل القضية ليس بها ما يثير.

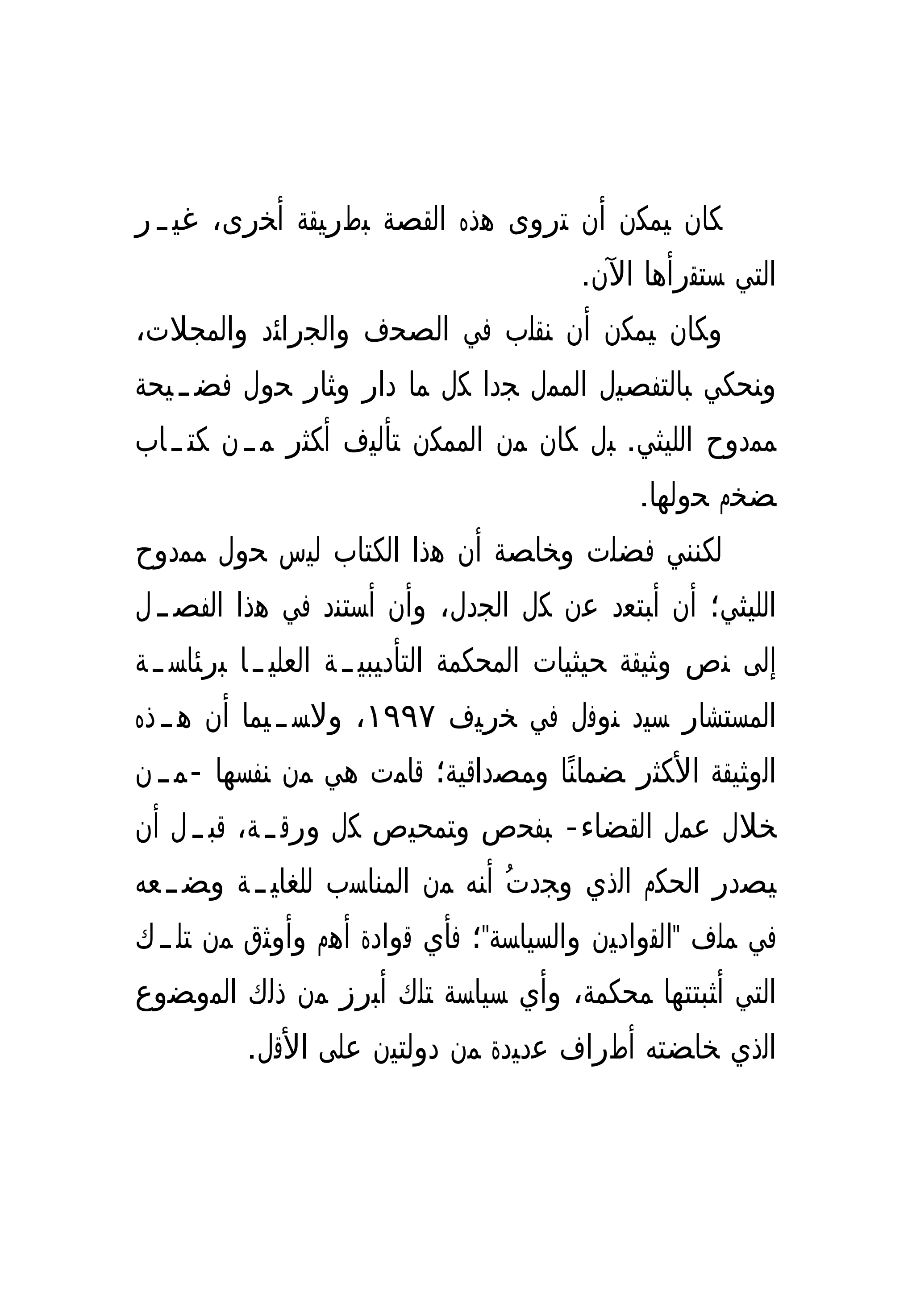
ولكنها في النهاية أحد الأدلة على أن بعض الشاشـات تحولت إلى فاترينة عرض في سـوق الـدعارة. وإن هـذه المجالات الجديدة أدت إلى ظهور أنواع مختلفة من القوادين، أنواع مميزة تعبر عن مدى تفشي ظاهرة انحلال الصـفوة، الصفوة التي تحظى بالشهرة والنجومية والأضواء.

وبشكل عام فإن هذا الفصل لن يكون الأخير فـي هـذا السياق.

12

الليثي.. بحكم المحكمة!

"ارتضى لنفسه أن يعمل قوادا، ممارسا بذلك أبشع وأحط مهنة عرفها التاريخ من شأنها أن تمحق الشرف والكرامة والسمعة، كاشفًا عن سلوك شديد الانحراف".



كان يمكن أن تروى هذه القصة بطريقة أخرى، غير التي ستقرأها الآن.

وكان يمكن أن نقلب في الصحف والجرائد والمجلات، ونحكي بالتفصيل الممل جدا كل ما دار وثار حول فضيحة ممدوح الليثي. بل كان من الممكن تأليف أكثر من كتاب ضخم حولها.

لكنني فضلت وخاصة أن هذا الكتاب ليس حول ممدوح الليثي؛ أن أبتعد عن كل الجدل، وأن أستند في هذا الفصل إلى نص وثيقة حيثيات المحكمة التأديبية العليا برئاسة المستشار سيد نوفل في خريف ١٩٩٧، ولاسيما أن هذه الوثيقة الأكثر ضمانًا ومصداقية؛ قامت هي من نفسها -من خلال عمل القضاء- بفحص وتمحيص كل ورقة، قبل أن يصدر الحكم الذي وجدتُ أنه من المناسب للغاية وضعه في ملف "القوادين والسياسة"؛ فأي قوادة أهم وأوثق من تلك التي أثبتتها محكمة، وأي سياسة تلك أبرز من ذلك الموضوع الذي خاضته أطراف عديدة من دولتين على الأقل.

ولأنني ارتضيت نص الحكم؛ فإنني لن أخرج عما جاء فيه، وسيحكي الفصل التالي القصة من خلال فقـرات نقلـت حرفيا من وثيقة الحيثيات.

ولكنني قبل أن أبدأ، أفضل أولاً أن أشير إلى ملخـص عام للقصة.. سريع وبدون تفصيلات؛ حتى يمكن اسـتيعاب هذه الحيثيات بدقة.

في البداية تفجرت القصة من خلال مقال نشره عـادل حمودة في مجلة روز اليوسف تحت اسـم "فضـيحة علـى النيل"؛ تحدث المقال عن موظف عام حصل علـى سـيارة مرسيدس هدية من ثري عربي. الثري العربي هـو الشـيخ عبد العزيز البراهيم، وفيما بعد اتضح أن الثري العربي كان على علاقة مع شيرين سيف النصر الفنانة المعروفة. اتهـم ممدوح الليثي في بلاغ إلى نيابة أمن الدولـة العليـا عـادل حمودة بأنه يقصده في المقال. قال الليثي إنه حصـل علـى السيارة مقابل ثمن سيناريو لصالح محطة تليفزيون الشـرق الأوسط التي يمثلها شقيق الثري العربـي. أحـال صـفوت الشريف وزير الإعلام ممدوح الليثي إلى النيابـة الإداريـة للتحقيق في الأمر. تلقت النيابة شهادات ووثائق من كل نوع،

ومن أطراف عديدة. أوقف التحقيق في نيابة أمن الدولة حتى يتم التحقيق في النيابة الإدارية.. أحالت الأخيرة الملف إلى المحكمة التأديبية العليا. بعد عدة جلسات رد ممدوح الليثي هيئة المحكمة. رفض طلب الرد، واستمرت المحكمة في نظر الدعوى، ثم صدر الحكم في نهاية سبتمبر ١٩٩٧.

وفيما يلي نص الحيثيات التي تروي القصة كما رأتها المحكمة، ولنبدأ مثلاً بما جاء فيها عن بعض سلوك الليثي الشخصي.

"إن الليثي قد سلك مسلك الشبهات والريب، وسلك مسلكًا لا يتفق والاحترام الواجب؛ بأن اشتهر عنه التطاول بالقول والفعل على بعض الفتيات والسيدات في مكتبه أثناء وظيفته. ويبين من الاطلاع على التحقيقات التي أجريت في الدعوى أن الممثلة "آن محمد مصطفى الترك" الطالبة بمعهد الفنون المسرحية؛ قررت أنها رشحت للعمل بمسلسل "الأبطال" في دور جوزفين زوجة نابليون بونابرت، وعندما ذهبت إلى التليفزيون قيل لها إن العقد الذي سيوقع معها سيكون بمكتب ممدوح الليثي "المحال" (أي المحال إلى المحكمة التأديبية)، وأنه هو الذي سيحدد الأجر؛ باعتبار أن

ذلك هو أول عمل لها بالتليفزيون. وعندما ذهبت إليه كـان يوجد بمكتبه المخرج حسام الدين مصـطفى، وعـدد مـن الصحفيين، وقال لها "المحال" إنه سيرسلها إلى ابنه عمـرو للعمل بمحطة الـ M. B. C. اتصل فعـلاً بابنـه؛ حيـث توجهت هي والمخرج حسام الدين مصطفى إلى مكتبه بالهرم الساعة العاشرة مساء. نجل ممدوح الليثي وعدها بإسناد دورٍ لها في مسلسل "شقة الحرية"، وعندما قابلته في اليوم التالي، لم يتم الاتفاق على إسناد الـدور؛ فخرجـت مـن مكتبـه، وتوجهت إلى مكتب الليثي بالتليفزيون لكتابة العقد عن دورها في مسلسل "الأبطال".

أضافت الشاهدة أنها كانت وحدها في ذلك الوقت بمكتب الليثي، الذي طلب منها صورة فوتوغرافية. وعندما عرضت عليه الصورة حاول أن يحتضنها ويقبلها فامتنعت. فقال لها: "أنا عاوزك توهبي نفسك لي". تصورت أنـه يطلـب منهـا الزواج بعقد عرفي؛ لكنه رد عليها قـائلاً: "مفـيش جـواز عرفي، ولا رسمي، إنتي عاوزة أم عمرو تيجـي تضـربني وتضربك". وعندما رفضت قال لها: "وضعك كـدة أحسـن

وسوف تستفيدي كدة أكثر، وأقدر أوصلك إلى النجومية؛ لأن العقد العرفي عايز شهود، والشهود حيذيعوا الخبر.

استطردت الشاهدة قائلة إن المقابلة انتهت عند هذا الحد، وأنها قامت بتصوير دورها في المسلسل بدون كتابة العقـد. اشتكت للمخرج حسام الدين مصطفى الذي طلب منها التوجه إلى مكتب الليثي بعد أن اتصل به، وأنها فعلاً توجهت إلـى مكتبه، ولكن بدلاً من أن يحدثها في موضوع العقد حدثها عن شكلها، وأنها سمراء، وأن الملابس التـي ترتـديها يجـب أن تكون فاتحة، ثم توجه من مكتبه إلى غرفة ملحقـة بـه، وأحضر لها فستانًا بيج، وبعض الملابس الداخلية، وعنـدما امتنعت حاول أن يقبلها، ولكن باب مكتبة انفتح فجأة؛ فاتجـه مباشرة إلى كرسي مكتبه، وكان الذي دخل هو الفنان محمود يس، وبعد أن جلس على كرسي مكتبه طلب تليفونيا الموظف المختص بالأجور، وقال لها إنك مادمـت طالبـة بالمعهـد فسأعطيك أجرا هو ٧٥ جنيها عن الحلقة.

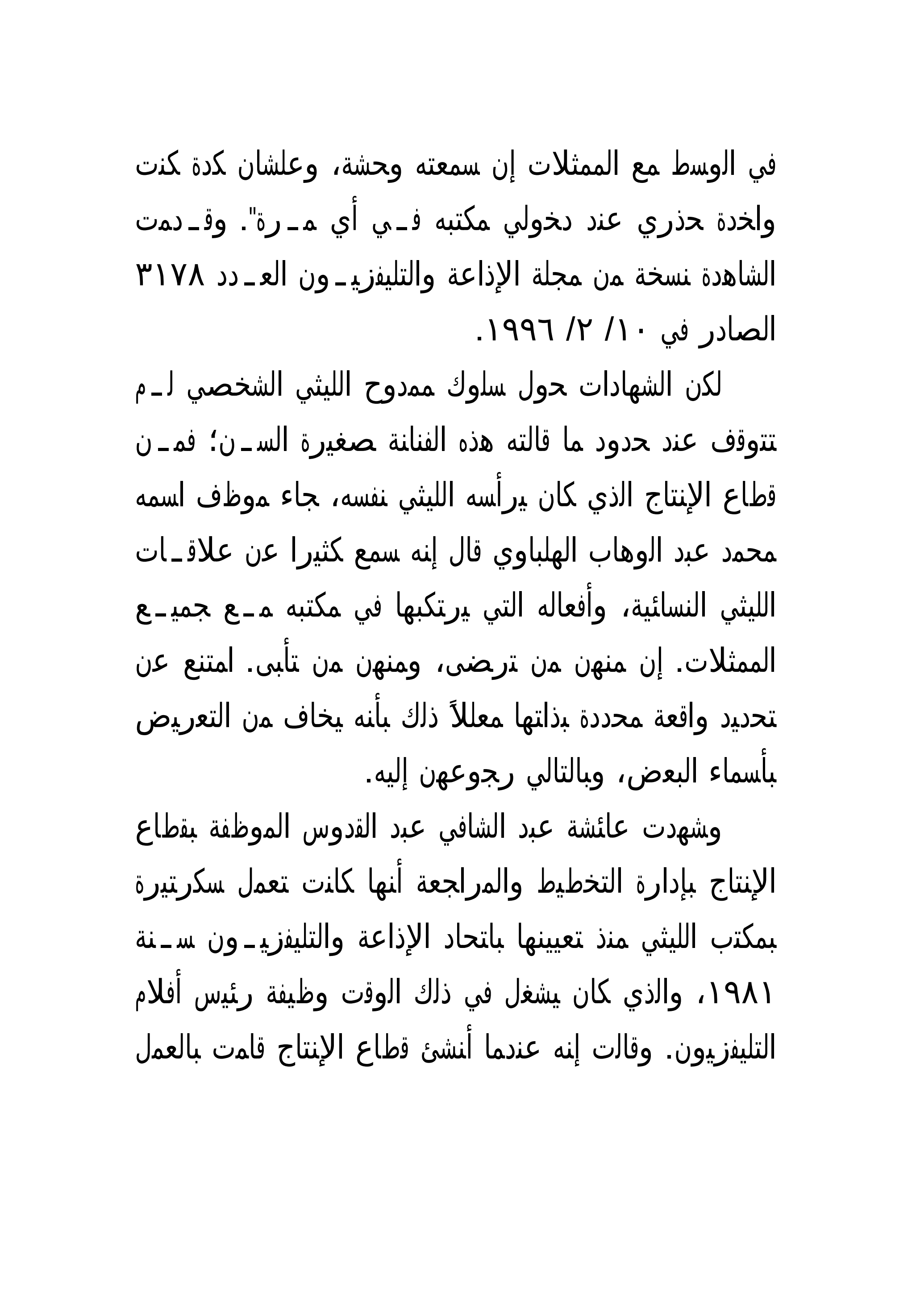
بعد حوالي شهر ونصف اتصل بها المخرج حسام الدين مصطفى، وأخبرها بأن الليثي يطلبها لكـي تظهـر ضـمن الوجوه الجديدة. قالت إنها ذهبت إليه فعلاً؛ حيث أحضر لها

أحد المصورين الذي قام بالتقاط عدة صور لها، وأنه فعـلاً نشر صورتها علـى الغـلاف الخـاص بمجلـة الإذاعـة والتليفزيون العدد ٣١٧٨ بتاريخ ١٠/ ٢/ ١٩٩٦. لكنه لـم يذكر اسمها إطلاقًا داخل التحقيق الصحفي الذي أجري معـه ومع الوجوه الجديدة، وذكرت الشاهدة أنهـا تـرددت علـى مكتب ممدوح الليثي حوالي عشر مرات تقريبا فـي الفتـرة التي استغرقها تمثيل المسلسل.

إننا لم نزل مع قصة آن ترك.

عللت سبب ترددها عليه بالرغم من أنه خـرج علـى حدود اللياقة معها بمكتبه؛ بأنها كانت مجبرة على ذلك حتـى يتم تحديد أجرها عن العمل في المسلسل، كما أنه طلب منها التردد عليه لكي يقوم بتعريفها بالمخرجين في قطاع الإنتاج، وأنها عندما اشتكت للمخرج حسام الدين مصطفى قال لهـا: "كله كده.. والمفروض أنك تحافظي على نفسك ولا تخافي.. وممدوح معروف عنه كده، علشان تقدري تاخدي اللي انـت عاوزاه من غير ما يطول منك حاجة".

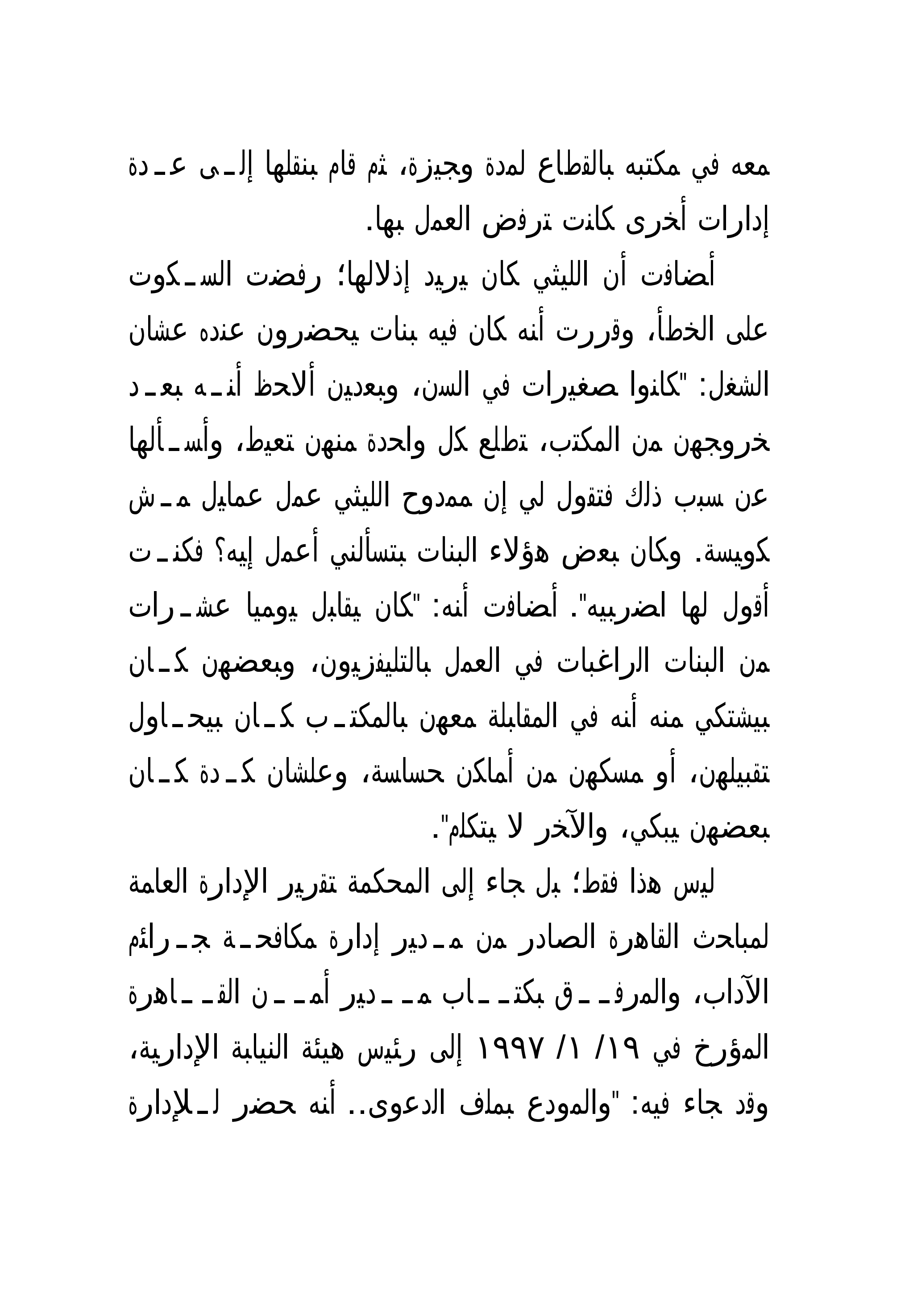
ذكرت أنها أخذت بنصـيحة المخـرج حسـام الـدين مصطفى في المحافظة على نفسها، وأن الليثي: "مشهور عنه



في الوسط مع الممثلات إن سمعته وحشة، وعلشان كدة كنت واخدة حذري عند دخولي مكتبه فـي أي مـرة". وقـدمت الشاهدة نسخة من مجلة الإذاعة والتليفزيـون العـدد ٣١٧٨ الصادر في ١٠/ ٢/ ١٩٩٦.

لكن الشهادات حول سلوك ممدوح الليثي الشخصي لـم تتوقف عند حدود ما قالته هذه الفنانة صغيرة السـن؛ فمـن قطاع الإنتاج الذي كان يرأسه الليثي نفسه، جاء موظف اسمه محمد عبد الوهاب الهلباوي قال إنه سمع كثيرا عن علاقـات الليثي النسائية، وأفعاله التي يرتكبها في مكتبه مـع جميـع الممثلات. إن منهن من ترضى، ومنهن من تأبى. امتنع عن تحديد واقعة محددة بذاتها معللاً ذلك بأنه يخاف من التعريض بأسماء البعض، وبالتالي رجوعهن إليه.

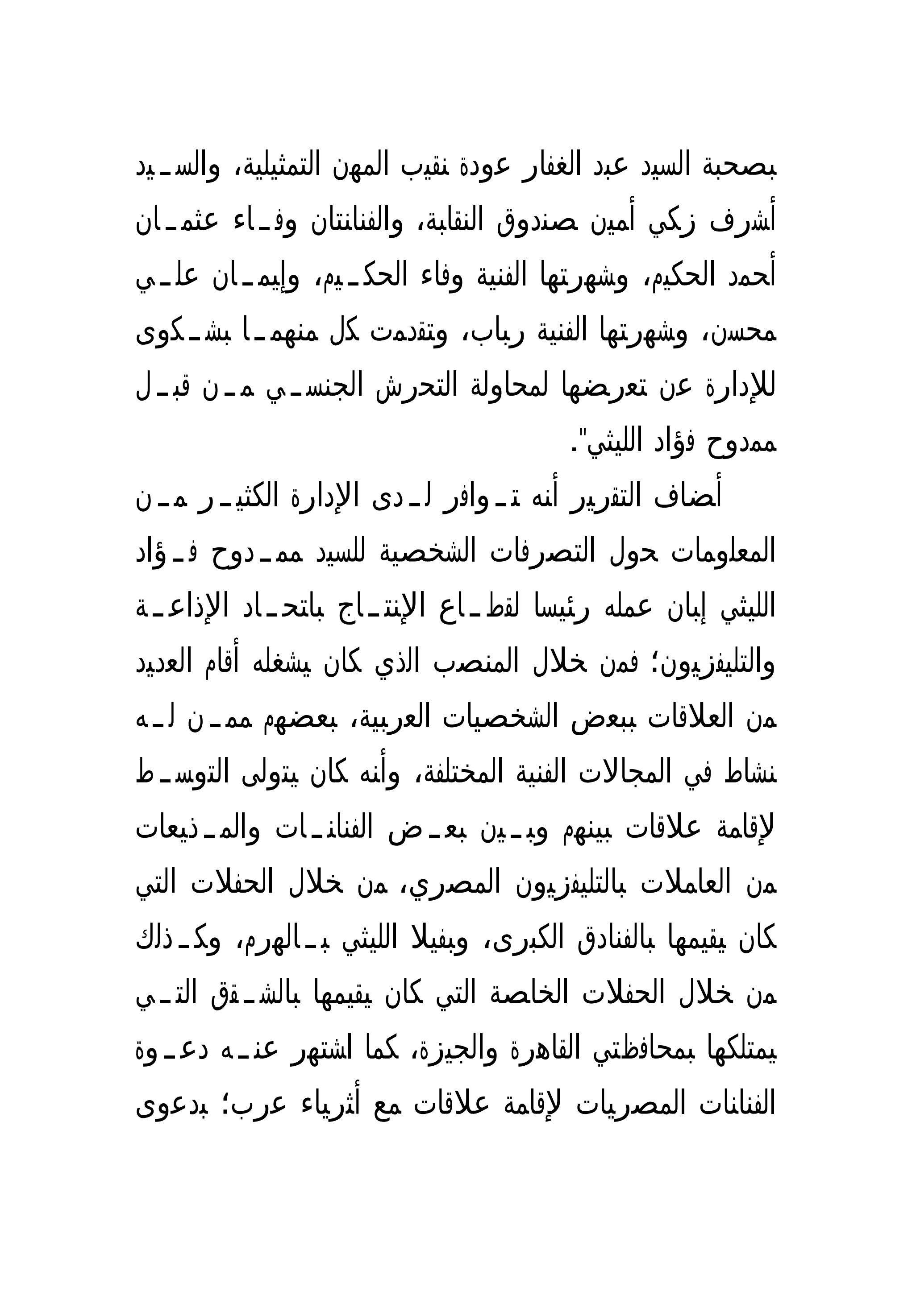
وشهدت عائشة عبد الشافي عبد القدوس الموظفة بقطاع الإنتاج بإدارة التخطيط والمراجعة أنها كانت تعمل سكرتيرة بمكتب الليثي منذ تعيينها باتحاد الإذاعة والتليفزيـون سـنة ١٩٨١، والذي كان يشغل في ذلك الوقت وظيفة رئيس أفلام التليفزيون. وقالت إنه عندما أنشئ قطاع الإنتاج قامت بالعمل



معه في مكتبه بالقطاع لمدة وجيزة، ثم قام بنقلها إلى عدة إدارات أخرى كانت ترفض العمل بها.

أضافت أن الليثي كان يريد إذلالها؛ رفضت السكوت على الخطأ، وقررت أنه كان فيه بنات يحضرون عنده عشان الشغل: "كانوا صغيرات في السن، وبعدين ألاحظ أنه بعد خروجهن من المكتب، تطلع كل واحدة منهن تعيط، وأسألها عن سبب ذلك فتقول لي إن ممدوح الليثي عمل عمايل مش كويسة. وكان بعض هؤلاء البنات بتسألني أعمل إيه؟ فكنت أقول لها اضربيه". أضافت أنه: "كان يقابل يوميا عشرات من البنات الراغبات في العمل بالتليفزيون، وبعضهن كان بيشتكي منه أنه في المقابلة معهن بالمكتب كان بيحاول تقبيلهن، أو مسكهن من أماكن حساسة، وعلشان كدة كان بعضهن يبكي، والآخر لا يتكلم".

ليس هذا فقط؛ بل جاء إلى المحكمة تقرير الإدارة العامة لمباحث القاهرة الصادر من مدير إدارة مكافحة جرائم الآداب، والمرفق بكتاب مدير أمن القاهرة المؤرخ في ١٩/ ١/ ١٩٩٧ إلى رئيس هيئة النيابة الإدارية، وقد جاء فيه: "والمودع بملف الدعوى.. أنه حضر للإدارة



بصحبة السيد عبد الغفار عودة نقيب المهن التمثيلية، والسيد أشرف زكي أمين صندوق النقابة، والفنانتان وفاء عثمان أحمد الحكيم، وشهرتها الفنية وفاء الحكيم، وإيمان علي محسن، وشهرتها الفنية رباب، وتقدمت كل منهما بشكوى للإدارة عن تعرضها لمحاولة التحرش الجنسي من قبل ممدوح فؤاد الليثي".

أضاف التقرير أنه توافر لدى الإدارة الكثير من المعلومات حول التصرفات الشخصية للسيد ممدوح فؤاد الليثي إبان عمله رئيسا لقطاع الإنتاج باتحاد الإذاعة والتليفزيون؛ فمن خلال المنصب الذي كان يشغله أقام العديد من العلاقات ببعض الشخصيات العربية، بعضهم ممن له نشاط في المجالات الفنية المختلفة، وأنه كان يتولى التوسط لإقامة علاقات بينهم وبين بعض الفنانات والمذيعات من العاملات بالتليفزيون المصري، من خلال الحفلات التي كان يقيمها بالفنادق الكبرى، وبفيلا الليثي بالهرم، وكذلك من خلال الحفلات الخاصة التي كان يقيمها بالشقق التي يمتلكها بمحافظتي القاهرة والجيزة، كما اشتهر عنه دعوة الفنانات المصريات لإقامة علاقات مع أثرياء عرب؛ بدعوى

أن الأجور التي يحصلن عليها من الأعمال الفنية لا تحقق الطموحات التي يحلمن بها في رفع مستواهن الاجتماعي، وامتلاك السيارات والشقق الفاخرة..

ومن خلال منصبه؛ انفرد بتعيين الوجوه الجديدة، والتي ترغب في العمل في المجالات الفنية المختلفة بالتمثيل والغناء، وكان يتولى اختبارهن بنفسه، ويحاول مراودتهن عن أنفسهن أثناء قيامه بالاختبارات، وتمثل ذلك في بعض المداعبات للمتقدمات؛ كلمس بعض أجزاء حساسة من أجسادهن، وطلبه رؤية الملابس الداخلية لهن بحجج مختلفة.

ولكن ما هو موقف المحكمة من هذه المعلومات؟

تقول حيثيات الحكم: إن السيرة الحميدة وحسن السمعة شرط من شروط شغل الوظيفة العامة؛ وهو شرط لا ينفك عن شاغل الوظيفة؛ بل يتعين أن يلازمه دوما ما بقي قائما بأعبائها (أي الوظيفة)؛ فهو شرط ابتداء وبقاء، بحيث إذا فقد الموظف العام خلال قيامه بأعباء وظيفته شرط السيرة الحميدة وحسن السمعة؛ فقد صلاحيته للبقاء في وظيفته، وتعين إقصاؤه عنها.

وليس لازما أن تكـون عناصـر الوقـائع المنسـوبة إلى الموظف، والتي تشكل عدم نقاء سريرته وسوء سـمعته؛ مؤيدة في كل جزئياتها بالأدلة المثبتة بها، ولا يحتاج الأمـر في التدليل على سوء السمعة أو عدم طيب الخصال وجـود دليل قاطع على توافرهما أو توافر أيهما؛ وإنما يكفي في هذا المقام وجود دلائل أو شبهات قوية تلقي ظلالاً مـن الشـك المثير على أي من الصفتين المذكورتين؛ حتى يتسم الموظف بعدم حسن السمعة؛ ففقدان الموظف لشـرط طيـب السـيرة وحسن الخلق إنما يؤسس على مـا يتولـد مـن الانطبـاع عن أفعال أتاها، وتناقلتها ألسنة الناس في محـيط اجتمـاعي معين، واستقر أمرها في وجدانهم كحقيقة تزعزع الثقة فيـه، وتنال من اعتباره، وخصوصا إذا كان الموظف العام يشـغل منصبا رفيعا يؤثر في سـلوك النـاس، ويشـكل أخلاقهـم وتصرفاتهم، وما يجب أن يتبعوه من عادات وسلوك قـويم؛ كما هو الشأن في المنصب الذي يشغله ممدوح الليثـي ممـا يتعين أن تكون مقاييس سلوكه أكثر صرامة وأشـد حزمـا، نائيا بالعمل الذي يقوم به عن أن تحيطه الشبهات، أو تكتنفه

مواطن الريب التي تلقي بظلال قاتمة على سلوكه وتصرفاته، وتتضاءل معها أو تنعدم ثقة المتعاملين معه.

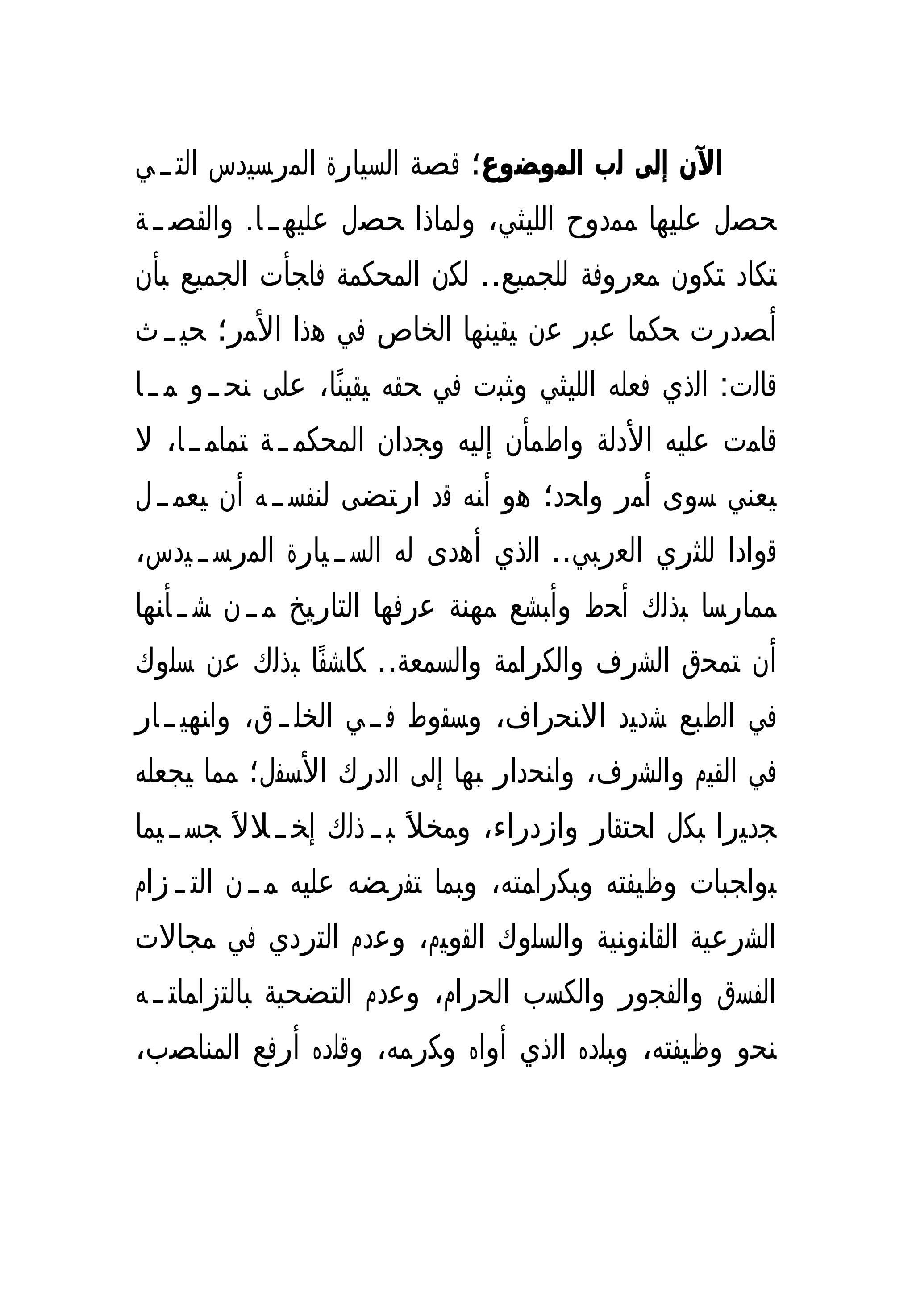
وقالت الحيثيات: إن المحكمة تطمئن إلى ما جاء بأقوال الشهود سالفي الذكر، والذين أجمعوا على أن "المحال" اشتهر عنه التطاول بالقول والفعل على بعض الفتيـات والسـيدات ممن كن يترددن على مكتبه بقطاع الإنتاج باتحـاد الإذاعـة والتليفزيــون بقصــد العمــل.. وأنــه كــان يــداعبهن في أماكن حساسة، ويتحرش بهن جنسيا، وقد جاءت أقـوال هؤلاء الشهود مؤكدة لما شهدت به الممثلة آن محمد التـرك من أن "ممدوح الليثي" يراودها عن نفسها، وطلب منهـا أن تهب له نفسها بدون زواج؛ سواء كان رسميا أو عرفيـا؛ أي إن ما طلبه منها هو الزنا بعينه، وأنه حـاول أن يحتضـنها ويقبلها، وقد تأيد ذلك كله بما جـاء بتقريـر الإدارة العامـة لمباحث القاهرة، وإدارة مكافحة جـرائم الآداب، والمرفـق بكتاب مدير أمن القاهرة المؤرخ ١٩/ ١/ ١٩٩٧ إلى رئيس هيئة النيابة الإدارية.. ومن ثم فإن ممدوح الليثي يكون قد فقد شرطًا أساسيا من شروط صلاحيته للاستمرار في وظيفتـه، وهو أن يكون محمود السيرة حسن السمعة.

ولا ينال من ذلك عدول إحدى الشاهدات (وهي الأميرة بدر محمد عبده) أمام المحكمة عن أقولهـا التـي سـبق أن قررتها بتحقيقات النيابة الإدارية... لما هو مقـرر مـن أن للمحكمة في سبيل تكوين عقيدتها أن تأخذ بما تطمـئن إليـه من أقوال الشاهد، وتطرح قولاً آخر له.. كما لا ينـال ممـا انتهت إليه المحكمة القول بأن معظمهم شهد بسـوء سـلوك الليثي وتحرشه جنسيا بالسيدات والفتيات اللاتي كن يتـرددن على مكتبه قد جاءت شهادتهن سماعية، ولم يقم عليها دليل؛ إذ إن الأمر هنا لا يرتبط لزوما بوقائع معينة لا بد أن تكون مؤيدة في كل جزئياتها بالأدلة المثبتة لها، وإنما يرتبط بفقدان شرط صلاحيته للاستمرار في الوظيفة، المؤسس علـى مـا تولد من الانطباع عن الأفعال التي أتاهـا ممـدوح الليثـي، وتناقلتها ألسنة الناس في المحيط الذي يعمـل بـه، واسـتقر أمرها في وجدانهم كحقيقة تزعزع الثقة فيـه، وتنـال مـن اعتباره، كما أن الأمر هنا يتعلق بالنهج الذي احتذاه ممـدوح الليثي طريقًا ثابتًا في مظاهر سلوكه على السيدات والفتيـات اللاتي يترددن على مكتبه؛ ومن ثم فإنه لا يتقيد بفترة معينـة دون غيرها، ولا بواقعة دون غيرها؛ وإنما يتعلـق الأمـر

بالصورة الكاملة لسمعته وسيرته، وما شاب هـذه الصـورة من إلصاق سلوك مشين بها لا يتفق مع الدين، ولا مع عادات المجتمع وتقاليده.

فضلاً عن ذلك؛ فإنه ليس في القانون على النحو الـذي استقرت عليه محكمة النقض ما يمنع المحكمة مـن الأخـذ برواية ينقلها شخص عن آخر، متى رأت أن تلـك الأقـوال قــد صــدرت منــه حقيقــة، وكانــت تمثــل الواقــع في الدعوى... الموضوع، ولها وحدها تقدير قيمة الشهادات ولو كانت منقولة إلى محكمة الموضـوع وحـدها؛ فمتـى صدقتها واطمأنت إلى صحتها ومطابقتها للحقيقة؛ فلا تصـح مصادرتها في الأخذ بها والتعويل عليها". ("نقض طعن رقـم ٦٣٣ لسـنة ٤٦ ق جلسـة ٧/ ١١/ ١٩٧٦ س ٢٧ ص ٨٤٨").

وبهذه المثابة فإن واحدة من المخالفـات التـي نسـبت لممدوح الليثي -كما تقول الحيثيات- تكون ثابتة فـي حقـه؛ مما يفقده معها شرطًا من شـروط الصـلاحية للبقـاء فـي وظيفته، ويتعين إقصاؤه عنها.



الآن إلى اب الموضوع؛ قصة السيارة المرسيدس التي حصل عليها ممدوح الليثي، ولماذا حصل عليها. والقصة تكاد تكون معروفة للجميع.. لكن المحكمة فاجأت الجميع بأن أصدرت حكما عبر عن يقينها الخاص في هذا الأمر؛ حيث قالت: الذي فعله الليثي وثبت في حقه يقينًا، على نحو ما قامت عليه الأدلة واطمأن إليه وجدان المحكمة تماما، لا يعني سوى أمر واحد؛ هو أنه قد ارتضى لنفسه أن يعمل قوادا للثري العربي.. الذي أهدى له السيارة المرسيدس، ممارسا بذلك أحط وأبشع مهنة عرفها التاريخ من شأنها أن تمحق الشرف والكرامة والسمعة.. كاشفًا بذلك عن سلوك في الطبع شديد الانحراف، وسقوط في الخلق، وانهيار في القيم والشرف، وانحدار بها إلى الدرك الأسفل؛ مما يجعله جديرا بكل احتقار وازدراء، ومخلاً بذلك إخلالاً جسيما بواجبات وظيفته وبكرامته، وبما تفرضه عليه من التزام الشرعية القانونية والسلوك القويم، وعدم التردي في مجالات الفسق والفجور والكسب الحرام، وعدم التضحية بالتزاماته نحو وظيفته، وبلاده الذي أواه وكرمه، وقلده أرفع المناصب،

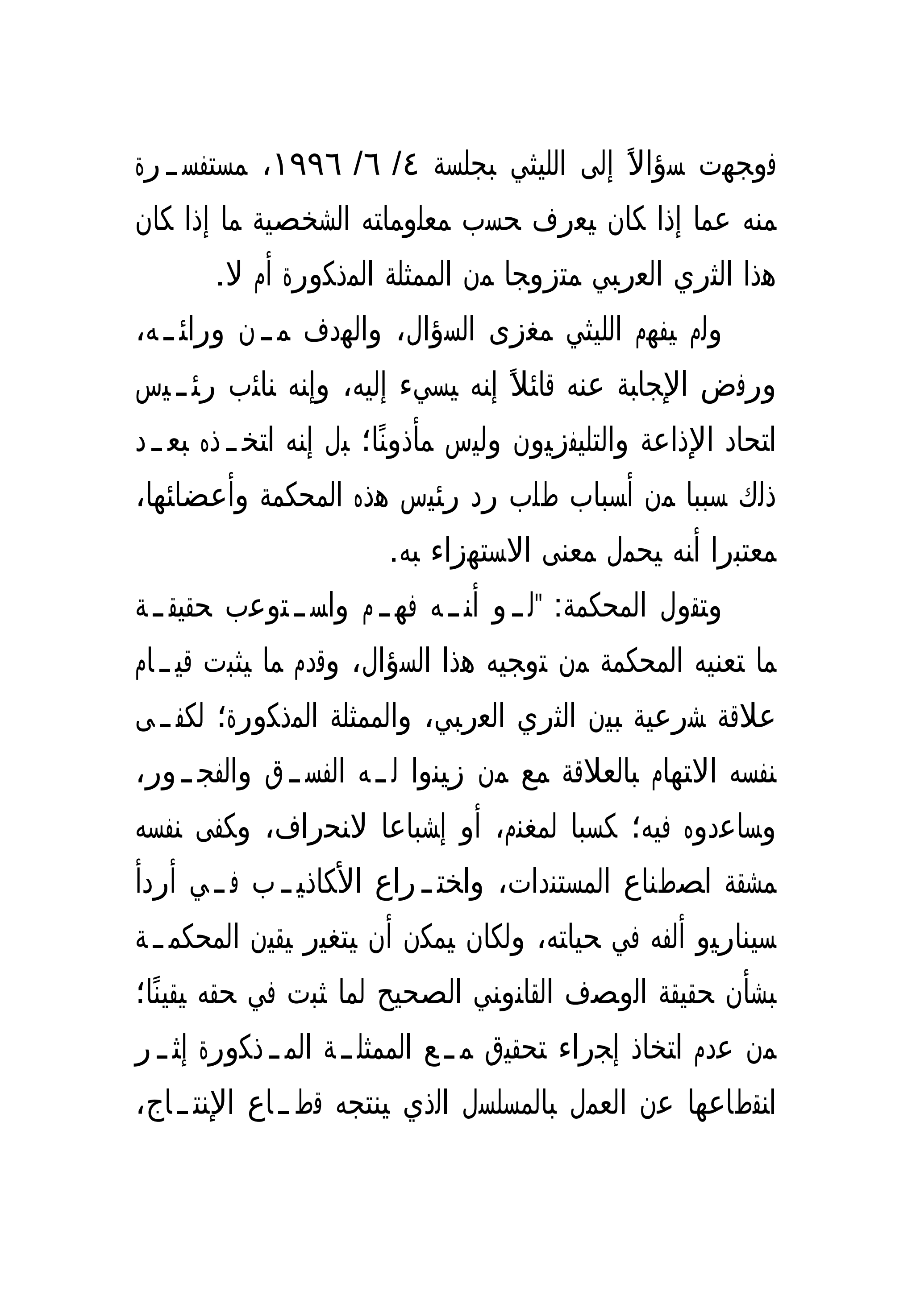
في جهاز إعلامي خطير له تأثيره النافذ في صنعة الأخلاق والضمير.

ولكن لماذا وصلت المحكمة إلى هذا الحكم القاطع؟

إنها تجيب فيما يلي:

هذه المحكمة، وقد استشعرت خلال تحقيقاتها في الدعوى فداحة ما كشفت عنه الأوراق والمستندات، وقامت عليه الأدلة.. وإزاء عدم مثول أي من الثري العربي الذي أهدى له السيارة المرسيدس، والممثلة (تقصد المحكمة شيرين سيف النصر) التي انقطعت عن العمل بمسلسل السيرة الهلالية؛ أمام المحكمة، رغم إعلان الأول قانونًا، وارتداد إعلانات الثانية لسفرها للخارج؛ وذلك لسؤالهما كشاهدين عن حقيقة علاقتهما معا، وهل هما متزوجان أم لا.

وبعد أن أجريت أوراق الدعوى بما يفيد قيام علاقة شرعية بينهما؛ أرادت المحكمة -إرضاء لضميرها، وتحقيقًا دقيقًا لأقصى درجات العدالة- أن تلفت نظر الليثي وهيئة الدفاع عنه إلى تقديم ما يثبت حقيقة العلاقة بين الثري العربي والممثلة المذكورة، ودعتهما إلى المسارعة بالحضور أمام المحكمة لسماع شهادتهما، وإيضاح حقيقة العلاقة بينهما؛


فوجهت سؤالاً إلى الليثي بجلسة ٤/ ٦/ ١٩٩٦، مستفسـرة منه عما إذا كان يعرف حسب معلوماته الشخصية ما إذا كان هذا الثري العربي متزوجا من الممثلة المذكورة أم لا.

ولم يفهم الليثي مغزى السؤال، والهدف مـن ورائـه، ورفض الإجابة عنه قائلاً إنه يسيء إليه، وإنه نائب رئـيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون وليس مأذونًا؛ بل إنه اتخـذه بعـد ذلك سببا من أسباب طلب رد رئيس هذه المحكمة وأعضائها، معتبرا أنه يحمل معنى الاستهزاء به.

وتقول المحكمة: "لـو أنـه فهـم واسـتوعب حقيقـة ما تعنيه المحكمة من توجيه هذا السؤال، وقدم ما يثبت قيـام علاقة شرعية بين الثري العربي، والممثلة المذكورة؛ لكفـى نفسه الاتهام بالعلاقة مع من زينوا لـه الفسـق والفجـور، وساعدوه فيه؛ كسبا لمغنم، أو إشباعا لانحراف، وكفى نفسه مشقة اصطناع المستندات، واختـراع الأكاذيـب فـي أردأ سيناريو ألفه في حياته، ولكان يمكن أن يتغير يقين المحكمـة بشأن حقيقة الوصف القانوني الصحيح لما ثبت في حقه يقينًا؛ من عدم اتخاذ إجراء تحقيق مـع الممثلـة المـذكورة إثـر انقطاعها عن العمل بالمسلسل الذي ينتجه قطـاع الإنتـاج،

وتلقيه هدية سيارة مرسيدس من الثري العربي، الذي أقامت معه في جناحه الخاص بفندق الميرديان الذي يمتلكه، وتديره الشركة التي يرأس مجلس إدارتها.. ولكن الحـق سـبحانه وتعالى لا يعين الفاسق؛ لأن المعونة تقتضي ابتداء فعلاً مـن المعاني، والفاسق لم يفعل ما يمكن أن ينال به هذه المعونة.

وقد أخذ ا على نفسـه العهـد ألا يمكـن للمفسـدين في الأرض، الخارجين على شرعه، والمتمردين على سـننه ونواميسه، ولا يرفع فيها إلا الذين يستحقون أن تكـون لهـم هذه المنزلة بين يديه سبحانه؛ لذلك فقد صدق فيه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وا ُ لاَ يهْدِي الْقَوْم الْفَاسِقِين ﴾ " المائـدة (١٠٨) التوبة (٢٤)".

﴿ذَلِك أَدْنَى أَن يأْتُوا بِالشهادةِ علَى وجْهها أَوْ يخَـافُوا أَن تُرد أَيمان بعْد أَيمانِهِمْ واتقُوا ا َ واسْمعوا وا ُ لاَ يهْـدِي الْقَوْم الْفَاسِقِين﴾ المائدة (١٠٨)

﴿قُلْ إِن كَان آبـاؤُكُمْ وأَبنَـاؤُكُمْ وإِخْـوانُكُمْ وأَزْواجكُـمْ وعشِيرتُكُمْ وأَمْوالٌ اقْتَرفْتُموها وتِجارةٌ تَخْشَوْن كَسـادها ومساكِن تَرْضوْنَها أَحب إِلَيْكُم من ا ِ ورسولِهِ وجِهادٍ فِي

سبيله فتربصوا حتى يأتي ا ُ بأمره وا ُ لا يهدي القـوم الفاسقين﴾ التوبة (٢٤)

أما الذين اهتدوا؛ فإن ا يزيدهم هـدى وييسـر لهـم الطاعة، ويصعب عليهم المعاصي: ﴿والذين اهتدوا زادهـم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ محمد. (١٧)

ولأن ا محيط بالفاسدين، ولا يرضي عنهم؛ فقد جاءت بعض المستندات التي قدمها نجل المحال كشاهد فـي القضية، وتمسك الليثي ذاته ليقيم بنفسه الدليل على أنه علـى باطل، وليصدق عليه مرة أخرى قول الحق سبحانه وتعالي: ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن ا َ سيبطله إن ا َ لا يصلح عمل المفسدين ﴾ يونس (٨١)

بعد هذا تنتقل الحيثيات لرواية قصة السيارة المرسيدس. وتقول: "ولقد حضر إلى شركة "ناتكو" شخصـان؛ أحـدهما مصري، والآخر يتضح من لهجته أنه خليجي، واتضح فيمـا بعد من التحقيقات أن الشخص المصري هو فريد الشيخ مدير الإدارة المالية للشركة السعودية المصرية للتنمية السـياحية، واتفق معه على شراء سيارة مرسيدس E ٢٠٠، بمبلغ ٤٨٢ ألف جنيه. ثم توجه الشخص العربي الخليجي، وتحدث فـي

التليفون مع شخص حضر بعد نصف ساعة، وعـرف أنـه ممدوح الليثي، الذي طلب منه هو والشخص العربي الخليجي أن يثبت في الإيصال الخاص باستلام ثمن السيارة أن ثمنهـا مدفوع من الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم هدية للأستاذ ممدوح الليثي.

في مساء ذات اليوم حضر الشخص المصـري، الـذي كان بصحبة الخليجي، وأعطاه شيكًا بمبلغ ٤٨٢ ألف جنيـه، وطلب منه أن يكتب على الإيصال أن الشيخ عبـد العزيـز البراهيم سدد ثمن السيارة هدية للأستاذ ممدوح الليثي، حسب الاتفاق والمواصفات.

أضاف الشاهد أن زوجة الليثي حضـرت بعـد ذلـك، واختارت اللون الفضي للسيارة، وأنـه طلـب مـن الليثـي أن يرسل إليه فاكسا متضمنًا اللون الذي اختاره؛ فأخبره بأنه سيرسل رغبته في اللون المطلـوب مـع مخصـوص، وأن المرافق المصري للشخص الخليجي يدعى فريد الشيخ، وهو الذي تسلم منه الإيصال بما يفيد دفع ثمن السـيارة بالشـيك، وأن الليثي كان فرحا سعيدا بالسيارة.

وقرر عبد الكريم السيد عبـد الكـريم مـدير قطـاع المعارض بالشركة الوطنية للسيارات بمضمون مـا قـرره الشاهد السابق.. وأضاف أن ممدوح الليثي قال لـه: "انـت عارف إن فيه ناس ستهديني هذه السيارة، وأنا فـي مكـان مسئول، فانا عاوزها واضحة إنها هدية في أوراق الشـركة كلها"، فسأله الشاهد عن الشخص الذي سيسدد الثمن؛ فـذكر له أنه الشيخ عبد العزيز البراهيم. وأضاف الشاهد أنه لاحظ أن الليثي فوجئ بحجم الهدية؛ لأنه كان مرتبكًا بعض الشيء، وأصر على القول بأن هذه هدية، وقال له :"انت عارف البلد وأوضاعها".

وجاء بتقرير الإدارة العامة بمباحث القاهرة، الذي أعده مدير إدارة مكافحة جرائم الآداب، والمرفق بكتاب مدير أمن القاهرة المؤرخ ١٩/ ١/ ١٩٩٧ المودع ملف الـدعوى؛ أن الإدارة قد توافرت لديها المعلومات بأن التعارف الذي تم بين الفنانة شيرين سيف النصر، والشيخ عبد العزيـز إبـراهيم (سعودي الجنسية)، وكان ذلك منذ ثلاثة أشهر تقريبا، عندما قام الشيخ عبد العزيز بزيارة أستوديوهات قطـاع الإنتـاج بدعوة من ممدوح الليثي، وقد حضرت الفنانة المذكورة خلال

تلك الزيارة دون غيرها من الفنانات، وتردد أنه في أعقـاب تلك الزيارة حضر الليثي حفل اسـتقبال بفنـدق ميريـديان القاهرة (وبصحبته الفنانة شيرين سيف النصر) أقامه الشـيخ عبد العزيز البراهيم.

وجاء بكتاب السـيد رئـيس هيئـة الرقابـة الإداريـة رقم ١٢/ ١/ ٢٣٦، المؤرخ ٢٠/ ١/ ١٩٩٧، المودع ملـف الدعوى؛ أن الليثي له علاقات وثيقة ببعض كبار الشخصيات المصرية والعربية، ومن بينهم السيد خالد البراهيم وشـقيقاه عبد العزيز ووليد؛ رئيس مركز تليفزيون الشـرق الأوسـط m. b. c، وأن أصـحاب المركـز أهـدوا لـه سـيارة مرسـيدس ٢٠٠ موديـل ١٩٩٦، تحمـل أرقـام ٤٢٧٢٠٠ ملاكي القاهرة، وهي مستوردة من ألمانيا لصالح الشركة الوطنية، وتم الإفراج عنهـا جمركيـا مـن مينـاء الإسكندرية بتاريخ ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٦.

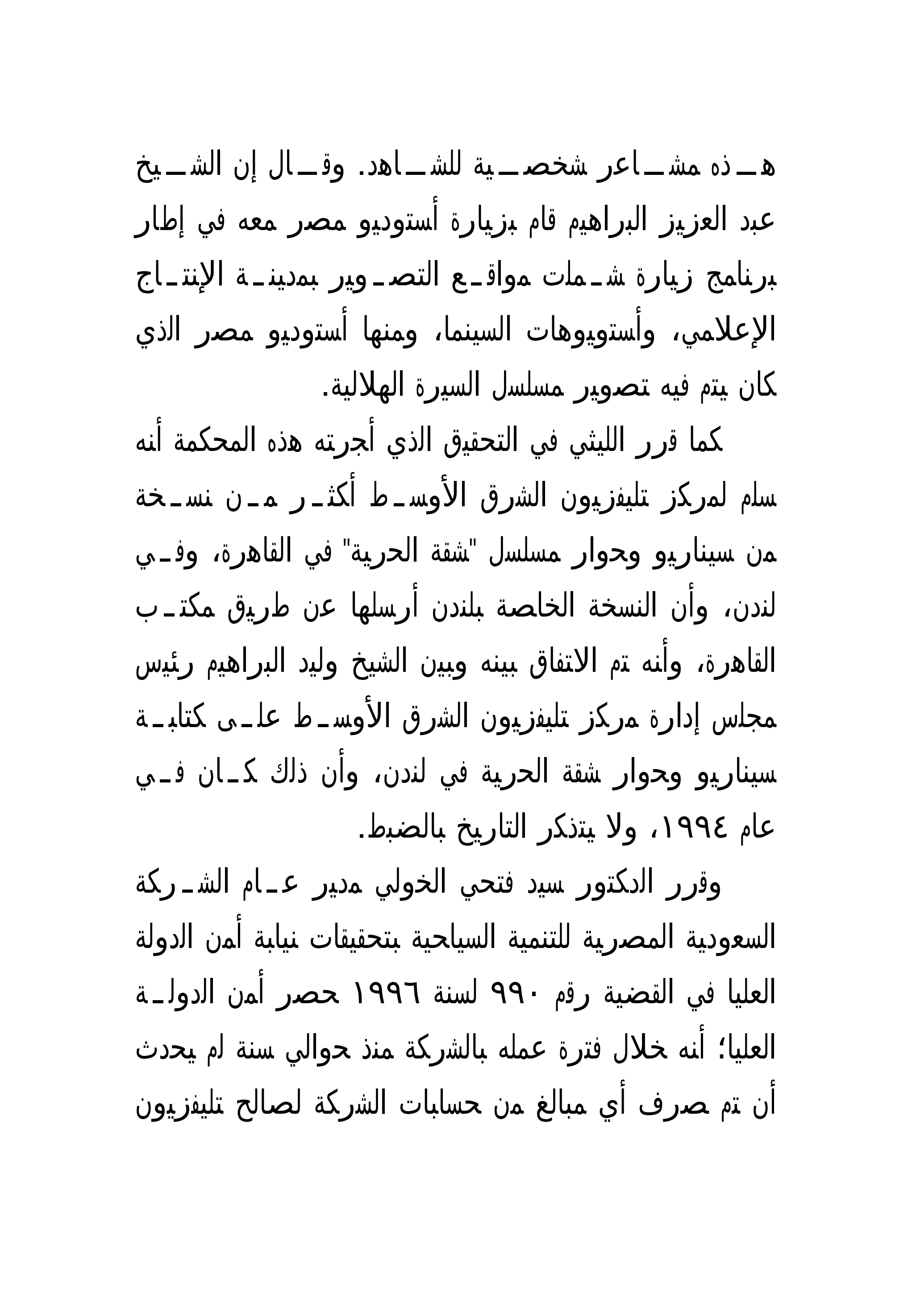
بسؤال الليثي بتحقيقـات نيابـة أمـن الدولـة العليـا، وبتحقيقات النيابة الإدارية، وبالتحقيق الـذي أجرتـه هـذه المحكمة قرر أنه تلقى فعلاً سيارة مرسيدس ٢٠٠ من رئيس مجلس إدارة مركز تليفزيـون الشـرق الأوسـط m. b. c،

وأرجع ذلك إلى أن هذه السيارة هي مقابل أجره عن كتابة سيناريو وحوار مسلسل شقة الحرية، لحساب مركز تليفزيون الشرق الأوسط، وقدم صورة من كتاب صادر من رئيس هذا المركز مؤرخ ب ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٦ إليه، وموقع من شقيق رئيس المركز ونائبه الشيخ عبد العزيز البراهيم، مضمنًا أن السيارة هدية من المركز لقيامه بكتابة سيناريو وحوار مسلسل شقة الحرية، دون الحصول على أجر من المركز.

كما قدم صورة من كتاب مدير عام الشركة السعودية المصرية للتنمية السياحية، المؤرخ ١٦/ ١٢/ ١٩٩٦، والمرسل إلى المحامي العام لنيابة أمن الدولة العليا، والذي تضمن أنه أثناء وجود رئيس مجلس إدارة الشركة في مصر خلال شهر أكتوبر سنة ١٩٩٦؛ أصدر أمره بتحرير الشيك رقم ٣٧٩٥ على بنك القاهرة فرع ثروت بتاريخ ١٧/ ١٠/ ٩٦ بمبلغ ٤٨٢ ألف جنيه مصري لصالح الشركة الوطنية للسيارات "ناتكو"؛ سدادا لثمن السيارة المرسيدس E ٢٠٠، المهداة من مركز تليفزيون الشرق الأوسط بلندن للأجر المستحق له عن كتابة سيناريو مسلسل

شقة الحرية.. خصما على الحساب الخاص له لدى الشـركة المصرية للتنمية السياحية، بناء على المفاهمـة مـع شـقيقه رئيس مجلس إدارة تليفزيون الشرق الأوسط.. على أسـاس أن أجر الحلقة في حدود خمسة آلاف دولار. وأضاف المحال (أي ممدوح الليثي) أنه انتهى من سيناريو وحـوار مسلسـل شقة الحرية في أغسطس سنة ١٩٩٥.. وأن التنازل الصادر منه والموثق بالشهر العقاري عن جميع حقوقه الأدبية عـن هذا المسلسل لمركـز تليفزيـون الشـرق الأوسـط مقابـل ٣٠٠ جنيه؛ مقصود به التنازل عن حقـه الـذهني لصـالح المتنازل له، وليس إثبات الأجر، وذكر أن إثبات الأجر يأتي في شكل رقم صوري؛ حتى يتم تقدير الرسوم أمـام الشـهر العقاري، وأنه سلم سيناريو وحوار مسلسـل شـقة الحريـة إلى الشركة الأم بلندن "مركز تليفزيون الشرق الأوسط"، وأن الشركة هي التي تعاقدت على إنتاجه كمنتج منفذ مع شـركة الليثي فيلم، التي يمتلكها نجله عمرو ممدوح الليثي.

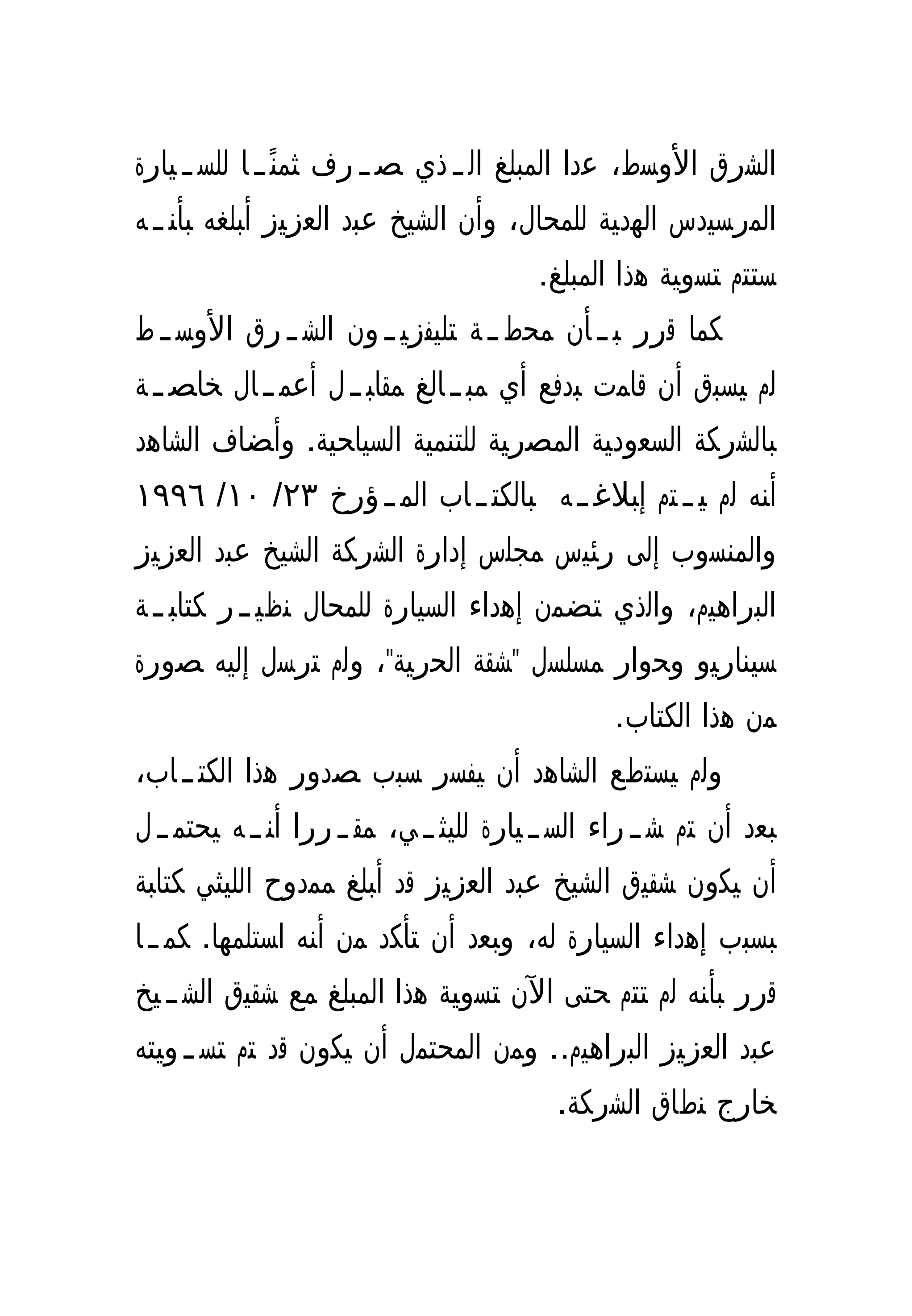
كما قرر بأن كان يعلم بهدية الشيخ عبد العزيز البراهيم قبل ذهابه إلى شركة السيارات، وعلل ما ذكره الشاهد عبـد الكريم السيد عبد الكريم من أنه فوجئ بحجم الهديـة؛ بـأن



هـذه مشـاعر شخصـية للشـاهد. وقـال إن الشـيخ عبد العزيز البراهيم قام بزيارة أستوديو مصر معه في إطار برنامج زيارة شـملت مواقـع التصـوير بمدينـة الإنتـاج الإعلامي، وأستويوهات السينما، ومنها أستوديو مصر الذي كان يتم فيه تصوير مسلسل السيرة الهلالية.

كما قرر الليثي في التحقيق الذي أجرته هذه المحكمة أنه سلم لمركز تليفزيون الشرق الأوسـط أكثـر مـن نسـخة من سيناريو وحوار مسلسل "شقة الحرية" في القاهرة، وفـي لندن، وأن النسخة الخاصة بلندن أرسلها عن طريق مكتـب القاهرة، وأنه تم الاتفاق بينه وبين الشيخ وليد البراهيم رئيس مجلس إدارة مركز تليفزيون الشرق الأوسـط علـى كتابـة سيناريو وحوار شقة الحرية في لندن، وأن ذلك كـان فـي عام ١٩٩٤، ولا يتذكر التاريخ بالضبط.

وقرر الدكتور سيد فتحي الخولي مدير عـام الشـركة السعودية المصرية للتنمية السياحية بتحقيقات نيابة أمن الدولة العليا في القضية رقم ٩٩٠ لسنة ١٩٩٦ حصر أمن الدولـة العليا؛ أنه خلال فترة عمله بالشركة منذ حوالي سنة لم يحدث أن تم صرف أي مبالغ من حسابات الشركة لصالح تليفزيون



الشرق الأوسط، عدا المبلغ الذي صرف ثمناً للسيارة المرسيدس الهدية للمحال، وأن الشيخ عبد العزيز أبلغه بأنه ستتم تسوية هذا المبلغ.

كما قرر بأن محطة تليفزيون الشرق الأوسط لم يسبق أن قامت بدفع أي مبالغ مقابل أعمال خاصة بالشركة السعودية المصرية للتنمية السياحية. وأضاف الشاهد أنه لم يتم إبلاغه بالكتاب المؤرخ ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٦ والمنسوب إلى رئيس مجلس إدارة الشركة الشيخ عبد العزيز البراهيم، والذي تضمن إهداء السيارة للمحال نظير كتابة سيناريو وحوار مسلسل "شقة الحرية"، ولم ترسل إليه صورة من هذا الكتاب.

ولم يستطع الشاهد أن يفسر سبب صدور هذا الكتاب، بعد أن تم شراء السيارة لليثي، مقررا أنه يحتمل أن يكون شقيق الشيخ عبد العزيز قد أبلغ ممدوح الليثي كتابة بسبب إهداء السيارة له، وبعد أن تأكد من أنه استلمها. كما قرر بأنه لم تتم حتى الآن تسوية هذا المبلغ مع شقيق الشيخ عبد العزيز البراهيم.. ومن المحتمل أن يكون قد تم تسويته خارج نطاق الشركة.

نتوقف هنا عن سرد بقية حيثيات الحكم كي نشير إلى أنه أثناء نظر القضية تم تقديم مستندين ينسفان تماما حجة الليثي بأنه حصل على السيارة المرسيدس مقابل كتابة سيناريو مسلسل "شقة الحرية".. والمستند الأول يؤكد أن الليثي حصل بالفعل وقبل المرسيدس على كامل أجره عن المسلسل؛ إذ يقول العقد (وهو المستند الأول الذي وقعه مع محطة تلفزيون الشرق الأوسط) أنه تم سداد ٦٠ ألف دولار له:

- في ٢٧ يونيو سنة ١٩٩٤ –١٥ ألف دولار– ٢٥% عند توقيع العقد.
- في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٩٤ –٩ آلاف دولار– ١٥ % عن تقديم المعالجة الدرامية.
- في ٢٧ فبراير ١٩٩٥ – ٦ آلاف دولار– ١٠ % تقديم العشر حلقات الأولى.
- إجمالي المدفوع ٣٠ ألف دولار؛ "٥٠ % من إجمالي المستحق".

وبنود المطالبة هي:

١- ستة آلاف دولار نظير العشر حلقات الثانية.

٢- خمسة عشر ألف دولار نظير تقـديم كـل الحلقـات الأخيرة.

٣- تسعة آلاف دولار، عدم الحاجة للطرف الثاني.

- إجمالي المطلوب ٣٠ ألف دولار، وتمثل الـ ٥٠ % الثانيـة مـن إجمـالي المسـتحق، للتكـرم بالاعتمـاد أو بالتوجيه، وقد تأشر علـى هـذه المـذكرة (بتـاريخ ٢٩/ ٦/ ١٩٩٥) إلى من رفعت إليه بالعبـارة التاليـة: "يدفع منها فقط ٢٠ ألفًا، والباقي بعد الموافقة على كتابـة النص".

وتقول المحكمة: "كما يبين من صورة الكتاب الثانيـة (أي المستند الثاني) أنـه عبـارة عـن كتـاب صـادر من مركز تليفزيون الشرق الأوسط m. b. c إلـى بنـك باركليز في لندن لتحويل عشرين ألف دولار إلى حساب مركز m. b. c بنك مصر الدولي فرع الجيزة بالقاهرة، ونصه مترجم كالتالي:

"يونيو ١٩٩٥

بنك باركليز

٦٨ نايتبرينج

لندن Swixtnt.

سيدي العزيز:

برجاء تدبير المبلغ التالي لتحويله تلغرافيا

إلى: بنك مصر الدولي – فرع الجيزة – القاهرة – مصر

لصالح: "m. b. c ".

رقم الحساب: ٨٣٥١٨٧٩

القيمة/ التاريخ الحالي

المبلغ: ٢٠ ألف دولار أمريكي

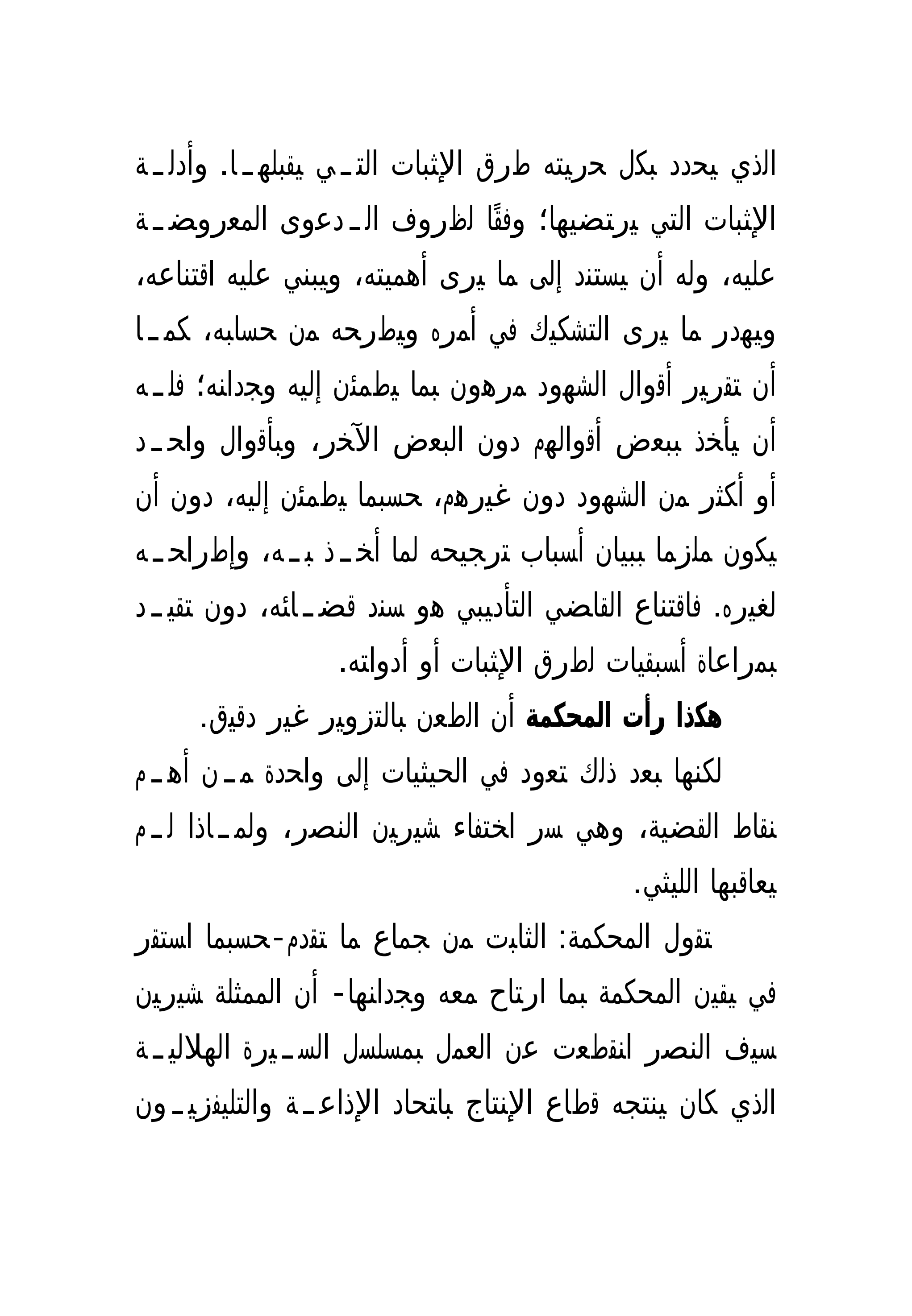
تفاصيل: السيد م الليثي "شقة الحرية"

برجاء مراجعة حسابنا الدولاري ٥٩٢٥٨٧٠٠ طبقًا لذلك.

التوقيعات: د.ع. ج مصري – العضو المنتدب".

وبالتالي يقول المستندان إن الليثي حصل على حقه قبل المرسيدس؛ لكنه طعن في صحة المستندين، وصار على المحكمة أن تقيم هذا الطعن.

وتقول الحيثيات تعقيبا على هذا: "من حيث إنه من المقرر في قضاء المحكمة الإدارية العليا وقضاء هذه المحكمة؛ أن القضاء التأديبي يتمتع بحرية كاملة في مجال الإثبات، وأن التقاضي غير ملزم بطرق معينة للإثبات، فهو



الذي يحدد بكل حريته طرق الإثبات التـي يقبلهـا. وأدلـة الإثبات التي يرتضيها؛ وفقًا لظروف الـدعوى المعروضـة عليه، وله أن يستند إلى ما يرى أهميته، ويبني عليه اقتناعه، ويهدر ما يرى التشكيك في أمره ويطرحه من حسابه، كمـا أن تقرير أقوال الشهود مرهون بما يطمئن إليه وجدانه؛ فلـه أن يأخذ ببعض أقوالهم دون البعض الآخر، وبأقوال واحـد أو أكثر من الشهود دون غيرهم، حسبما يطمئن إليه، دون أن يكون ملزما ببيان أسباب ترجيحه لما أخـذ بـه، وإطراحـه لغيره. فاقتناع القاضي التأديبي هو سند قضـائه، دون تقيـد بمراعاة أسبقيات لطرق الإثبات أو أدواته.

هكذا رأت المحكمة أن الطعن بالتزوير غير دقيق.

لكنها بعد ذلك تعود في الحيثيات إلى واحدة مـن أهـم نقاط القضية، وهي سر اختفاء شيرين النصر، ولمـاذا لـم يعاقبها الليثي.

تقول المحكمة: الثابت من جماع ما تقدم-حسبما استقر في يقين المحكمة بما ارتاح معه وجدانها- أن الممثلة شيرين سيف النصر انقطعت عن العمل بمسلسل السـيرة الهلاليـة الذي كان ينتجه قطاع الإنتاج باتحاد الإذاعـة والتليفزيـون

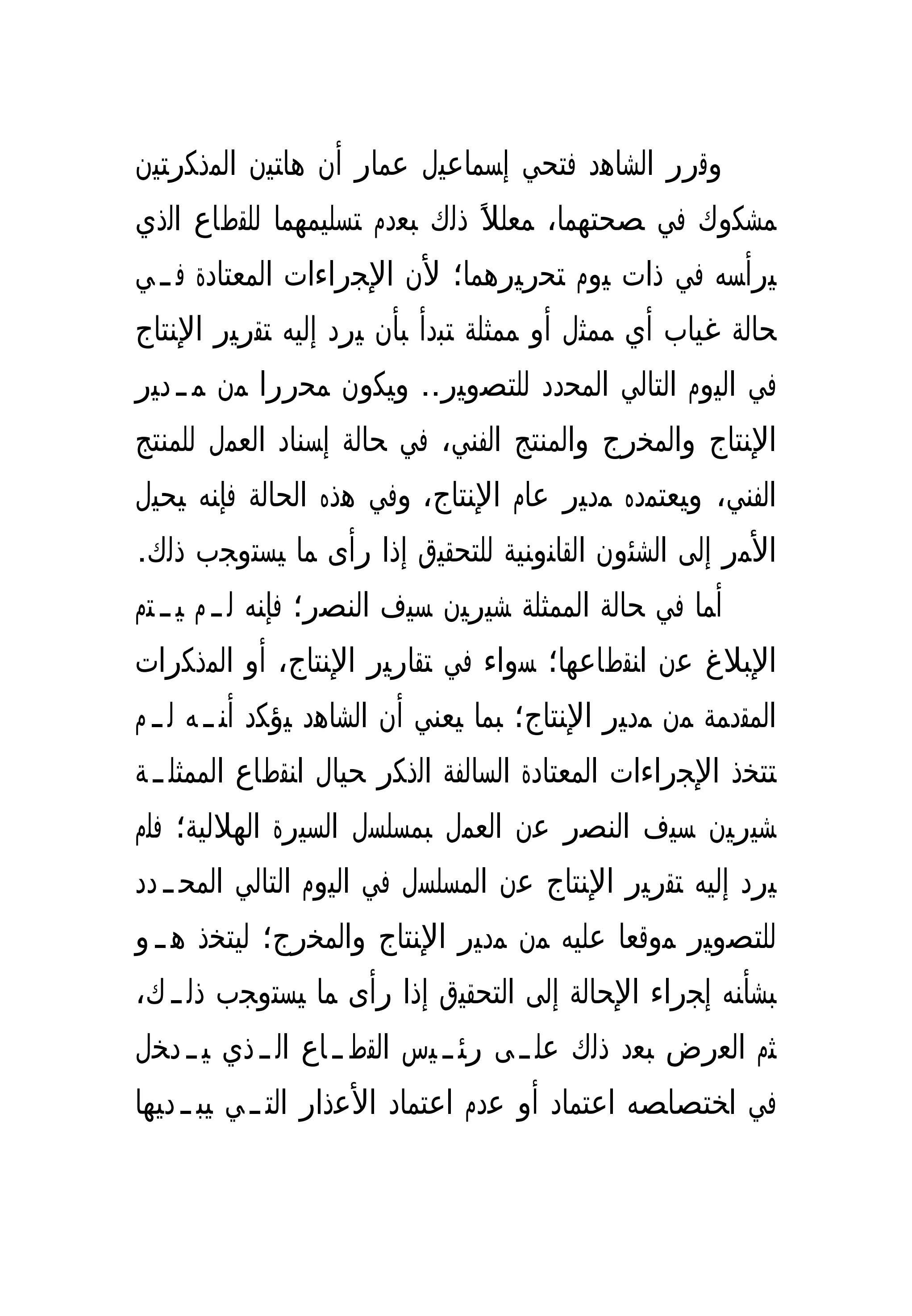
عقب تصويرها لمشهدين بهذا المسلسل، بتـاريخ ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٦.. وأن ممدوح الليثي بصفته رئيس قطاع الإنتاج لـم يتخـــذ ضـــدها أي إجـــراء إلا بتـــاريخ ١/ ١٢/ ١٩٩٦، عقب نشر مقال السيد عادل حمودة "فضيحة على النيل.. تجوع الحكومة ولا تأكل بثدييها.. وغيرها يأكل" بمجلة روز اليوسف بالعدد رقم ٣٥٧٣.. والذي طرح فعـلاً فـي الأسـواق بتـاريخ ٣٠/ ١١/ ١٩٩٦، وأن الليثـي هو وبعض مرءوسيه بقطـاع الإنتـاج زوروا بالاصـطناع بعض أوراق ومستندات لمحاولة إثبات أنه اتخذ فعلاً إجـراء بالتحقيق مع الممثلة المذكورة بتاريخ ١٢/ ١١/ ١٩٩٦، قبل نشر المقال.

لقد قام الدليل على ذلك من شهادة كل من محمود حنفي محمود مدير إنتاج بقطاع الإنتاج، وفتحي إسـماعيل عمـار رئيس الإدارة المركزية لإنتاج الفيديو، وصلاح الدين شـلبي رئيس الشئون المالية والإدارية بقطاع الإنتاج، والذين تطمئن المحكمة إلى شهادتهم، وبالمستندات المقدمـة مـن الشـاهد الأخيـر أمـام نيابـة أمـن الدولـة العليـا فـي القضـية رقم ٩٩٠ لسنة ٩٦ م حصر أمن الدولة العليـا، والخاصـة

بالتعاقد مع الممثلة نيرمين الفقي التي حلت محـل الممثلـة شيرين سيف النصر بمسلسـل السـيرة الهلاليـة.. أخيـرا من أصل سجل الوارد العام، الخاص بالمراقبة العامة للشئون القانونية، والتحقيقات بقطاع الإنتاج.

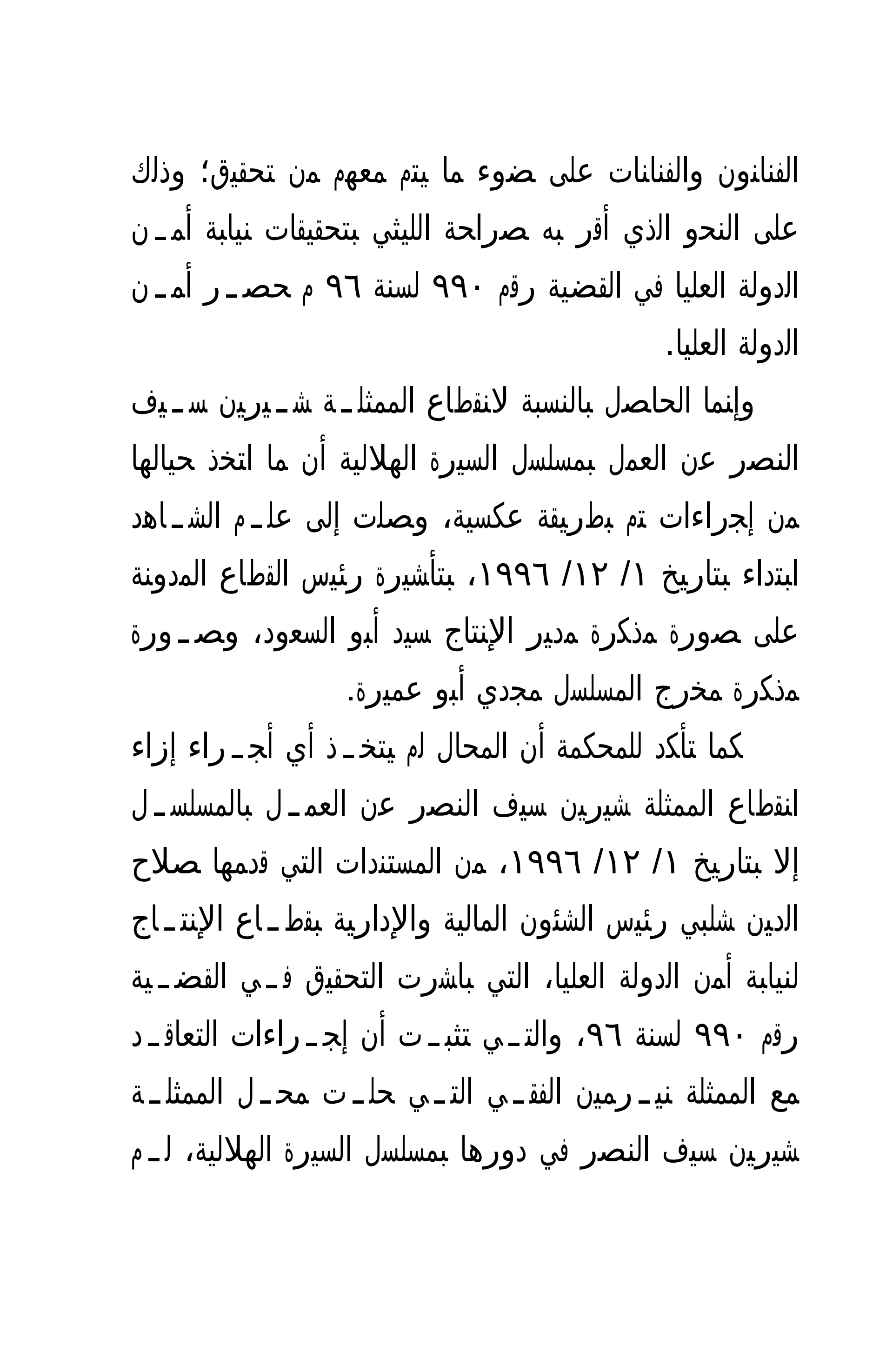
وقد شهد محمود حنفي محمود الذي كان يعمل مـديرا لإنتاج مسلسل السيرة الهلالية؛ بأنه لم يصدر أمـر تصـوير للممثلة شيرين سيف النصر خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٩٦، وأنه لذلك لم تتم كتابة تقرير بتغيبها عن العمل؛ لأن مثل هذا التقرير لا يكتب إلا إذا صدر أمر تصـوير، ولـم تحضـر لتنفيذه.

وأكد كل من فتحي إسـماعيل عمـار رئـيس الإدارة المركزية لإنتاج الفيديو وصلاح الدين شلبي رئيس الشـئون المالية والإدارية بقطاع الإنتاج؛ أنه لم تـرد إليـه صـورة المذكرة المقدمة من سيد أبو السعود مدير الإنتاج، والمـدون عليها تاريخ ١٠/ ١١/ ١٩٩٦، وكذا صورة المذكرة الأخرى المقدمة من المخرج مجدي أبو عميـرة، والمـدون عليهـا تـاريخ ١٢/ ١١/ ١٩٩٦؛ إلا بتـاريخ ١/ ١٢/ ١٩٩٦، وعليهما تأشيرات من المحال.



وقرر الشاهد فتحي إسماعيل عمار أن هاتين المذكرتين مشكوك في صحتهما، معللاً ذلك بعدم تسليمهما للقطاع الذي يرأسه في ذات يوم تحريرهما؛ لأن الإجراءات المعتادة فـي حالة غياب أي ممثل أو ممثلة تبدأ بأن يرد إليه تقرير الإنتاج في اليوم التالي المحدد للتصوير.. ويكون محررا من مـدير الإنتاج والمخرج والمنتج الفني، في حالة إسناد العمل للمنتج الفني، ويعتمده مدير عام الإنتاج، وفي هذه الحالة فإنه يحيل الأمر إلى الشئون القانونية للتحقيق إذا رأى ما يستوجب ذلك.

أما في حالة الممثلة شيرين سيف النصر؛ فإنه لـم يـتم الإبلاغ عن انقطاعها؛ سواء في تقارير الإنتاج، أو المذكرات المقدمة من مدير الإنتاج؛ بما يعني أن الشاهد يؤكد أنـه لـم تتخذ الإجراءات المعتادة السالفة الذكر حيال انقطاع الممثلـة شيرين سيف النصر عن العمل بمسلسل السيرة الهلالية؛ فلم يرد إليه تقرير الإنتاج عن المسلسل في اليوم التالي المحـدد للتصوير موقعا عليه من مدير الإنتاج والمخرج؛ ليتخذ هـو بشأنه إجراء الإحالة إلى التحقيق إذا رأى ما يستوجب ذلـك، ثم العرض بعد ذلك علـى رئـيس القطـاع الـذي يـدخل في اختصاصه اعتماد أو عدم اعتماد الأعذار التـي يبـديها



الفنانون والفنانات على ضوء ما يتم معهم من تحقيق؛ وذلك على النحو الذي أقر به صراحة الليثي بتحقيقات نيابة أمـن الدولة العليا في القضية رقم ٩٩٠ لسنة ٩٦ م حصـر أمـن الدولة العليا.

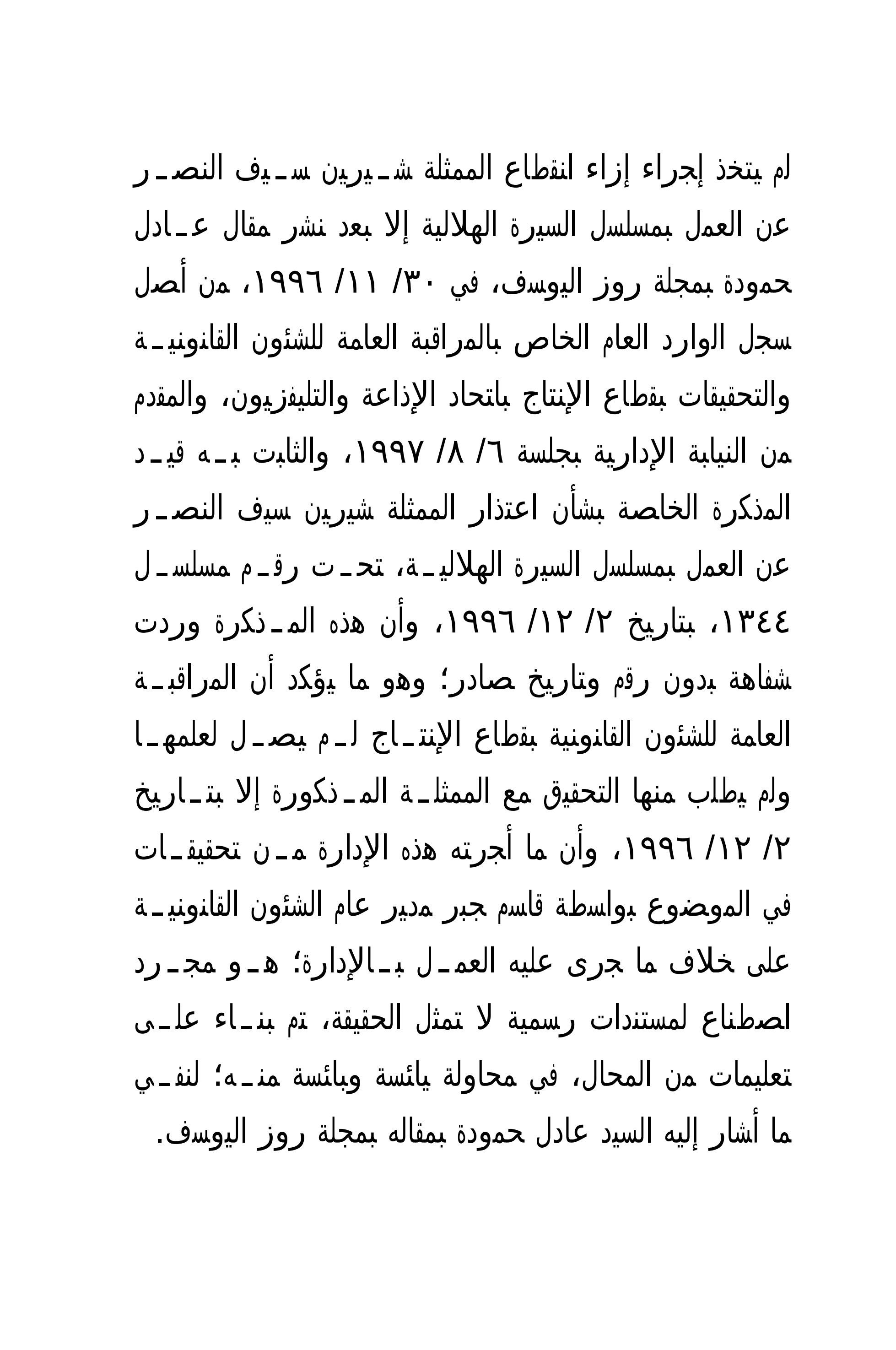
وإنما الحاصل بالنسبة لانقطاع الممثلـة شـيرين سـيف النصر عن العمل بمسلسل السيرة الهلالية أن ما اتخذ حيالها من إجراءات تم بطريقة عكسية، وصلت إلى علـم الشـاهد ابتداء بتاريخ ١/ ١٢/ ١٩٩٦، بتأشيرة رئيس القطاع المدونة على صورة مذكرة مدير الإنتاج سيد أبو السعود، وصـورة مذكرة مخرج المسلسل مجدي أبو عميرة.

كما تأكد للمحكمة أن المحال لم يتخـذ أي أجـراء إزاء انقطاع الممثلة شيرين سيف النصر عن العمـل بالمسلسـل إلا بتاريخ ١/ ١٢/ ١٩٩٦، من المستندات التي قدمها صلاح الدين شلبي رئيس الشئون المالية والإدارية بقطـاع الإنتـاج لنيابة أمن الدولة العليا، التي باشرت التحقيق فـي القضـية رقم ٩٩٠ لسنة ٩٦، والتـي تثبـت أن إجـراءات التعاقـد مع الممثلة نيـرمين الفقـي التـي حلـت محـل الممثلـة شيرين سيف النصر في دورها بمسلسل السيرة الهلالية، لـم

تبدأ إلا بتاريخ ١/ ١٢/ ١٩٩٦ بطلب من الممثلـة نيـرمين الفقي لتحديد أجرها بالمسلسل، طالبة زيادة قيمة هذا الأجـر عن آخر أجر تقاضته؛ وهو ٦٠٠ جنيه.

وإن كان هذا الطلب غير مؤرخ؛ إلا أنه ثابت به خـتم صادر مـن مكتـب رئـيس قطـاع الإنتـاج ("المحـال") في ١/ ١٢/ ١٩٩٦، برقم ٢٦٧٨٦، وموقـع منـه بتحديـد أجرها بمبلغ ٨٠٠ جنيه، وكذلك مـن الإخطـار الـداخلي الصادر عن قطاع الإنتاج؛ وهو ما يسمى إخطـار اسـتبدال لإحلال الممثلة نيرمين الفقي بدلاً من الممثلة شيرين سـيف النصر، واتخاذ إجراءات التعاقد معها؛ وهذا الإخطار مؤرخ في ٢/ ١٢/ ١٩٩٦، وأيضا من تقريـري العمـل اليـومي للمسلسل عن يومي ٩ و ١١/ ١٢/ ١٩٩٦، واللذين يثبتـان أن الممثلة نيرمين الفقي بدأت التصوير فعلاً بالمسلسل بتاريخ ٩/ ١٢/ ١٩٩٦، وكذلك من عقد الاتفاق الموقع معها للتمثيل فـي المسلسـل المشـار إليـه، والموقـع منهـا بتـاريخ ١٧/ ١٢/ ١٩٩٦.

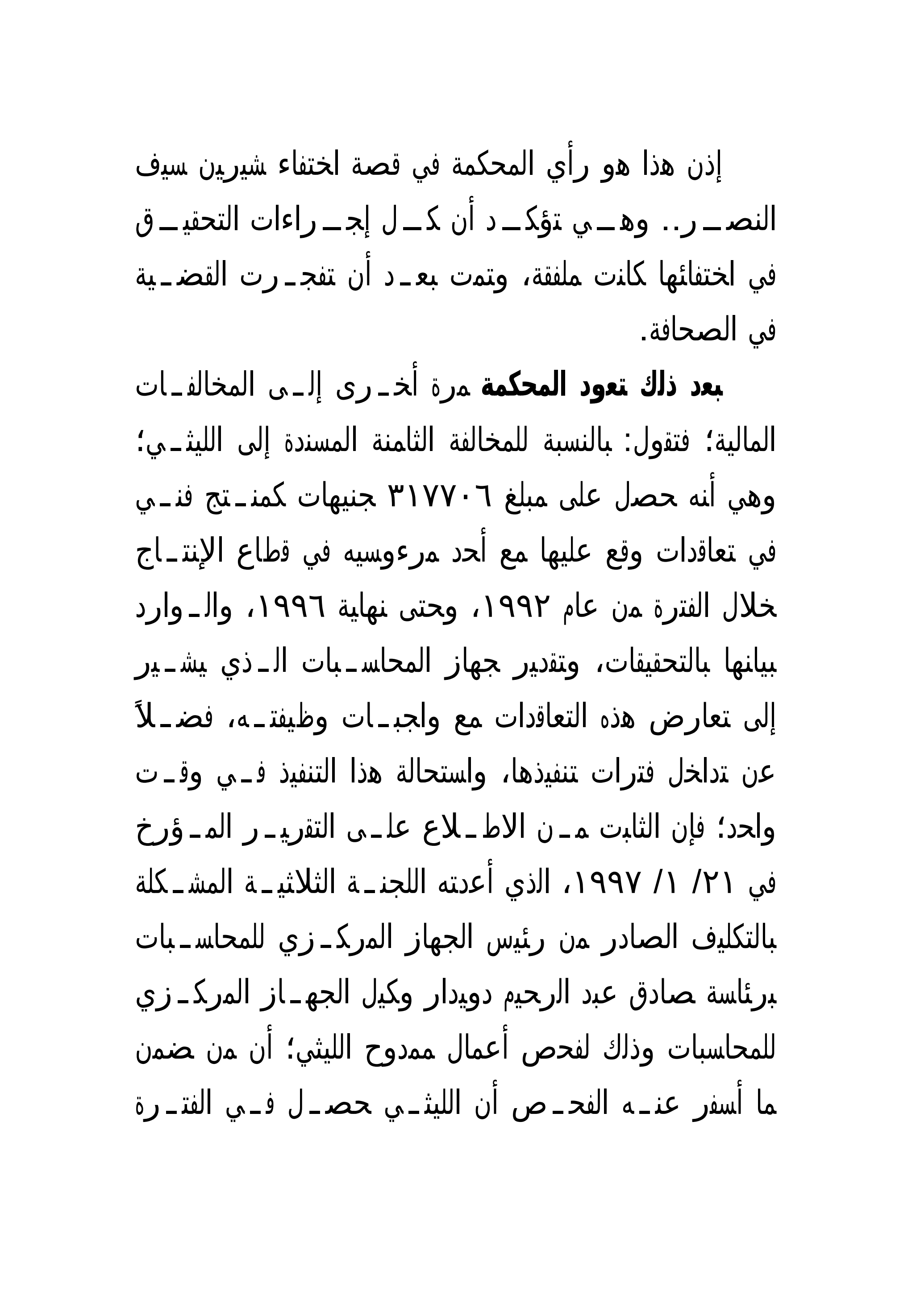
وأخيرا فقد تأكد لدى المحكمة على وجه القطع واليقين، وبمــا لا يـدع مجـالاً لأي شـك؛ أن ممـدوح الليثــي



لم يتخذ إجراء إزاء انقطاع الممثلة شيرين سيف النصر عن العمل بمسلسل السيرة الهلالية إلا بعد نشر مقال عادل حمودة بمجلة روز اليوسف، في ٣٠/ ١١/ ١٩٩٦، من أصل سجل الوارد العام الخاص بالمراقبة العامة للشئون القانونية والتحقيقات بقطاع الإنتاج باتحاد الإذاعة والتليفزيون، والمقدم من النيابة الإدارية بجلسة ٦/ ٨/ ١٩٩٧، والثابت به قيد المذكرة الخاصة بشأن اعتذار الممثلة شيرين سيف النصر عن العمل بمسلسل السيرة الهلالية، تحت رقم مسلسل ١٣٤٤، بتاريخ ٢/ ١٢/ ١٩٩٦، وأن هذه المذكرة وردت شفاهة بدون رقم وتاريخ صادر؛ وهو ما يؤكد أن المراقبة العامة للشئون القانونية بقطاع الإنتاج لم يصل لعلمها ولم يطلب منها التحقيق مع الممثلة المذكورة إلا بتاريخ ٢/ ١٢/ ١٩٩٦، وأن ما أجرته هذه الإدارة من تحقيقات في الموضوع بواسطة قاسم جبر مدير عام الشئون القانونية على خلاف ما جرى عليه العمل بالإدارة؛ هو مجرد اصطناع لمستندات رسمية لا تمثل الحقيقة، تم بناء على تعليمات من المحال، في محاولة يائسة وبائسة منه؛ لنفي ما أشار إليه السيد عادل حمودة بمقاله بمجلة روز اليوسف.

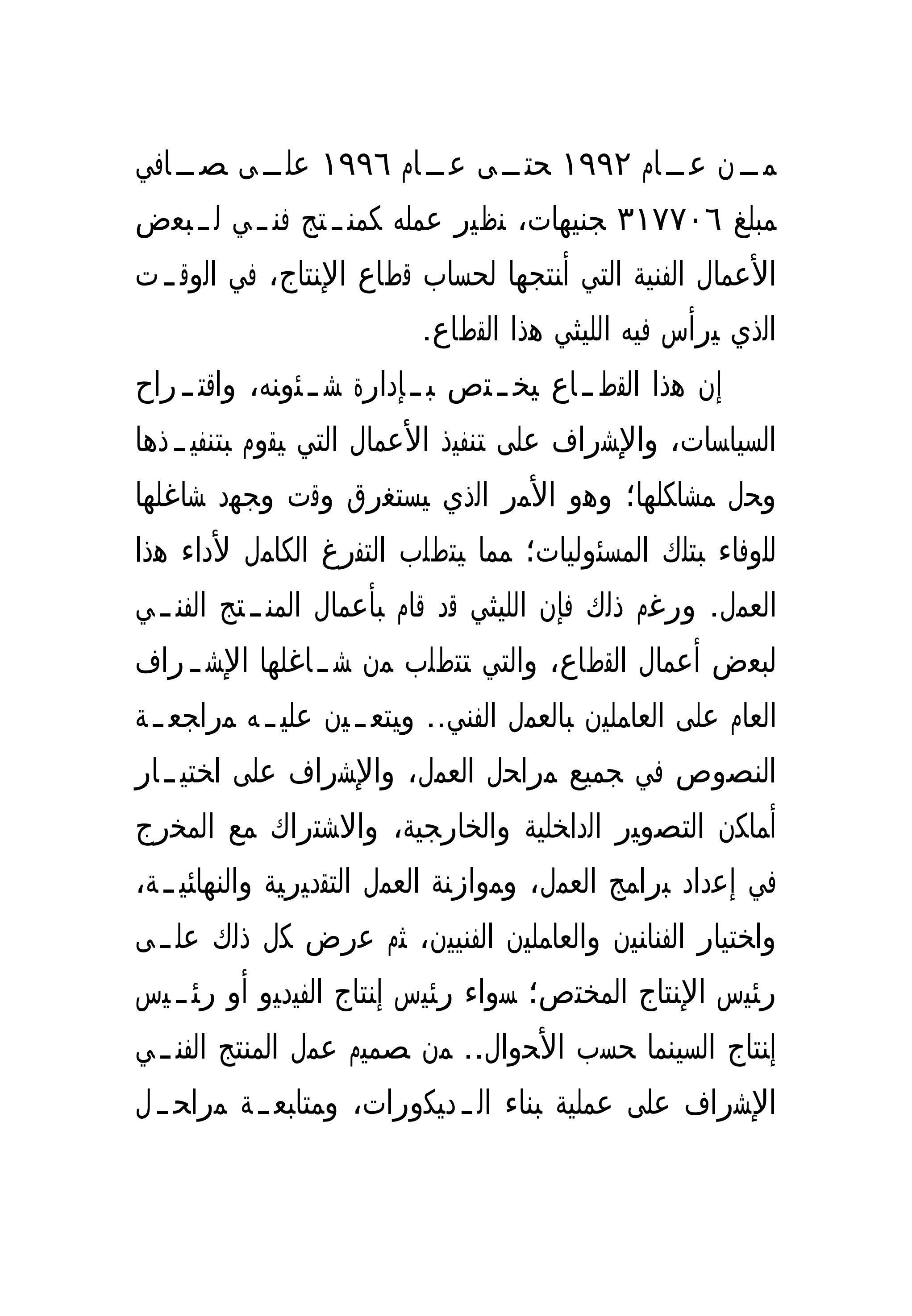
والمحكمة تلتفت لما ذكره أحد أعضاء هيئة الدفاع عـن المحال بمذكرته؛ من التفرقة بين فتح محضر التحقيق، وبين قيد التحقيق بعد انتهائه، وما ذهب إليه من أن التحقيق بدأ في واقعـــة انقطـــاع الممثلـــة المـــذكورة بتاريخ ١٢/ ١١/ ١٩٩٦ وتم قيده في الدفتر بعـد انتهائـه في ٢/ ١٢/ ١٩٩٦؛ فهو قول أقرب إلى الهزل منـه إلـى الجد، لمخالفته للأصول الجوهرية لقواعد وإجراءات التحقيق التي يجب أن تبدأ بقيد الواقعة المطلوب التحقيق فيهـا لـدى جهة التحقيق، بعد ورودها إليها بما يحقق اتصال علمها بها.

ثم يعقب ذلك قيام المحقق بمباشرة إجراءاته، وتحقيـق الواقعة أو التصرف فيها، والعكس ليس صحيحا على نحـو ما ذهب إليه الدفاع، أو ليس ذلك هو الذي اتبع بالنسبة للبلاغ المقدم من ممدوح الليثي إلى السيد الأستاذ المستشار النائـب العام، والذي قيد تحت رقم ٩٩٠ لسنة ٩٦ حصر أمن الدولة العليا، ثم باشرت النيابة التحقيق فيه بعد قيده، وكذلك الشـأن في البلاغ المقدم من السيد وزير الإعلام للنيابـة الإداريـة للتحقيق في الوقائع التي أثيرت ضد المحال، وقيـد الـبلاغ تحت رقم ٦٥ لسنة ٩٦ رئاسة الهيئة.



إذن هذا هو رأي المحكمة في قصة اختفاء شيرين سيف النصـر.. وهـي تؤكـد أن كـل إجـراءات التحقيـق في اختفائها كانت ملفقة، وتمت بعـد أن تفجـرت القضـية في الصحافة.

بعد ذلك تعود المحكمة مرة أخـرى إلـى المخالفـات المالية؛ فتقول: بالنسبة للمخالفة الثامنة المسندة إلى الليثـي؛ وهي أنه حصل على مبلغ ٣١٧٧٠٦ جنيهات كمنـتج فنـي في تعاقدات وقع عليها مع أحد مرءوسيه في قطاع الإنتـاج خلال الفترة من عام ١٩٩٢، وحتى نهاية ١٩٩٦، والـوارد بيانها بالتحقيقات، وتقدير جهاز المحاسـبات الـذي يشـير إلى تعارض هذه التعاقدات مع واجبـات وظيفتـه، فضـلاً عن تداخل فترات تنفيذها، واستحالة هذا التنفيذ فـي وقـت واحد؛ فإن الثابت مـن الاطـلاع علـى التقريـر المـؤرخ في ٢١/ ١/ ١٩٩٧، الذي أعدته اللجنـة الثلاثيـة المشـكلة بالتكليف الصادر من رئيس الجهاز المركـزي للمحاسـبات برئاسة صادق عبد الرحيم دويدار وكيل الجهـاز المركـزي للمحاسبات وذلك لفحص أعمال ممدوح الليثي؛ أن من ضمن ما أسفر عنـه الفحـص أن الليثـي حصـل فـي الفتـرة



من عام ١٩٩٢ حتى عام ١٩٩٦ على صافي مبلغ ٣١٧٧٠٦ جنيهات، نظير عمله كمنتج فني لبعض الأعمال الفنية التي أنتجها لحساب قطاع الإنتاج، في الوقت الذي يرأس فيه الليثي هذا القطاع.

إن هذا القطاع يختص بإدارة شئونه، واقتراح السياسات، والإشراف على تنفيذ الأعمال التي يقوم بتنفيذها وحل مشاكلها؛ وهو الأمر الذي يستغرق وقت وجهد شاغلها للوفاء بتلك المسئوليات؛ مما يتطلب التفرغ الكامل لأداء هذا العمل. ورغم ذلك فإن الليثي قد قام بأعمال المنتج الفني لبعض أعمال القطاع، والتي تتطلب من شاغلها الإشراف العام على العاملين بالعمل الفني.. ويتعين عليه مراجعة النصوص في جميع مراحل العمل، والإشراف على اختيار أماكن التصوير الداخلية والخارجية، والاشتراك مع المخرج في إعداد برامج العمل، وموازنة العمل التقديرية والنهائية، واختيار الفنانين والعاملين الفنيين، ثم عرض كل ذلك على رئيس الإنتاج المختص؛ سواء رئيس إنتاج الفيديو أو رئيس إنتاج السينما حسب الأحوال.. من صميم عمل المنتج الفني الإشراف على عملية بناء الديكورات، ومتابعة مراحل

التصوير، والإشراف على حل المشاكل، وكذا متابعة الأعمال الفنية الأخرى كالإنتاج والمكساج، وإعداد تقـارير متابعـة مستمرة ترفع لرئيس الإنتاج المختص.

وأضاف تقرير الجهاز المركزي: "إنه يتضح من ذلـك صعوبة القيام بالوظيفتين في وقت واحد؛ أي وظيفة المنـتج الفني، ووظيفة رئيس قطاع الإنتاج؛ لاستغراق كـل منهمـا لكامل وقت شاغلهما، وأنه فضلاً عن ذلك فإن عمل المنـتج الفني يتطلب ضرورة إعداد تقارير دورية عن العمل الفنـي، ورفعها لرئيس الإنتاج المختص؛ وهـي إحـدى الوظـائف الخاضعة لإشراف وتوجيه رئيس القطاع؛ مما يصعب معـه على القائم بهذه الوظـائف ("أي وظيفـة رئـيس الإنتـاج المختص) ممارسة مسئوليتها الإدارية والفنية تجاه التقـارير التي ترفع له من المنتج الفني لهذه الأعمال، والـذي يشـغل في نفس الوقت وظيفة رئيس القطاع الذي يعمل بـه رئـيس الإنتاج.

واستطرد تقرير اللجنة المشكلة من الجهـاز المركـزي قائلاً: "إن ممدوح الليثي قام بعمل المنتج الفني لعدة أعمال يتم تنفيذها في فترات متداخلة؛ مما يستحيل معه تنفيذها معا فـي

وقت واحد، بالإضافة إلى ممارسة عمله الأساسـي كـ رئيس قطاع الإنتاج؛ وذلك على ضوء توصـيف هـذه الوظـائف السابق توضيح أهم بنودها. وذكـر التقريـر بعـض هـذه الأعمال؛ وهي مسلسلات "الوعد الحق" و"الثعلب" و"تعلم اللغة العربية"، والتي تم إنتاجها بمعرفـة القطـاع عـام ١٩٩٣، وكذلك كثير من الأعمال التي أنتجها القطـاع عـام ١٩٩٤؛ وهي مسلسلات "لا"، و"عمر بن عبـد العزيـز"، و"أحـلام العنكبوت" و"العائلة" و"أيام المنيرة"، و"أرابيسك".

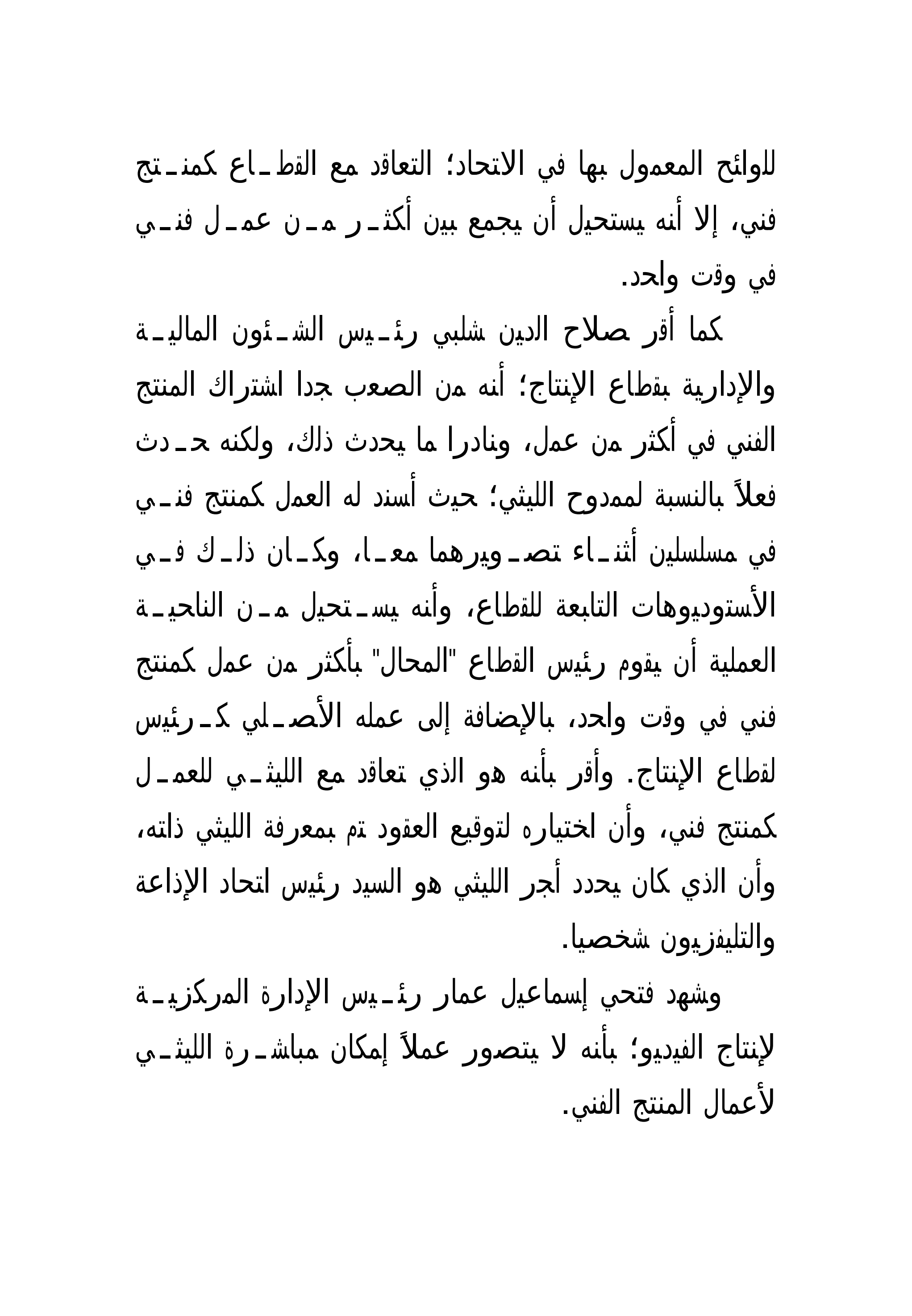
وردد رئيس اللجنة المشكلة لفحـص أعمـال المحـال بتحقيقات النيابة الإدارية ما سبق أن أورده بتقريـر اللجنـة. وأضاف أن جميع المبالغ التي حصل عليها الليثي نتيجة عمله كمنتج فني، وإن كان قد حصل عليها وفقًا للوائح التـي يـتم العمل بها بقطاع الإنتاج، والمعتمدة من رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون؛ إلا أن بعض هذه المبالغ صـرفت دون وجـه حق؛ حيث تبـين مـن الفحـص عـدم حصـول الليثـي على الموافقات اللازمة لممارسة هذا العمل من رئيس الاتحاد من الأوقات المقررة؛ حيث كان يتم الحصـول عليهـا بعـد انتهاء العمل فعلاً، كما أكد على قيامه بأعمال المنتج الفنـي

لكثير من المسلسلات متداخلة في نفس الوقت الذي يمـارس فيه عمله كرئيس لقطاع الإنتاج؛ مما يستحيل معه قيامه بهذه الأعمال في وقت واحد.

واستطرد الشاهد قائلاً إن جميع الأعمال التي رصـدت بشأنها موافقات لاحقة على تنفيذها من السيد رئـيس قطـاع الإنتاج؛ موجودة في تقرير اللجنة، ومنها على سبيل المثال:

- "مازال النيـل يجـري"، وتـاريخ نهايـة التصـوير ٢٩/ ٧/ ١٩٩٢، والموافقة بتاريخ ١٦/ ١١/ ٩٢.
- "دموع صاحبة الجلالة"، وتـاريخ نهايـة التصـوير ٩/ ٩/ ٩٢، والموافقة بتاريخ ٢٧/ ٢/ ٩٣.
- " أحـلام العنكبـوت"، وتـاريخ نهايـة التصـوير ٥/ ١٠/ ٩٣، والموافقة بتاريخ ٦/ ٢/ ٩٤
- "أيام المنيرة"، وتاريخ نهايـة التصـوير ٢٤/ ٢/ ٩٤، والموافقة بتاريخ ١/ ٣/ ٩٤.
- "السقوط في بئر سـبع"، وتـاريخ نهايـة التصـوير ١٠/ ٥/ ١٩٩٤، والموافقة بتاريخ ١٩/ ٩/ ٩٤.

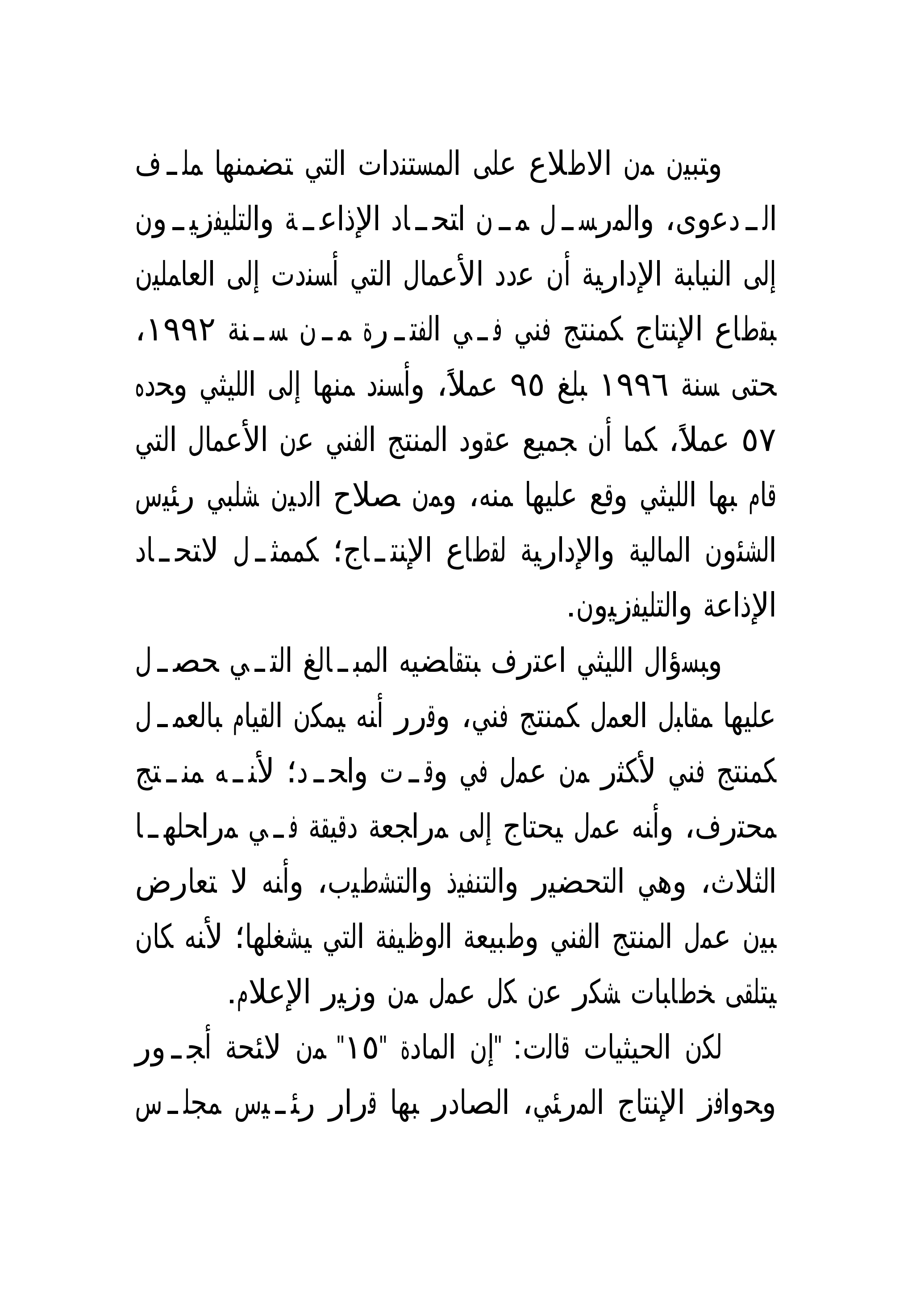
وقرر أمين إبراهيم بسـيوني رئـيس اتحـاد الإذاعـة والتليفزيون السابق؛ أنه يجوز لرئيس قطاع الإنتـاج طبقًـا



للوائح المعمول بها في الاتحاد؛ التعاقد مع القطـاع كمنـتج فني، إلا أنه يستحيل أن يجمع بين أكثـر مـن عمـل فنـي في وقت واحد.

كما أقر صلاح الدين شلبي رئـيس الشـئون الماليـة والإدارية بقطاع الإنتاج؛ أنه من الصعب جدا اشتراك المنتج الفني في أكثر من عمل، ونادرا ما يحدث ذلك، ولكنه حـدث فعلاً بالنسبة لممدوح الليثي؛ حيث أسند له العمل كمنتج فنـي في مسلسلين أثنـاء تصـويرهما معـا، وكـان ذلـك فـي الأستوديوهات التابعة للقطاع، وأنه يسـتحيل مـن الناحيـة العملية أن يقوم رئيس القطاع "المحال" بأكثر من عمل كمنتج فني في وقت واحد، بالإضافة إلى عمله الأصـلي كـرئيس لقطاع الإنتاج. وأقر بأنه هو الذي تعاقد مع الليثـي للعمـل كمنتج فني، وأن اختياره لتوقيع العقود تم بمعرفة الليثي ذاته، وأن الذي كان يحدد أجر الليثي هو السيد رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون شخصيا.

وشهد فتحي إسماعيل عمار رئـيس الإدارة المركزيـة لإنتاج الفيديو؛ بأنه لا يتصور عملاً إمكان مباشـرة الليثـي لأعمال المنتج الفني.



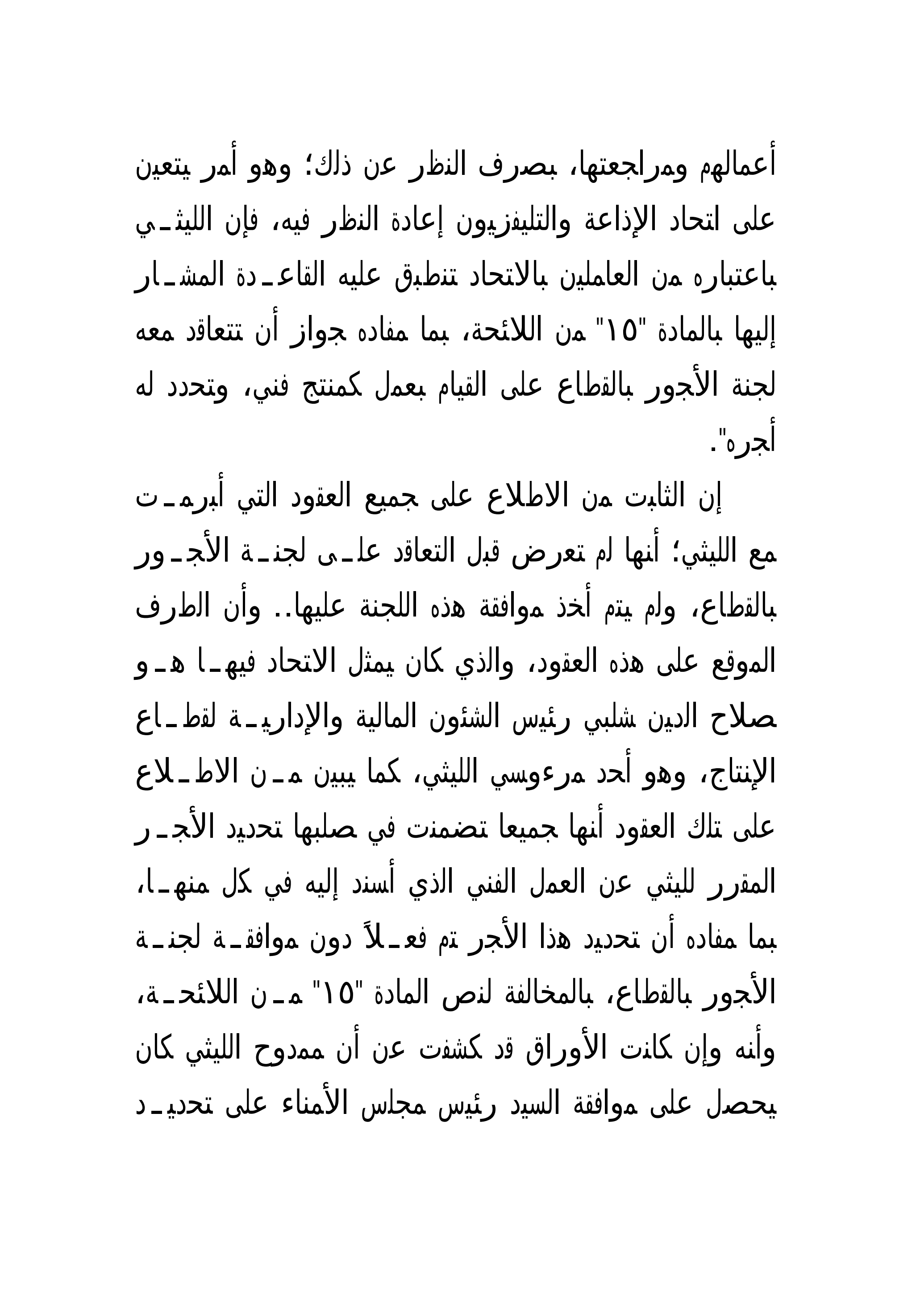
وتبين من الاطلاع على المستندات التي تضمنها ملف الدعوى، والمرسل من اتحاد الإذاعة والتليفزيون إلى النيابة الإدارية أن عدد الأعمال التي أسندت إلى العاملين بقطاع الإنتاج كمنتج فني في الفترة من سنة ١٩٩٢، حتى سنة ١٩٩٦ بلغ ٩٥ عملاً، وأسند منها إلى الليثي وحده ٥٧ عملاً، كما أن جميع عقود المنتج الفني عن الأعمال التي قام بها الليثي وقع عليها منه، ومن صلاح الدين شلبي رئيس الشئون المالية والإدارية لقطاع الإنتاج؛ كممثل لاتحاد الإذاعة والتليفزيون.

وبسؤال الليثي اعترف بتقاضيه المبالغ التي حصل عليها مقابل العمل كمنتج فني، وقرر أنه يمكن القيام بالعمل كمنتج فني لأكثر من عمل في وقت واحد؛ لأنه منتج محترف، وأنه عمل يحتاج إلى مراجعة دقيقة في مراحلها الثلاث، وهي التحضير والتنفيذ والتشطيب، وأنه لا تعارض بين عمل المنتج الفني وطبيعة الوظيفة التي يشغلها؛ لأنه كان يتلقى خطابات شكر عن كل عمل من وزير الإعلام.

لكن الحيثيات قالت: "إن المادة "١٥" من لائحة أجور وحوافز الإنتاج المرئي، الصادر بها قرار رئيس مجلس

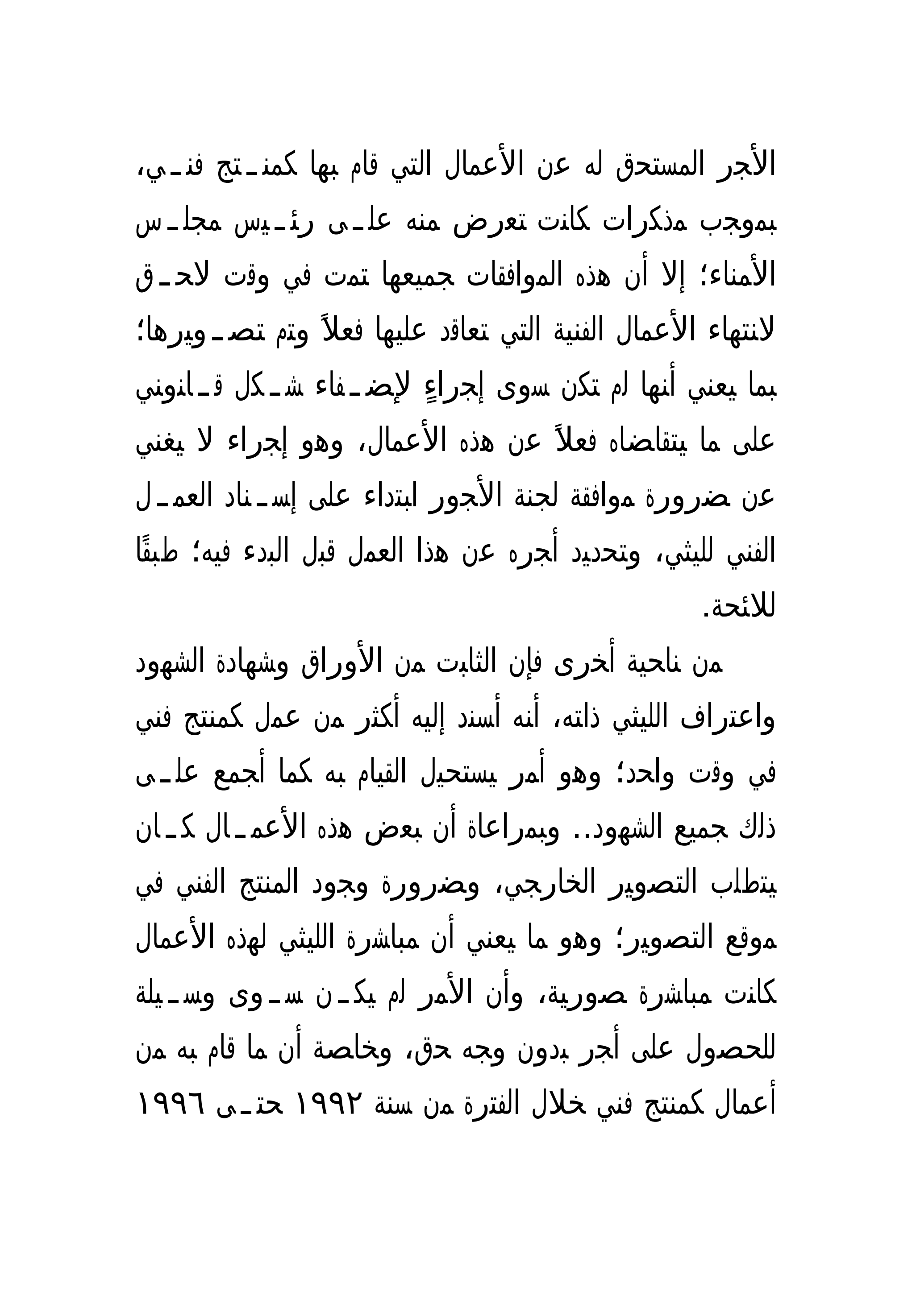
الأمناء رقم ٧٦٢ لسنة ١٩٩١، والتي تسري علـى قطـاع الإنتاج، والمعمول بها اعتبارا من ٢٦/ ١١/ ١٩٩١؛ تـنص على أنه: يجوز للجنة الأجور بالقطاع الأخذ بنظـام التعاقـد بالأجر مع بعض عناصر العمل الفنية من العاملين بالاتحاد، الذين يخضعون لنظام الحوافز وفقًا للأجر الذي تحدده اللجنة، وفي هذه الحالة لا يصرف الحافز المقرر لهـذه العناصـر المتعاقد معها عن هذا العمل.

ومفاد ذلك أن لائحة أجور وحـوافز الإنتـاج المرئـي المطبقة على قطاع الإنتاج باتحاد الإذاعة والتليفزيون تجيـز للجنة الأجور بالقطاع التعاقد بالأجر مع بعض عناصر العمل الفنية من العاملين بالاتحاد، بالضوابط التي حددتها، وبصرف النظر عن أن الليثي رئيس قطاع الإنتاج؛ وهي الوظيفة التي تقع على قمة وظائف هذا القطاع، بما تتطلبه من شاغلها من الإشراف على إنتاج ذلك القطاع مـن أفـلام ومسلسـلات وأعمال درامية، ومتابعة الأنشطة المختلفة الخاصة بالإنتاج؛ وهو ما يتعارض بالقطع مع تعاقده مع القطاع كمنتج فنـي؛ لما يتطلبه ذلك من رقابة وإشراف مرءوسيه على ما يقـوم بإنتاجه، في الوقت المنوط به هو قانونًـا الإشـراف علـى



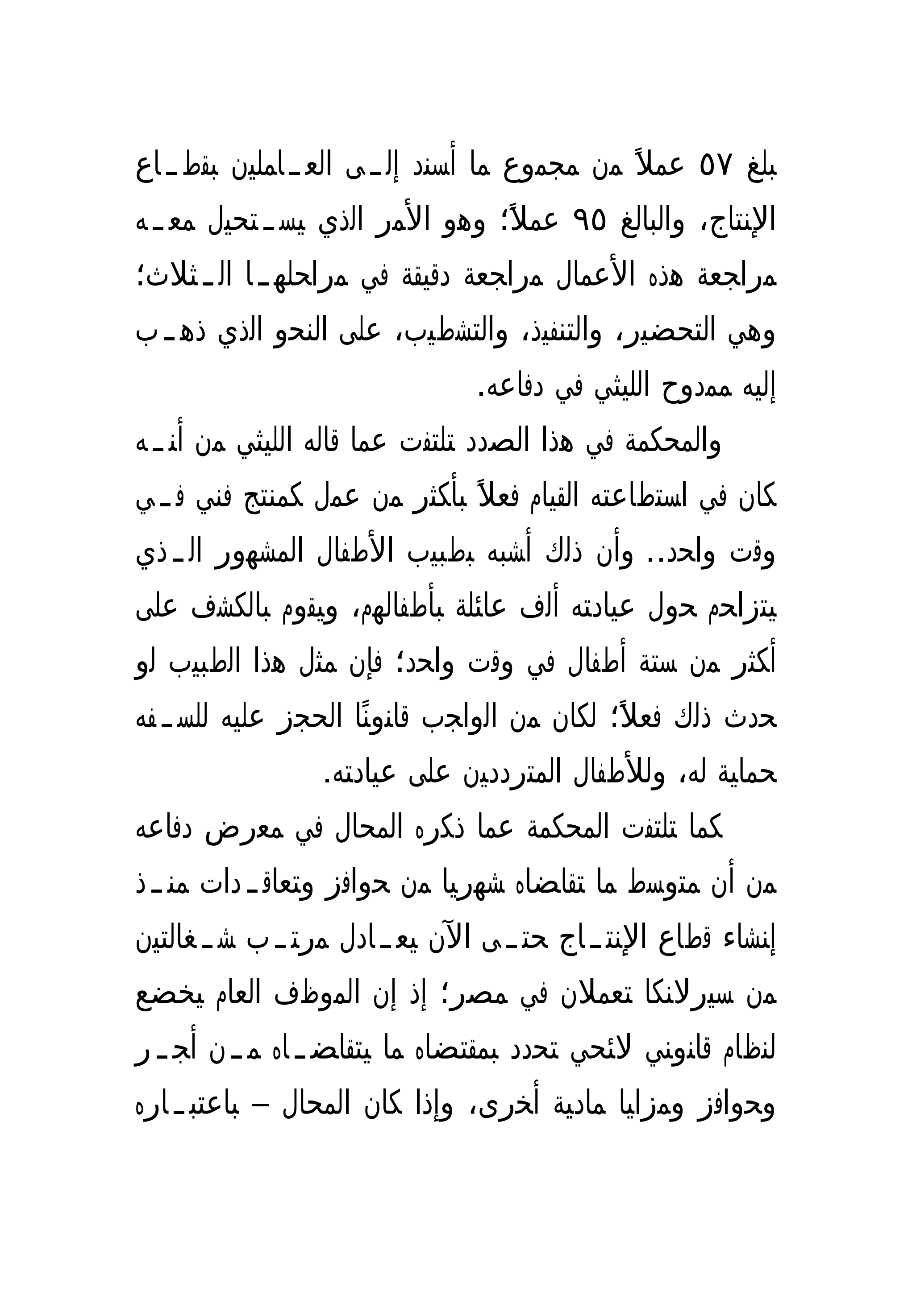
أعمالهم ومراجعتها، بصرف النظر عن ذلك؛ وهو أمر يتعين على اتحاد الإذاعة والتليفزيون إعادة النظر فيه، فإن الليثـي باعتباره من العاملين بالاتحاد تنطبق عليه القاعـدة المشـار إليها بالمادة "١٥" من اللائحة، بما مفاده جواز أن تتعاقد معه لجنة الأجور بالقطاع على القيام بعمل كمنتج فني، وتحدد له أجره".

إن الثابت من الاطلاع على جميع العقود التي أبرمـت مع الليثي؛ أنها لم تعرض قبل التعاقد علـى لجنـة الأجـور بالقطاع، ولم يتم أخذ موافقة هذه اللجنة عليها.. وأن الطرف الموقع على هذه العقود، والذي كان يمثل الاتحاد فيهـا هـو صلاح الدين شلبي رئيس الشئون المالية والإداريـة لقطـاع الإنتاج، وهو أحد مرءوسي الليثي، كما يبين مـن الاطـلاع على تلك العقود أنها جميعا تضمنت في صلبها تحديد الأجـر المقرر لليثي عن العمل الفني الذي أسند إليه في كل منهـا، بما مفاده أن تحديد هذا الأجر تم فعـلاً دون موافقـة لجنـة الأجور بالقطاع، بالمخالفة لنص المادة "١٥" مـن اللائحـة، وأنه وإن كانت الأوراق قد كشفت عن أن ممدوح الليثي كان يحصل على موافقة السيد رئيس مجلس الأمناء على تحديـد



الأجر المستحق له عن الأعمال التي قام بها كمنتج فني، بموجب مذكرات كانت تعرض منه على رئيس مجلس الأمناء؛ إلا أن هذه الموافقات جميعها تمت في وقت لاحق لانتهاء الأعمال الفنية التي تعاقد عليها فعلاً وتم تصويرها؛ بما يعني أنها لم تكن سوى إجراءٍ لإضفاء شكل قانوني على ما يتقاضاه فعلاً عن هذه الأعمال، وهو إجراء لا يغني عن ضرورة موافقة لجنة الأجور ابتداء على إسناد العمل الفني لليثي، وتحديد أجره عن هذا العمل قبل البدء فيه؛ طبقًا للائحة.

من ناحية أخرى فإن الثابت من الأوراق وشهادة الشهود واعتراف الليثي ذاته، أنه أسند إليه أكثر من عمل كمنتج فني في وقت واحد؛ وهو أمر يستحيل القيام به كما أجمع على ذلك جميع الشهود.. وبمراعاة أن بعض هذه الأعمال كان يتطلب التصوير الخارجي، وضرورة وجود المنتج الفني في موقع التصوير؛ وهو ما يعني أن مباشرة الليثي لهذه الأعمال كانت مباشرة صورية، وأن الأمر لم يكن سوى وسيلة للحصول على أجر بدون وجه حق، وخاصة أن ما قام به من أعمال كمنتج فني خلال الفترة من سنة ١٩٩٢ حتى ١٩٩٦



بلغ ٥٧ عملاً من مجموع ما أسند إلى العاملين بقطاع الإنتاج، والبالغ ٩٥ عملاً؛ وهو الأمر الذي يستحيل معه مراجعة هذه الأعمال مراجعة دقيقة في مراحلها الثلاث؛ وهي التحضير، والتنفيذ، والتشطيب، على النحو الذي ذهب إليه ممدوح الليثي في دفاعه.

والمحكمة في هذا الصدد تلتفت عما قاله الليثي من أنه كان في استطاعته القيام فعلاً بأكثر من عمل كمنتج فني في وقت واحد.. وأن ذلك أشبه بطبيب الأطفال المشهور الذي يتزاحم حول عيادته ألف عائلة بأطفالهم، ويقوم بالكشف على أكثر من ستة أطفال في وقت واحد؛ فإن مثل هذا الطبيب لو حدث ذلك فعلاً؛ لكان من الواجب قانونًا الحجز عليه للسفه حماية له، وللأطفال المترددين على عيادته.

كما تلتفت المحكمة عما ذكره المحال في معرض دفاعه من أن متوسط ما تقاضاه شهريا من حوافز وتعاقدات منذ إنشاء قطاع الإنتاج حتى الآن يعادل مرتب شغالتين من سيرلانكا تعملان في مصر؛ إذ إن الموظف العام يخضع لنظام قانوني لائحي تحدد بمقتضاه ما يتقاضاه من أجر وحوافز ومزايا مادية أخرى، وإذا كان المحال – باعتباره

موظفًا عاما – غير راض عمـا يتقاضـاه مـن المنصـب الإعلامي رفيع المستوى الذي شرفته به الدولة، وعن جائزة الدولة التقديرية في الفنون التي منحتها له عام ١٩٩٢ خلال تقلده لذلك المنصب؛ فليبحث له عن مهنة أخـرى تتناسـب مع كفاءته ومواهبه الشخصية، وتدر عليه الدخل الوفير.

لذلك فإن المخالفة المسندة إلـى الليثـي تكـون ثابتـة في حقه ثبوتًا يقينيا، بما يشكل في شـأنه إخـلالاً بواجبـات وظيفته؛ مما يستوجب مجازاته تأديبيا.

أما عن المخالفة المسندة إلى الليثي؛ وهي أنه أهمـل رقابة الأعمال المنفذة وفقًا لنظـام المنـتج المنفـذ؛ اكتفـاء بالحصول على صور تقارير الإنتاج، والمكاتبـات المقدمـة منهم، دون التحقيق في صحتها، وصرف دفعـات التحويـل طبقًا لما ورد بها؛ مما أدى إلى صرف جميـع المسـتحقات عن بعض الأعمال بالزيادة عن المستحق؛ وفقًا للمدة الفعليـة للعمل، ووفقًا للساعات الصافية للعمل؛ مثال أفلام "ميكانيكـا" و"إنذار بالقتل"، و"علينا العوض"، فضلاً عن عـدم إجـراء دراسات مسبقة لموقف المنتجين المنفذين قبل إسناد الأعمـال إليهما؛ لتحديد مدى قدرتهما المالية والفنية على تنفيذ الأعمال

المسندة إليهما بالكفاءة المطلوبة في المواعيد المحددة؛ مما أدى إلى توقف البعض منهم عن استكمال التنفيذ، على نحو ما حدث في فيلم "ميكانيكا"، ومسلسل "أهالينا".

وكذلك المخالفة المسندة إلى الليثي، وهي أنه وافق على صرف جميع مستحقات بعض المنتجين المنفذين بالزيادة على ساعات التنفيذ الفعلية للأعمال المسندة إليهم، والواردة بالعقود؛ مما أدى إلى صرف مبالغ بالزيادة على مدد التنفيذ بلغت قيمتها ٢٧١٣٨٠ جنيها لأعمال "إنذار بالقتل" و"ميكانيكا" و"علينا العوض" و"مبروك يا بلبل"؛ فإن الثابت من الأوراق والمستندات التي تضمنها ملف الدعوى أن الشق الأول من المخالفة التاسعة المسندة إلى المحال؛ هو بذاته المخالفة الثانية عشرة المسندة إليه.. وهما يتعلقان بأفلام "إنذار بالقتل" و"ميكانيكا" و"علينا العوض" و"مبروك يا بلبل"، ومضمون هاتين المخالفتين هو صرف جميع مستحقات المنتجين المنفذين لهذه الأفلام، بالزيادة على ساعات التنفيذ الفعلية للأعمال المسندة إليهم، والواردة بالعقود.

ويبين من الاطلاع على عقود الأفلام المشار إليهـا أن مدة الفيلم المتفق عليه في كل عقد هي "١٠٥" دقائق، على أن تتم المحاسبة النهائية بين الطرفين بعد استلام الطـرف الأول (اتحاد الإذاعة والتليفزيون بجمهورية مصر العربية) للعمـل كاملاً على هذا الأساس. والثابت من تقرير لجنـة الفحـص الثلاثية المشكلة من الجهاز المركزي للمحاسـبات لفحـص أعمال المحال (وذلك برئاسة صادق عبد الرحيم دويدار وكيل الجهاز المركزي للمحاسبات أن مدة التنفيـذ الفعليـة لفـيلم "إنذار بالقتل"؛ كانت ٩٤ دقيقة فقط، بينمـا صـرف للمنـتج المنفذ جميع القيمة المتفق عليها في العقـد، بزيـادة قـدرها "١١" دقيقة، وبلغت قيمة الزيادة المنصرفة ٥٢٣٨١ جنيهـا، وأن مدة التنفيذ الفعلية لفيلم "ميكانيكا" كانت ٩٥ دقيقة فقـط، بينما صرف للمنتج المنفذ جميع القيمة المتفق عليها في العقد، بزيادة قدرها عشر دقائق، وبلغت قيمة الزيـادة المنصـرفة مبلـغ ٤٧٦١٩ جنيهـا، وأن مـدة التنفيـذ الفعليـة لفـيلم "علينا العوض" كانت ٩١ دقيقة، و١٥ ثانيـة فقـط، بينمـا صرف للمنتج المنفذ جميع القيمة المتفق عليها فـي العقـد،

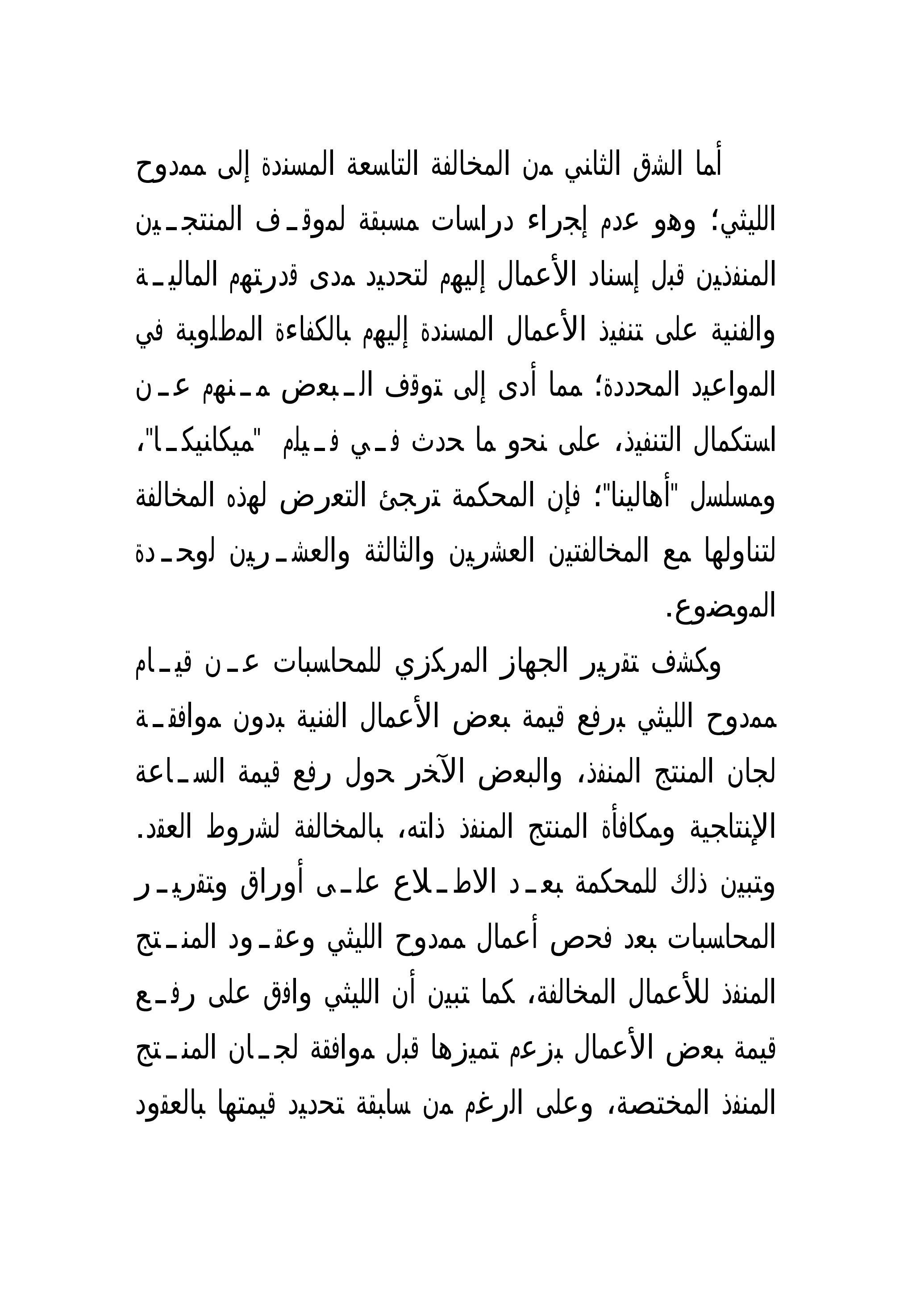
بزيادة قدرها ١٣ دقيقة و٤٥ ثانية، وبلغـت قيمـة الزيـادة المنصرفة مبلغ ٩١٦٦٦ جنيها.

لما كان ذلك، وكان الثابت من الاطلاع علـى جميـع عقود الأفلام المشار إليها أن مدة الفيلم المتفق عليها في كـل عقد هي "١٠٥" دقائق، وأن المحاسبة النهائية بـين طرفـي العقد تتم بعد تسلم الطرف الأول (اتحاد الإذاعة والتليفزيون) للعمل كاملاً على هذا الأساس، بما مفاده أن تـتم المحاسـبة النهائية عن مدة العمل التي تم تنفيذها فعلاً، بالمقارنة بالمـدة المتفق عليها؛ بمعنى أن المنتج المنفذ للفيلم لا يتقاضى كـل المبلغ المتفق عليه فـي العقـد إلا إذا كانـت مـدة الفـيلم ١٠٥ دقائق كاملة.

إن الليثي – كما تقول حيثيات المحكمة – كان يـرأس اللجنة الفرعية للمنتج المنفذ المنبثقـة عـن اللجنـة العليـا، والصادر بها قـرار رئـيس مجلـس الأمنـاء رقـم ٣٤٤ لسنة ١٩٩٤؛ وهي اللجنة المنوط بها متابعة مراحـل تنفيـذ الإنتاج، ومتابعة دفعات التمويل وما تم إنجازه فعلاً؛ وذلـك وفقًا للمادة الثانية من القرار المشار إليه؛ فإنه يكون مسـئولاً

عن المبالغ التي تم صرفها بالزيادة للمنتجين المنفذين للأفلام سالفة الذكر، والبالغ قيمها ٢٧١٣٨٠ جنيها.

بهذه المثابة فإن الشق الأول من المخالفة التاسعة المسندة إليه، والمخالفة الثانية عشرة المسندة إليه (وهما في الحقيقة مخالفة واحدة) على النحو الذي انتهت إليه هذه المحكمة، وتكون هذه المخالفة ثابتة في حق ممدوح الليثي؛ مما يستوجب مجازاته تأديبيا عنها. ولا ينال من ذلك القول بأن القيمة المنصرفة بالزيادة للمنتجين المنفذين عن هذه الأفلام قد تم احتسابها على أساس المدد الخاصة بشرائط الفيديو المنقول إليها هذه الأفلام؛ وهو نقل عن المدد المنتجة فعلاً، والموجودة على شرائط الـ ٣٥مم؛ فذلك قول يتنافى مع المنطق، ولا يستقيم عقلاً؛ لأن مدة الفيلم المنتجة فعلاً والمحسوبة بالدقائق والثواني لا يمكن أن تختلف من شريط إلى آخر، والعبرة هي بالمدة الفعلية المحسوبة على هذا الأساس، والتي تسلم إلى المكتبة بقطاع الإنتاج باتحاد الإذاعة والتليفزيون طبقًا لنصوص العقد؛ وهي المدة التي تتم على أساسها المحاسبة النهائية مع المنتج المنفذ.



أما الشق الثاني من المخالفة التاسعة المسندة إلى ممدوح الليثي؛ وهو عدم إجراء دراسات مسبقة لموقف المنتجين المنفذين قبل إسناد الأعمال إليهم لتحديد مدى قدرتهم المالية والفنية على تنفيذ الأعمال المسندة إليهم بالكفاءة المطلوبة في المواعيد المحددة؛ مما أدى إلى توقف البعض منهم عن استكمال التنفيذ، على نحو ما حدث في فيلم "ميكانيكا"، ومسلسل "أهالينا"؛ فإن المحكمة ترجئ التعرض لهذه المخالفة لتناولها مع المخالفتين العشرين والثالثة والعشرين لوحدة الموضوع.

وكشف تقرير الجهاز المركزي للمحاسبات عن قيام ممدوح الليثي برفع قيمة بعض الأعمال الفنية بدون موافقة لجان المنتج المنفذ، والبعض الآخر حول رفع قيمة الساعة الإنتاجية ومكافأة المنتج المنفذ ذاته، بالمخالفة لشروط العقد. وتبين ذلك للمحكمة بعد الاطلاع على أوراق وتقرير المحاسبات بعد فحص أعمال ممدوح الليثي وعقود المنتج المنفذ للأعمال المخالفة، كما تبين أن الليثي وافق على رفع قيمة بعض الأعمال بزعم تميزها قبل موافقة لجان المنتج المنفذ المختصة، وعلى الرغم من سابقة تحديد قيمتها بالعقود

المحررة مع المنتجين المنفذين؛ مما أدى إلى زيادة تكاليفهـا دون مقتضى على الثمن المتفق عليه بالعقود. وقد بلغت جملة هذه الزيادة ٩٧٠ ألف جنيه. وفيلم "المراكبي" الـذي تكلـف مبلغ ٥٧٥ ألـف جنيـه، ومسلسـل "أهـل القمـة" بمبلـغ ٨٧٥ ألف جنيه، والذين لم يتم قبولهما حتى الآن.

هناك مخالفات أخرى حققت فيها المحكمة، ومن بينهـا مخالفة حول أنه: وافق على رفع قيمـة السـاعة الإنتاجيـة لمسلسلات؛ الحاوي (من سبعين ألف جنيـه، إلـى خمسـة وثمانين ألف جنيه)، و"سنوات الغضب"، و"الدوائر المغلقـة"، و"المتهم البريء" (من ستين ألف جنيه.. إلى سـبعين ألـف جنيه)؛ دون أسباب أو مبررات تقتضي ذلـك، وبالمخالفـة لشروط التعاقد، والتي تقضي بأن القيمة المتفق عليها محددة بصفة نهائية، حال عدم حصوله على موافقة اللجنتين الفرعية والعليا للمنتج المنفذ على رفع قيمة هذه الأعمال.

والمخالفة السابعة عشرة؛ وهي أنه وافق علـى مكافـأة المنتج المنفذ ناهد فريد شوقي بمبلغ ستين ألف جنيه، نظيـر ما تكبدته من تكاليف في إنتاج مسلسل "لن أعيش في جلباب أبي"، ولتميز هذا العمل، كما وافق على منح مطيع زايد منتج

مسلسل "فرط الرمان" مبلغ ثمانية آلاف جنيـه دون مبـرر، بالمخالفة لشروط التعاقد التي تقضي بعدم المطالبة بأي مبالغ إضافية بالزيادة عن قيمة التعاقد.وأيضا المخالفـة الحاديـة والعشرون؛ وهي أنه وافق على رفع قيمة التعاقد مع شـركة "سفنكس فيلم" (عادل حسني) إلى سبعمائة ألف جنيه نظيـر إنتاج فيلم "علينا العوض"، حال تعاقد المنتج عادل حسـني على إنتاجه نظير مبلـغ خمسـمائة ألـف جنيـه بتـاريخ ٢٧/ ٧/ ١٩٩٥، دون مبرر أو سبب قانوني.

المخالفة الثانية والعشرون؛ وهي أنه وافق على صرف مستحقات المنتج يوسف الهياتمي؛ وهي ٥٧٥ ألـف جنيـه، نظير تنفيذ فيلم "المراكبي" في ٢٧/ ١١/ ١٩٩٥، وتسـليمه خطاب الضمان، على الرغم من اعتراض لجنـة المشـاهدة علـى قبـول الفـيلم؛ لهبـوط مسـتوى السـيناريو فـي ١٥/ ٨/ ١٩٩٦، ورفضه هندسيا في ١٣/ ١١/ ١٩٩٦.

إن هذه المخالفات يدور بعضها حول رفع قيمة بعـض الأعمال دون موافقة لجان المنتج المنفذ، والـبعض الآخـر حول رفع قيمة الساعة الإنتاجية أو مكافأة المنـتج المنفـذ، أو رفع قيمة التعاقد ذاته، بالمخالفة لشروط العقد.

ويتبين من الاطلاع على الأوراق وتقرير لجنة الفحص المشكلة من الجهاز المركزي للمحاسبات لفحص أعمال المحال، وعقود المنتج المنفذ للأعمال محل المخالفات المشار إليها أن هذه الأعمال هي ما يلي:

- مسلسل "المتهم البريء"، وقد وافقت اللجنة الفرعية للمنتج المنفذ برئاسة ممدوح الليثي بتاريخ ٢/ ٣/ ١٩٩٦ على التعاقد مع مؤسسة "الشروق/ مطيع زايد" لتنفيذ هذا المسلسل.. بواقع ٦٠ ألف جنيه للساعة إنتاج، وبتاريخ ١١/ ٣/ ١٩٩٦ تم توقيع العقد مع المنتج المنفذ، ونص البند الثالث من العقد على أن القيمة الإجمالية لمقاولة تنفيذ العمل الفني المتفق عليه هي ٦٧٥٠٠٠ جنيه، مقابل عدد "١٥" حلقة، و"١١" ساعة، و"١٥" دقيقة.. على أساس أن الساعة بمبلغ ٦٠ ألف جنيه. وبتاريخ ١٠/ ٦/ ١٩٩٦؛ وافقت اللجنة الفرعية للمنتج المنفذ على الطلب المقدم من المنتج المنفذ للمسلسل المشار إليه برفع قيمة التعاقد إلى ٦٧ ألف جنيه للساعة؛ نظرا للجهد

المبذول، والنجوم المشتركين؛ حيث تمت الاسـتعانة بالفنانين عزت العلايلي وشيرين سيف النصر، بـدلاً من الفنانين نبيل الحلفاوي وسمية الألفي، وبناء على هذه الموافقة تم توقيع عقد آخر مع المنـتج المنفـذ بتاريخ ٤/ ٦/ ١٩٩٦، وتضمن البند الثالث من العقد النص على ما يأتي: "اتفق الطرفان على أن القيمـة الإجمالية لمقاولة تنفيذ العمل المتفـق عليـه؛ هـي مبلغ ٧٨٧٥٠ ج فقط، مقابل ١٥حلقة، على أسـاس الساعة بمبلغ ٧٠٠٠ جنيه.

- مسلسل "سنوات الغضب"، وقد وافقت اللجنة الفرعية للمنتج المنفـذ برئاسـة ممـدوح الليثـي (بتـاريخ ٢/ ٣/ ١٩٩٦) على التعاقد مع شركة "عرين فـيلم" لتنفيذ هذا المسلسل؛ بواقع ٦٠ ألف جنيـه للسـاعة إنتاج. وبتاريخ ٨/ ٨/ ١٩٩٦؛ أرسل رئيس إنتـاج الفيديو "فتحي عمار" كتابا إلى مدير عـام الوحـدات الماليـة بقطـاع الإنتـاج، يطلـب منـه التعاقـد مع السيد/ محفوظ المغازي، "شركة عرين فيلم" على مسلسل "سنوات الغضب" بواقـع ٧٠ ألـف جنيـه

للساعة.. وتم التعديل من ٦٠ ألف جنيه للساعة إلى ٧٠ ألف جنيه للسـاعة، لعـدد "٢٠" حلقـة، طبقًـا لتوجيهات السيد رئيس القطاع.

والثابت من الاطلاع على العقد الموقع مع شـركة "عرين فيلم" أنه وقع فعلاً بتاريخ ٧/ ٨/ ١٩٩٦، ونـص البند الثاني منه على أن القيمة الإجمالية لمقاولـة تنفيـذ العمل الفني مبلغ مليون وخمسين ألف جنيه، مقابل عـدد "٢٠" حلقة، "١٥" ساعة كاملة، على أساس الساعة بمبلغ ٧٠ ألف جنيه. وبتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٩٦ عرض علـى اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفذ برئاسة ممدوح الليثـي الطلب المقدم من شركة عرين فيلم، منتج مسلسل سنوات الغضب، والذي تلتمس فيه الشركة رفع قيمـة التعاقـد، وقررت اللجنة الموافقة على الآتي:

- رفع قيمة التعاقد مع شركة "عرين فيلم " لتنفيذ مسلسل "سـنوات الغضــب"، مــن ٦٠ ألــف جنيــه إلــى ٧٠ ألف جنيه للساعة إنتاج.

- تعديل مدة التعاقد الخاصة بالمسلسل من ١٥ ساعة إلى ١٩ ساعة؛ وذلك لحين الانتهاء من المونتـاج، وحسـب المدة الفعلية لحلقات المسلسل.

وبتاريخ ٢٦/ ١٢/ ١٩٩٦ تم توقيع عقد تكميلـي مع المنتج المنفذ للمسلسل بمبلغ ٢٨٠ ألف جنيه، مقابـل الحلقات الأربع الإضافية التـي وافقـت عليهـا اللجنـة الفرعية لنظام المنتج المنفذ بتـاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٩٦، على أساس أن للساعة ٧٠ ألف جنيه، وقد أثبت في أعلى الصفحة الأولي من العقد ما يلي: "عقد مكمل فرق مـدة التعاقد من ١٥ ساعة إلى ١٩ ساعة؛ طبقًـا لمحضـري اجتماع اللجنة الفرعية المنبثقة من اللجنة العليـا للمنـتج الفنـي (وصحتها المنـتج المنفـذ) بتـاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٩٦، و٥/ ١١/ ١٩٩٦، المعتمـدة مـن السيد/ نائب رئيس مجلس الأمناء في ١٠/ ١١/ ١٩٩٦".

والثابت للمحكمة من الاطلاع علـى محضـر اللجنـة الفرعية لنظام المنتج المنفذ أن موضوع مسلسـل "سـنوات الغضب" لم يعرض على هـذه اللجنـة بجلسـاتها المنعقـدة

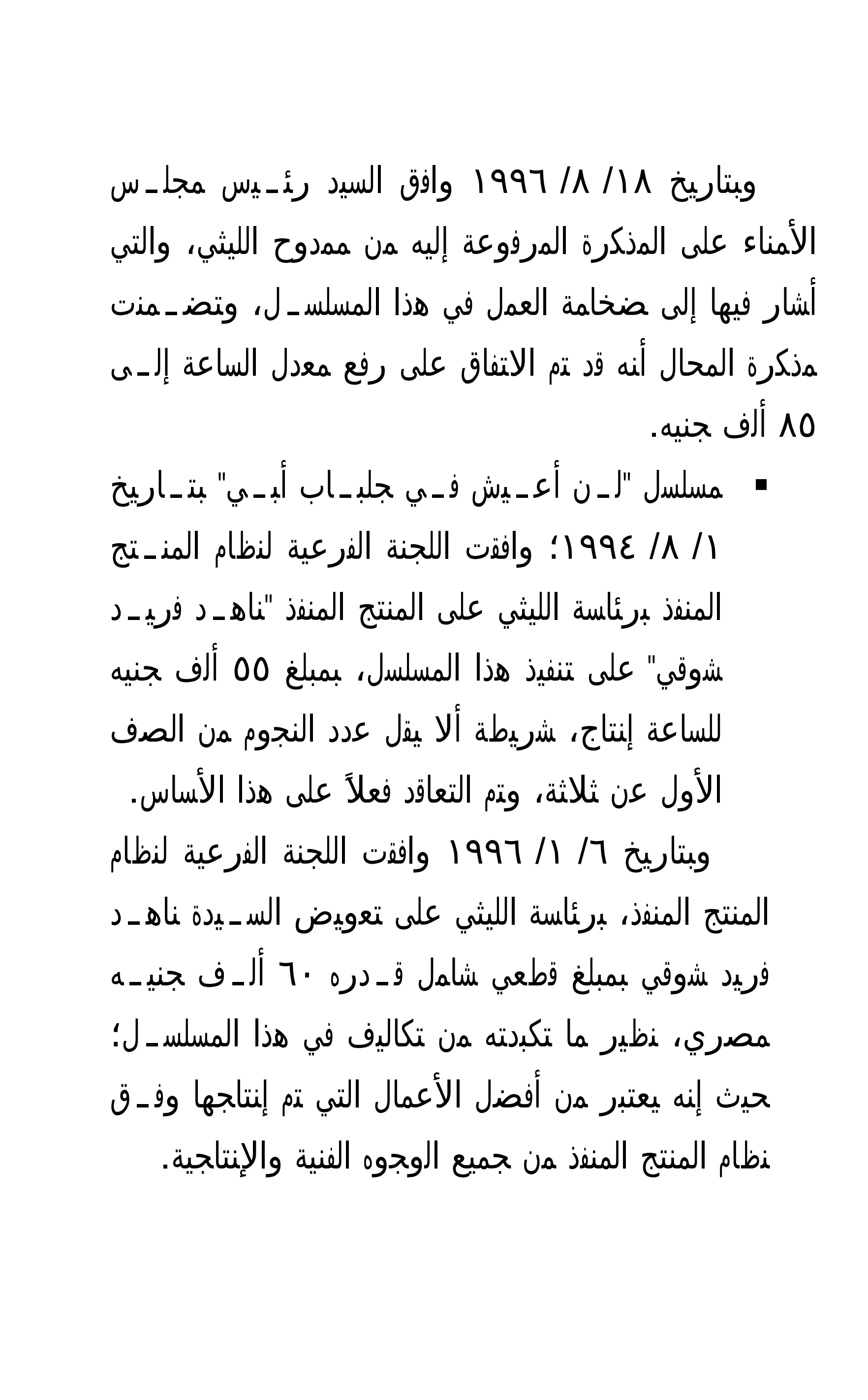
بتـاريخ ٥/ ١١/ ١٩٩٦؛ وإنمـا عـرض فقـط بجلسـة ٢٩/ ١٠/ ١٩٩٦، على النحو السالف بيانه.

- مسلسل "الدوائر المغلقة"، بتاريخ ٣١/ ١٢/ ١٩٩٥؛ تقدم محفوظ المغازي/ عرين فيلم إلى ممدوح الليثي بطلب لإنتاج هذا المسلسـل "٢٠ حلقـة"، وبتـاريخ ٢/ ٣/ ١٩٩٦ وافقت اللجنة الفرعية لنظـام المنـتج المنفذ برئاسة المحال على التعاقد مع شركة "عـرين فيلم" لتنفيذ مسلسل "سنوات الغضب ، بواقع ٦٠ ألف جنيه للساعة إنتاج. وبتـاريخ ٢٨/ ٥/ ١٩٩٦ تـم التعاقد مع الشركة على تنفيـذ المسلسـل.. وكـان المتعاقد كطرف أول هو المحال ممثلاً لاتحاد الإذاعة والتليفزيون.. ونص البند الثالث من العقد علـى أن القيمة الإجمالية لمقاولة تنفيذ العمل الفنـي المتفـق عليه؛ هي مليون وخمسمائة وسبعون ألـف جنيـه، مقابل عدد ٣٠ حلقة (٢٢ ساعة و ٣٠ دقيقة)، على أساس الساعة بمبلغ ٧٠ ألف جنيه.

وبتاريخ ١٠/ ٦/ ١٩٩٦ وافقت اللجنـة الفرعيـة لنظام المنتج المنفذ، برئاسة المحال على رفع قيمة التعاقد

مع شركة عرين فيلم ("محفوظ المغازي") المنتج المنفـذ لمسلسل "الدوائر المغلقة" إلى مبلغ ٧٠ ألف جنيه للساعة إنتاج؛ لعدد ٣٠ حلقة، بشرط أن تلتزم الشركة بالتعاقـد مع الفنانين المذكورين بعرض الشركة.

- مسلسل " الحاوي "؛ بتـاريخ ٢/ ٣/ ١٩٩٦ وافقـت اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفذ برئاسـة المحـال على التعاقد مع مؤسسة "الشروق" على تنفيذ مسلسل "الوطاويط"، والذي تغير اسمه بعد ذلك إلى الحـاوي كما يبين من الأوراق، بواقع ٧٠ ألف جنيه للسـاعة إنتاج. والثابت من الأوراق أنه تـم التعاقـد فعـلاً مع الشركة المنتجة على تنفيذ المسلسل بموجب عقد مؤرخ في ٢٢/ ٤/ ١٩٩٦ بمعدل ٧٠ ألـف جنيـه للساعة إنتاج، على أسـاس ٢١ حلقـة فـي مـدة ١٥ ساعة. وبتاريخ ١٠/ ٦/ ١٩٩٦ وافقت اللجنـة الفرعية لنظام المنتج المنفذ برئاسة المحال على رفع قيمة التعاقد مع مؤسسة الشـروق ("مطيـع زايـد") المنتج المنفذ لمسلسل "الحاوي" إلى ٧٥ ألف جنيـه للساعة إنتاج، شاملة تكاليف السفر الخارجي.



وبتاريخ ١٨/ ٨/ ١٩٩٦ وافق السيد رئيس مجلس الأمناء على المذكرة المرفوعة إليه من ممدوح الليثي، والتي أشار فيها إلى ضخامة العمل في هذا المسلسل، وتضمنت مذكرة المحال أنه قد تم الاتفاق على رفع معدل الساعة إلى ٨٥ ألف جنيه.

- مسلسل "لن أعيش في جلباب أبي" بتاريخ ١/ ٨/ ١٩٩٤؛ وافقت اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفذ برئاسة الليثي على المنتج المنفذ "ناهد فريد شوقي" على تنفيذ هذا المسلسل، بمبلغ ٥٥ ألف جنيه للساعة إنتاج، شريطة ألا يقل عدد النجوم من الصف الأول عن ثلاثة، وتم التعاقد فعلاً على هذا الأساس.

وبتاريخ ٦/ ١/ ١٩٩٦ وافقت اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفذ، برئاسة الليثي على تعويض السيدة ناهد فريد شوقي بمبلغ قطعي شامل قدره ٦٠ ألف جنيه مصري، نظير ما تكبدته من تكاليف في هذا المسلسل؛ حيث إنه يعتبر من أفضل الأعمال التي تم إنتاجها وفق نظام المنتج المنفذ من جميع الوجوه الفنية والإنتاجية.

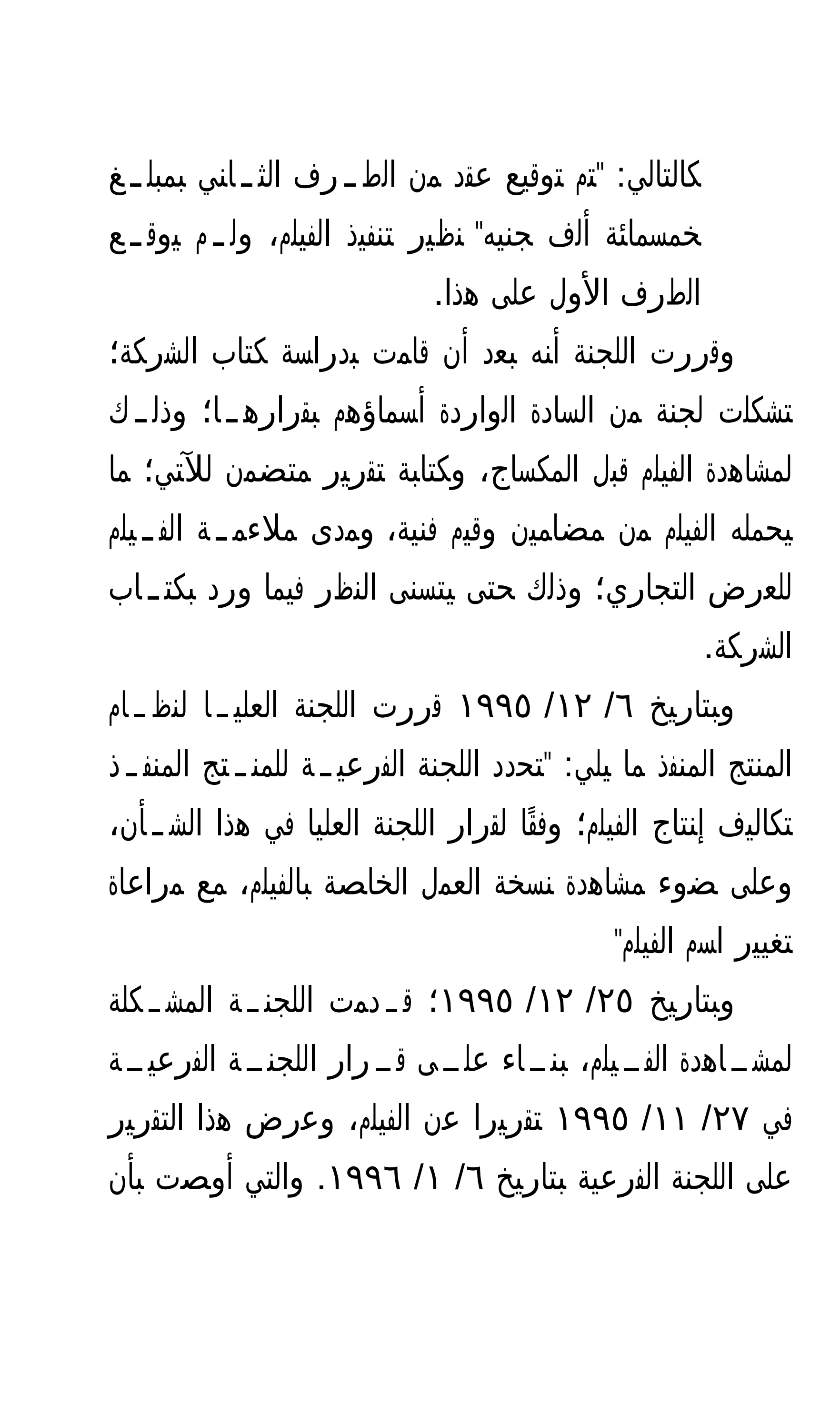
- مسلسل " فرط الرمـان"؛ بتـاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٥ وافقت اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفـذ برئاسـة المحال على التعاقد مع مؤسسة الشـروق للإنتـاج الإعلامـي علـى تنفيـذ هـذا المسلسـل بواقـع ٦٠ ألف جنيه للساعة، وبتاريخ ٤/ ١٢/ ١٩٩٥؛ تم توقيع العقد مع الشركة المنتجة للمسلسل، ونص البند الثالث من العقد على أن القيمة الإجمالية لمقاولة تنفيذ العمل الفني المتفق عليه مبلغ ٨٨٠ ألف جنيه، مقابل عشرين حلقة ("١٦ ساعة") على أساس الساعة بمبلغ ٥٥ ألف جنيه، ووافقت اللجنة العليا للمنـتج المنفـذ على هذا المسلسل بتاريخ ٦/ ١٢/ ١٩٩٥.
- مسلسل " أهل القمة ": بتاريخ ٢/ ٣/ ١٩٩٦، وافقت اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفذ برئاسة الليثي على التعاقد مع شركة "عرب سـكرين" لتنفيـذ مسلسـل "أهل القمة " بواقع ٦٥ ألف جنيه للساعة إنتاج؛ وذلك في ضوء التعديلات الأخيرة في تكلفة إنتاج السـاعة التي أقرتها اللجنة العليا للإشراف على الإنتاج، علما بأنه سبق الموافقة على إنتـاج المسلسـل بموجـب

محضر اجتماع اللجنة العليا لنظام المنتج المنفذ في ٤/ ١/ ١٩٩٥، ولم يتم التعاقد مع الشركة حتى تاريخه، بالإضافة إلى أن قصة المسلسل للكاتب الكبير نجيب محفوظ، ويقوم ببطولته عناصر فنية متميزة؛ وفقًا للعرض المقدم من الشركة. وبالرجوع إلى محضر اجتماع اللجنة العليا لنظام المنتج المنفذ المنعقدة بتاريخ ٤/ ١/ ١٩٩٥؛ وهو الاجتماع الثالث لهذه اللجنة، تبين عدم عرض طلب إنتاج هذا المسلسل على اللجنة، وعدم صدور قرار منها بشأنه.

كما يبين من الاطلاع على سائر محاضر جلسات هذه اللجنة المودعة ملف الدعوى والبالغ عددها سبعة اجتماعات آخرها بتاريخ ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٦؛ أنه لم يعرض على اللجنة طلب إنتاج هذا المسلسل، ولم تصدر أي موافقة منها بشأنه، وبتاريخ ١٠/ ٦/ ١٩٩٦ وافقت اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفذ برئاسة المحال على رفع قيمة التعاقد مع شركة عرب سكرين لتنفيذ مسلسل "أهل القمة"؛ لتكون بواقع ٧٠ ألف جنيه للساعة إنتاج،

وذلك بشرط أن تقدم الشركة صورة من تعاقده مع الفنان ممدوح عبد العليم.

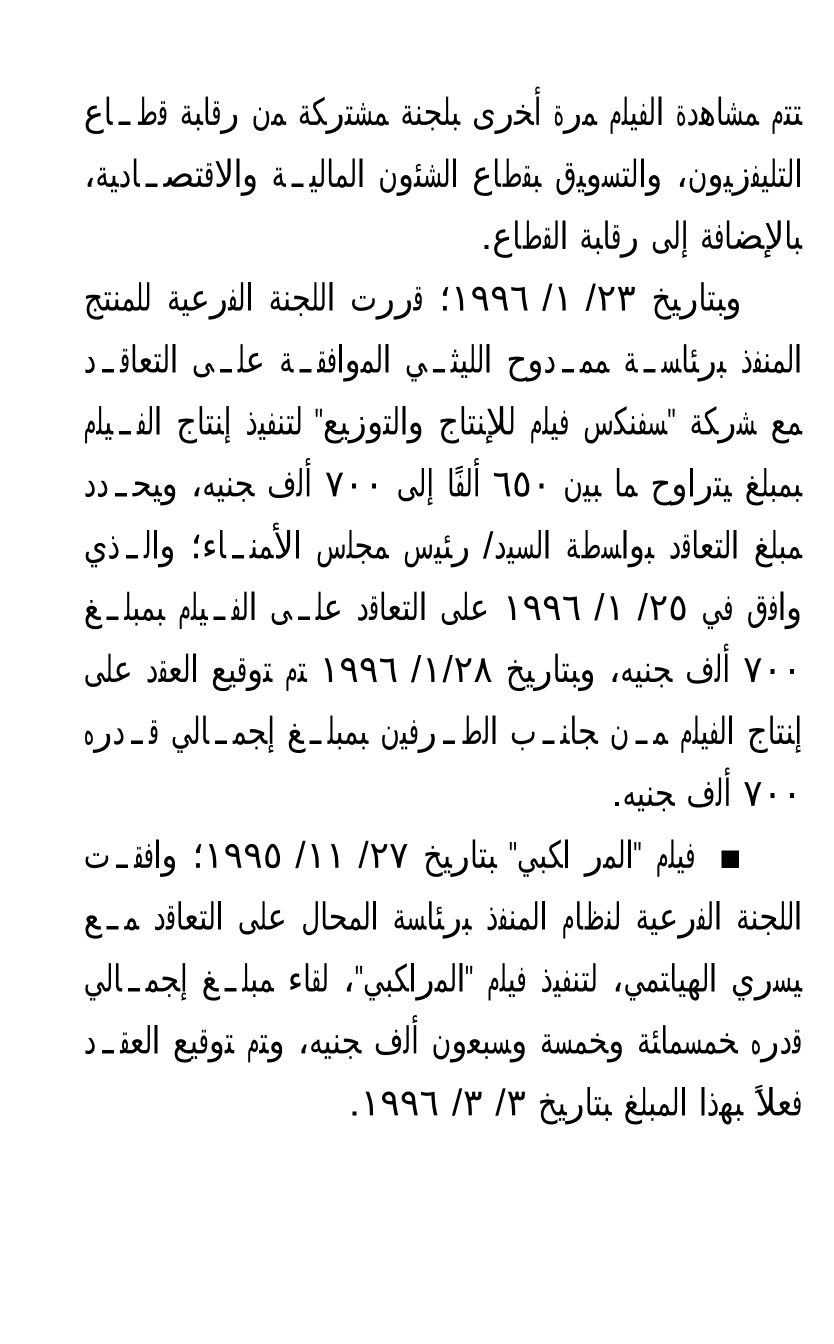
- فيلم "علينا العوض": بتاريخ ١٠/ ١/ ١٩٩٥؛ وافقت اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفـذ التـي يرأسـها المحال على التعاقد مع شركة سفنكس فـيلم/ عـادل حسني على تنفيذ فيلم "علينا العوض"؛ وذلـك وفـق ميزانية تقديرية إجماليـة مـن ٤٠٠ ألـف جنيـه إلى ٥٥٠ ألف جنيه؛ وذلك طبقًا لنوعيته من حيـث النجوم، ومواقع التصـوير والـديكورات، وغيرهـا من العناصر الفنية اللازمة، وبتاريخ ٥/ ٢/ ١٩٩٥ وافقت اللجنة العليا لنظام المنتج المنفذ على التعاقـد على الفيلم مع تعديله؛ وفقًا للرؤيـة التـي ارتأتهـا اللجنة، وبتـاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٥ عـرض علـى اللجنة الفرعية لنظام المنتج المنفذ كتـاب الشـركة المنتجة للفيلم، والذي تضمن أنه يتم الانتهـاء مـن الفيلم خلال ستة أشهر من تاريخه ١٢/ ٨/ ١٩٩٥، وأن التكاليف الإجمالية للفيلم مبلغ ٨٠٠ ألف جنيـه، وقد وردت ملحوظة بمحضر اجتماع اللجنة نصـها


كالتالي: "تم توقيع عقد من الطـرف الثـاني بمبلـغ خمسمائة ألف جنيه" نظير تنفيذ الفيلم، ولـم يوقـع الطرف الأول على هذا.

وقررت اللجنة أنه بعد أن قامت بدراسة كتاب الشركة؛ تشكلت لجنة من السادة الواردة أسماؤهم بقرارهـا؛ وذلـك لمشاهدة الفيلم قبل المكساج، وكتابة تقرير متضمن للآتي؛ ما يحمله الفيلم من مضامين وقيم فنية، ومدى ملاءمـة الفـيلم للعرض التجاري؛ وذلك حتى يتسنى النظر فيما ورد بكتـاب الشركة.

وبتاريخ ٦/ ١٢/ ١٩٩٥ قررت اللجنة العليـا لنظـام المنتج المنفذ ما يلي: "تحدد اللجنة الفرعيـة للمنـتج المنفـذ تكاليف إنتاج الفيلم؛ وفقًا لقرار اللجنة العليا في هذا الشـأن، وعلى ضوء مشاهدة نسخة العمل الخاصة بالفيلم، مع مراعاة تغيير اسم الفيلم"

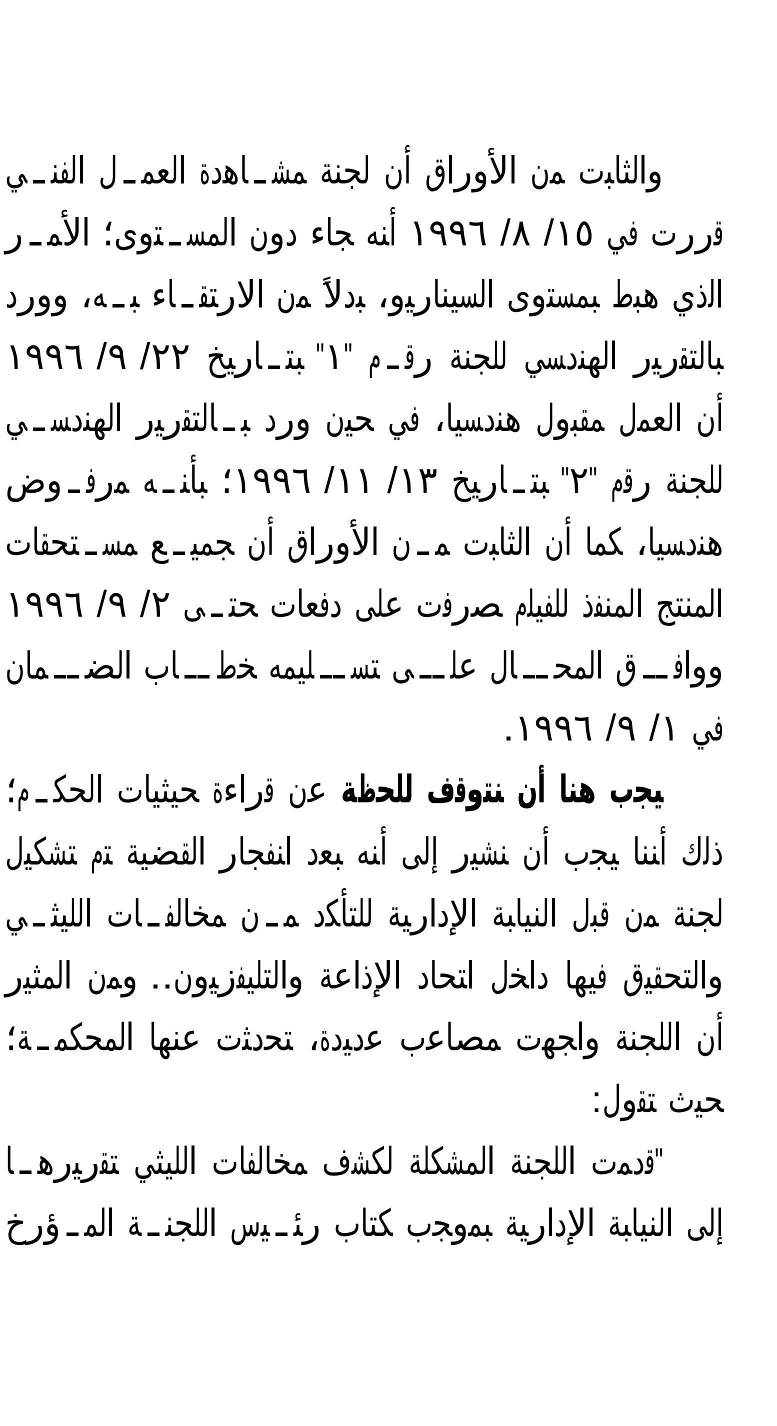
وبتاريخ ٢٥/ ١٢/ ١٩٩٥؛ قـدمت اللجنـة المشـكلة لمشـاهدة الفـيلم، بنـاء علـى قـرار اللجنـة الفرعيـة في ٢٧/ ١١/ ١٩٩٥ تقريرا عن الفيلم، وعرض هذا التقرير على اللجنة الفرعية بتاريخ ٦/ ١/ ١٩٩٦. والتي أوصت بأن



تتم مشاهدة الفيلم مرة أخرى بلجنة مشتركة من رقابة قطاع التليفزيون، والتسويق بقطاع الشئون المالية والاقتصادية، بالإضافة إلى رقابة القطاع.

وبتاريخ ٢٣/ ١/ ١٩٩٦؛ قررت اللجنة الفرعية للمنتج المنفذ برئاسة ممدوح الليثي الموافقة على التعاقد مع شركة "سفنكس فيلم للإنتاج والتوزيع" لتنفيذ إنتاج الفيلم بمبلغ يتراوح ما بين ٦٥٠ ألفًا إلى ٧٠٠ ألف جنيه، ويحدد مبلغ التعاقد بواسطة السيد/ رئيس مجلس الأمناء؛ والذي وافق في ٢٥/ ١/ ١٩٩٦ على التعاقد على الفيلم بمبلغ ٧٠٠ ألف جنيه، وبتاريخ ٢٨/١/ ١٩٩٦ تم توقيع العقد على إنتاج الفيلم من جانب الطرفين بمبلغ إجمالي قدره ٧٠٠ ألف جنيه.

■ فيلم "المراكبي" بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٥؛ وافقت اللجنة الفرعية لنظام المنفذ برئاسة المحال على التعاقد مع يسري الهياتمي، لتنفيذ فيلم "المراكبي"، لقاء مبلغ إجمالي قدره خمسمائة وخمسة وسبعون ألف جنيه، وتم توقيع العقد فعلاً بهذا المبلغ بتاريخ ٣/ ٣/ ١٩٩٦.



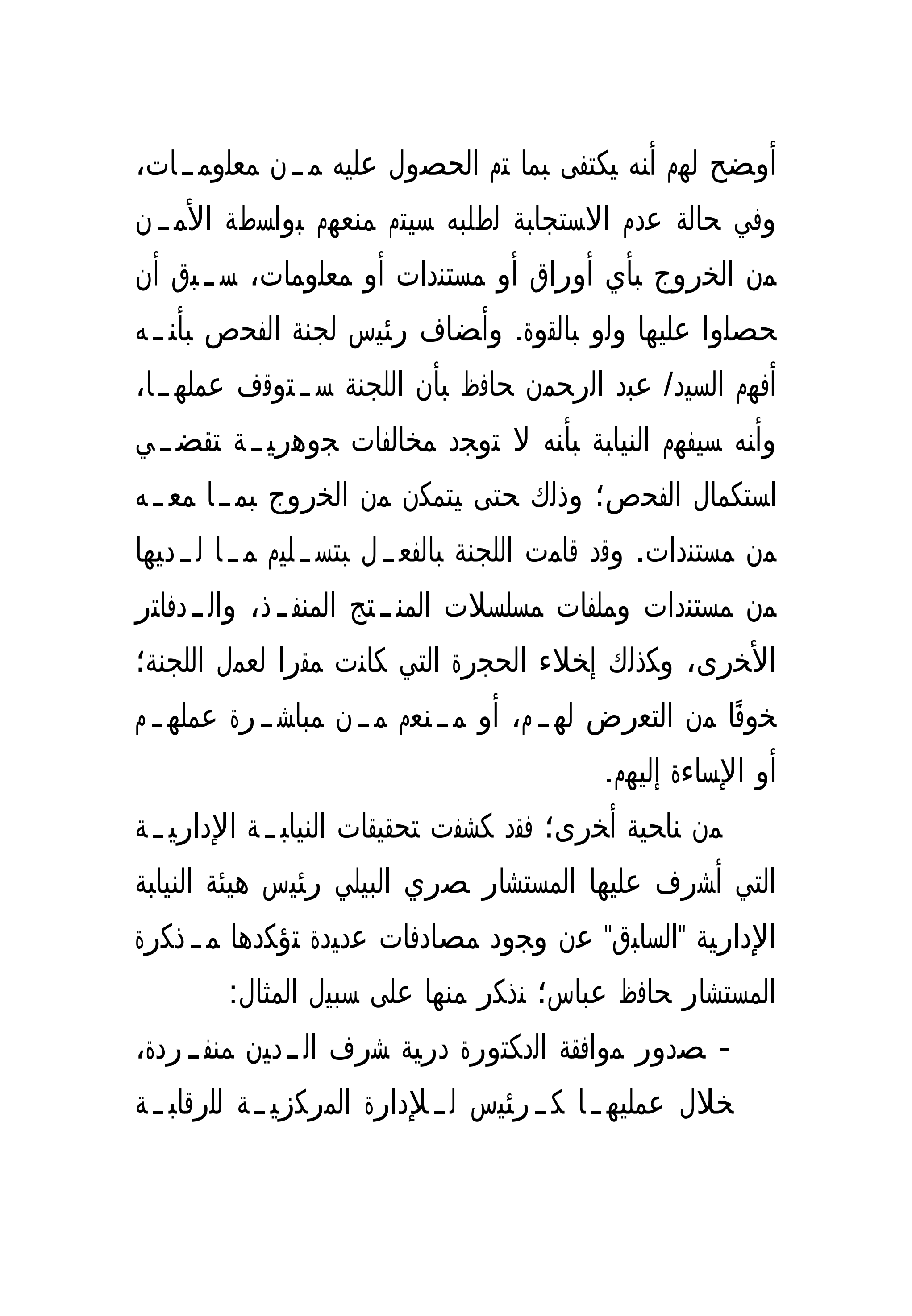
والثابت من الأوراق أن لجنة مشـاهدة العمـل الفنـي قررت في ١٥/ ٨/ ١٩٩٦ أنه جاء دون المسـتوى؛ الأمـر الذي هبط بمستوى السيناريو، بدلاً من الارتقـاء بـه، وورد بالتقرير الهندسي للجنة رقـم "١" بتـاريخ ٢٢/ ٩/ ١٩٩٦ أن العمل مقبول هندسيا، في حين ورد بـالتقرير الهندسـي للجنة رقم "٢" بتـاريخ ١٣/ ١١/ ١٩٩٦؛ بأنـه مرفـوض هندسيا، كما أن الثابت مـن الأوراق أن جميـع مسـتحقات المنتج المنفذ للفيلم صرفت على دفعات حتـى ٢/ ٩/ ١٩٩٦ ووافــق المحــال علــى تســليمه خطــاب الضــمان في ١/ ٩/ ١٩٩٦.

يجب هنا أن نتوقف للحظة عن قراءة حيثيات الحكـم؛ ذلك أننا يجب أن نشير إلى أنه بعد انفجار القضية تم تشكيل لجنة من قبل النيابة الإدارية للتأكد مـن مخالفـات الليثـي والتحقيق فيها داخل اتحاد الإذاعة والتليفزيون.. ومن المثير أن اللجنة واجهت مصاعب عديدة، تحدثت عنها المحكمـة؛ حيث تقول:

"قدمت اللجنة المشكلة لكشف مخالفات الليثي تقريرهـا إلى النيابة الإدارية بموجب كتاب رئـيس اللجنـة المـؤرخ

في ٢١/ ١/ ١٩٩٧، والذي تضمن أنه تم إجـراء الفحـص المذكور، وإعداد التقرير خلال الفترة مـن ١٠/ ١٢/ ١٩٩٦ حتى ٢٠/ ١/ ١٩٩٧.

وأشار رئيس اللجنة إلى أنه خـلال الفتـرة الأخيـرة من الفحص حجبت عن اللجنة البيانات التـي سـبق طلبهـا لاستكمال بعض النقاط المطلوبة. وكان رئيس اللجنة قد توجه إلى النيابة الإدارية بتاريخ ١٥/ ١/ ١٩٩٧، وأثبت المحقـق حضوره، وما ذكره من أنه تم استدعاؤه وجميـع أعضـاء اللجنة لمعرفة السيد رئيس قطاع الإنتاج يحيي العلمي؛ وذلك بتـاريخ ١٤/ ١/ ١٩٩٧.. حيـث طلـب مـنهم مقابلـة السيد/ عبد الرحمن حافظ، ورئيس أمنـاء اتحـاد الإذاعـة والتليفزيون؛ والذي لم يكن موجودا في ذلك اليوم، وقد تقابلوا معه صباح اليوم التـالي ١٥/ ١/ ١٩٩٧.. ولـدى مقابلتـه مع أعضاء اللجنة طلب منهم -بناء على ما ورد إليـه مـن تعليمات من السيد وزير الإعلام- إنهاء عمل لجنة الجهـاز، وتسليم ما لديهم من ملفات ودفاتر ومستندات أخرى، وإخلاء الحجرة السابق تخصيصها لعمل اللجنة؛ وذلك حتى لا يـتم تنفيذ ذلك بمعرفة الأمن. وأن السيد/ عبد الـرحمن حـافظ،



أوضح لهم أنه يكتفى بما تم الحصول عليه من معلومات، وفي حالة عدم الاستجابة لطلبه سيتم منعهم بواسطة الأمن من الخروج بأي أوراق أو مستندات أو معلومات، سبق أن حصلوا عليها ولو بالقوة. وأضاف رئيس لجنة الفحص بأنه أفهم السيد/ عبد الرحمن حافظ بأن اللجنة ستوقف عملها، وأنه سيفهم النيابة بأنه لا توجد مخالفات جوهرية تقضي استكمال الفحص؛ وذلك حتى يتمكن من الخروج بما معه من مستندات. وقد قامت اللجنة بالفعل بتسليم ما لديها من مستندات وملفات مسلسلات المنتج المنفذ، والدفاتر الأخرى، وكذلك إخلاء الحجرة التي كانت مقرا لعمل اللجنة؛ خوفًا من التعرض لهم، أو منعهم من مباشرة عملهم أو الإساءة إليهم.

من ناحية أخرى؛ فقد كشفت تحقيقات النيابة الإدارية التي أشرف عليها المستشار صري البيلي رئيس هيئة النيابة الإدارية "السابق" عن وجود مصادفات عديدة تؤكدها مذكرة المستشار حافظ عباس؛ نذكر منها على سبيل المثال:

- صدور موافقة الدكتورة درية شرف الدين منفردة، خلال عمليها كرئيس للإدارة المركزية للرقابة

على المصنفات الفنية؛ على مسلسل " شقة الحرية"، رغم رفضه رقابيا من ثلاثة رقباء، وموافقة الرابع بتحفظات، فضلاً عن صدور موافقة الرقابة بعد مراجعة القصة والسيناريو لعدد ٣٠ ورقة من مدير عام الرقابة، ومديرة إدارة الرقابة، ومنها كرئيس للإدارة المركزية للرقابة على المصنفات الفنية في يوم واحد؛ هو أول أغسطس عام ١٩٩٥، وهو ما يتعذر تنفيذه عملاً، ويستحيل القيام به عقلاً، ولاسيما أن ذلك لم يسبق حدوثه بإدارة الرقابة على المصنفات الفنية من قبل.

- نقل السيدة الدكتورة/ درية شرف الدين في ١/ ٨/ ١٩٩٦ إلى قطاع الإنتاج، عقب استلامها لعملها كمذيعة بالتليفزيون في ١/ ٤/ ١٩٩٦، بعد إلغاء ندبها -بناء على طلبها- من الإدارة المركزية للرقابة على المصنفات الفنية، وترقيتها إلى رئيس إدارة مركزية، وتقلدها لمنصب رئيس الإدارة المركزية للتصوير والمونتاج والرسوم المتحركة بالقطاع، بعد أقل من عام على إجازة تصوير مسلسل

"شقة الحرية"، الذي يسيء إلى القيادة والمرأة المصرية.

- تغيب الممثلة شيرين سيف النصر عن العمل بمسلسل "السيرة الهلالية"، بعد انتهاء تصوير مشاهد يوم ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٦، وعقب زيارة أحد أثرياء دول الخليج لأستوديوهات قطاع الإنتاج بصحبة رئيس القطاع، والتقائه بها دون سواها من الممثلات العاملات بهذا المسلسل.

- تفرغ معظم العاملين بقطاع الإنتاج من الاشتراك في أعمال القطاع؛ للعمل في مسلسل "شقة الحرية"، إنتاج شركة الليثي فيلم.

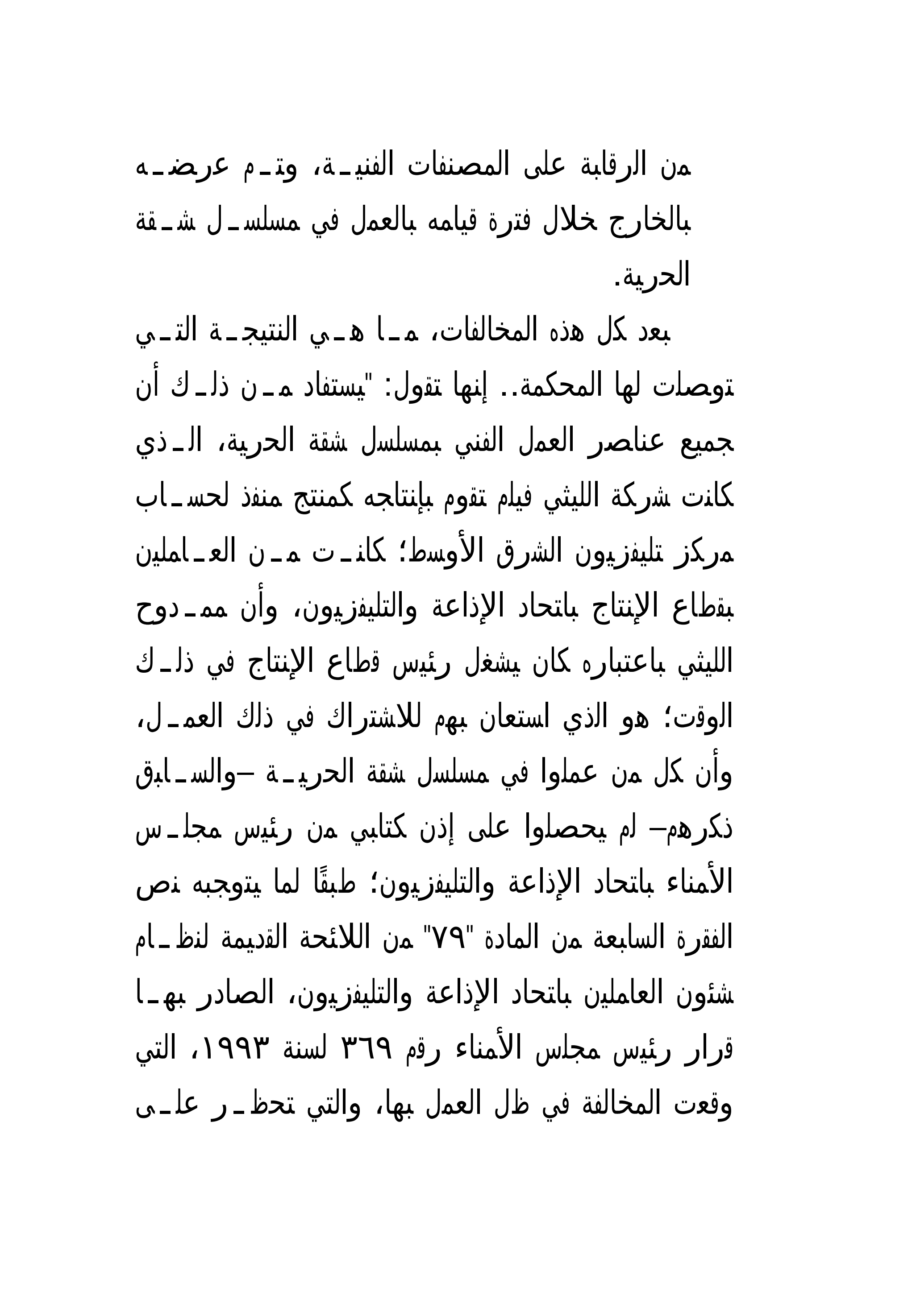
- حصول السيد/ ممدوح الليثي على سيارة مرسيدس ٢٠٠ E موديل ١٩٩٦ كهدية من الثري العربي، والتي يصل ثمنها إلى ٤٨٢ ألف جنيه عقب زيارته لأستوديوهات قطاع الإنتاج بصحبة رئيس القطاع، واستلامها من الشركة الوطنية للسيارات يوم ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٦، عقب الإفراج عنها جمركيا يوم ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٦، وترخيصها بلوحات معدنية

رقم ٤٢٧٢٠٠ ملاكي القاهرة. وقد سـبق ذلـك تغيـب الممثلة شيرين سيف النصر، وأعقب ذلك إهداؤها سيارة أخرى نوعها BMW طراز ٣٢٠، مشتراة من شـركة أبو الفتوح للسيارات، وتم ترخيصـها بمـرور الجيـزة بتـاريخ ٢٥/ ١١/ ١٩٩٦، وتحمـل لوحـات معدنيـة رقم ١٠٧٣٣ ملاكي جيزة.

- ترشــيح الســيد/ رئــيس القطــاع للســيدين؛ سيد أحمد أبو السعود مدير وحدة إنتاج فني، وقاسـم علي دياب جبر مدير الشئون القانونيـة؛ لحضـور الدورة التدريبية للترقي لوظائف مدير عام الجهـاز المركزي للتنظيم والإدارة، رغـم عـدم أقـدميتهما أو أحقيتهما؛ وذلك عقب تقديم الأول لمذكرة انقطاع الممثلة شيرين سيف النصر عن العمـل بالمسلسـل في ١٢/ ١١/ ١٩٩٦، وقيام الثاني بإجراء تحقيـق في ذات اليوم، والاستماع لأقوال الأول دون سـواه، وإعداد مذكرته، على الرغم من ثبوت عدم تحريـر المــذكرة، أو البــدء فــي إجــراءات التحقيــق إلا في ١/ ١٢/ ١٩٩٦، عقب نشر المقال الصـحفي

المشار إليه، فضلاً عن عدم إخطار السيدين؛ صلاح شـلبي، وفتحـي عمـار بهـذا الانقطـاع إلا في ١/ ١٢/ ١٩٩٦، بالإضافة إلى عدم الإشـارة إلى انقطاعها بتقارير الإنتـاج مـن ٢٠/ ١٠/ ٩٦ وحتى ١/ ١٢/ ٩٦.

- إسناد رئيس القطـاع أعمـال "سـنوات الغضـب" و" الدوائر المغلقة "، و" قليل مـن الحـب"؛ للمنـتج المنفذ محفوظ المغازي صاحب مؤسسة "عرين فيلم" بالزمالك في ٢/ ٣/ ١٩٩٦، عقـب الانتهـاء مـن تصـوير مسلسـل "شـقة الحريـة" بأسـتوديوهات "عرين فيلم" في ١/ ٢/ ١٩٩٦، والذي تم بموجـب اتفاقات ودية، دون تحرير عقد بقيمة ومدة التصوير، على الرغم من عدم سابقة تعامله مع قطاع الإنتاج، رغم ممارسته لأعمال الإنتاج السينمائي منذ عشرين عاما، وتوافر السيولة الماديـة، وأجهـزة ومعـدات التصوير الحديثة لديهم.
- تبين أن شركة الليثي فيلم هي المسئولة عن تصـوير المسلسل للخارج، دون الحصـول علـى تـرخيص



من الرقابة على المصنفات الفنيـة، وتـم عرضـه بالخارج خلال فترة قيامه بالعمل في مسلسـل شـقة الحرية.

بعد كل هذه المخالفات، مـا هـي النتيجـة التـي توصلت لها المحكمة.. إنها تقول: "يستفاد مـن ذلـك أن جميع عناصر العمل الفني بمسلسل شقة الحرية، الـذي كانت شركة الليثي فيلم تقوم بإنتاجه كمنتج منفذ لحسـاب مركز تليفزيون الشرق الأوسط؛ كانـت مـن العـاملين بقطاع الإنتاج باتحاد الإذاعة والتليفزيون، وأن ممـدوح الليثي باعتباره كان يشغل رئيس قطاع الإنتاج في ذلـك الوقت؛ هو الذي استعان بهم للاشتراك في ذلك العمـل، وأن كل من عملوا في مسلسل شقة الحريـة –والسـابق ذكرهم– لم يحصلوا على إذن كتابي من رئيس مجلـس الأمناء باتحاد الإذاعة والتليفزيون؛ طبقًا لما يتوجبه نص الفقرة السابعة من المادة "٧٩" من اللائحة القديمة لنظـام شئون العاملين باتحاد الإذاعة والتليفزيون، الصادر بهـا قرار رئيس مجلس الأمناء رقم ٣٦٩ لسنة ١٩٩٣، التي وقعت المخالفة في ظل العمل بها، والتي تحظـر علـى

العامل بالذات أو بالوساطة أن يـزاول أي عمـل فنـي خارج عمله بالاتحاد، يدخل في نطاق أعمـال وظيفتـه؛ إلا بعد الحصول على إذن كتابي من رئيسـي مجلـس الأمناء.. ومن ثم فإنه يكون قد ثبت بيقين الشق الأول من المخالفة المنسوبة إلى ممدوح الليثي؛ وهي أنـه اسـتغل وظيفته كرئيس لقطاع الإنتاج في استخدام عناصر العمل من الفنيين العاملين بالقطاع، للعمل بمسلسل شقة الحرية إنتاج شـركة الليثـي فـيلم "كمنـتج منفـذ"، لحسـاب تليفزيون .M. B. C، دون حصول أي منهم علـى إذن كتابي من رئيس مجلس الأمناء. وبهذه المثابـة يتعـين مجازاته تأديبيا.

يستفاد من ذلك، وحسبما ورد بأقوال الشاهدين؛ أمـين المليجي، وأشرف موسى، اللذين تطمـئن المحكمـة علـى أقوالهما؛ أن الليثي كان يكلف الشاهدين سالفي الذكر، واللذين كانا يعملان تحت رئاسته بقطاع الإنتاج بنقل ونسخ أشـرطة الأعمال الفنية من مسلسلات وأفلام وحفلات وسهرات؛ على أشرطة .V. H. S، مستخدما الآلات والمعـدات والأجهـزة المملوكة للاتحاد في غير الأعمال المخصصة لها.

وكان نقل هذه الشرائط يتم في خلال شهر رمضان، أو عقب الحفلات أو المناسبات بصفة عامة، والمحكمة تطمـئن إلى أن الليثي كان يستخدم هذه الشرائط لأغراض شخصـية؛ لأنه هو الذي كان يكلف الشاهدين، واللذين كانا يعملان تحت رئاسته بنسخها ويتسلمها منهما شخصيا، دون أن يذكر فـي الاستمارات المعدة لاستعارة هذه الشرائط، والمعتمـدة منـه شخصيا سبب استعارتها، والجهة المستعيرة؛ طبقًا لمـا هـو متبع عند استعارة الأعمال الفنية من المكتبة، ولأن الشـرائط المنقول عليها الأعمال هي مـن نـوع .V. H. S التـي لا تستخدم إطلاقًا في اتحـاد الإذاعـة والتليفزيـون، ولكـون القطاعات الأخرى بهذا الاتحاد غير قطاع الإنتاج كانت تقوم بنقل ما تريده من النسخ الأصلية، بعد استعارتها بمعرفتهـا إن كانت في حاجة إليها، وكانت تـذكر فـي الاسـتمارات الخاصة بالاستعارة سبب الاستعارة، والجهـة المسـتعيرة، وموافقة المسئول عن استعارة الأعمال الفنية لنقلهـا، ولأنـه لم يتم نقل أي شريط خلال شهر رمضان عام ١٩٩٧؛ إثـر وقف الليثي احتياطيا عن عمله، وتولي مسئول آخر رئاسـة قطاع الإنتاج؛ بما يعني أن استعارة الشرائط خـلال شـهر

رمضان أثناء تولي الليثي مسئولية القطاع؛ كانت تتم لأسباب لا دخل لها بالعمل الرسمي، فضلاً عن عدم وجـود سـجل منتظم بقطاع الإنتاج بين الجهة التي تطلب نقـل الشـرائط، وأسباب الطلب، والنسخ المطلوبة.

وبهذه المثابة فإن هذه المخالفة التـي أسـندتها النيابـة الإدارية إلى ممدوح الليثي ثابتة في حقه، ويجـب مجازاتـه تأديبيا عنها.

عند هذه النقطة تنتقـل المحكمـة للتحقيـق القضـائي في نقطة أخرى، وهي أن ممدوح الليثي كان يملـك أنشـطة تجارية؛ وهو يعمل في وظيفته الحكومية.

تقول المحكمة: أما عن اشتراك الليثي في تأسيس شركة توصية باسم "الليثـي فـيلم" كشـريك متضـامن بتـاريخ ١/ ١/ ١٩٧٥، تعمل في ذات نشاط الجهة التي يعمـل بهـا باتحاد الإذاعة والتليفزيون؛ وهو إنتـاج وتوزيـع الأفـلام العربية والأجنبية، وزاولت الشركة الأعمال الفنية لحسـاب بعض المحطات الفضائية مثل M. B. C.؛ وهي من المراكز الإعلامية المنافسة، بالمخالفة لأحكام لائحة نظـام العـاملين بالاتحاد؛ فإنه تبين من الاطلاع على كتاب مصلحة التسجيل

التجاري مكتب سجل تجاري القاهرة رقم "١" المؤرخ ١/ ١/ ١٩٩٧، والمرفقات الملحقة به؛ إنه بموجب عقد مؤرخ أول يناير سنة ١٩٧٥، ومسجل بالقلم التجاري بمحكمة جنوب القاهرة الابتدائية تحت رقم ٦١ شركات في ٢٥/ ١/ ١٩٧٥، تكونت شركة توصية بسيطة باسم شركة "الليثي فيلم".

والغرض من هذه الشركة؛ هو إنتاج الأفلام السينمائية الناطقة باللغة العربية وتوزيعها، واستيراد وتوزيع الأفلام السينمائية الأجنبية، وإدارة الشركة وحق التوقيع عنها للشريك المتضامن ممدوح فؤاد الليثي. وتمت إضافة نشاط جديد إلى الغرض من تكوين الشركة ليتضمن نشاط إنشاء فنادق ومحلات عامة وسياحية وإدارتها.

وبتاريخ ٤/ ١٠/ ١٩٨٠؛ تم تعديل آخر لعقد الشركة تضمن إضافة أغراض جديدة لنشاط الشركة؛ وهو نشاط:

أ- إنشاء وإدارة واستغلال محلات كوافير وماكياج وتجميل وتزيين بجميع أنواعها.

ب- الاتجار في الحلوى والمأكولات والمواد الغذائية بجميع أنواعها، واللوازم والأدوات

الطبية التي يستعملها المرضى أو تستخدم في علاجهم.

وبتاريخ ١/ ٩/ ١٩٩٣، تم تعديل عقد الشركة بين كل من:

١- ممدوح فؤاد الليثي – شريك متضامن.

٢- عمرو ممدوح فؤاد الليثي – شريك متضامن.

٣- ليلى أمين عبد المجيد الديدي – شريكة موصية.

بموجب هذا التعديل خرج من الشركة الطرف الأول "ممدوح فؤاد الليثي"، واستمرت الشركة قائمة بين الطرفين الثاني عمرو ممدوح فؤاد الليثي (كشريك متضامن)، والثالثة ليلى أمين عبد المجيد الديدي (كشريكة موصية). وحق إدارة الشركة والتوقيع عنها موكلان إلى الشريك المتضامن عمرو ممدوح فؤاد الليثي منفردا.

ولقد قام ممدوح الليثي بمزاولة أعمال تجارية في محلين افتتحهما تحت مظلة الشركة المشار إليها باسم تجاري "ثري كورنرز" بناحيتي الزمالك والميرغني، ولم يقدم إخطار مزاولة عنهما؛ بقصد التهرب من أداء الضرائب المستحقة عن هذا النشاط، بالمخالفة لأحكام لائحة نظام

العاملين بالاتحاد، وقانون الضرائب على الدخل؛ طبقًـا لمـا جاء بتقرير مكافحة التهرب الضريبي.

والثابـت مـن كتـاب رئـيس مصـلحة الضـرائب رقم٤٢، بتـاريخ ٢٤/ ٢/ ١٩٩٧، والموجـه إلـى النيابـة الإدارية؛ أن ممدوح فؤاد الليثـي ("الليثـي") زاول نشـاطه التجاري تحت مسمى "ثرى كورنرز"، ونشاط تأجير بالجدك لشركة "جولدي للتجارة والتوزيع"، وأنه زاول هذه الأنشـطة من سـنة ١٩٨٥ حتـى ١٠/ ٣/ ١٩٩٣ عـن التجـاري، ومن ١٠/ ٣/ ١٩٩٣ عن التأجير بالجـدك. ولـم يخطـر مصلحة الضرائب عن هذه الأنشطة.

كما جاء بكتاب رئيس مصلحة الضـرائب أن زوجـة المحال السيدة ليلى أمين عبد المجيد الديدي لم تخطر مصلحة الضرائب عن نشاطها التجاري عن تجارة ملابـس جـاهزة بمحـل "ثـري كـورنرز" مـن عـام ١٩٨٥، وحتـى ١٠/ ٣/ ١٩٩٥، وأضاف كتاب رئيس مصلحة الضـرائب المشار إليه؛ إن الممولين ممدوح الليثي وزوجته يكونان قـد ارتكبا الجرائم الضريبية الآتية:

١- مخالفة أحكام المادة ١٣٣ من القانون رقم ١٥٧ لسنة ١٩٨١، المعدل بالقانون رقم ١٨٧ لسنة ١٩٩٣ بعدم إخطار مصلحة الضرائب ببداية النشاط في المواعيد القانونية، والمعاقب عليها بأحكام المادة ١٧٨ من ذات القانون.

٢- استعمال إحدى الطرق الاحتيالية المنصوص عليها في البند ٦ من نفس المادة.

٣- عدم تقديم الإقرارات الضريبية بالمخالفة لأحكام المادة "٣٤"، والمادة "١٠٤" من القانون المشار إليه، والمعاقب عليها بالمادة "١٨٧" من ذات القانون فقرة ثانية.

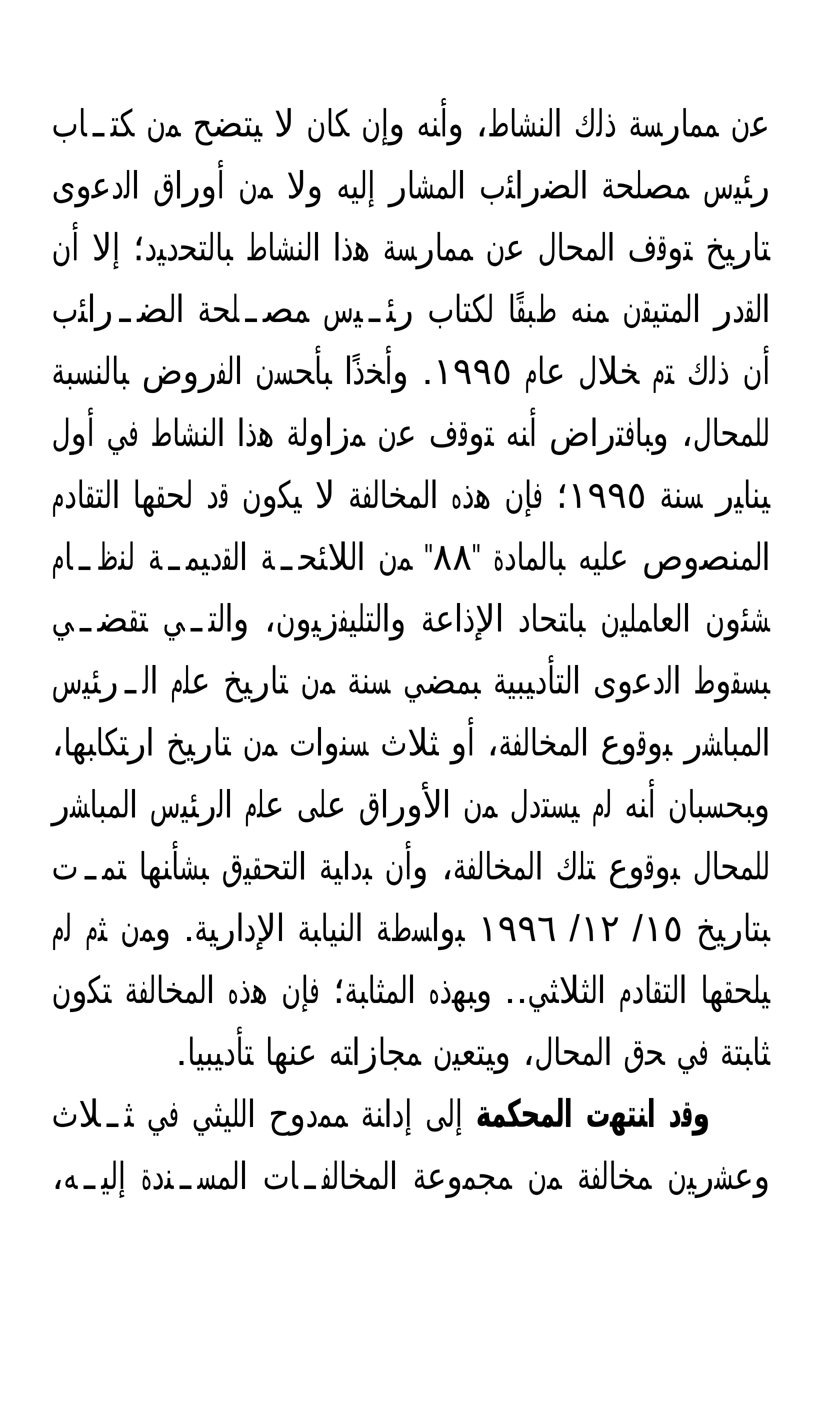
٤- عدم تقديم إقرار الثروة؛ مخالفًا بذلك لأحكام المادة "١٣١" من القانون المشار إليه، والمعاقب عليها بالمادة "١٨٧" فقرة أولى.

وأشار كتاب رئيس مصلحة الضرائب إلى أنه تم رفع الأمر إلى السيد الدكتور وزير المالية، والذي وافق بتاريخ ١٥/ ٢/ ١٩٩٧ على إحالة ممدوح فؤاد الليثي

("المحال") وزوجته السيدة ليلى أمين عبد المجيد الديدي إلى النيابة المختصة للتحقيق معهما فيما هو منسوب إليهما.

والثابت من كتاب رئيس مصلحة الضرائب سالف الذكر أن الليثـي زاول نشـاطًا تجاريـا تحـت مسـمى "ثـري كـونرز"، ونشـاط تـأجير بالجـدك لشـركة "جوادي للتجارة والتوزيع"؛ وذلك في الفترة من سنة ١٩٨٥، وحتـى ١٠/ ٣/ ١٩٩٣ عـن النشـاط التجـاري، ومن ١٠/ ٣/ ١٩٩٣ عن التأجير بالجدك، بالمخالفة للحظـر المنصوص عليه بالمادة "٧٩" فقرة "٥" من اللائحة القديمـة لنظام شئون العاملين باتحاد الإذاعـة والتليفزيـون، والتـي وقعت المخالفة في ظل العمل بها قبل صدور اللائحة الجديدة بالقرار رقم ٥٩٠ لسنة ١٩٩٦، والتي كانت تحظـر علـى العامل بالذات أو بالوساطة مزاولة الأعمال التجارية؛ وهـي مخالفة إدارية مستمرة تتكون من فعل متجدد ومستمر؛ يبـدأ من تاريخ بداية المخالفة سنة ١٩٨٥، ويستمر حتى تـاريخ انتهائها سنة ١٩٩٥.

ومن ثم فإن مدة سقوط الدعوى التأديبية بالنسـبة لهـذه المخالفة لا تبدأ إلا من آخـر يـوم توقـف فيـه المحـال



عن ممارسة ذلك النشاط، وأنه وإن كان لا يتضح من كتـاب رئيس مصلحة الضرائب المشار إليه ولا من أوراق الدعوى تاريخ توقف المحال عن ممارسة هذا النشاط بالتحديد؛ إلا أن القدر المتيقن منه طبقًا لكتاب رئـيس مصـلحة الضـرائب أن ذلك تم خلال عام ١٩٩٥. وأخذًا بأحسن الفروض بالنسبة للمحال، وبافتراض أنه توقف عن مزاولة هذا النشاط في أول يناير سنة ١٩٩٥؛ فإن هذه المخالفة لا يكون قد لحقها التقادم المنصوص عليه بالمادة "٨٨" من اللائحـة القديمـة لنظـام شئون العاملين باتحاد الإذاعة والتليفزيون، والتـي تقضـي بسقوط الدعوى التأديبية بمضي سنة من تاريخ علم الـرئيس المباشر بوقوع المخالفة، أو ثلاث سنوات من تاريخ ارتكابها، وبحسبان أنه لم يستدل من الأوراق على علم الرئيس المباشر للمحال بوقوع تلك المخالفة، وأن بداية التحقيق بشأنها تمـت بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٩٩٦ بواسطة النيابة الإدارية. ومن ثم لم يلحقها التقادم الثلاثي.. وبهذه المثابة؛ فإن هذه المخالفة تكون ثابتة في حق المحال، ويتعين مجازاته عنها تأديبيا.

وقد انتهت المحكمة إلى إدانة ممدوح الليثي في ثـلاث وعشرين مخالفة من مجموعة المخالفـات المسـندة إليـه،

وعددها ست وعشرون مخالفة؛ بعضها مخالفـات مسـلكية، ومعظمها مخالفات مالية وإدارية؛ فقد تبـين أنـه اصـطنع وهو في مجال الدفاع عن نفسه العديد من المسـتندات التـي لا تمثل الحقيقة، واخترع الكثير مـن الأكاذيـب المجافيـة للواقع، ولم يدرك أن ما يجوز فـي سـيناريوهات الأفـلام والمسلسلات، لا يصح أمام المحكمـة التـي تـزن الأدلـة، وتمحص المستندات، ولا تنخدع لمجـرد سـوق مـا قيـل وما يقال، ولا تنزلق وراء المبتسر من الأقوال، وتتحطم فوق منصتها سهام المؤامرات والألاعيب، ومحـاولات الكـذب وتضليل العدالة.

كما تبين للمحكمة أن معظم المخالفات المالية التي ثبتت في حق الليثي تتعلق بنظام المنتج المنفذ؛ وهو نظام حـديث أنشئ في منتصف عام ١٩٩٤، وقصد من إنشـائه أساسـا زيادة الإنتاج المتميز، من خلال الاستعانة ببعض الشـركات المتخصصة في مجال الإنتاج التليفزيوني، وبصرف النظـر عن أن ذلك القطاع مهمته الأساسية والوحيدة هي القيام بهذا الإنتاج المتميز من خلال الأستوديوهات التابعـة لـه -بمـا يفرض عليه حسن استغلالها، وتشغيلها لزيادة الإنتـاج كمـا

ونوعا- فإن الواقع العملي وحسـبما كشـفت عنـه أوراق الدعوى يشير إلى أن المحال استغل هـذا النظـام كقاعـدة موسعة للانحراف بالسلطة.

وقد تم ذلك عن طريق التعاقد مـع بعـض المنتجـين المنفذين دون غيرهم، وبلا معيار وأساس واضـح، ومـنح بعض المنتجين المنفذين مبالغ أكثر من المستحق لهم طبقًـا للعقود الموقعة معهم، والتعاقد على بعض الأعمـال بأزيـد من القيمة التي وافقت عليها اللجنة المختصة للمنتج المنفـذ، ومحاسبة البعض الآخر على أعمال أزيد من الأعمال المنفذة فعلاً، وإعفاء كل المنتجين المنفذين من غرامـات التـأخير، وعدم تعطيل خطابات الضمان لدى الإخلال بالتنفيذ، وتشغيل معظم الفنيين والعاملين من مرءوسيه بقطاع الإنتاج بالأعمال الفنية المنتجة بواسطة المنتج المنفذ، دون حصـولهم علـى ترخيص بالعمل من رئيس مجلس الأمناء باتحـاد الإذاعـة والتليفزيون طبقًا للائحة نظام العاملين بالاتحاد، بل وأحيانًـا بعدم إسناد أعمال لهم في عملهم الأصـلي بالقطـاع لكـي يتمكنوا من القيام بالعمل لدى المنتج المنفذ، مـع تقاضـيهم لكامل مرتباتهم وحوافزهم بقطاع الإنتاج، وأحيانًـا أخـرى

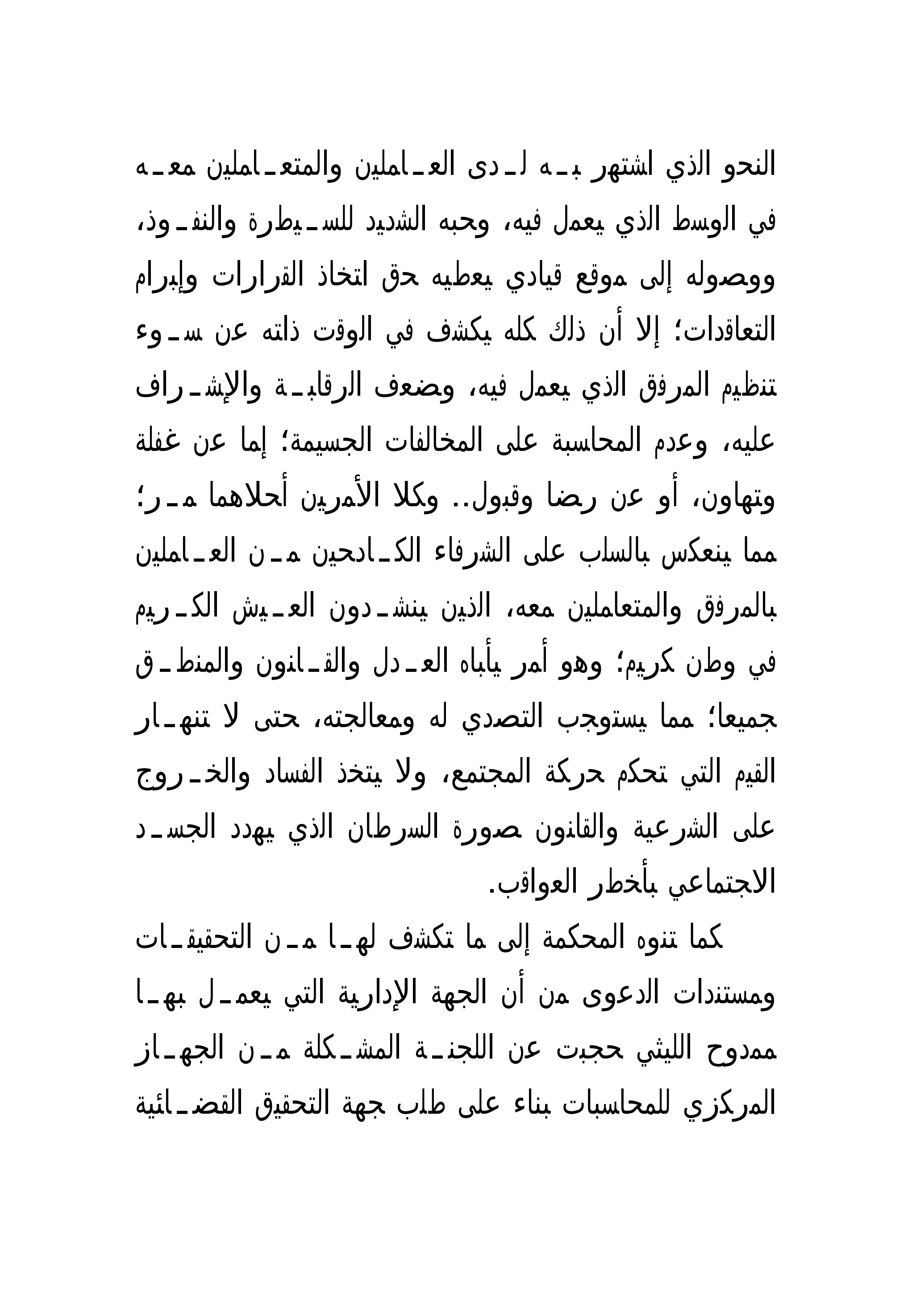
بمنحهم أجازات لمدد تراوحت بين شهر؛ لكي يتفرغوا تماما للعمل لدى المنتج المنفذ.

ولم يقتصر ذلك على الأعمال الفنية التي يقوم بها المنتج المنفذ لحساب قطاع الإنتاج؛ بل تعداه إلى ما تقوم به شركات القطاع الخاص من أعمال المنتج المنفذ لحساب الشركات المنافسة؛ كما حدث في مسلسل "شقة الحرية". لقد كان لذلك كله تأثيره السلبي على انخفاض إنتاجية الأستوديوهات المخصصة لقطاع الإنتاج في خلال عامي ٩٥ – ٩٦، عقب إنشاء نظام المنتج المنفذ في منتصف عام ١٩٩٤؛ حيث بلغ متوسط الإنتاج اليومي خلال هذين العامين ١٣ دقيقة و٢٣ ثانية، بمعدل إنتاجية دقيقة واحدة و٣٥ ثانية لساعة التشغيل. في الوقت الذي بلغ متوسط الإنتاج اليومي خلال نفس المدة لأستوديوهات أحد قطاعات اتحاد الإذاعة والتليفزيون الأخرى (وهو شركة صوت القاهرة للصوتيات والمرئيات)؛ ١٧ دقيقة و٢١ ثانية، بزيادة قدرها ثلاث دقائق و٥٨ ثانية على أستوديوهات قطاع الإنتاج، وبالرغم من أن هذا القطاع الأخير يتبعه أربعة أستوديوهات، بينما يتبع شركة صوت القاهرة للصوتيات

والمرئيات ثلاثة أستوديوهات فقط، وبلغ مقدار العجز المالي في قطاع الإنتاج -وحده من بين العشرة قطاعـات التابعـة لهيئة اتحاد الإذاعة والتليفزيون- في العام المـالي ٩٥/ ٩٦ حتى ٣٠/ ٦/ ١٩٩٦ حوالي ١٣٧ مليونًا، و٥٤٦ ألف جنيه من إجمالي العجز في ميزانية الاتحاد عن العام المشار إليه، وقدرها حوالي ٣٢٢ مليون جنيه، كما بلغ مجموع الأمـوال العامة المهدرة في المخالفات محل الدعوى حوالي ١٣ مليون جنيه.

والمحكمة في إدانتها لممدوح الليثي عمـا ثبـت يقينًـا وصدقًا في حقه تلتفت عن كل ما ساقه تدليلاً علـى كفاءتـه في مجال عمله، وحصوله على جـائزة الدولـة التقديريـة في الفنون والآداب عام ١٩٩٢؛ فالكفاءة بغرض توافرهـا، والجائزة مع التسـليم بوجودهـا لا معنـى ولا قيمـة لهـا إذا لازمها انعدام القيم، وانهيار الخلـق، والانغمـاس فـي الوحل، والخروج على الشرعية والقانون، والتربح، وإهـدار المال العام.

وإذا كان ذلك يرجع أساسا إلى سوء سـلوك ممـدوح الليثي، واستهتاره بكل القيم والمبادئ، وانحرافه الخلقي على



النحو الذي اشتهر به لدى العاملين والمتعاملين معه في الوسط الذي يعمل فيه، وحبه الشديد للسيطرة والنفوذ، ووصوله إلى موقع قيادي يعطيه حق اتخاذ القرارات وإبرام التعاقدات؛ إلا أن ذلك كله يكشف في الوقت ذاته عن سوء تنظيم المرفق الذي يعمل فيه، وضعف الرقابة والإشراف عليه، وعدم المحاسبة على المخالفات الجسيمة؛ إما عن غفلة وتهاون، أو عن رضا وقبول.. وكلا الأمرين أحلاهما مر؛ مما ينعكس بالسلب على الشرفاء الكادحين من العاملين بالمرفق والمتعاملين معه، الذين ينشدون العيش الكريم في وطن كريم؛ وهو أمر يأباه العدل والقانون والمنطق جميعا؛ مما يستوجب التصدي له ومعالجته، حتى لا تنهار القيم التي تحكم حركة المجتمع، ولا يتخذ الفساد والخروج على الشرعية والقانون صورة السرطان الذي يهدد الجسد الاجتماعي بأخطر العواقب.

كما تنوه المحكمة إلى ما تكشف لها من التحقيقات ومستندات الدعوى من أن الجهة الإدارية التي يعمل بها ممدوح الليثي حجبت عن اللجنة المشكلة من الجهاز المركزي للمحاسبات بناء على طلب جهة التحقيق القضائية

لفحص أعماله المالية بالقطاع الذي يرأسـه، وهـدد رئـيس وأعضاء اللجنة بالطرد بالقوة من مبنى الجهة الإدارية؛ حيث كانوا يمارسون عملهم، وتم ذلك في الفترة الأخيرة من عمل اللجنة، بعد أن كانت قد قطعت شوطًا في أدائه بلا معوقات؛ مما دعاها إلى التوقف عن الاستمرار في العمل، والاكتفـاء بما حصلت عليه من مستندات، كما تناولت الجهة الإداريـة التي يعمل بها الليثي بعد إقامة هذه الدعوى وأثنـاء نظرهـا الاتهامات المالية المسندة إليه بالرد والتعقيب، وبما يخل بمبدأ استقلال القضاء، والذي هو في جوهر معناه وأبعـاد آثـاره ليس مجرد عاصم من جموح السلطة التنفيذية يكفهـا عـن التدخل في شئون العدالة، ويمنعها من التأثير فيها إضـرارا بقواعد إدارتها؛ بل هو فوق هذا مدخل لسيادة القانون التـي كفلها الدستور بنص المادة ٦٤، بما يصون للشرعية بنيانهـا ويرسم تخومها. وقد قرن الدستور سيادة القانون بنص المادة ٦٥ التي تلزم الدولة بالخضوع لأحكامه؛ ليشكلا معا قاعـدة للحكم فيها، وضابطًا لتصرفاتها.

ومن حيث إن هذه المحكمة قد كشفت في حيثيات حكمها على النحو الوارد بها تفصيلاً أن أوراق الدعوى انطوت على

شبهة ارتكاب المحال لجرائم جنائية؛ هي التـربح، وإهـدار المال العام، والتزوير؛ وهي الجرائم المؤثمة بـالمواد ١١٥ و١١٦ مكرر "أ" و"١" و٢١١ و٢١٣ و٢١٧ و٢٢١ عقوبات؛ الأمر الذي تقرر معه المحكمة إخطار النيابة العامة لإعمـال شئونها فيها.

ولـذلك فـإن المحكمـة تجـازي المحـال بالفصـل من الخدمة لما ثبت في حقه؛ وهي أقصـى عقوبـة تأديبيـة تملكها طبقًا للمادة "٧٨" من لائحة اتحاد الإذاعة والتليفزيون، الصادر بها قرار رئيس مجلس الأمنـاء رقـم ٥٩٠ لسـنة ١٩٩٦. في الوقت الذي يستحق فيه الفصل تأديبيا عن كـل مخالفة من المخالفات التي ثبتت إدانته فيها.

وقد قضت المحكمة بالتالي:

أولاً: بقبول تدخل محمود صدقي التهـامي بصـفته رئـيس تحرير مجلـة "روز اليوسـف" خصـما متضـمنًا في الدعوى، إلى جانب النيابة الإدارية، وبعدم قبول باقي طلبات التدخل.

ثانيا: بعدم اختصاص المحكمة ولائيا بنظر طلب الادعاء المدني، وإحالة الدعوى بالنسبة لهذا الطلب إلى محكمة شمال الجيزة الابتدائية للاختصاص.

ثالثًا: بفصل ممدوح فؤاد الليثي من الخدمة.

رابعا: بالإبلاغ النيابة العامة لإعمال شئونها فيما انطوت عليه أوراق الدعوى من جرائم جنائية.

صدر الحكم برئاسة المستشار السيد نوفل نائب رئيس مجلس الدولة، وعضوية المستشارين عبد التواب السيسي، ومحمد الشيخ، وعبد الرحمن سعد، نواب رئيس مجلس الدولة، وحضور المستشار طلعت الشربيني نائب رئيس هيئة النيابة الإدارية، وسكرتارية فوزي عباس.

انتهت حيثيات الحكم التاريخي، والذي تحول إلى تحقيق قضائي واسع في كل أبعاد القضية.. وكان من الملاحظ في تلك الحيثيات أنها استخدمت كلمات من نوع: "قوادة"، و"فساد"، و"انحطاط"، و"جرائم"، و"مخالفات"، و "تزوير"، و"تلفيق"؛ وهي كلمات – وبالإجمال كل الحيثيات– لا تحتاج إلى أي تعليق من المؤلف.. ويكفي فقط رصدها، كما أشرنا في بداية هذا الفصل من الكتاب.

13

السفير في السرير!

"طلبت منه أن يساعدني
في الحصول علـى عمـل..
وافق، ثم طلب مني الـذهاب
إلى الفراش معـه.. وحـاول
اغتصابي"

تسربت رائحة إناء الفضائح إلى القاهرة.

كان مـن الصـعب الإبقـاء عليهـا حبيسـة هنـاك في تل أبيب، خاصة أن الصحف العبرية بـدأت فـي نشـر التلميحات، وأن بعض الإجراءات القانونية كانت قد دشـنت بالفعل.

حين وصلت الرائحة إلى العاصـمة المصـرية؛ كـان الحديث يدور عن راقصة يهودية وسفير مصر في إسرائيل؛ كان الحديث فيه جنس ورغبات معلنة، وقرار أنثوي رافض، وجسد عارٍ، وغرفة مغلقة في فنـدق، وتحـرش وابتـزاز سياسي، وانتقام سياسي أيضا.. خلطة.. تشبه السلاطة.. فيها من كل شيء.. شيء.

وحين وصلت الرائحة كان من الطبيعي أن يتم التعامل الصحفي معها فورا؛ ليس فقط لأن الفضيحة المتسربة جذابة جدا، ولكن أيضا لأن الأجواء بين مصر وإسـرائيل ليسـت على ما يرام.. كما هي دائما.. ولأن قضية الجاسوس عـزام كانت لم تزل ساخنة، ولأن هناك انطباعات فـي القـاهرة لا

ترضى عادة -خاصة بين الرأي العام- عن سلوك السفير المصري في تل أبيب؛ السفير محمد بسيوني.

ومن الواضح أن الخبر بين السفير والراقصة في جملة واحدة كان قد وصل إلى عدة صحف في القاهرة؛ أغلبها فضل الصمت، خاصة أن الخبر كان في الأصل رواية إسرائيلية عن بلاغ تقدمت به الراقصة تتهم فيه السفير بالتحرش الجنسي. لكن هناك أيضا من لم يهدأ، وقرر أن يتعامل مع القصة من خلال السفير المصري نفسه. وهكذا رفع أحد الصحفيين المصريين البارزين سماعة التليفون، وفتح الخط الدولي على إسرائيل، وطلب محمد بسيوني في مكتبة بالعاصمة العبرية.

- كيف أنت اليوم؟

❑ بخير.. وأنت؟

- إنني بخير.. ولكني أريد أن أطمئن عليك؛ فقد وصلنا خبر عن قضية غريبة رفعت ضدك في إسرائيل.

❑ أتقصد قصة الراقصة؟

- نعم.. هي.. ما صحة ما يقال؟

❑ يا ".. " يا اخويا أنت تعرف أخلاقـي جيـدا، ومـن المؤكد أنني لم أفعل هذا.

- إذن ما رأيك في أن ننشر القصة وننشر معها ردك؟

❑ " لا.. أرجوك.. ليس هناك داع لهذا إطلاقًا..

- لماذا.. إن الجميع يعرف الحدوتة الآن؟!

❑ لأنهم يريدون من تسريب الخبر أن تنشـر القصـة في مصر أولاً، وبالتالي يضيع حقي في مقاضاة الصحف الإسرائيلية لو نشرت هي تلك الحكاية الأكذوبة بعد ذلك.

انتهى الحوار.

وبقيت الحكاية في سماء القاهرة مثل كتلة سحاب؛ تريد بعض الرياح كي تدفعها لأن تمطر.

ثم كانت المفارقة هي ما حدث بعد ذلك بأيام؛ إذ كـان السفير نفسه هو الذي قـرر أن تمطـر السـماء، أن تهـبط قطرات القصة على الأرض، ولكن ليس وحدها؛ وإنما فـي سياق عديد من القصص الأخرى، بحيث بدا وكأنـه يواجـه حملة ابتزاز سياسية منظمة في إسـرائيل للضـغط عليـه، وللإساءة إلى مصر من خلال سـفيرها.. وكـان أن أُعلـن في صحيفة الأهرام عن أن السفير المصري في تـل أبيـب

واجه تعنتًا رهيبا من بعض قوات الأمن الإسـرائيلية، حـين فتشت سيارته التي تحمل أرقاما دبلوماسـية بطريقـة قليلـة الأدب؛ وكأنه تـاجر مخـدرات، وكـان أن تـم تسـجيل هذا تليفزيونيا، وأذيع في إسرائيل.

لم تكن هذه هي الواقعة الوحيدة؛ ففي سـبتمبر ١٩٩٧ جرت محاولة لوضع مخدرات وعمـلات مـزورة وسـلاح في حقيبة عربة السفير، أثناء مـرور سـيارته المرسـيدس السوداء من منفذ رفح، دون أن يكون بها السفير نفسه. لقـد كانت السيارة في الطريق إلى القاهرة؛ حيث سـيتم إجـراء عملية صيانة لها بأسعار أقل من تلك المعروفة في إسرائيل. في هذه اللحظة (لحظة المرور من المنفذ) استوقف ضـباط الحدود الإسرائيليون السائق في موقف غريب جدا؛ ذلك أنـه أكد لهم أن السيارة تابعة للسفارة المصرية، إلا أنهم صرخوا فيه وحاولوا إبعاده بأي شكل عن السيارة.

وفيما يبدو فإن السائق أدرك ما يحدث؛ فرفض بشـكل قاطع أن يبتعد عن السيارة، فدفعوه بعيدا، وعاملوه كأنه مجرم، وبالصدفة كان هناك ضابط يمر مـن قـوات حفـظ السـلام من العاملين في معسكر كندا القريب من منفـذ رفـح.. سـأل

عن المشاجرة، وخاصة أنه رأي الأرقام الدبلوماسية لسـيارة السفير؛ فطلبوا منه أن يبتعد، لكنه هددهم بأنه سـوف يرفـع تقريرا إلى قيادته إذا لم يوضحوا له الأمر، ولاسيما أن السائق أكد له أن كل أوراقه سليمة؛ عندها ابتعد الضباط عن السيارة، وراحوا يتحدثون في أجهزة اللاسلكي، ثـم عـادوا وقـدموا اعتذارا للسائق، وسمحوا له بالمرور ("روز اليوسف – العـدد ٣٦١٩ – بتاريخ ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٧").

كان واضحا أن الواقعة هي جزء من حملة أوسع وأكثـر تنوعا ضد محمد بسيوني في السنوات الأخيرة، بعـد أن تـم تعيينه سفيرا لمصر في تل أبيب منذ عام ١٩٨٦.. حملة هدفها في كل واحدة من حلقاتها الضغط على السفير لتحقيق هدف ما.

ووقائع الحملة عديدة.

ففي ٣ إبريل ١٩٩٦؛ حاولت مجلة "سجنونا" السخرية من مزاعم تقول إن السفير وزوجته ينفقان ببذخ شـديد؛ فقالـت: "هناك عشر شخصيات يجـب أن يتعـرف عليهـا جـوعى تل أبيب.. على رأسهم نجوى زوجة السفير المصري".. فـي محاولة للتلميح بأن السيدة المصرية تنفق الكثير على الحفلات التي تقام في بيتها وفي السفارة.

وفي ١١ ديسمبر ١٩٩٥؛ تحدثت صحيفة "معاريف" عن أن السفير المصري يحاول إفساد الانتخابات الإسرائيلية لصالح حزب العمل. وقالت إن وزارة الخارجية الإسرائيلية حذرته من التدخل في سير العملية الانتخابية.

وفيما قبل ذلك بعام وصفت مجلة "السبعة أيـام" نجـوى بسيوني بأنها مدمنة لعب البريدج.

وفي مرة تالية زعمت نفس المجلة أن السفير وزوجتـه زبائن لواحدة من أبرز ساحرات إسرائيل؛ تفتح لهما المنـدل والكوتشينة. دون أن تنسى المجلة أن تقـول علـى لسـان الساحرة إن٨٠ % من زبائنها السيدات لديهن صديق غيـر الزوج.. في إيحاء مبتذل وواضح.

وفـــي١٢ أبريـــل ١٩٩٦؛ قالـــت جريـــدة "يديعوت أحرونوت"؛ "إن بقاء بسيوني كل هذه المـدة فـي إسرائيل وضع غير طبيعي".

وفي سبتمبر ١٩٩٧ اتهمت صحيفة "ها آرتس" بسيوني بأنه يتجسس لصالح مصر، وأنه يدير شبكة تصنت متقدمـة من داخل السفارة المصرية في تل أبيب.

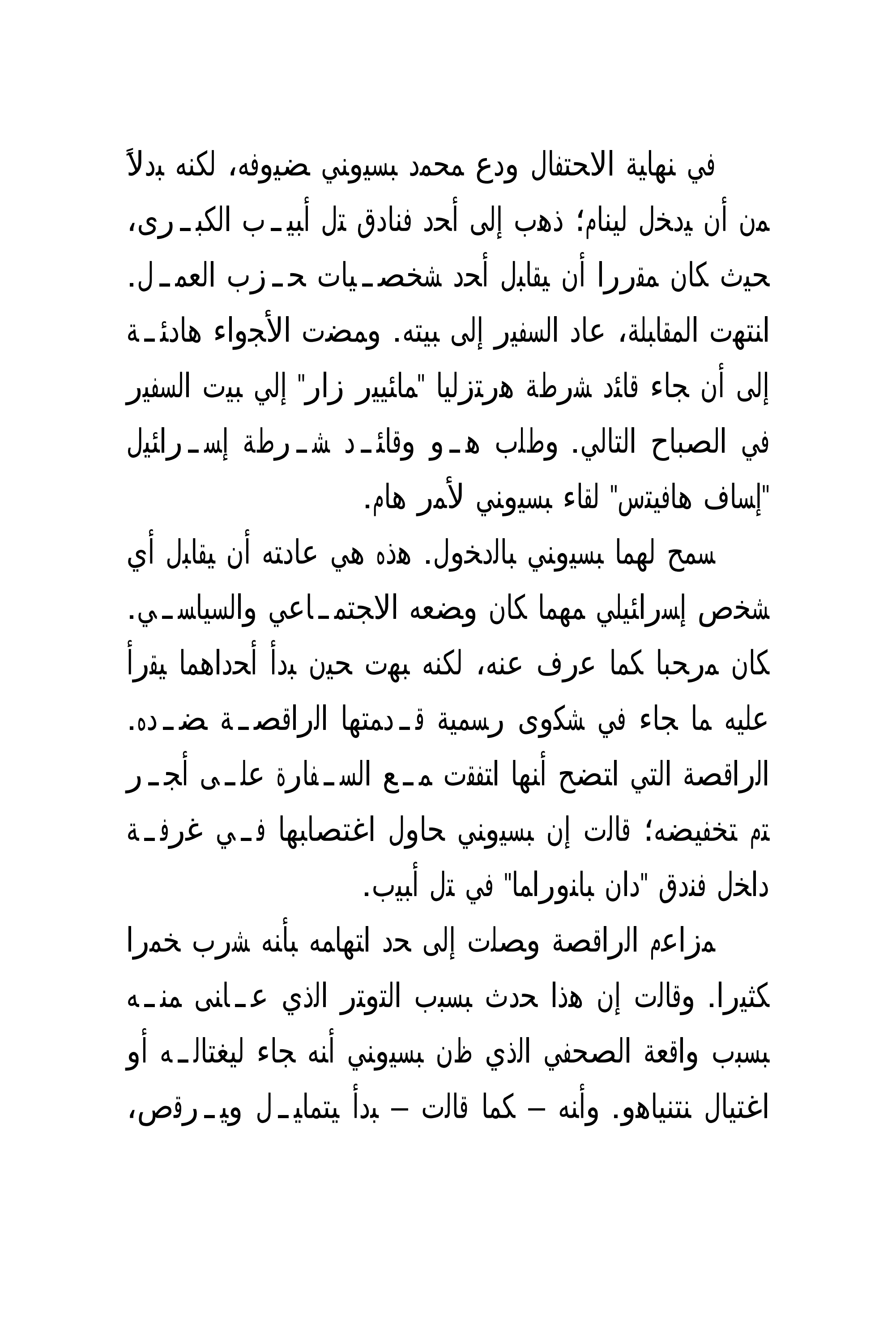
كان واضحا للغاية إذن؛ أن هناك حملة دائمة ضد السفير، وخاصة أنه يتلقى – كما قال هو نفسه– كثيرا من الاتصالات الهاتفية من أشخاص مجهولين يهددونه بالقتل، ويطالبونه بالرحيل من إسرائيل.

في ضوء هذا يمكن فهم قصة الراقصة؛ فهي واحدة من قصص القوادين والسياسة البالغة الدلالة، والتي من الضروري جدا أن نرصدها هنا، ولاسيما أنه من المؤكد أن الراقصة لم تكن تتحرك فيها وحدها وبرغبتها.. في ضوء كل هذه الوقائع المتوالية والمدبرة ضد السفير. قصة؛ من الواضح فيها أن هناك قوادا ما دفع الراقصة لأن تخلق هذه الفضيحة كي يستفيد هذا القواد من تلك الضجة التي أثارتها بالضغط المتجدد والمتنوع على السفير ودولته.

والواقعة تروى بشكل واحد تقريبا، وأميل أنا هنا إلى الاستناد لرواية مترجم اللغة العبرية "توحيد مجدي" في مجلة روز اليوسف في عدد ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٧؛ حيث قال: "بدأت القصة في يوم ٢٣ يوليو ١٩٩٧، حين كانت السفارة تنظم حفلاً للاحتفال بعيد ثورة يوليو، في منزل السفير بضاحية هرتزليا شمال تل أبيب. ودعت السفارة الراقصة

"أنيجيل كلايين" للـرقص فـي الحفـل، بوصـفها واحـدة من الراقصات المشهورات في إسرائيل. وصـلت الراقصـة إلى الحفل في تمام الساعة التاسعة.. حاولت الـدخول إلـى ساحة فيلا السفير بعربتها، منعها الحرس، نشبت مشادة عنيفة معها، تدخل الملحق الإعلامي المصري لطفي عليوة؛ فهدأت الأجواء.

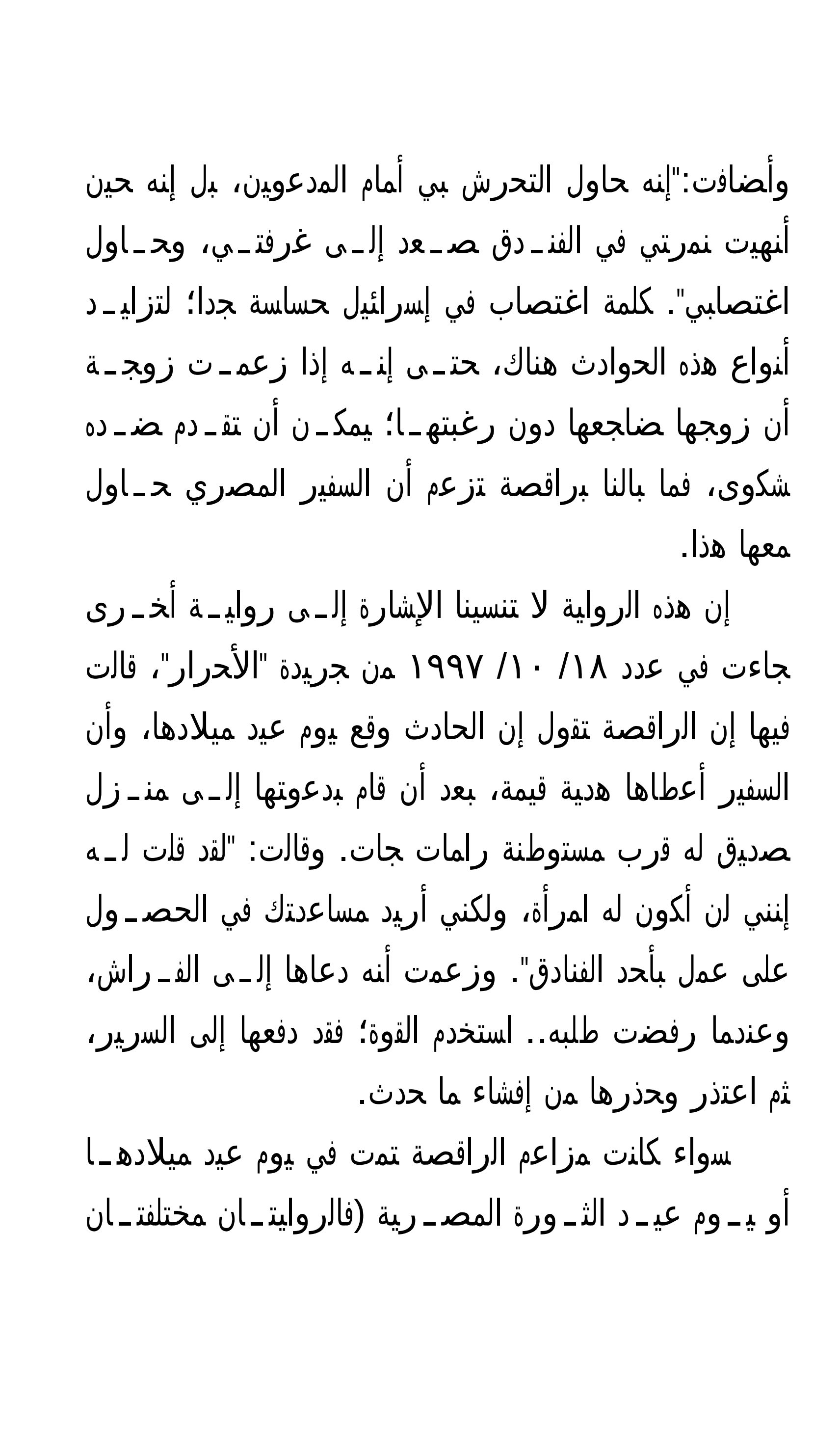
قبل أن يصل عدد من أعضاء الحكومـة الإسـرائيلية المدعوون للحفل (وعلى رأسهم بـالطبع بنيـامين نتنيـاهو) وصلت فجأة سيارة تابعة لجهاز الشين بيت (لأمن الداخلي)، وفوجئ طاقم حماية السفير بأن الضباط يخرجون من السيارة جهازا للكشف عن الأسلحة والمعادن لوضـعه فـي مـدخل الفيلا. وبعد تركيب البوابة وإغلاق كافة المنافـذ الأخـرى؛ صرخت البوابة بصفارات إنذار؛ كان العابر صحفيا إسرائيليا استأجرته السفارة لتصوير الحفل، فـتش الضـباط حقيبـة الصحفي، ثم اتضح أن معه قلما من نوع خـاص تسـتخدمه أجهزة المخابرات، ويمكن أن يستعمل في الاغتيالات، نقـل الصحفي فورا إلى مقر الشين بيت. ورغم أن الواقعة مرت؛ إلا أن التوتر خيم على أجواء الحفل.



في نهاية الاحتفال ودع محمد بسيوني ضيوفه، لكنه بدلاً من أن يدخل لينام؛ ذهب إلى أحد فنادق تل أبيب الكبرى، حيث كان مقررا أن يقابل أحد شخصيات حزب العمل. انتهت المقابلة، عاد السفير إلى بيته. ومضت الأجواء هادئة إلى أن جاء قائد شرطة هرتزليا "مائيير زار" إلي بيت السفير في الصباح التالي. وطلب هو وقائد شرطة إسرائيل "إساف هافيتس" لقاء بسيوني لأمر هام.

سمح لهما بسيوني بالدخول. هذه هي عادته أن يقابل أي شخص إسرائيلي مهما كان وضعه الاجتماعي والسياسي. كان مرحبا كما عرف عنه، لكنه بهت حين بدأ أحداهما يقرأ عليه ما جاء في شكوى رسمية قدمتها الراقصة ضده. الراقصة التي اتضح أنها اتفقت مع السفارة على أجر تم تخفيضه؛ قالت إن بسيوني حاول اغتصابها في غرفة داخل فندق "دان بانوراما" في تل أبيب.

مزاعم الراقصة وصلت إلى حد اتهامه بأنه شرب خمرا كثيرا. وقالت إن هذا حدث بسبب التوتر الذي عانى منه بسبب واقعة الصحفي الذي ظن بسيوني أنه جاء ليغتاله أو اغتيال نتنياهو. وأنه – كما قالت – بدأ يتمايل ويرقص،



وأضافت:"إنه حاول التحرش بي أمام المدعوين، بل إنه حين أنهيت نمرتي في الفندق صعد إلى غرفتي، وحاول اغتصابي". كلمة اغتصاب في إسرائيل حساسة جدا؛ لتزايد أنواع هذه الحوادث هناك، حتى إنه إذا زعمت زوجة أن زوجها ضاجعها دون رغبتها؛ يمكن أن تقدم ضده شكوى، فما بالنا براقصة تزعم أن السفير المصري حاول معها هذا.

إن هذه الرواية لا تنسينا الإشارة إلى رواية أخرى جاءت في عدد ١٨/ ١٠/ ١٩٩٧ من جريدة "الأحرار"، قالت فيها إن الراقصة تقول إن الحادث وقع يوم عيد ميلادها، وأن السفير أعطاها هدية قيمة، بعد أن قام بدعوتها إلى منزل صديق له قرب مستوطنة رامات جات. وقالت: "لقد قلت له إنني لن أكون له امرأة، ولكني أريد مساعدتك في الحصول على عمل بأحد الفنادق". وزعمت أنه دعاها إلى الفراش، وعندما رفضت طلبه.. استخدم القوة؛ فقد دفعها إلى السرير، ثم اعتذر وحذرها من إفشاء ما حدث.

سواء كانت مزاعم الراقصة تمت في يوم عيد ميلادها أو يوم عيد الثورة المصرية (فالروايتان مختلفتان

في هذا)؛ فإن الشكوى قد سجلت في أوراق الشرطة، لكنهـا فرضت عليها حظر النشر رغـم تسـرب أخبـار القضـية إلى الصحف.

وكان واضـحا أن هنـاك رغبـة إسـرائيلية حميمـة في إذاعة القصة، بشرط ألا تكون البداية من داخل إسرائيل. ومن هنا وكما عرفت فيما بعد؛ أرسل مكتب وكالة الأنبـاء الفرنسية في تل أبيب إلى مكتب الوكالة في القـاهرة يطلـب منه تعليقًا على القصة مـن وزارة الخارجيـة المصـرية. وذهبت صحيفة مصرية إلى الوزير عمرو موسى تطلب منه التعليق؛ فكان أن قال لها: هل نشرت القصة هناك؟ قالت: لا. فقال إذن لن أعلق.

بدا جليا أن القاهرة متمثلة في السفير والوزير تـرفض التقاط الطعم.

ولكن هذا لم يمنع صحيفة "يديعوت أحرنوت"، وصحيفة "معاريف" من أن تتقدما بطلب لإحدى المحـاكم الإسـرائيلية كي تتم الموافقة على نشر القصة المحظورة، ولـم تحصـلا على الموافقة.

لكن هذا لم يمنع عجلة الأحداث من أن تـدور. وبـدأ التحقيق بسرعة. وكما بدأ سريعا انتهى أيضا كذلك.

وفي هذا الإطار قالت صحيفة "هاآرتس" الإسـرائيلية: "إن المدعي العام "إلياكيم روبنشـاتين"، ومـدعي الحكومـة "إيدنا أربيل" برأ محمد بسيوني من الاتهـام الموجـه إليـه من الراقصة، وقال "أربيل" إن الأدلة التي جمعتها الشـرطة الإسرائيلية غير كافية لإدانة السفير المصري فـي محاولـة اغتصاب الراقصة، وأضافت "هاآرتس": "لقد أمـر المـدعي العام ومدعي الحكومة الشـرطة بـالتحقيق فـي الواقعـة، ووضعها في إطار سري كامل منـذ ١٩ أغسـطس ١٩٩٧؛ باعتبار أن بسيوني يحظى بحصانة دولية يتمتع بهـا كافـة السفراء، ويمنع توقيع أي جزاءات عليه في إسرائيل".

ولكن الراقصة لم تقف عند هذا الحد. كان هنـاك مـن يحركها، ويدفعها لأن تجعل الدوائر أكثر اتساعا.

وقالت: "لقد حاول بسيوني وبعض زملائه تقديم عرض مادي لي لكي أتنازل عن البلاغ".

وراح هذا الادعاء سدى أيضا، كما راح الادعاء الـذي سبقه. فقد قال المدعي العام الإسرائيلي: "لم أجد أدلة كافيـة عن هذا، وبالتالي فإنه لا مجال للمضي في هذا الاتجاه".

وبسيوني نفسه قال بعد أن أغلق الملـف: "إن سـحابة سوداء انقشعت أخيرا كان يمكن أن تـؤثر علـى العلاقـات المصرية الإسرائيلية بالسلب؛ لقد كانت الأسـابيع الماضـية عصيبة، وإنني أتساءل لماذا حاولت هذه الإسرائيلية أن تشهر بي".

هذا ما قاله لصحيفة "هاآرتس"، ولكنه بعـد ذلـك قـال لمجلة "الشباب" المصرية في عـدد نـوفمبر ١٩٩٧: "لقـد تعرضت لسلسلة من الحوادث، وليس حادثة واحدة، وتلقيـت خطاب تهديد بالقتل، ووجهت إلي اتهامات عديدة، ولم أهتز، وقد اعتدت ألا ألقي بالاً لمثل هـذه الأسـاليب الرخيصـة" وأضاف: "لم يؤثر في نفسي ما أثير حول مسـألة التحـرش الجنسي براقصة إسرائيلية. وأستطيع أن أقول إن مثل هـذه الادعاءات الكاذبة يقف وراءهـا موقـف مصـر الحاسـم من القضية الفلسطينية ومن قضية الجاسوس عزام. وأريد أن

أقول إن مثل هذه الأساليب الرخيصة لا يمكن أن تساعد على تهيئة المناخ المناسب لإقامة علاقات ودية بين البلدين".

إذن السفير نفسه يقول إن هناك مـؤامرة، ويقـول إن الادعاء الجنسي له سبب سياسي، وبالتالي فإن مـن المؤكـد أن هناك قوادا سياسيا كان يقف خلف الراقصة. وهذا القـواد هو المؤسسة الإسرائيلية نفسها.

هذه المؤسسة القوادة هي ذاتها التي لم تخرج عن سياق أخلاقها حين حاولت بعد هذا الاعتذار للسـفير عـن أزمـة السرير المفتعلة. حين أبلغ "إيتان بن تسـور" (وكيـل وزارة الخارجية الإسرائيلية) محمد بسيوني أنه تم حفـظ التحقيـق في الواقعة المزعومة. وزعم "إيتان" أنه كان في غاية التوتر حتى تم حفظ التحقيقات. وانتهت واحدة من قصص القـوادة السياسية العابرة.. والعديدة.. من إسرائيل في اتجاه مصر.

14

التجسس بالملابس الداخلية

"كانا في السـيارة معـا يمارسان الجنس، وكانت هي تتخذ أوضاعا، اتضح فيما بعد أنها للتصوير".

ليس غريبا أن يمارس جاسوس القوادة. إن هـذا هـو المعتاد غالبا في عديد من عمليات التخابر.

والسبب واضح ومعروف؛ ذلك أن الجنس هو أحد أهـم الأدوات التـي تسـتخدمها أجهـزة التخـابر للسـيطرة على العملاء، وربما كان لافتًا للأنظار أن عديدا من ملفـات الجاسوسية التي كشف عنها في العالم؛ كانـت بهـا دائمـا مغامرات جنسية.

ولقد أثبت فصل سابق هـذا، حـين عرضـنا لقضـية كريستين كيلر؛ فقد كانت تمارس مهامها من خلال قواد، كان يحركه بدوره قواد آخر. ويمكن أن تثبت هذا أيضا عشرات من القصص الأخرى المماثلة؛ بحيث إنه يمكن تعبئة عشـرة كتب بنماذج من هذا النوع.. لكن هذا الكتاب لا يرى أن تلك هي مهمته الوحيدة؛ وإنما هي واحدة من بعض مهامه، ومن هنا فإنني لن أفيض في رصد تلك الملفات التي تعبـر بدقـة عن التحالف الوطيد بين القوادين والسياسة؛ وإن كنت سوف أركز في المساحة التالية على نموذج واحـد هـام لأسـباب مختلفة.

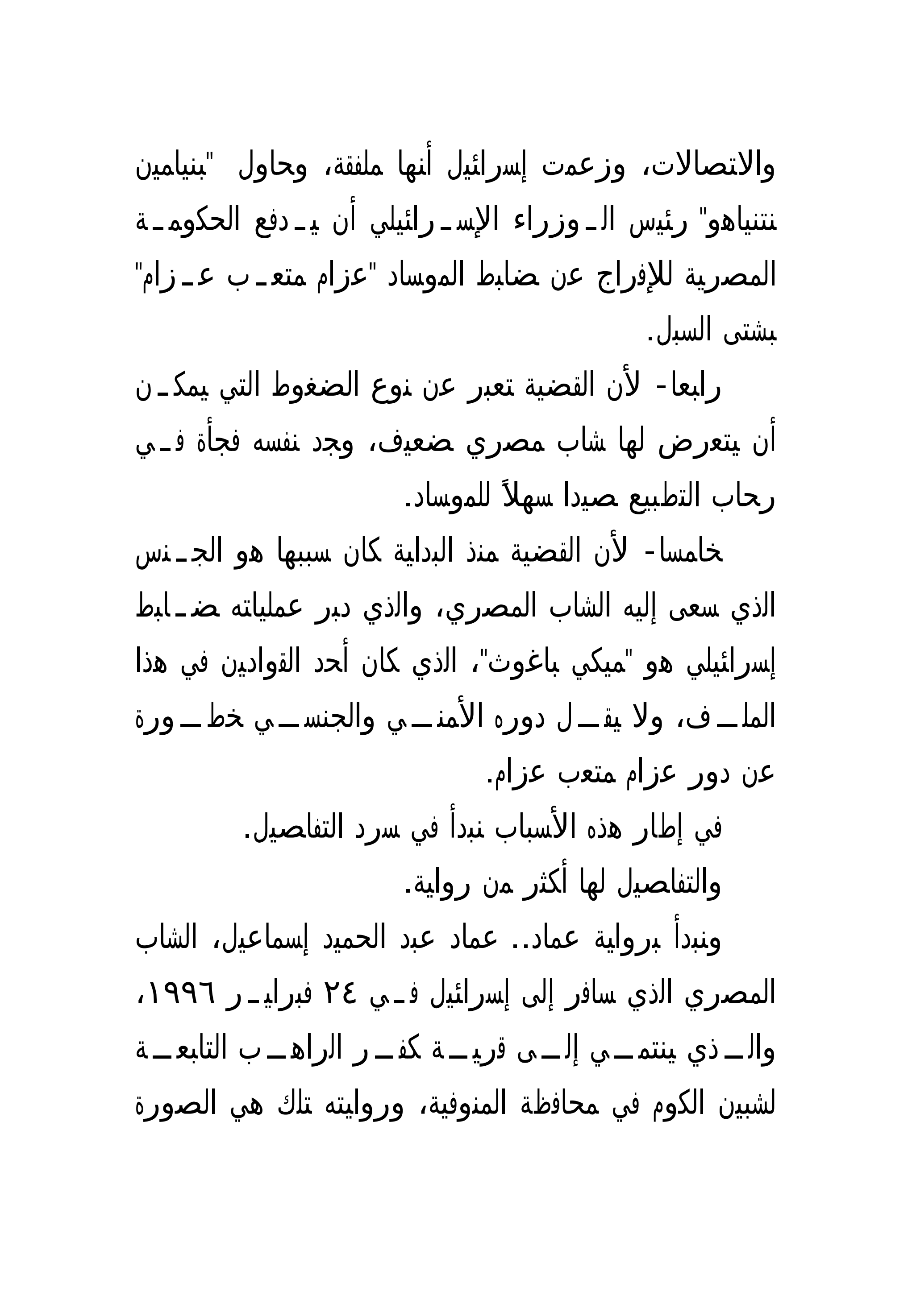
وقبل أن نذكر الأسباب؛ سوف نذكر أولاً موضوع هذا النموذج. إنه تلك القضية التي عاشت مصر كـل تفاصـيلها المثيرة؛ السياسية والجنسية بين عامي ٩٦ و ١٩٩٧.. فيمـا عرف باسم قضية "عماد وعزام".

وأما الأسباب فهي عديدة..

أولاً- لأن القضية لم تزل طازجة، وهي ليست بعيـدة مثل القصة الحقيقية التي كتبها المؤلف الكبير الراحل صالح مرسي باسم "الصعود إلى الهاوية "، وكانت بطلتها المعروفة باسم "عبلة" تمارس ضغوطًا جنسية عبر مواطن مصري قيل إنه كان يعمل مهندسا في قاعدة صواريخ مصرية في نهايـة الستينيات.

ثانيا- لأن القضية تفجرت في عصر السلام بين مصر وإسـرائيل، وبعـد توقيـع الاتفاقيـات، وبعـد أن أصـبح من الممكن في إطار التطبيع سفر مصريين إلـى إسـرائيل أو العكس.. وبالتالي؛ فهي نموذج لحالات التخابر الإسرائيلي على مصر في ظل الأوضاع الجديدة.

ثالثًا- لأن القضية كانت محور اهتمام الرأي العام فـي الدولتين، وأثيرت بسببها مشاكل عديدة، وتم تبادل الرسـائل



والاتصالات، وزعمت إسرائيل أنها ملفقة، وحاول "بنيامين نتنياهو" رئيس الـوزراء الإسـرائيلي أن يـدفع الحكومـة المصرية للإفراج عن ضابط الموساد "عزام متعـب عـزام" بشتى السبل.

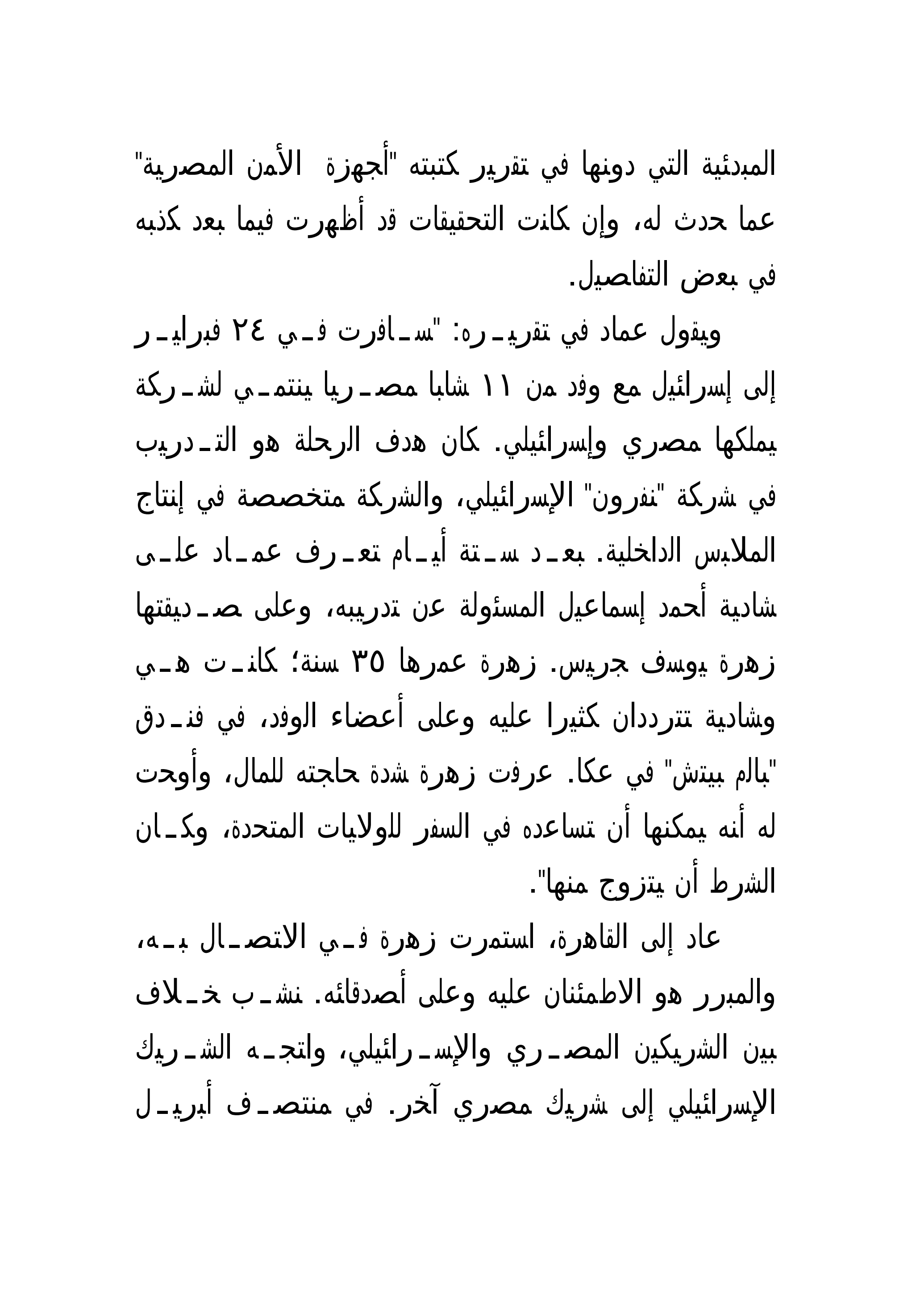
رابعا- لأن القضية تعبر عن نوع الضغوط التي يمكـن أن يتعرض لها شاب مصري ضعيف، وجد نفسه فجأة فـي رحاب التطبيع صيدا سهلاً للموساد.

خامسا- لأن القضية منذ البداية كان سببها هو الجـنس الذي سعى إليه الشاب المصري، والذي دبر عملياته ضـابط إسرائيلي هو "ميكي باغوث"، الذي كان أحد القوادين في هذا الملــف، ولا يقــل دوره الأمنــي والجنســي خطــورة عن دور عزام متعب عزام.

في إطار هذه الأسباب نبدأ في سرد التفاصيل.

والتفاصيل لها أكثر من رواية.

ونبدأ برواية عماد.. عماد عبد الحميد إسماعيل، الشاب المصري الذي سافر إلى إسرائيل فـي ٢٤ فبرايـر ١٩٩٦، والــذي ينتمــي إلــى قريــة كفــر الراهــب التابعــة لشبين الكوم في محافظة المنوفية، وروايته تلك هي الصورة



المبدئية التي دونها في تقرير كتبته "أجهزة الأمن المصرية" عما حدث له، وإن كانت التحقيقات قد أظهرت فيما بعد كذبه في بعض التفاصيل.

ويقول عماد في تقريره: "سافرت في ٢٤ فبراير إلى إسرائيل مع وفد من ١١ شابا مصريا ينتمي لشركة يملكها مصري وإسرائيلي. كان هدف الرحلة هو التدريب في شركة "نفرون" الإسرائيلي، والشركة متخصصة في إنتاج الملابس الداخلية. بعد ستة أيام تعرف عماد على شادية أحمد إسماعيل المسئولة عن تدريبه، وعلى صديقتها زهرة يوسف جريس. زهرة عمرها ٣٥ سنة؛ كانت هي وشادية تترددان كثيرا عليه وعلى أعضاء الوفد، في فندق "بالم بيتش" في عكا. عرفت زهرة شدة حاجته للمال، وأوحت له أنه يمكنها أن تساعده في السفر للولايات المتحدة، وكان الشرط أن يتزوج منها".

عاد إلى القاهرة، استمرت زهرة في الاتصال به، والمبرر هو الاطمئنان عليه وعلى أصدقائه. نشب خلاف بين الشريكين المصري والإسرائيلي، واتجه الشريك الإسرائيلي إلى شريك مصري آخر. في منتصف أبريل

اتصلت زهرة بعماد، وطلبت منه استقبالها هـي وصـاحب المصـنع فـي مصـر لدراسـة إنشـاء مصـنع جديـد. في ٢٤/ ٤/ ١٩٩٦؛ أبلغ عماد شـرطة السـياحة بـالأمر؛ فطلبت منه الشرطة أن يبلغ عن تحركات كـل مـن زهـرة وصاحب المصنع لحمايتهما.

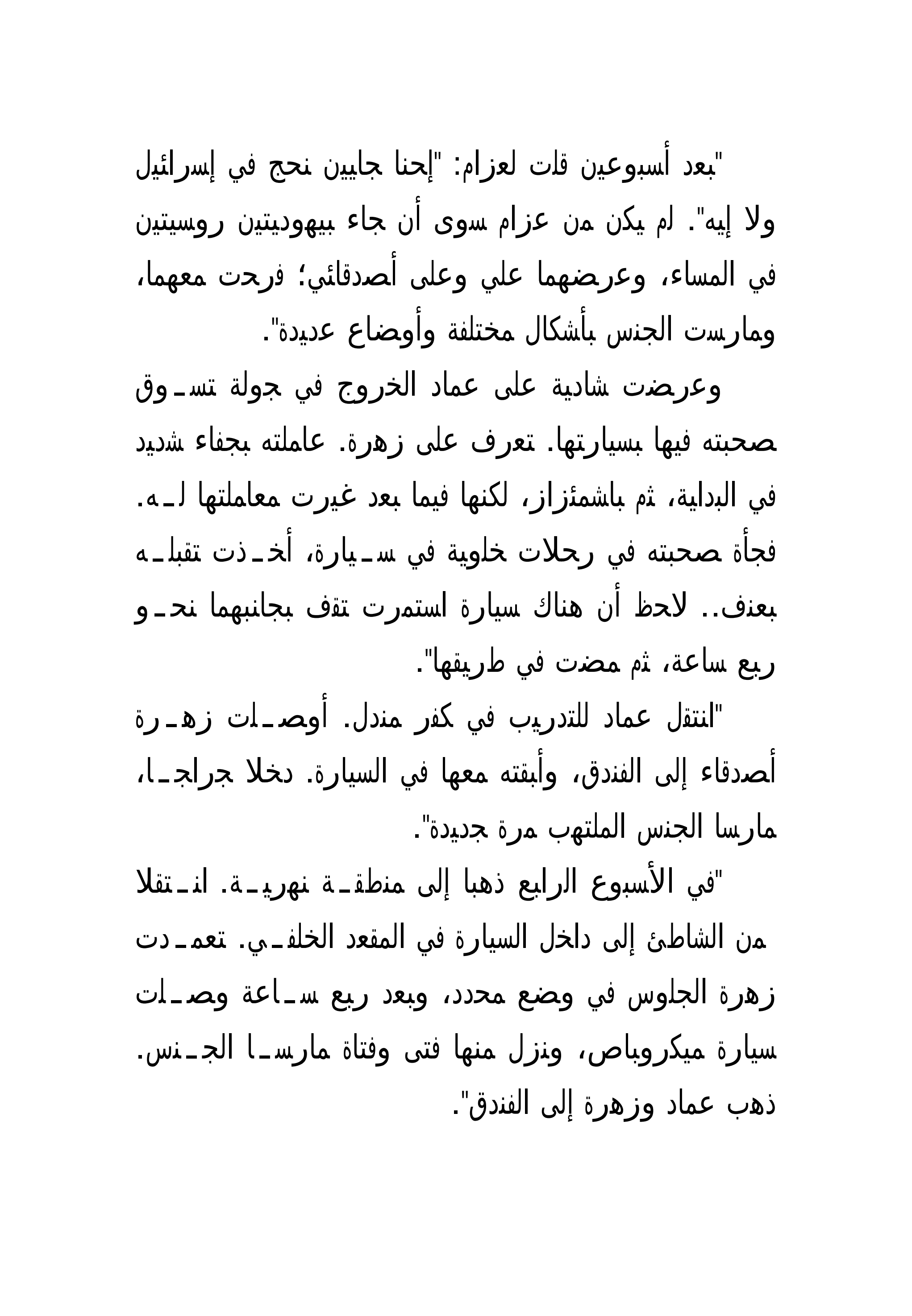
في ٢٦ أبريل توجه عماد والإسرائيليان إلـى فنـدق فلسطين في الإسكندرية، ثـم نقـلا إقامتهمـا إلـى فنـدق "سميراميس" في القاهرة.. شك ضابط شـرطة فـي عمـاد، عرضه على مباحث أمن الدولة.. بقي هناك يوما واحدا، ثـم أفرج عنه بعد أن نصح بالابتعاد عنهما.

سافرت زهرة وصاحب المصنع عائـدين لإسـرائيل، اتصلت بعماد مرة أخرى وعرفت أنه ترك المصنع، طلبـت منه السفر للأردن للعمل، وافق، سافر، اكتشف أنه لن يمكنه العمل لأنه غير أردني. اتصل بزهرة، قال إنه عائد للقاهرة، أقنعته بالبقاء حتى يتم اللقاء بينهما بعـد أيـام فـي الأردن. وجاءت بالفعل، قالت إنها ستجهز له أوراقًا للعمـل داخـل إسرائيل. يقول إنه شعر بخطورة الأمر، هرب منها، ظلـت

تطارده حتى قابلته مرة أخرى، يقول إنه تصنع الموافقة حتى عاد إلى القاهرة.

وفي جزء آخر من التقرير يعـود عمـاد إلـى شـرح تفاصيل رحلته لإسرائيل: "فور وصولي اسـتقبلني "عـزام متعب عزام " (درزي إسرائيلي)، وأوصلني حتـى الفنـدق، تركني ثم عاد في الساعة السـابعة صـباحا لنقـوم بجولـة في مصانع الشركة. بعد الغداء عدنا إلـى الفنـدق، وكـان من نصيبي التدريب في مصنع في منطقة "سيجاف". أشرفت علي في البداية واحدة اسمها دلال. لم تعلمني شـيئًا. فجـأة ظهرت شادية، دعتني إلى خط إنتاجها.. دربتني.. ".

"في أول يوم من الأسبوع الثاني عرفت "إزاك" (متعهـد حفلات)، عرض علي ممارسة الجنس مع فتاة؛ فعلت. فـي اليوم الثاني طلبت مني فتاة اسمها "علا" أن أتدرب في خـط إنتاجها، دار حوار بيننا عرفت منه أنها تريد الـذهاب إلـى مصر والحياة فيها، عرضت عليها الزواج. قالت إنها ستكلم أهلها. في اليوم التالي جاءتني عائشة سكرتيرة المدير، وقالت إن ما قلته لعلا سبب لها مشاكل.. اعتذرت".



"بعد أسبوعين قلت لعزام: "إحنا جايين نحج في إسرائيل ولا إيه". لم يكن من عزام سوى أن جاء بيهوديتين روسيتين في المساء، وعرضهما علي وعلى أصدقائي؛ فرحت معهما، ومارست الجنس بأشكال مختلفة وأوضاع عديدة".

وعرضت شادية على عماد الخروج في جولة تسـوق صحبته فيها بسيارتها. تعرف على زهرة. عاملته بجفاء شديد في البداية، ثم باشمئزاز، لكنها فيما بعد غيرت معاملتها لـه. فجأة صحبته في رحلات خلوية في سـيارة، أخـذت تقبلـه بعنف.. لاحظ أن هناك سيارة استمرت تقف بجانبهما نحـو ربع ساعة، ثم مضت في طريقها".

"انتقل عماد للتدريب في كفر مندل. أوصـلت زهـرة أصدقاء إلى الفندق، وأبقته معها في السيارة. دخلا جراجـا، مارسا الجنس الملتهب مرة جديدة".

"في الأسبوع الرابع ذهبا إلى منطقـة نهريـة. انـتقلا من الشاطئ إلى داخل السيارة في المقعد الخلفـي. تعمـدت زهرة الجلوس في وضع محدد، وبعد ربع سـاعة وصـلت سيارة ميكروباص، ونزل منها فتى وفتاة مارسـا الجـنس. ذهب عماد وزهرة إلى الفندق".

"في اليوم الأخير تناول عماد مع زهرة وشادية العشاء في مطعم سمعان، في الفندق وصل شخص اسمه ميكي عرفته على عماد. في يوم السفر دار حوار تليفوني مع زهرة.. تواعدا على مداومة الاتصال".

في الأردن: قابل عماد زهرة. ظهر صديق لها اسمه ماهر. انتحى به جانبا.. حدثه عن دولة إسرائيل. زهرة قالت له إن ماهر سوف يسهل سفره لإسرائيل. ماهر أخرج لعماد ألبوم صور ملونًا له، وهو يمارس الجنس مع زهرة. عماد انهار نفسيا. ماهر قال له إن إسرائيل قادرة على حمايته. أخرج له إقرارا ليوقعه للعمل مع الموساد. وقع.. حصل على أول مكافأة منهم: "٣٠٠ دولار".. وقع عماد إيصال استلام المبلغ.

إلى هنا نتوقف عن سرد مزيد من تفاصيل التقرير مؤقتًا. نتوقف لنشير إلى أبعاد الصورة التي رسمها عماد لنفسه.. إنه كما بدا من القصة كان يقدم نفسه بوضوح.. في ذهنه خيالات غامضة عن الجنس والحياة في إسرائيل. كان هو الذي يسعى.. وكان هو الذي يطلب.. وقد أدركوا هم هذا.. أيقنوا أن لديهم صيدا طيبا.. شاب فقير باحث عن

المال والمتعة.. مرحبا.. خذ.. وحين أخذ كان أن وفر لهـم أسلوب السيطرة عليه.. أوضاع جنسية مشينة في الشـارع، وألبوم صور يروي القصة كاملـة. وكـان مـن الطبيعـي وبسرعة أن يوقعوه؛ فوقع.. ودارت تفاصيل الحكايـة التـي اختلطت فيها القوادة بالسياسة من خلال ملف تجسس عـامر بالتفاصيل.

ووفقًا للتقرير الذي كتبه عماد بدأت عمليـات تدريبـه: "علموني استيفاء المعلومات حول قياس الرأي العام. كيـف أحفظ هذا في الذاكرة بـدون أن أكتبـه فـي ورق. طلبـوا معلومات عـن أعـداد المصـريين القـادمين مـن الأردن ولو بالتقريب، وأعداد الراغبين في دخول لبنان، ومـن هـم زعماء تهريب المصريين من سوريا إلى لبنـان وبـالعكس، ومدى إقبال المصريين على الجنس في الأردن، ومـا هـي المشاكل التي يتعرضون لها. علمته زهـرة كيـف يكتـب الرسائل بالشفرة من الكتاب المقـدس. الطريقـة الحسـابية للشفرة كانت مدونة في كتاب صغير".

كان الصيد سهلاً للغاية، يتم التلاعب به وكأنه كرة تنس تتبادلها المضارب؛ ذلك أنهم راحوا يحاولون ممارسة أقصى

درجات السيطرة عليه. اتصلت به زهرة فقالت له إن أسرته في مصر تم إلقاء القبض عليها. سقط من الرعب. هرب من عمان إلى جرش، قابل مصريا هناك، اتضح له أنه يطـارد من المخابرات الأردنية بسبب علاقاته النسائية. تركه.. هرب مرة أخرى، دخل مسجدا ليتوب. خرج ففوجئ بـأن زهـرة تنادي عليه. كانت معها صـديقتها منـى أحمـد شـواهنة، اصطحبتاه إلى فندق في عمان. قالت له مني: لماذا لم تتصل بأهلك. وقالت له إن أسرته بخير. وقالت له: لقد فعلنا هذا بك كي نقيس رد فعلك.. ونصحوه بالعودة إلى مصر.

طلبوا منه أن يعود إلى عمان بعد شهر ونصف شـهر، على أن يجمع معلومات عن عدد المصانع في مدينة العاشر من رمضان ومدينة ٦ أكتوبر، ومتوسط عدد العمالة، ونوعية المصانع، والأزمات الاقتصادية، والمواد الغذائية الناقصة في مصر، ومدى تقبل الشارع للحكومة، وشعور المصريين تجاه نتنياهو، ومشاعر الشارع حـين يـزور مسـئول إسـرائيل القاهرة.

عاد إلى مصر، وكتب تقريرا إلى أجهزة الأمن حول ما جرى.. لكنه وقع في خطأ قاتل؛ إذ لم يذكر كـل الحقيقـة،

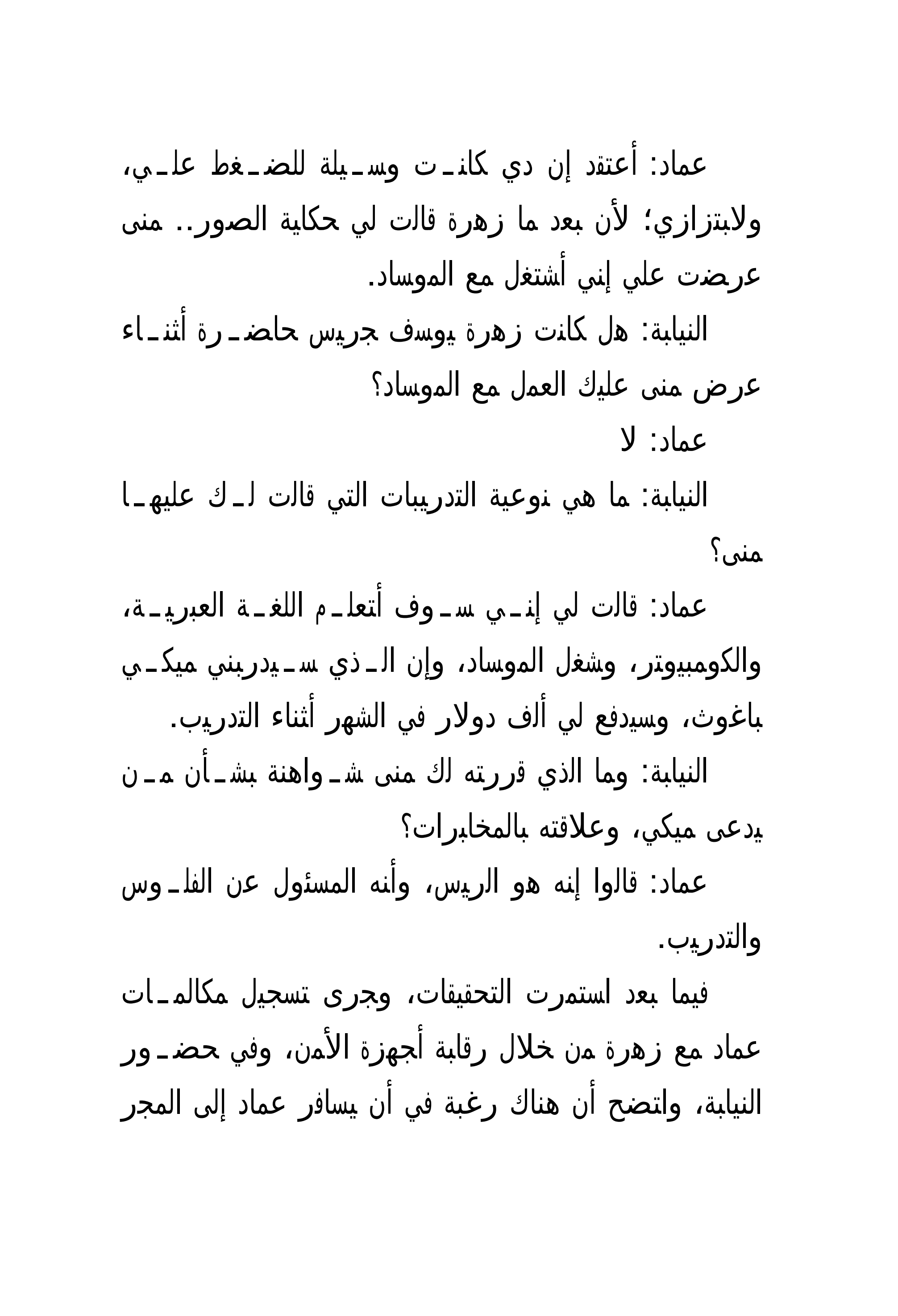
خاصة ذلك الإقرار الذي وقعه لصالح الموساد، وكتب فيه يقول: "أقر أنا عماد عبد الحميد أحمد إسماعيل، المصري الجنسية، وبكامل إرادتي، أنني أرغب في الدخول والإقامة بدولة إسرائيل، وأنني على أتم الاستعداد للتعاون مع جهاز الاستخبارات الإسرائيلي، نظير ما يقدمه لي من خدمات. إرساء للحرية واحتراما للديموقراطية بها، وأنني على كامل الاستعداد للتضحية بما أملك من وسيلة لنصرة شعبها".

في مصر بدأت تحقيقات النيابة مع عماد. كان يسأل عن التفاصيل، لكنه لم يكشف كل الحقيقة.

سألته النيابة: بماذا تعلل نفور زهرة منك (بعد أن كانت تجذبك إليها) بعد مغادرة السيارة التي كانت بجانبكما في المكان؟

قال عماد: أنا فهمت دلوقت إن المقصود أني أتصور معاها في وضع جنسي، وإن العربية دي كانت تصورنا، بدليل أنها بعد ما مشينا بدأت هي تتمنع علي بعد ما كانت بتضمني إليها.

النيابة: بماذا تفسر تصويرك في تلك الأوضاع الجنسية معها؟



عماد: أعتقد إن دي كانـت وسـيلة للضـغط علـي، ولابتزازي؛ لأن بعد ما زهرة قالت لي حكاية الصور.. منى عرضت علي إنني أشتغل مع الموساد.

النيابة: هل كانت زهرة يوسف جريس حاضـرة أثنـاء عرض منى عليك العمل مع الموساد؟

عماد: لا

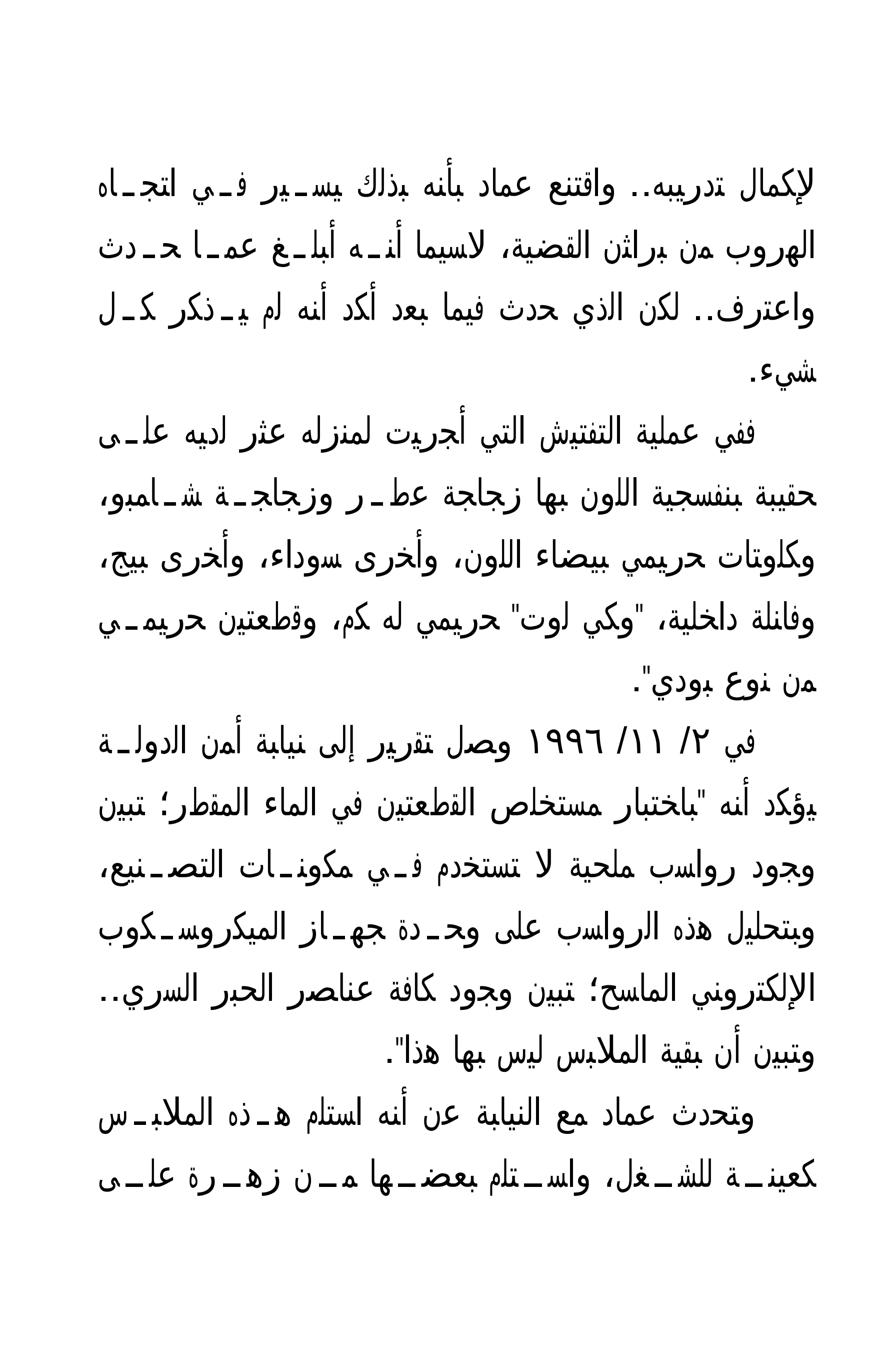
النيابة: ما هي نوعية التدريبات التي قالت لـك عليهـا منى؟

عماد: قالت لي إنـي سـوف أتعلـم اللغـة العبريـة، والكومبيوتر، وشغل الموساد، وإن الـذي سـيدربني ميكـي باغوث، وسيدفع لي ألف دولار في الشهر أثناء التدريب.

النيابة: وما الذي قررته لك منى شـواهنة بشـأن مـن يدعى ميكي، وعلاقته بالمخابرات؟

عماد: قالوا إنه هو الريس، وأنه المسئول عن الفلـوس والتدريب.

فيما بعد استمرت التحقيقات، وجرى تسجيل مكالمـات عماد مع زهرة من خلال رقابة أجهزة الأمن، وفي حضـور النيابة، واتضح أن هناك رغبة في أن يسافر عماد إلى المجر

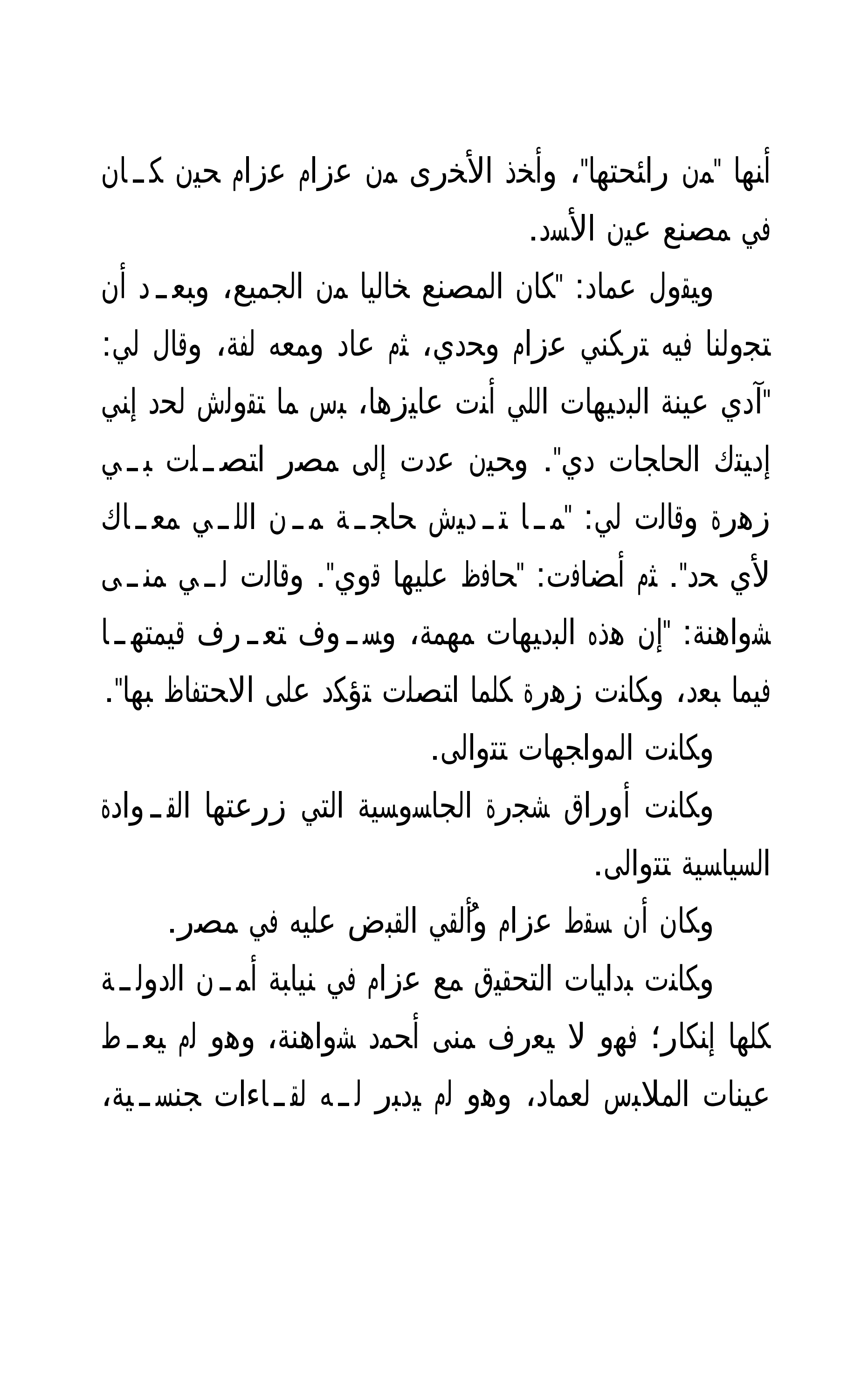


لإكمال تدريبه.. واقتنع عماد بأنه بذلك يسير في اتجاه الهروب من براثن القضية، لاسيما أنه أبلغ عما حدث واعترف.. لكن الذي حدث فيما بعد أكد أنه لم يذكر كل شيء.

ففي عملية التفتيش التي أجريت لمنزله عثر لديه على حقيبة بنفسجية اللون بها زجاجة عطر وزجاجة شامبو، وكلاوتات حريمي بيضاء اللون، وأخرى سوداء، وأخرى بيج، وفانلة داخلية، "وكي لوت" حريمي له كم، وقطعتين حريمي من نوع بودي".

في ٢/ ١١/ ١٩٩٦ وصل تقرير إلى نيابة أمن الدولة يؤكد أنه "باختبار مستخلص القطعتين في الماء المقطر؛ تبين وجود رواسب ملحية لا تستخدم في مكونات التصنيع، وبتحليل هذه الرواسب على وحدة جهاز الميكروسكوب الإلكتروني الماسح؛ تبين وجود كافة عناصر الحبر السري.. وتبين أن بقية الملابس ليس بها هذا".

وتحدث عماد مع النيابة عن أنه استلم هذه الملابس كعينة للشغل، واستلم بعضها من زهرة على



أنها "من رائحتها"، وأخذ الأخرى من عزام عزام حين كان في مصنع عين الأسد.

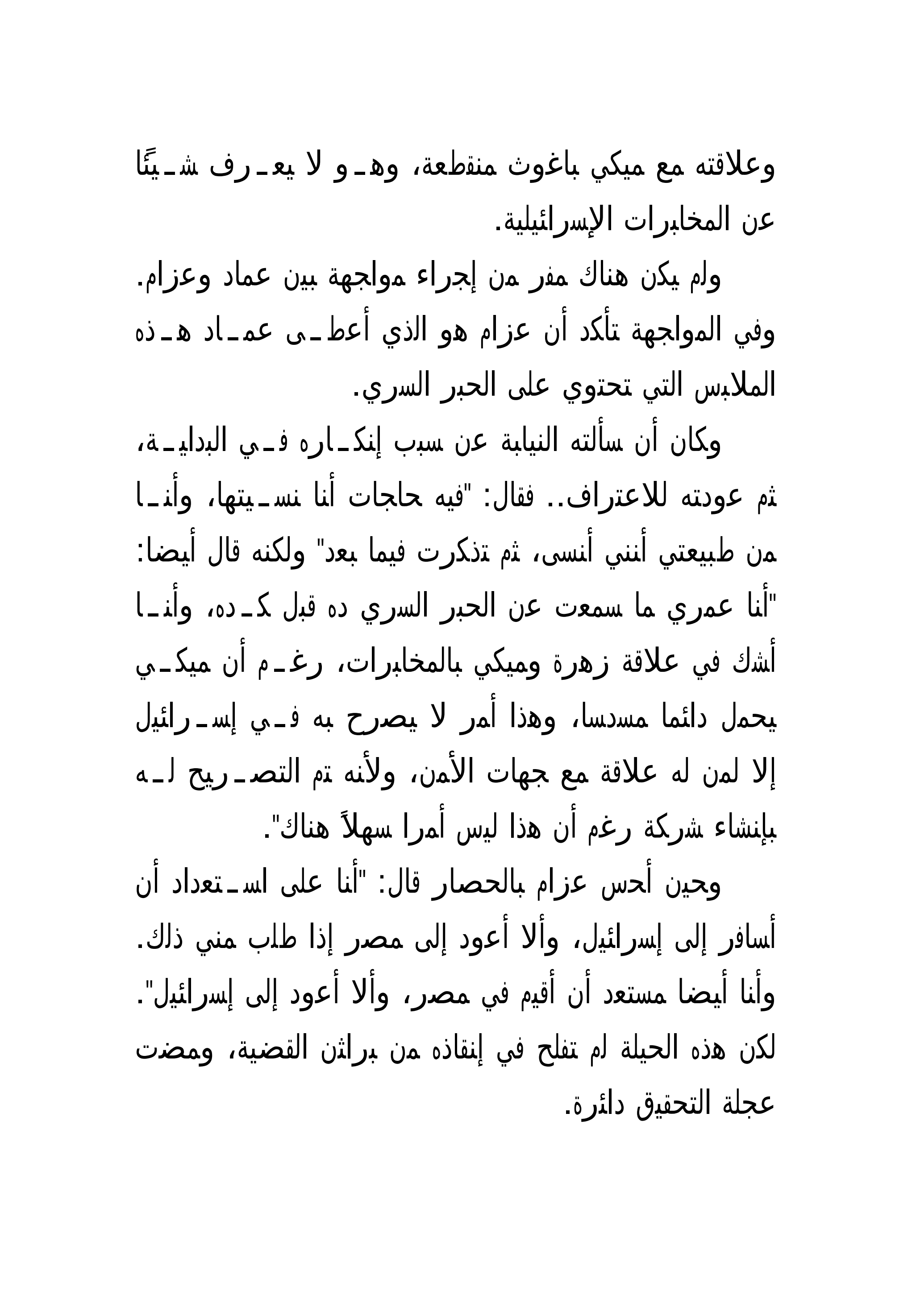
ويقول عماد: "كان المصنع خاليا من الجميع، وبعد أن تجولنا فيه تركني عزام وحدي، ثم عاد ومعه لفة، وقال لي: "آدي عينة البديهات اللي أنت عايزها، بس ما تقولش لحد إني إديتك الحاجات دي". وحين عدت إلى مصر اتصلت بي زهرة وقالت لي: "ما تديش حاجة من اللي معاك لأي حد". ثم أضافت: "حافظ عليها قوي". وقالت لي منى شواهنة: "إن هذه البديهات مهمة، وسوف تعرف قيمتها فيما بعد، وكانت زهرة كلما اتصلت تؤكد على الاحتفاظ بها".

وكانت المواجهات تتوالى.

وكانت أوراق شجرة الجاسوسية التي زرعتها القوادة السياسية تتوالى.

وكان أن سقط عزام وأُلقي القبض عليه في مصر.

وكانت بدايات التحقيق مع عزام في نيابة أمن الدولة كلها إنكار؛ فهو لا يعرف منى أحمد شواهنة، وهو لم يعط عينات الملابس لعماد، وهو لم يدبر له لقاءات جنسية،


وعلاقته مع ميكي باغوث منقطعة، وهـو لا يعـرف شـيئًا عن المخابرات الإسرائيلية.

ولم يكن هناك مفر من إجراء مواجهة بين عماد وعزام. وفي المواجهة تأكد أن عزام هو الذي أعطـى عمـاد هـذه الملابس التي تحتوي على الحبر السري.

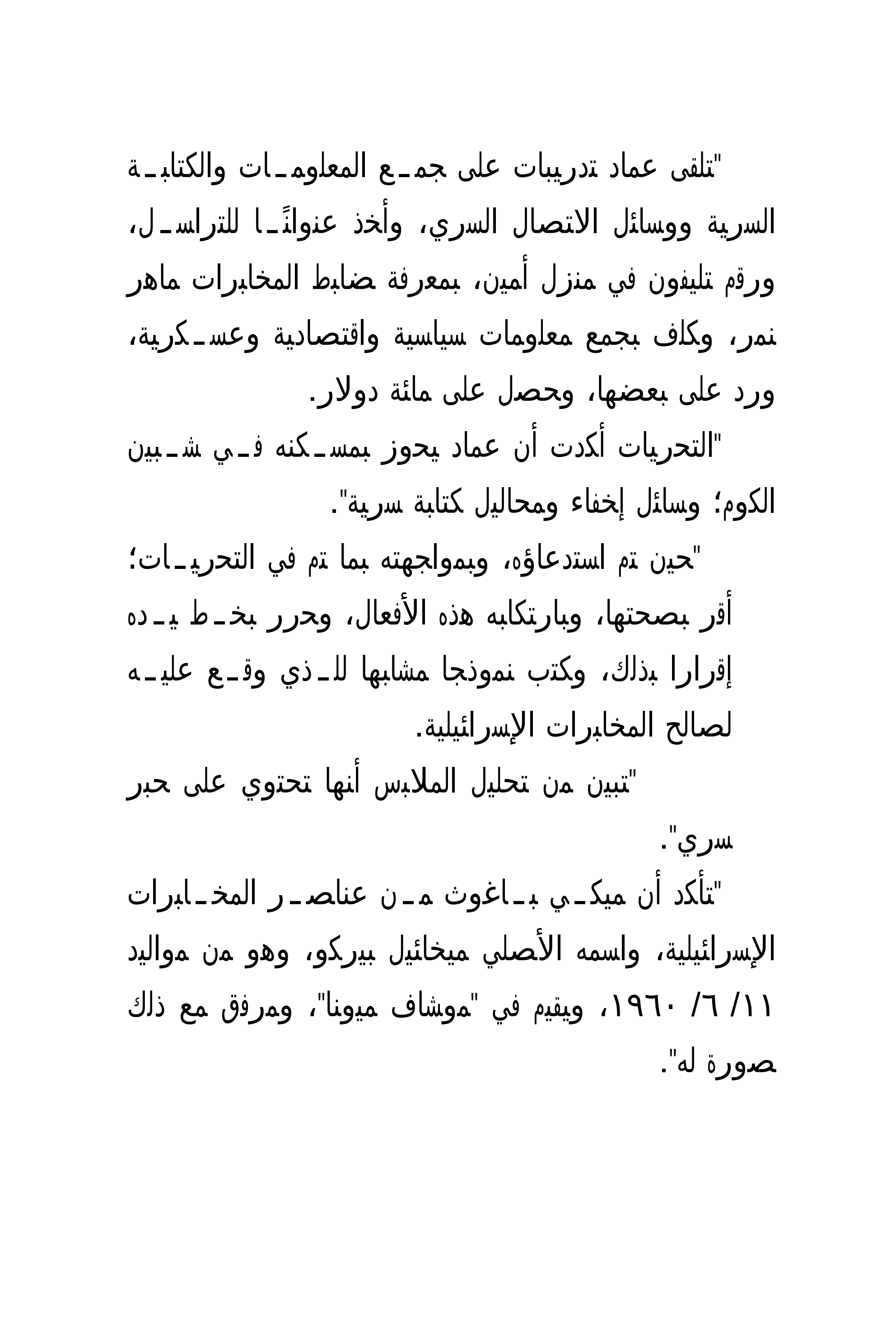
وكان أن سألته النيابة عن سبب إنكـاره فـي البدايـة، ثم عودته للاعتراف.. فقال: "فيه حاجات أنا نسـيتها، وأنـا من طبيعتي أنني أنسى، ثم تذكرت فيما بعد" ولكنه قال أيضا: "أنا عمري ما سمعت عن الحبر السري ده قبل كـده، وأنـا أشك في علاقة زهرة وميكي بالمخابرات، رغـم أن ميكـي يحمل دائما مسدسا، وهذا أمر لا يصرح به فـي إسـرائيل إلا لمن له علاقة مع جهات الأمن، ولأنه تم التصـريح لـه بإنشاء شركة رغم أن هذا ليس أمرا سهلاً هناك".

وحين أحس عزام بالحصار قال: "أنا على اسـتعداد أن أسافر إلى إسرائيل، وألا أعود إلى مصر إذا طلب مني ذلك. وأنا أيضا مستعد أن أقيم في مصر، وألا أعود إلى إسرائيل". لكن هذه الحيلة لم تفلح في إنقاذه من براثن القضية، ومضت عجلة التحقيق دائرة.

وفي جانب آخر من التحقيقات تأكد أن عزام متورط حتى أذنيه في تجنيد عماد؛ إذ تبين بدقة أنه هو الذي منحه "البديهات"، وأنه هو الذي قرر من فترة تدريب عماد في إسرائيل، بخلاف زملائه المصريين، ويساعده أخوه وفا عزام. وقال أحمد الناظر (وهو زميل لعماد) أنه رأى عزام وقد أحضر بنتين لعماد كي يمارس الجنس معهما، وأنه عرض على بقية المصريين هذا فرفضوا. ولما رفضوا قال لهم: "إيه انتو مش رجالة".

وفي اتجاه آخر كانت مذكرة الأمن القومي التي أرسلت إلى النيابة تؤكد ذلك.. إذ قالت: "سافر عماد إلى إسرائيل في ٢٤ / ١ / ١٩٩٦، وتعرف على زهرة يوسف جريس، ومنى أحمد شواهنة، وتوطدت العلاقة بينهما".

"سافر إلى الأردن في يوم ١٧/ ٥/ ١٩٩٦ بناء على اتصال تليفوني من زهرة يوسف جريس؛ حيث قدمته إلى ضابط المخابرات الإسرائيلي ماهر نمر يوم ٢٥/ ٥/ ١٩٩٦، وقام بتجنيده في فندق فيلادفيا في الأردن، ووقع على إقرار بذلك واستلم ٣٠٠ دولار".



"تلقى عماد تدريبات على جمـع المعلومـات والكتابـة السرية ووسائل الاتصال السري، وأخذ عنوانًـا للتراسـل، ورقم تليفون في منزل أمين، بمعرفة ضابط المخابرات ماهر نمر، وكلف بجمع معلومات سياسية واقتصادية وعسـكرية، ورد على بعضها، وحصل على مائة دولار.

"التحريات أكدت أن عماد يحوز بمسـكنه فـي شـبين الكوم؛ وسائل إخفاء ومحاليل كتابة سرية".

"حين تم استدعاؤه، وبمواجهته بما تم في التحريـات؛ أقر بصحتها، وبارتكابه هذه الأفعال، وحرر بخـط يـده إقرارا بذلك، وكتب نموذجا مشابها للـذي وقـع عليـه لصالح المخابرات الإسرائيلية.

"تبين من تحليل الملابس أنها تحتوي على حبر سري".

"تأكد أن ميكـي بـاغوث مـن عناصـر المخـابرات الإسرائيلية، واسمه الأصلي ميخائيل بيركو، وهو من مواليد ١١/ ٦/ ١٩٦٠، ويقيم في "موشاف ميونا"، ومرفق مع ذلك صورة له".

وتجمعت خيوط القضية. ودارت عجلة المحاكمـة[*]... ولم يوقف هذا الدوران الضغوط التي كانت تمارسها دولـة إسرائيل إعلاميا وسياسيا.. وحكمت المحكمة بمعاقبة كل من؛ عماد عبد الحميد أحمد إسماعيل، وزهرة يوسـف جـريس، ومنى أحمد شواهنة بالأشغال الشاقة المؤبدة، ومعاقبة عـزام متعب عزام بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة.

وانتهت القصة المعقدة التي بدأت بمشهد قوادة سياسية دبره ضابط، وكان بطله عماد وبطلته زهرة؛ حيـث جـرى الجنس في سيارة، وحيث تم تصوير كل هذا لاستغلاله فـي ابتزاز عماد، الذي لم يكن في الواقع في حاجة لابتزاز؛ لأنه كان صيدا سهلاً للغاية لقوادي السياسة.

---

[*] تمت متابعة هذه القضية إعلاميا، في وسائل إعلام عديدة ، لاسـيما الصحف المصرية، وقد اعتمدت مادة هذا الفصل علـى هـذه المـواد المنشورة، خاصة في صحف الأهرام والعربي والوفد وروز اليوسف، فضلاً عن كتاب اسمه "العاهرة والجاسوس" لعصام كامل، يحوي ملف القضية كاملاً.

15

الوجبة البديلة

"وقد كان هناك توظيـف سياسي لقضية حنان تـرك، كما كان هنـاك مـن قبـل توظيف سياسي لقضية ميمي شكيب".

القاهرة.. خريف ١٩٩٧.

بدت العاصمة تعاني من الملل، لا تجـد شـيئًا تفعلـه، أحداثها رتيبة، إيقاعها ميت، أيامها راكدة، وسخونتها فاترة؛ كل شيء عادي جدا، روتين قاتل، لا يوجد شيء هام يلفـت أنظار الناس.. كل الأمور مكرره ومعادة.. ضاعت الزهـوة الأولى للمشروع الضخم للتنميـة فـي توشـكي، وراحـت في نفس الاتجاه كل الأحاديث عـن المشـروعات القوميـة المماثلة في سيناء وشرق العوينات. واعتاد الناس هذا الجدل الدائر بين مصر وإسرائيل حول عملية السـلام.. وزهقـوا من جمود موقف الأطراف في هذه القضية دون جديد.

إن نتانياهو متطرف.. عادي. إنـه لا يحـرك عمليـة التفاوض.. قديمة. توشكى هي الأمل.. عرفنا.. ونحـن فـي انتظار أن تثبت الحكومة هذا. مشروع شرق التفريعـة كلـه خير... نحن في الانتظار أيضـا. قضـية عـلاء مبـارك في جريدة الشرق الأوسط سـتجد حـلاً... أمـر متوقـع. التليفزيون يجهز برامج رمضان... أمر يحدث كـل عـام.

الصحف الصغيرة تروج شائعات وتنشر حكايـات ملفقـة... ليس هناك جديد. المعركة السياسية بين جريدة الشعب ووزير الداخلية حسن الألفي مستمرة.. عادي أيضا.

لكن الذي لم يكن عاديا هو أن هذه القضية الأخيرة ظلت تتصاعد؛ الاتهامات العديدة والمتنوعة من جريدة حزب العمل للوزير تتزايد في كل يوم. في كل عدد جديد يصـدر مـن الجريدة يضاف زيت إلى النار المشتعلة؛ فيتـأزم الموقـف أكثر. إن الجريدة تقول إن في الداخلية عصابة مـن أربعـة أفراد تحكم الأمور. إنها تقول إن الوزير يدعم فساد أسـرته من خلال منصبه. إنها تقول إن والديه عادل وعـلاء كونـا ثروة طائلة. إنها تقول إن الوزير يتخذ إجراءات غير قانونية ضد ضباط الوزارة. إنها تنشر حكايات الظلم وتلفيق القضايا. إن الوزير يصمت لـبعض الوقـت. إن الصـحيفة تنشـر مستندات، وبعض الأطراف تتحدث عـن تسـريب متعمـد للأوراق من داخل الوزارة. الوزير لم يزل صامتًا. الصحف الرسمية تتساءل لماذا يصمت. يتحرك وأخيرا يـتكلم، يقـدم بلاغًا ضد الجريدة للنائب العام. الحكومـة تتـرك الـوزير وحيدا. الشائعات تقول إن الحكومة تريد للوزير أن يسـقط،

الجريدة تضيف زيتًا جديداً إلى النار. الموقف يتعقد، لم يعـد في إمكان أي طرف أن يتراجع أو أن يأخـذ خطـوة فـي أي اتجاه معاكس.. لا الجريدة ولا الوزير. هناك من يتحدث عن مساندة من خلف الستار من قبل أطراف رسمية للجريدة ضد الوزير. صراع سلطة في الخفاء. الرأي العام يتسـاءل لماذا تقول "الشعب" كل هذا؟.. من أين أتت بهـذه الجـرأة؟ إن دعاية وزارة الداخلية تزعم أن هـذا لصـالح جماعـات التطرف. لصالح الإرهاب الذي تحاربه الوزارة.

الرأي العام لم يبد استجابة لهذا الرأي. وكل الأحـداث تمضي في اتجاه وصول كل الأطراف إلى حافـة الهاويـة؛ حيث مطلوب من طرف أن يلقي بآخر من فوق أعلى قمـة الجبل.. إلى حيث يلتهمه وحش الرأي العام الجـائع تمامـا إلى إجابة من أي نوع.

إن الحكومة اختارت موقف الصـمت، والحجـة التـي رفعتها فوق راية الشعارات؛ هي أن الحسم في يد القضـاء. وبعض الذين يتحدثون خلف الصورة المعلقة أمام الرأي العام يقولون إن هذا معناه صدور قرار تضحية بالوزير؛ إذ مـن يدري ما هو حكم القضاء؟ إنهم يقولون إن تقـديم الـوزير

بلاغًا إلى النائب العام ضد الجريدة لم يكن قراره هو. لكنه لم يتوقف، لقد قدم بلاغًا ثانيا، وثالثًـا، ورابعـا.. والصـحيفة وصحفيوها تذهب كل يوم إلى النيابة دون أن تتوقـف عـن النشر، بل إنها تعيد نشر بعض المستندات، بل إنهـا أيضـا تحولت في كل صفحاتها إلى أعداد كاملة عن الوزير.. لقـد أصبح الطريق مسدودا، وصارت كل الأطـراف ظهورهـا للحائط، كلها في مواجهة رأي عام يحمـل بندقيـة محشـوة بالطلقات، ويريد أن يختار هدفًا كي يصوب ناحيتـه فوهـة البندقية.

ولم يكن هناك سوى حل واحد. حل معروف تماما لكل الذين احترفوا لعبة السياسة.. حل من نوع خاص.. حل يوجه الأنظار إلى قضية أخرى تماما.. وحين تتوجه الأنظار فـي اتجاه آخر؛ يخف الضغط عن الاتجاه الأول، ويهـدأ تـوتر الرأي العام، ويتراجع إصبعه من فوق زناد البندقية الموجهة إلى قضية الجريدة والوزير.. لا بد من إسفنجة تمتص كـل هذه المشاعر الملتهبة؛ فالناس لن يقبلوا أن يوضع فجأة لوح ثلج فوق هذه النار المشتعلة.

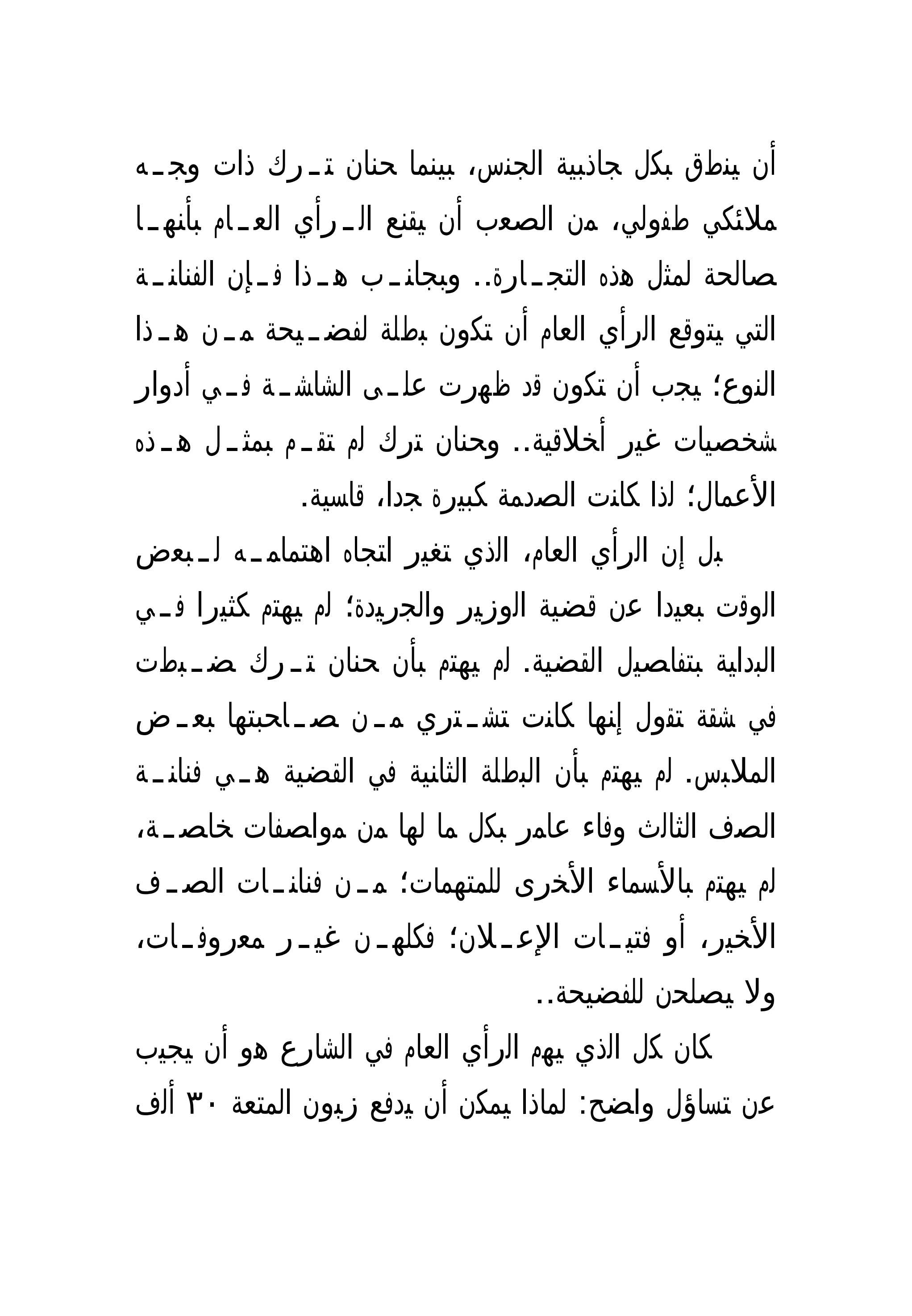
وكان الحل في حي الهرم. كانت الإسفنجة فـي شـقة اعتادت فنانة أن تتردد عليها. وكانت القصة التي تريد تغيير اتجاه الأحداث من نوع جيد.. مسلٍ تمامـا للـرأي العـام، الباحث دوما عن شيء يشغله عن كل هذه المتاعب اليوميـة التي تكتم أنفاسه. قضية آداب.

إن الرأي العام الغارق حتى أذنيه في حكايـات قضـية فساد الوزير وأبنائه ومعاونيه.. لا يمكن أن يترك كل هـذه المائدة العامرة بالنميمة إلى مائدة أخرى؛ إلا إذا قـدمت لـه مائدة أخرى من نفس النوع. فيها دسم يشـبع جوعـه إلـى الحكايات، وفيها لحم نجوم من نوع خاص.. نجوم هو علـى استعداد لأن يقبل دائما مثل هذه الحكايـات القـذرة عـنهم. والوجبة البديلة لا بد أن تكون رغم دسامتها سهلة الهضـم، لا بد أن تكون قرارات اتخاذ المواقف فيها غير صعبة، دون أن تخلو من جدل يشغل الناس وقتًـا طـويلاً حتـى تلملـم الأطراف كل أوراق القضية الأخرى المبعثرة في كل مكان، وفوق كل هذا يجب أن تكون الوجبة حارقة تلسـع الألسـن، وتصدم الذوق العام؛ يجب أن تكون قنبلة.

من هنا لم يكن من الممكن أن ينتبه الرأي العام الـذي يتشدق دائما بالحديث عن الأخلاق إلى قضية آداب عاديـة؛ يجب أن تكون قضية صدمة.

وقد تحققت الصدمة في هذه القضية التي ضبطت فيهـا (في أحد الشوارع الجانبية المتفرعة من شارع الهرم) بطلـة القضية الأولى؛ فنانة صغيرة السن، تحظى عند كثيـر مـن الناس بحبٍ حتمي.. وجهها طفـولي، أخلاقهـا المنظـورة لم تطل من قبل.. إعجاب الناس بها معلن، والصحافة الفنيـة لا تتبادل عنها الشائعات؛ إنها حنان ترك، التي بلـغ مـدى تقديس الرأي العام لها أن قيل إنها فاتن حمامة القادمة؛ وفاتن هي النموذج المعلن للأخلاق بين أهل الفن عند الناس.

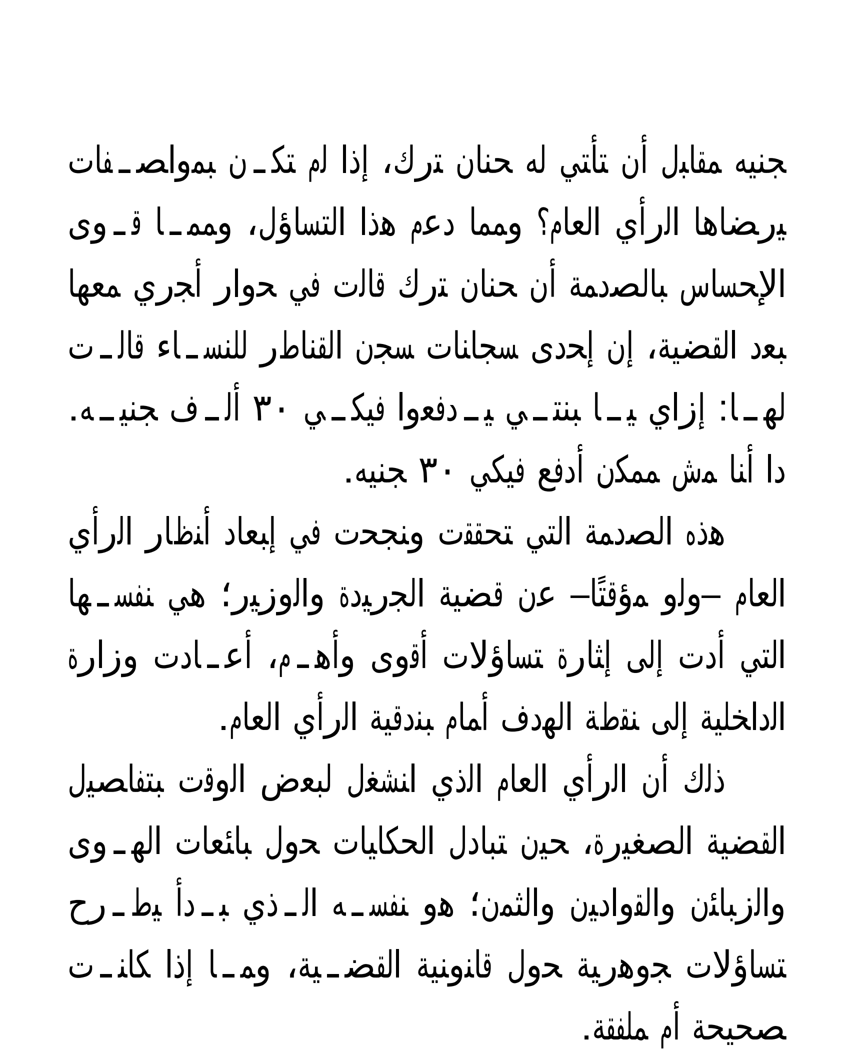
إن لنا أن نتصور مدى الصدمة التي أصيب بها الـرأي العام من هذه القضية، حين تكون هذه الفتاة الصـغيرة هـي البطلة؛ لاسيما أن هذا الرأي العام لديه في عقليته الجمعيـة مواصــفات خاصــة للمتهمــات فــي قضــايا الآداب، فهي في رأيه يجب أن تكون- وفق الذوق الجنسـي الشـره- صاروخًا لا يقاوم، بينما حنان ترك نحيفة ضـعيفة، فقيـرة، عادية. إن بطلة الفضيحة –وفق الذوق الشعبي– وجهها يجب



أن ينطق بكل جاذبية الجنس، بينما حنان تـرك ذات وجـه ملائكي طفولي، من الصعب أن يقنع الـرأي العـام بأنهـا صالحة لمثل هذه التجـارة.. وبجانـب هـذا فـإن الفنانـة التي يتوقع الرأي العام أن تكون بطلة لفضـيحة مـن هـذا النوع؛ يجب أن تكون قد ظهرت علـى الشاشـة فـي أدوار شخصيات غير أخلاقية.. وحنان ترك لم تقـم بمثـل هـذه الأعمال؛ لذا كانت الصدمة كبيرة جدا، قاسية.

بل إن الرأي العام، الذي تغير اتجاه اهتمامـه لـبعض الوقت بعيدا عن قضية الوزير والجريدة؛ لم يهتم كثيرا فـي البداية بتفاصيل القضية. لم يهتم بأن حنان تـرك ضـبطت في شقة تقول إنها كانت تشـتري مـن صـاحبتها بعـض الملابس. لم يهتم بأن البطلة الثانية في القضية هـي فنانـة الصف الثالث وفاء عامر بكل ما لها من مواصفات خاصـة، لم يهتم بالأسماء الأخرى للمتهمات؛ مـن فنانـات الصـف الأخير، أو فتيـات الإعـلان؛ فكلهـن غيـر معروفـات، ولا يصلحن للفضيحة..

كان كل الذي يهم الرأي العام في الشارع هو أن يجيب عن تساؤل واضح: لماذا يمكن أن يدفع زبون المتعة ٣٠ ألف

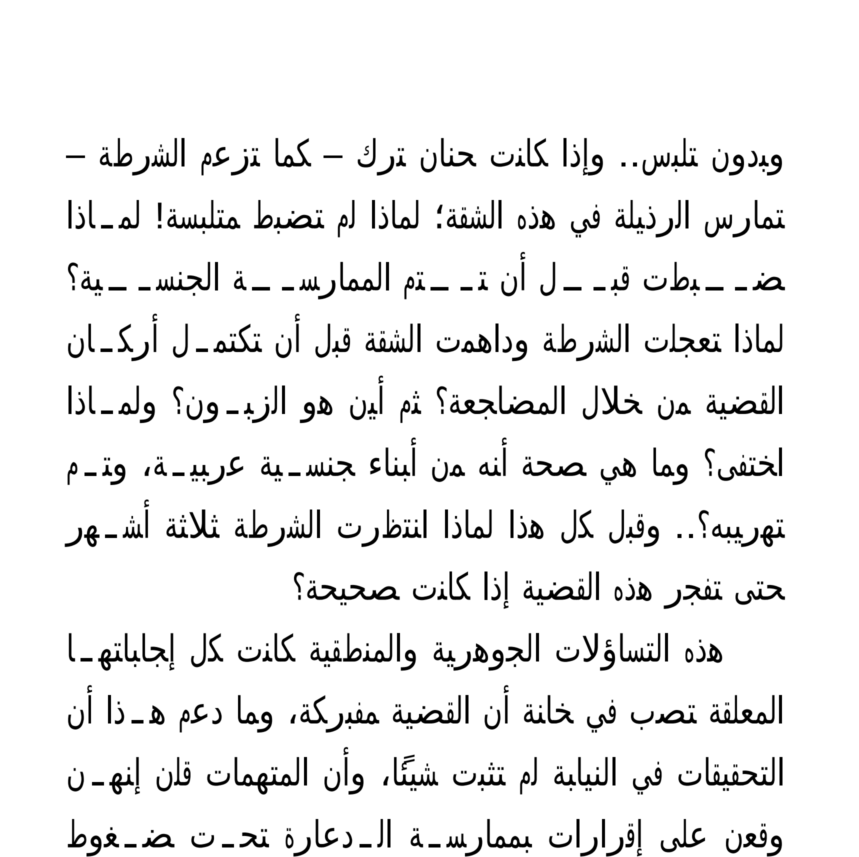


جنيه مقابل أن تأتي له حنان ترك، إذا لم تكن بمواصفات يرضاها الرأي العام؟ ومما دعم هذا التساؤل، ومما قوى الإحساس بالصدمة أن حنان ترك قالت في حوار أجري معها بعد القضية، إن إحدى سجانات سجن القناطر للنساء قالت لها: إزاي يا بنتي يدفعوا فيكي ٣٠ ألف جنيه. دا أنا مش ممكن أدفع فيكي ٣٠ جنيه.

هذه الصدمة التي تحققت ونجحت في إبعاد أنظار الرأي العام –ولو مؤقتًا– عن قضية الجريدة والوزير؛ هي نفسها التي أدت إلى إثارة تساؤلات أقوى وأهم، أعادت وزارة الداخلية إلى نقطة الهدف أمام بندقية الرأي العام.

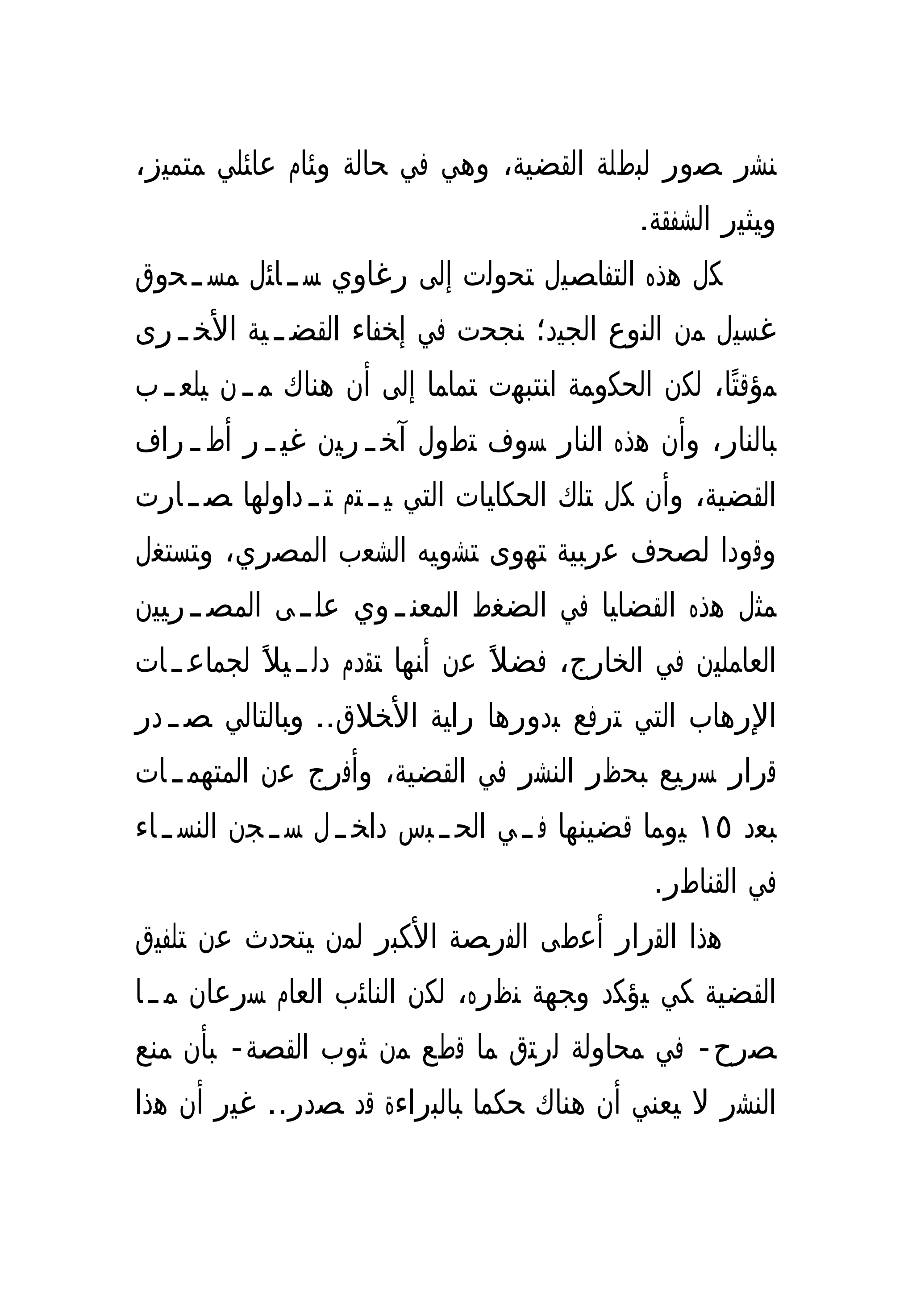
ذلك أن الرأي العام الذي انشغل لبعض الوقت بتفاصيل القضية الصغيرة، حين تبادل الحكايات حول بائعات الهوى والزبائن والقوادين والثمن؛ هو نفسه الذي بدأ يطرح تساؤلات جوهرية حول قانونية القضية، وما إذا كانت صحيحة أم ملفقة.

كانت التساؤلات منطقية جدا. فالشرطة تقول إن حنان ترك ضبطت في الشقة التي تراقب منذ ثلاثة أشهر؛ إذن لماذا تم إلقاء القبض على ١٧ فتاة أخرى في أماكن أخرى،



وبدون تلبس.. وإذا كانت حنان ترك – كما تزعم الشرطة – تمارس الرذيلة في هذه الشقة؛ لماذا لم تضبط متلبسة! لماذا ضبطت قبل أن تتم الممارسة الجنسية؟ لماذا تعجلت الشرطة وداهمت الشقة قبل أن تكتمل أركان القضية من خلال المضاجعة؟ ثم أين هو الزبون؟ ولماذا اختفى؟ وما هي صحة أنه من أبناء جنسية عربية، وتم تهريبه؟.. وقبل كل هذا لماذا انتظرت الشرطة ثلاثة أشهر حتى تفجر هذه القضية إذا كانت صحيحة؟

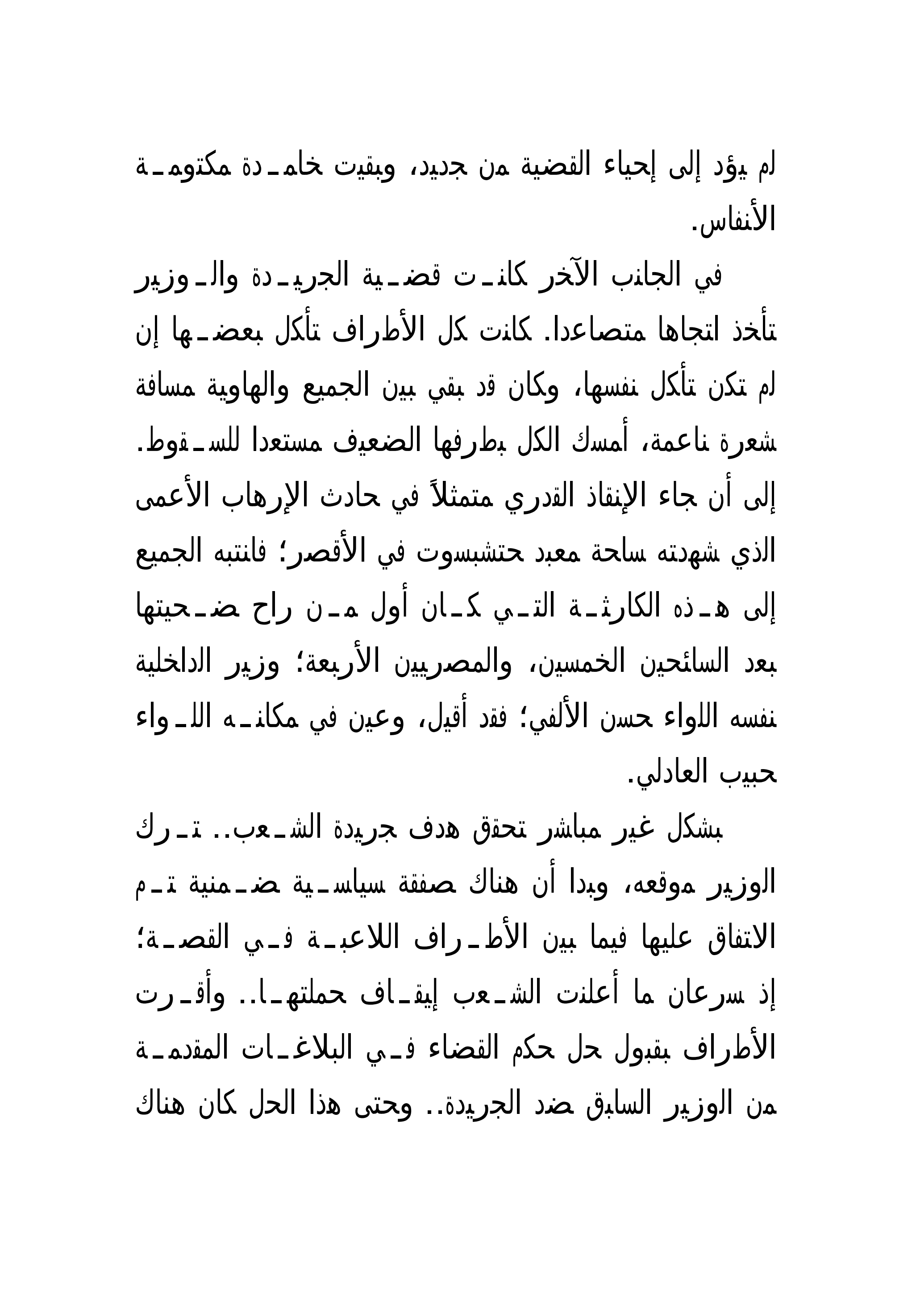
هذه التساؤلات الجوهرية والمنطقية كانت كل إجاباتها المعلقة تصب في خانة أن القضية مفبركة، وما دعم هذا أن التحقيقات في النيابة لم تثبت شيئًا، وأن المتهمات قلن إنهن وقعن على إقرارات بممارسة الدعارة تحت ضغوط من الضباط.. وبجانب هذا فإن عديدا من الصحف راحت تنشر تحقيقات عن أن قضايا الآداب غالبا ما تكون براءة. وراحت أيضا تشير من طرف خفي إلى إمكانية تلفيق القضية، بينما هناك شائعات عديدة يتلقفها الرأي العام تصب في نفس الاتجاه.. في حين كانت هناك مجلات تحرص على



نشر صور لبطلة القضية، وهي في حالة وئام عائلي متميز، ويثير الشفقة.

كل هذه التفاصيل تحولت إلى رغاوي سائل مسحوق غسيل من النوع الجيد؛ نجحت في إخفاء القضية الأخرى مؤقتًا، لكن الحكومة انتبهت تماما إلى أن هناك من يلعب بالنار، وأن هذه النار سوف تطول آخرين غير أطراف القضية، وأن كل تلك الحكايات التي يتم تداولها صارت وقودا لصحف عربية تهوى تشويه الشعب المصري، وتستغل مثل هذه القضايا في الضغط المعنوي على المصريين العاملين في الخارج، فضلاً عن أنها تقدم دليلاً لجماعات الإرهاب التي ترفع بدورها راية الأخلاق.. وبالتالي صدر قرار سريع بحظر النشر في القضية، وأفرج عن المتهمات بعد ١٥ يوما قضينها في الحبس داخل سجن النساء في القناطر.

هذا القرار أعطى الفرصة الأكبر لمن يتحدث عن تلفيق القضية كي يؤكد وجهة نظره، لكن النائب العام سرعان ما صرح- في محاولة لرتق ما قطع من ثوب القصة- بأن منع النشر لا يعني أن هناك حكما بالبراءة قد صدر.. غير أن هذا


لم يؤد إلى إحياء القضية من جديد، وبقيت خامـدة مكتومـة الأنفاس.

في الجانب الآخر كانـت قضـية الجريـدة والـوزير تأخذ اتجاها متصاعدا. كانت كل الأطراف تأكل بعضـها إن لم تكن تأكل نفسها، وكان قد بقي بين الجميع والهاوية مسافة شعرة ناعمة، أمسك الكل بطرفها الضعيف مستعدا للسـقوط. إلى أن جاء الإنقاذ القدري متمثلاً في حادث الإرهاب الأعمى الذي شهدته ساحة معبد حتشبسوت في الأقصر؛ فانتبه الجميع إلى هـذه الكارثـة التـي كـان أول مـن راح ضـحيتها بعد السائحين الخمسين، والمصريين الأربعة؛ وزير الداخلية نفسه اللواء حسن الألفي؛ فقد أقيل، وعين في مكانـه اللـواء حبيب العادلي.

بشكل غير مباشر تحقق هدف جريدة الشـعب.. تـرك الوزير موقعه، وبدا أن هناك صفقة سياسـية ضـمنية تـم الاتفاق عليها فيما بين الأطـراف اللاعبـة فـي القصـة؛ إذ سرعان ما أعلنت الشـعب إيقـاف حملتهـا.. وأقـرت الأطراف بقبول حل حكم القضاء فـي البلاغـات المقدمـة من الوزير السابق ضد الجريدة.. وحتى هذا الحل كان هناك

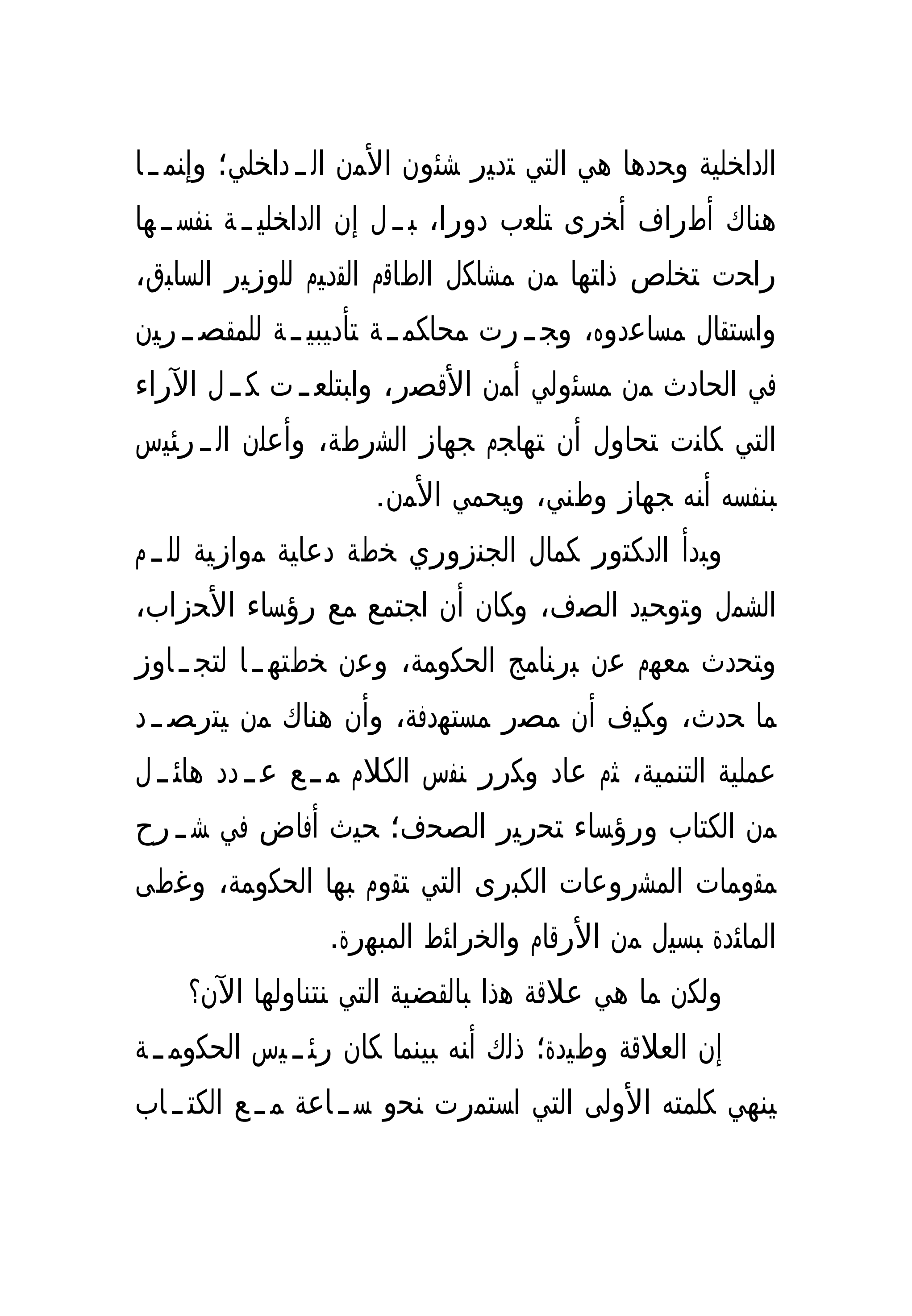
اتجاه لعدم الخوض فيه كثيرا؛ مـن خـلال مسـاعٍ جـرت للوصول إلى صيغة مصالحة بين الجانبين.

وكان يمكن أن ينتهي الأمر بهذه الصورة.

وكان يمكن أن يصدر هذا الكتاب بدون هـذا الفصـل، لولا أن هناك أمرا هاما حدث في مجلس الـوزراء خـلال الفترة التالية لحادث الأقصر المروع.

لقد كانت الدولة -والمجتمع الذي تحكمه أيضا– تعـاني من كارثة بكل المقاييس؛ فالمجزرة غير مسبوقة، والأسلوب غير معتاد حتى في حالات تنامي جرائم الإرهـاب الـديني، والأمن حالته مهترئة، والسياحة ضربت تماما، وعجلة التنمية كادت أن تعطل، وسمعة الدولة في الخارج منهارة، والنظـام نفسه مهدد، والشائعات في كل مكان وكل وقـت، وجهـاز الشرطة يحاول أن يجمع أشلاءه، والأجهزة تتصارع، والنقد حاد في كل الصحف، وتساؤلات الرأي العام تحولـت إلـى سياط على ظهر الحكومة.

وكانت خطة معالجة آثار الحادث متعددة الأبعاد؛ فبعـد أن نزل الرئيس بنفسه إلى مكان الحادث، وحقق شخصيا فيما جرى؛ أقيل الوزير السابق، وجاء وزير جديـد، ولـم تعـد



الداخلية وحدها هي التي تدير شئون الأمن الـداخلي؛ وإنمـا هناك أطراف أخرى تلعب دورا، بـل إن الداخليـة نفسـها راحت تخلص ذاتها من مشاكل الطاقم القديم للوزير السابق، واستقال مساعدوه، وجـرت محاكمـة تأديبيـة للمقصـرين في الحادث من مسئولي أمن الأقصر، وابتلعـت كـل الآراء التي كانت تحاول أن تهاجم جهاز الشرطة، وأعلن الـرئيس بنفسه أنه جهاز وطني، ويحمي الأمن.

وبدأ الدكتور كمال الجنزوري خطة دعاية موازية للـم الشمل وتوحيد الصف، وكان أن اجتمع مع رؤساء الأحزاب، وتحدث معهم عن برنامج الحكومة، وعن خطتهـا لتجـاوز ما حدث، وكيف أن مصر مستهدفة، وأن هناك من يترصـد عملية التنمية، ثم عاد وكرر نفس الكلام مـع عـدد هائـل من الكتاب ورؤساء تحرير الصحف؛ حيث أفاض في شـرح مقومات المشروعات الكبرى التي تقوم بها الحكومة، وغطى المائدة بسيل من الأرقام والخرائط المبهرة.

ولكن ما هي علاقة هذا بالقضية التي نتناولها الآن؟

إن العلاقة وطيدة؛ ذلك أنه بينما كان رئـيس الحكومـة ينهي كلمته الأولى التي استمرت نحو سـاعة مـع الكتـاب

ورؤساء التحرير؛ طلب من الحاضرين أن يمنحوا الحكومـة بعد الحادث فرصة، أن يمهلوها ثلاثة أشـهر حتـى تجمـع أشلاء ما جرى في الأقصر.

وكان معنى ما يقوله الدكتور الجنزوري خطيرا للغاية.. إنــه بشــكل غيــر مباشــر يطلــب أن يعقــد اتفاقًــا مع الصحافة – ولا نقول تواطؤًا – كي تتوقف عـن النقـد بعض الوقت؛ أي إنه يطلب هدنة.. فترة هدوء بمعنى آخر.

وبدأ الصحفيون مداخلات الحوار، وراح بعضهم يلقـي الأسئلة دون أن يشير إلـى مـا يطلبـه رئـيس الـوزراء من أمر خطير.. ووصل الدور إلى عادل حمودة نائب رئيس تحرير روز اليوسف، الذي بدا أنه لم يقبل تحرير الاتفـاق؛ فقال: "نحن مستعدون لأن نعطي الحكومة المهلة التي يقبلهـا رئيس الوزراء.. ولكن الحكومة لا تتعلم؟!.. ففي كـل مـرة تشير الصحافة إلى موضع الخطر، وتتجاهل الحكومة ذلـك، وتتكرر الكوارث التي حذرت منها الصحافة.. وقد قلنا مـن قبل إن مرتكب حادث سميراميس عاقل (يقصد صابر فرحات الذي أطلق النار على مجموعة مـن القـانونيين الأجانـب في فندق سميراميس عام ١٩٩٥)، وقالـت الحكومـة إنـه

مجنون، ثم ارتكب هو نفسه حادث التحرير (يقصـد إلقـاء صابر وأخيه لعبوات مولوتوف على باص سياحي به ألمان، في مواجهة المتحف المصري بالتحرير)، وحـوكم صـابر وقالت الحكومة إنه عاقل، وصدر ضده حكم بالإعدام؛ فكيف نثق في أن الحكومة تتعلم كي نمنحها مهلة الثلاثة أشهر؟"

وتوترت الأجواء؛ ذلك أن التعليق غير متوقع، بـل إن الجملة التي استخدمت فيه ("الحكومة لا تـتعلم") لـم تكـن منتظرة على الإطلاق، حتى إن الدكتور كمـال الجنـزوري اعتبرها خروجا عن آداب الحوار، وقال فـي تـوتر بـالغ: "أنت تعرف أنك تتكلم إلى رئيس وزراء مصر.. وهذه ليست لغة حوار مع الحكومة". وحاول وزيـر الإعـلام صـفوت الشريف أن يهدئ الأجواء حين قال: "إن ما يقصـده عـادل حمودة ليس موجها إلى رئيس الحكومة، ولكن معنى ما يقول هو أن أي موظف تابع للحكومة هي مسئولة عنه؛ فالشرطي في الشارع هو الحكومة، وموظف الضرائب هو الحكومـة؛ أي إنه يقصد المعنى الواسع !.. وعقب عادل حمودة قـائلاً: "إذا كان كلامي أثار توتر رئيس الحكومة؛ فـإنني أعتـذر، ولكني لا أسحب كلامي". ورد رئيس الـوزراء: "الحكومـة

ما بتتعلمش.. مش هي اللي أوقفت قضـايا الحسـبة؟" فـرد حمودة: "بعد أن كتبت الصحافة.. وهي التـي كانـت تلفـق قضايا الآداب". وقـال الجنـزوري وسـط حالـة شـديدة من التوتر: "الحكومة أيضا هي التي أوقفت تلفيـق قضـايا الآداب. فرد حمودة مجددا: "بعد أن كتبت الصحافة أيضا".

إن الجملة الأخيرة هي لب كل هذه القصة التي نتناولها الآن.. "الحكومة أوقفت تلفيق قضايا الآداب".

إنه اعتراف مؤكد بأن القضايا تلفـق. وهـو بالتـالي ما يدفعنا لطرح الموضوع هنا؛ ذلك أنـه لـو أن الحكومـة توقف.. فهي تلفق.. وبالتالي هناك غرض من هذا التلفيـق؛ وهو أمر لا أراه بعيدا عن سياق القوادين والسياسة؛ حيـث أتصور أن يتساوى من يمارس القوادة مـن أجـل المنفعـة المالية والسياسية، مع من يلفق القضـايا لتحقيـق المنفعـة السياسية. إن هذا مثل ذاك.

وإذا كان القواد قد باع للزبون بضاعة رخيصة.. فـإن من لفق باع للرأي العام أيضا بضاعة رخيصة.. وكان البطل في الحالتين هو قصص الجنس وحكايات النساء.

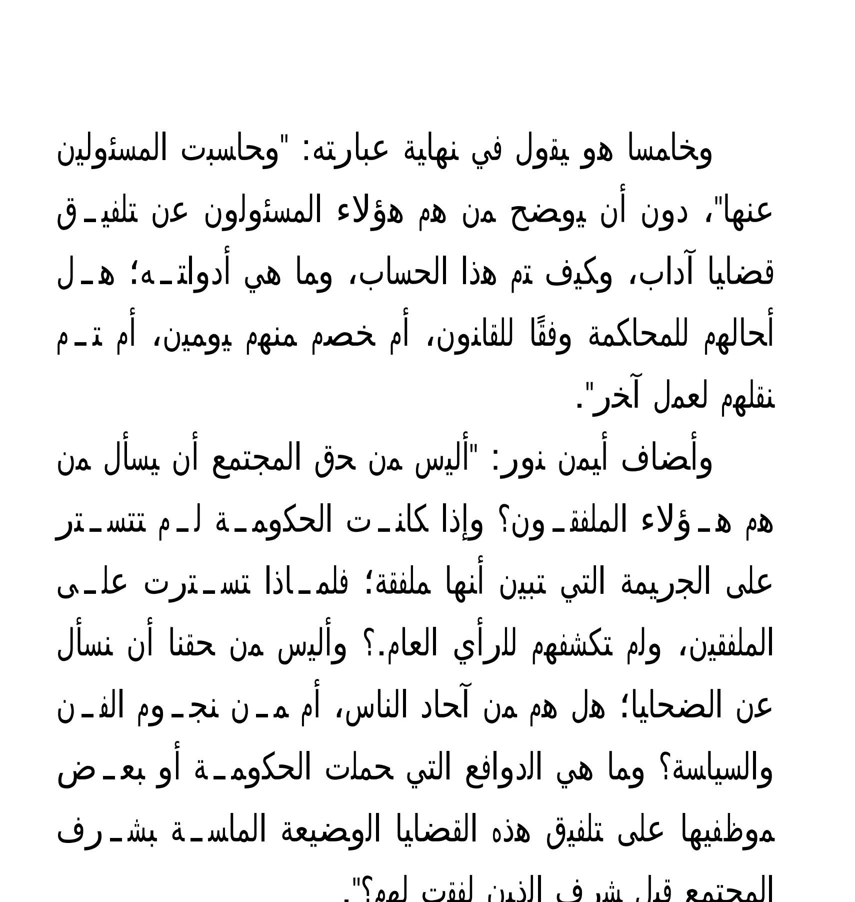
ولقد روى لي عادل حمودة هذه القصة عقب عودته من اجتماع رئيس الحكومة مع الصحفيين؛ باعتباري تلميذه ومساعده في روز اليوسف، ثم روى القصة بنفس التفاصيل في مقال له بالمجلة تحت عنوان "حوار ساخن مع رئيس الحكومة"، وقبله أشار إلى الواقعة نفسها محفوظ الأنصاري في افتتاحية جريدة الجمهورية (العدد الأسبوعي)، ولم يكن من الممكن أن تمر القصة دون أن يرصدها هذا الكتاب، وخاصة أن الصحفي أيمن نور (عضو مجلس الشعب) اهتم بها للغاية في جريدة الوفد، حين علق عليها في مرحلة تالية، أكثر من مرة.

لقد كان ما قاله أيمن نور هاما للغاية، ومن هنا فإنني أرصده هنا بدقة، كما جاء تحت عنوان: "دبرنا يا كبير الوزراء.. من خرق الدستور.. ومن لفق قضايا الآداب" (الوفد ١٦ ديسمبر ١٩٩٧)؛ حيث قال: "آخر التجاوزات، وليس أولها؛ هو ما نشر على لسان رئيس الوزراء في مجلة روز اليوسف العدد ٣٦٢٦ الصادر يوم الاثنين الماضي، والذي لم يكذب رغم مرور أكثر من أسبوع على نشره؛ حيث وردت هذه السطور: "قلت لرئيس الوزراء: "ألم تلفق

الحكومة قضايا آداب". فرد رئيس الوزراء قائلاً: "لقد تدخلت.. وأفرجت عن أطرافها.. فورا.. وحاسبت المسئولين عنها؟.. وأظن أن رئيس الوزراء مطالب بأن يوضح لنا هذا الكلام الذي قاله أمام رؤساء تحرير مصر، ولم يتراجع فيه أو عنه؛ فهو أولاً لم يخف أن الحكومة التي هو رئيسها لفقت زورا قضايا آداب، اتهم فيها بالطبع مواطنون مصريون في شرفهم وكرامتهم وسمعتهم.. وثانيا يقول رئيس الحكومة إنه تدخل في هذه القضية، أو القضايا. ومفهوم التدخل هنا يطرح علامات استفهام كبيرة حول السند القانوني أو الدستوري الذي استند عليه رئيس السلطة التنفيذية وهو يتدخل في قضايا أو قضية؛ وهي تقع بالطبع في ولاية سلطة أخرى لا ولاية له عليها؛ هي السلطة القضائية.

وثالثًا يقول رئيس الحكومة: "وأفرجت عن أطرافها"؛ وهنا يؤكد أن هذا التدخل لم يجهض ولم يفشل؛ بل تحقق بتمام الإفراج عن الأطراف الذين لفقت لهم هذه الاتهامات من الحكومة.

ورابعا هو يقول "فورا"، دون أن يشير إلى ما استند إليه في هذا التدخل.



وخامسا هو يقول في نهاية عبارته: "وحاسبت المسئولين عنها"، دون أن يوضح من هم هؤلاء المسئولون عن تلفيق قضايا آداب، وكيف تم هذا الحساب، وما هي أدواته؛ هل أحالهم للمحاكمة وفقًا للقانون، أم خصم منهم يومين، أم تم نقلهم لعمل آخر".

وأضاف أيمن نور: "أليس من حق المجتمع أن يسأل من هم هؤلاء الملفقون؟ وإذا كانت الحكومة لم تتستر على الجريمة التي تبين أنها ملفقة؛ فلماذا تسترت على الملفقين، ولم تكشفهم للرأي العام.؟ وأليس من حقنا أن نسأل عن الضحايا؛ هل هم من آحاد الناس، أم من نجوم الفن والسياسة؟ وما هي الدوافع التي حملت الحكومة أو بعض موظفيها على تلفيق هذه القضايا الوضيعة الماسة بشرف المجتمع قبل شرف الذين لفقت لهم؟".

واقع الأمر إن رئيس الحكومة لم يجب عن كل هذه التساؤلات. وبقي هذا الاتهام معلقًا.

غير أننا نشير هنا – للضرورة القصوى – إلى أن أبرز قضية آداب شهدها عصر الدكتور كمال الجنزوري حتى

اجتماعه مع رؤساء تحرير الصحف والكتاب؛ هـي قضـية حنان ترك.

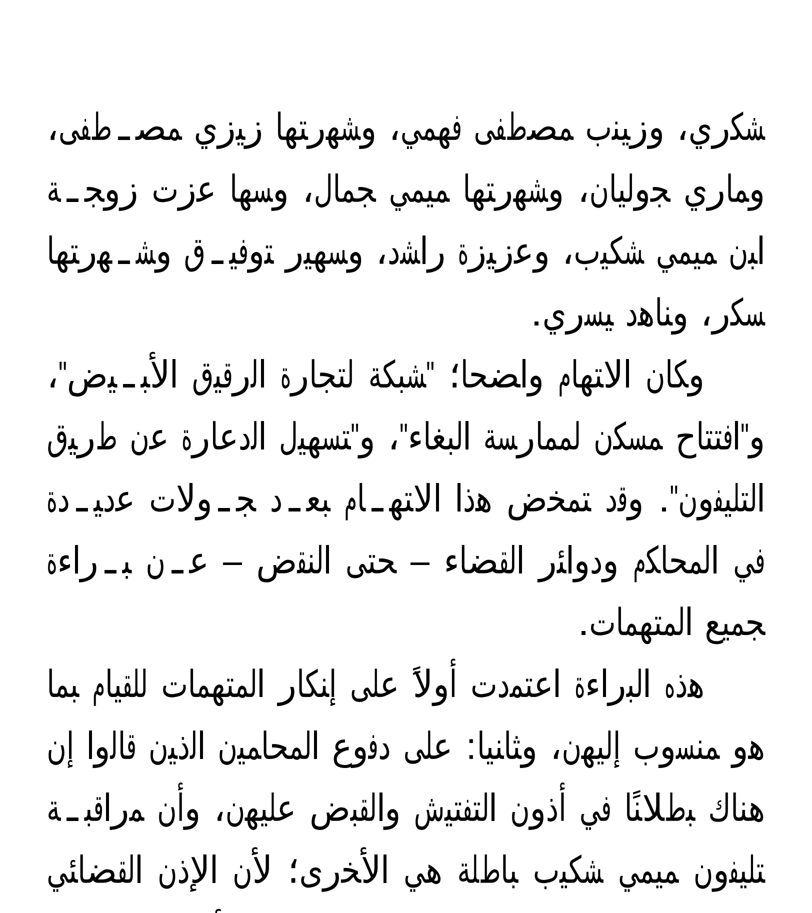
بقيت في هذا السياق نقطتان.. نقطتان جديرتان بالنقاش في هذا الكتاب، وفي ذلك الفصل تحديدا.

الأولى هي: هل هذه هي القضية الأولـى التـي تلفـق لأغراض سياسية؟

الثانية هي: لماذا يكون مجتمع الفن هو الأكثر صلاحية لمثل هذه الأمور؟

وفيما يخص النقطة الأولى يجب الإشارة المؤكدة إلـى قضية الآداب الكبرى التي تفجرت في نهايـة عـام ١٩٧٣ وبداية عام ١٩٧٤، وكانت بطلتها هي الفنانة الراحلة ميمـي شكيب، ومعها عدد هائل من النجمات صغيرات السن اللاتي صرن فيما بعد فنانات معروفات؟!

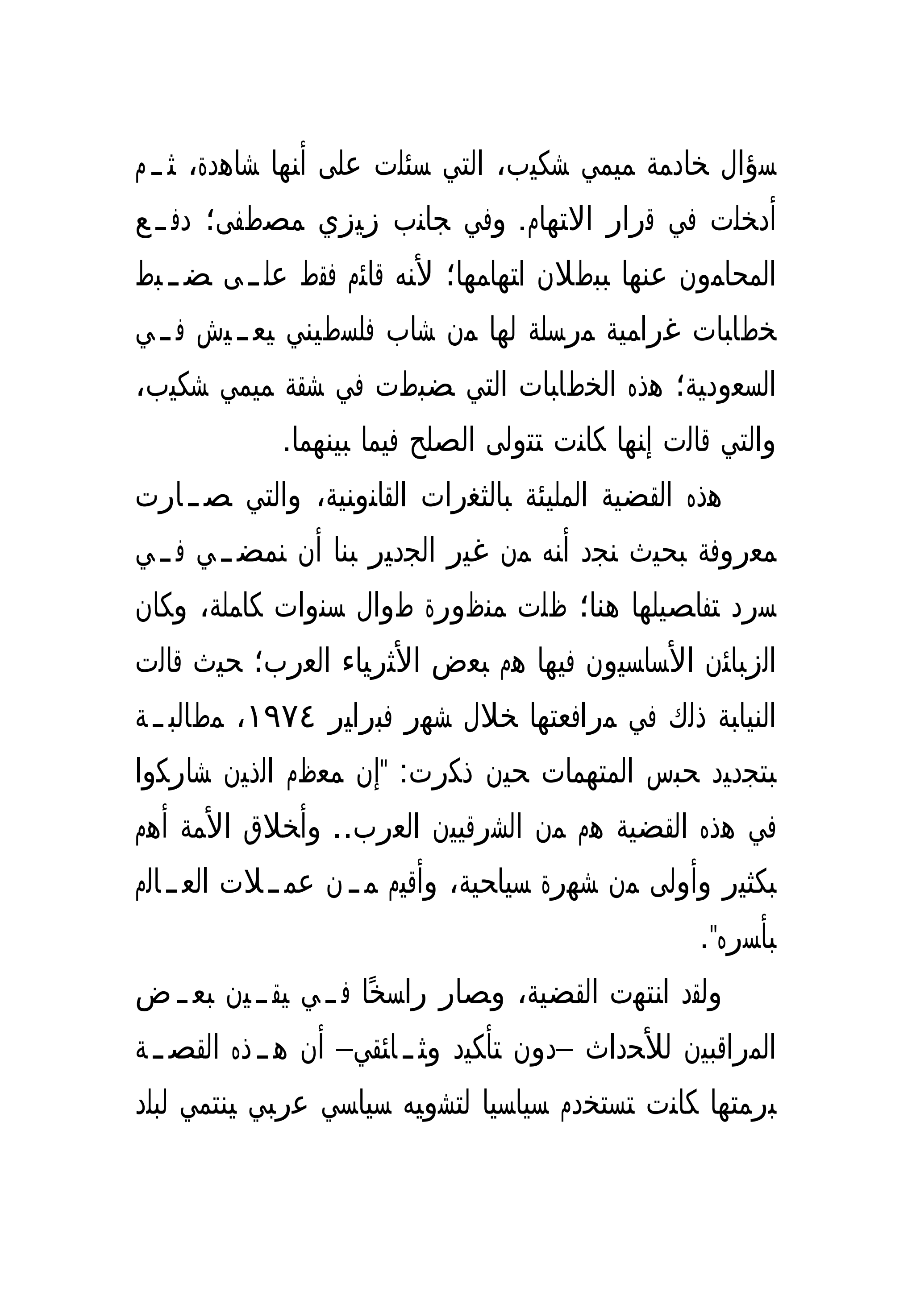
لقد كانت ميمي شكيب هي المتهمة الأولى، وكانت معها سـيدة أخـرى.. والعديـد مـن الفنانـات؛ مـنهن: كمالات عباس أمين، وشهرتها آمال رمزي، وكريمة علـي محمد علي، وشهرتها كريمة الشريف، وعفاف أحمد منيـر، وشهرتها "فيري"، وسامية حسن صبحي، وشـهرتها سـامية



شكري، وزينب مصطفى فهمي، وشهرتها زيزي مصطفى، وماري جوليان، وشهرتها ميمي جمال، وسها عزت زوجة ابن ميمي شكيب، وعزيزة راشد، وسهير توفيق وشهرتها سكر، وناهد يسري.

وكان الاتهام واضحا؛ "شبكة لتجارة الرقيق الأبيض"، و"افتتاح مسكن لممارسة البغاء"، و"تسهيل الدعارة عن طريق التليفون". وقد تمخض هذا الاتهام بعد جولات عديدة في المحاكم ودوائر القضاء – حتى النقض – عن براءة جميع المتهمات.

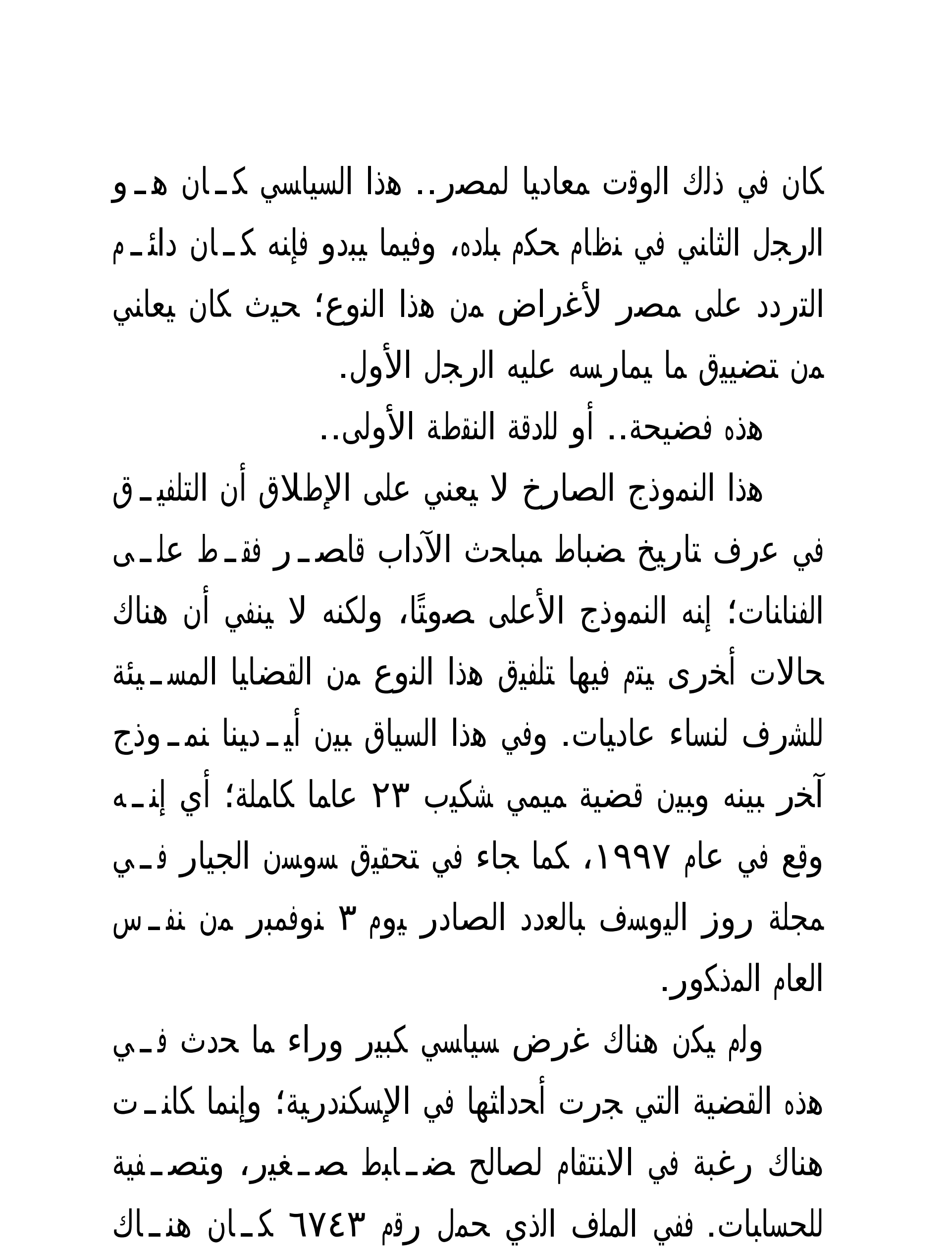
هذه البراءة اعتمدت أولاً على إنكار المتهمات للقيام بما هو منسوب إليهن، وثانيا: على دفوع المحامين الذين قالوا إن هناك بطلانًا في أذون التفتيش والقبض عليهن، وأن مراقبة تليفون ميمي شكيب باطلة هي الأخرى؛ لأن الإذن القضائي الذي صدر بمراقبة التليفون لم يكن مسببا، ولأنه لم يتم تحت إشراف المحقق، ودفع المحامون أيضا ببطلان تفريغ الأشرطة المسجلة؛ لأنها لم تتم في مواجهة المتهمات، أو في حضور الدفاع عنهن، ودفع المحامون ببطلان حق النيابة في حبس المتهمات دون أن يتم إعلانهن، ودفعوا كذلك ببطلان



سؤال خادمة ميمي شكيب، التي سئلت على أنها شاهدة، ثـم أدخلت في قرار الاتهام. وفي جانب زيزي مصطفى؛ دفـع المحامون عنها ببطلان اتهامها؛ لأنه قائم فقط علـى ضـبط خطابات غرامية مرسلة لها من شاب فلسطيني يعـيش فـي السعودية؛ هذه الخطابات التي ضبطت في شقة ميمي شكيب، والتي قالت إنها كانت تتولى الصلح فيما بينهما.

هذه القضية المليئة بالثغرات القانونية، والتي صـارت معروفة بحيث نجد أنه من غير الجدير بنا أن نمضـي فـي سرد تفاصيلها هنا؛ ظلت منظورة طوال سنوات كاملة، وكان الزبائن الأساسيون فيها هم بعض الأثرياء العرب؛ حيث قالت النيابة ذلك في مرافعتها خلال شهر فبراير ١٩٧٤، مطالبـة بتجديد حبس المتهمات حين ذكرت: "إن معظم الذين شاركوا في هذه القضية هم من الشرقيين العرب.. وأخلاق الأمة أهم بكثير وأولى من شهرة سياحية، وأقيم مـن عمـلات العـالم بأسره".

ولقد انتهت القضية، وصار راسخًا فـي يقـين بعـض المراقبين للأحداث –دون تأكيد وثـائقي– أن هـذه القصـة برمتها كانت تستخدم سياسيا لتشويه سياسي عربي ينتمي لبلد

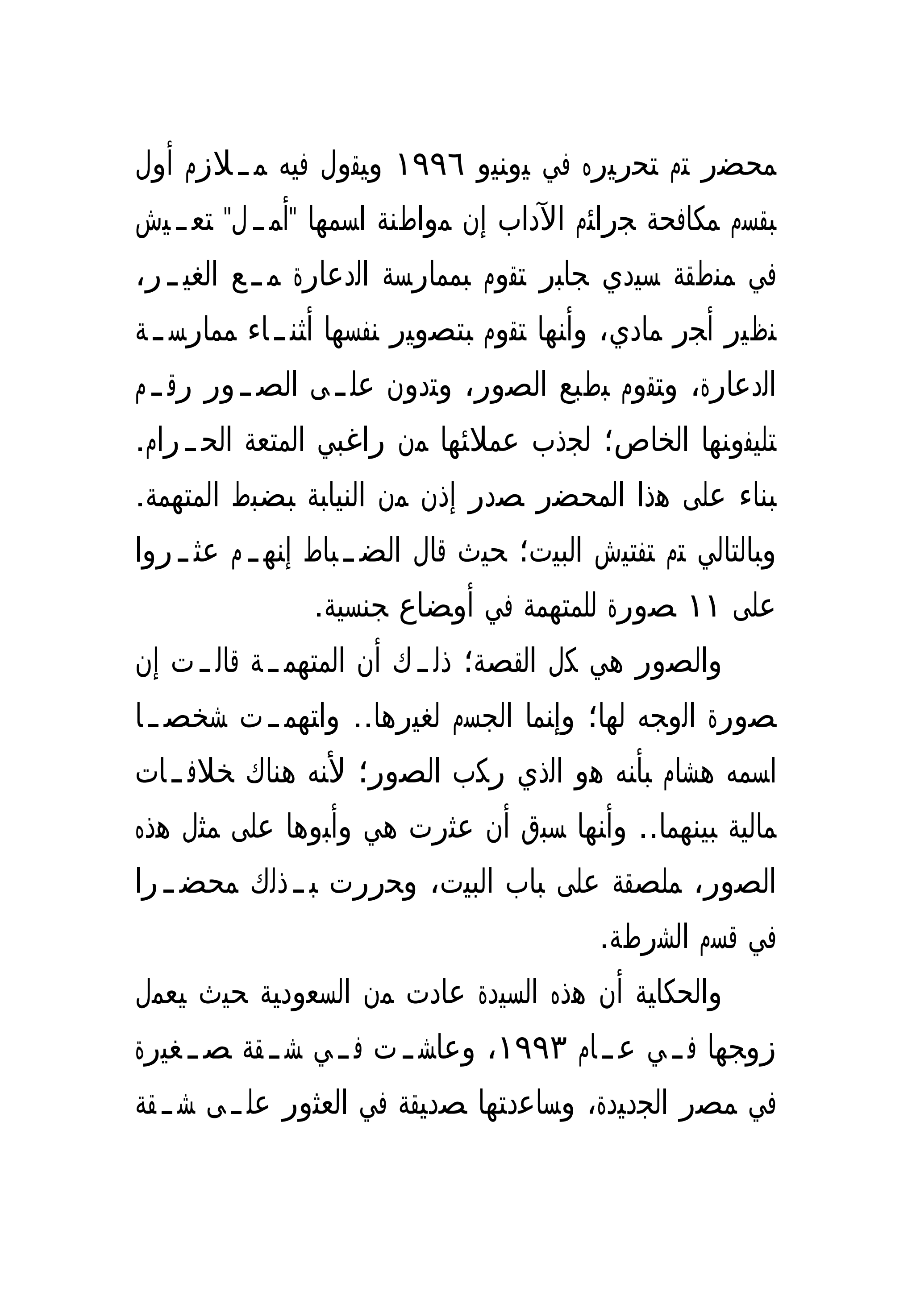


كان في ذلك الوقت معاديا لمصر.. هذا السياسي كان هو الرجل الثاني في نظام حكم بلاده، وفيما يبدو فإنه كان دائم التردد على مصر لأغراض من هذا النوع؛ حيث كان يعاني من تضييق ما يمارسه عليه الرجل الأول.

هذه فضيحة.. أو للدقة النقطة الأولى..

هذا النموذج الصارخ لا يعني على الإطلاق أن التلفيق في عرف تاريخ ضباط مباحث الآداب قاصر فقط على الفنانات؛ إنه النموذج الأعلى صوتًا، ولكنه لا ينفي أن هناك حالات أخرى يتم فيها تلفيق هذا النوع من القضايا المسيئة للشرف لنساء عاديات. وفي هذا السياق بين أيدينا نموذج آخر بينه وبين قضية ميمي شكيب ٢٣ عاما كاملة؛ أي إنه وقع في عام ١٩٩٧، كما جاء في تحقيق سوسن الجيار في مجلة روز اليوسف بالعدد الصادر يوم ٣ نوفمبر من نفس العام المذكور.

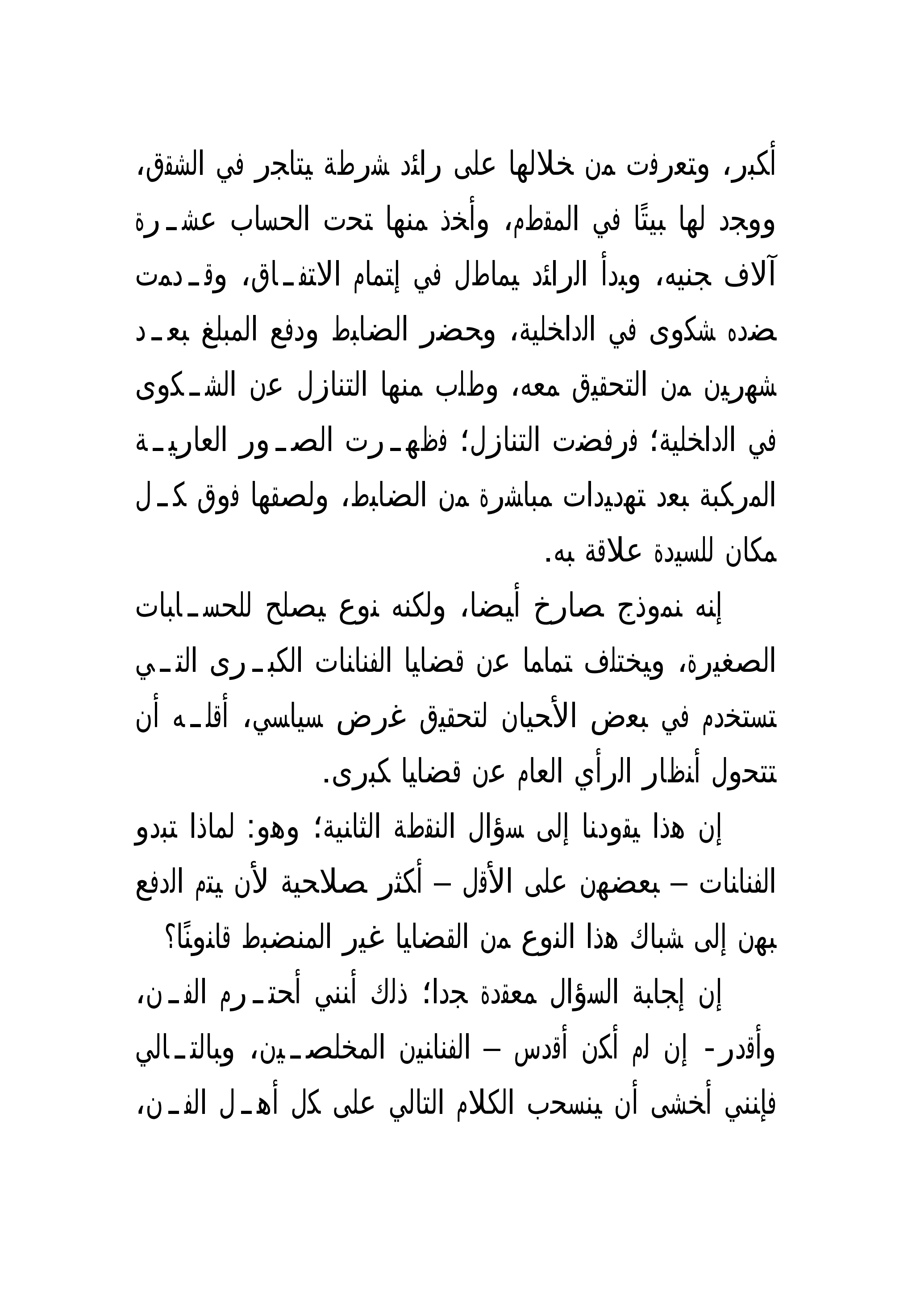
ولم يكن هناك غرض سياسي كبير وراء ما حدث في هذه القضية التي جرت أحداثها في الإسكندرية؛ وإنما كانت هناك رغبة في الانتقام لصالح ضابط صغير، وتصفية للحسابات. ففي الملف الذي حمل رقم ٦٧٤٣ كان هناك



محضر تم تحريره في يونيو ١٩٩٦ ويقول فيه ملازم أول بقسم مكافحة جرائم الآداب إن مواطنة اسمها "أمل" تعيش في منطقة سيدي جابر تقوم بممارسة الدعارة مع الغير، نظير أجر مادي، وأنها تقوم بتصوير نفسها أثناء ممارسة الدعارة، وتقوم بطبع الصور، وتدون على الصور رقم تليفونها الخاص؛ لجذب عملائها من راغبي المتعة الحرام. بناء على هذا المحضر صدر إذن من النيابة بضبط المتهمة. وبالتالي تم تفتيش البيت؛ حيث قال الضباط إنهم عثروا على ١١ صورة للمتهمة في أوضاع جنسية.

والصور هي كل القصة؛ ذلك أن المتهمة قالت إن صورة الوجه لها؛ وإنما الجسم لغيرها.. واتهمت شخصا اسمه هشام بأنه هو الذي ركب الصور؛ لأنه هناك خلافات مالية بينهما.. وأنها سبق أن عثرت هي وأبوها على مثل هذه الصور، ملصقة على باب البيت، وحررت بذلك محضرا في قسم الشرطة.

والحكاية أن هذه السيدة عادت من السعودية حيث يعمل زوجها في عام ١٩٩٣، وعاشت في شقة صغيرة في مصر الجديدة، وساعدتها صديقة في العثور على شقة



أكبر، وتعرفت من خلالها على رائد شرطة يتاجر في الشقق، ووجد لها بيتًا في المقطم، وأخذ منها تحت الحساب عشـرة آلاف جنيه، وبدأ الرائد يماطل في إتمام الاتفـاق، وقـدمت ضده شكوى في الداخلية، وحضر الضابط ودفع المبلغ بعـد شهرين من التحقيق معه، وطلب منها التنازل عن الشـكوى في الداخلية؛ فرفضت التنازل؛ فظهـرت الصـور العاريـة المركبة بعد تهديدات مباشرة من الضابط، ولصقها فوق كـل مكان للسيدة علاقة به.

إنه نموذج صارخ أيضا، ولكنه نوع يصلح للحسـابات الصغيرة، ويختلف تماما عن قضايا الفنانات الكبـرى التـي تستخدم في بعض الأحيان لتحقيق غرض سياسي، أقلـه أن تتحول أنظار الرأي العام عن قضايا كبرى.

إن هذا يقودنا إلى سؤال النقطة الثانية؛ وهو: لماذا تبدو الفنانات – بعضهن على الأقل – أكثر صلاحية لأن يتم الدفع بهن إلى شباك هذا النوع من القضايا غير المنضبط قانونًا؟

إن إجابة السؤال معقدة جدا؛ ذلك أنني أحتـرم الفـن، وأقدر- إن لم أكن أقدس – الفنانين المخلصـين، وبالتـالي فإنني أخشى أن ينسحب الكلام التالي على كل أهـل الفـن،

وهو أمر أرفضه تماما، وإن كان لا يثنيني عن أن أشير إلى أن هناك فيروسا يسري في أخلاق بعض الفنانين، يدفع الرأي العام لأن يميل إلى تصديق ما يقال عنهن وعنهم، وبالتالي نجاح قضية الآداب المصنوعة في تحقيق الغرض المطلوب منها؛ ولو مؤقتًا.

إنني هنا أميل إلى ضرب مثالين قريبين للأذهان، والمثالان المقصودان تحدثت عنهما الصحف في نفس العام الذي شهد انفجار قضية حنان ترك، ثم كتم أنفاسها بقرار رسمي.

والمثال الأول يخص فنانة تليفزيونية شابة، جميلة، رشيقة، بها كل صفات الجاذبية، فجأة ظهرت على الشاشة، وفجأة وفي غضون أشهر قليلة صارت هذه الفنانة نجمة، ورغم أن الصعود السريع لا يعني بالتالي أنه سيؤدي إلى صعود موازٍ في الثروة، إذا ما قارنا حجم المبالغ التي يتقاضاها الفنانون كأجور، بحجم ما ينفقونه على الملبس والمظهر العام؛ إلا أن هذه الفنانة أصبحت مليونيرة بين يوم وليلة؛ من لا شيء إلى سيارة تويوتا إلى سيارة شبح، ومن

شقة في حي شعبي إلى شقة في الزمالك، ومن العـدم إلـى مجوهرات وأزياء فاخرة من كل نوع.

هذه الحالة تخلق التساؤل عادة، ويبقى التساؤل معلقًا بلا رد غالبا؛ حتى تظهر قصة من هذه القصص التـي أثيـرت حول تلك الفنانة من حين لآخر.. ومنها أنها كانت في جولـة مسرحية في دولة عربية، وأنها تعرفت هنـاك علـى ثـري عربي كبير، تركت من أجله العمل إلى رحلة فـي منتجـع خاص به في أسبانيا، ومنها أن نفس الثري العربي جاء إلـى مصر فيما بعد، وصحب هذه الفنانة في طائرة خاصة إلـى رحلة أخرى، تحت غطاء الخطوبة؛ تمهيدا لإعلان الـزواج قريبا.

ولم يتم الزواج بالطبع؛ إذ إن السكرة راحـت سـريعا، وبقيت الفكرة متمثلة في انطباع تولـد لـدى الـرأي العـام عن هذه الفنانة، وهو انطباع لا يمكن أن يقتصر على تلـك الفنانة وحدها حينما يترسخ في العقليـة الجمعيـة للنـاس، وبالتالي فهو (أي الانطباع) يخلق الأرضية التـي يمكـن أن يغرس فيها قبول فكرة أن بعض الفنانات يمكن أن يتـورطن

في قضايا آداب، ويصبح على الرأي العام ألا ينظر للفنـان على أنه قدوة بقدر ما يراه قوادا وداعرا.

إن المثال الثاني يؤكد هذا المعنى.

فقد حدث في شتاء عام ١٩٩٨ أن تفجرت قضية مـن نوع خاص لم يزل ملفها مفتوحا حتى كتابة هـذا الفصـل، حول اتهام شاب لبناني بأنه دبر محاوله لتشويه وجه فنانـة بماء النار؛ بناء على إيعازٍ من مليونير لبناني كان قد تـزوج هذه الفنانة لبعض الوقت. وقد كانت قصة ماء النـار مثيـرة جدا.. لكن الأكثر إثارة هو أن الفنانة المقصودة فتحت فمهـا بمناسبة إثارة هذه القضية، وحين تكلمت نسي الناس قصـة ماء النار، وانتبهوا إلى ما تقول من كلام يخلق فـي ذهـن الرأي العام انطباعات خاصة.

ومما دعم هذا الانطباع الخاص أن المليـونير بـدوره راح يقول كلاما يرسي ويؤكد هذا الانطباع.

لقد كشفت هي بنفسها عن أنها تعرفت على هذا الرجـل في حفل خاص. وقالت إنه راح يطاردها في كل مكان، ولما رفضت عروضه أطلق عليها شائعات؛ فوافقت (ربما إعلانًا للهدنة) على أن تتزوجه، دون أن توضح للرأي العام كيـف

تقبل الزواج من رجل أطلق عليها الشائعات، ومضت تقـول إنها وجدته شخصا سيئًا، بعد أن تزوجته بعقد عند مأذون، ثم بعقد في الشهر العقاري، وأنها طلبت الطلاق وحصلت عليه لأن العصمة كانت في يدها.

ولم تجب هي بالطبع عن التساؤل الذي ثار فورا؛ وهو كيف يمكن أن تتزوج من أجنبي على يد مأذون؟ وكيف تقول مرة إنه مأذون في المطرية، ثم تقول إنه مأذون حي ألماظة في معرض نفيها للشائعات التي تقول إنها تزوجته عرفيـا، وإنهما مزقا فيما بعد ورقة الزواج العرفي؟

وكان الأمر الأكثر خطورة هو أنها تحدثت بنفسها عـن أنه أنفق عليها خلال عدة أشهر قضاها كزوج لهـا؛ خمسـة ملايين جنيه، قالت إنها مصروفات رحلات؛ إذ إنه حتى لـم يشتر لها من هذا المبلغ شقة، وكانت تريد فـيلا فـي حـي العروبة الفاخر.. لقد قالت إن هذا مبلـغ زهيـد لا يقـارن بسمعتها، وبأنها امرأة مطلوبة، وكان على الـرأي العـام أن يتعامل مع هذا الرقم الضخم للغاية، والذي أنفقـه المليـونير على تكاليف زواج دون أن تؤسس شقة الزوجية، وكان عليه أيضا أن يتعامل مع تصـريحات للمليـونير تحـدث فيهـا

عن عمليات إجهاض لهذه الفنانة، وعن أنه لم يتزوج أحـدا، وعلى من يدعي الزواج إظهار البينة التي تؤكـد الـزواج، والبينة التي تؤكد الطلاق.

من هنا ليس بعيدا عن التصديق أن يميل الرأي العـام إلى الاقتناع الفوري والسريع بحديث مفاجئ عن قضية آداب ظهرت على السطح في غمضة عين، واتهمت فيها فنانـات، دون أن يسأل بالطبع عن قانونية الاتهامات ودقتها، وصـحة الأدلة، وأذونات الضبط، وشرعية المراقبة والتحقيقات. ومن هنا فإن عديدا من الفنانات يقدمن أنفسهن لقمة سائغة لوحش هذه القضايا التي تظهر من حين لآخر؛ حيث يتم اسـتخدامها وتوظيفها لخدمة أغراض سياسية.

هذه الأغراض التي قد تكون تصفية حسابات، وقد تكون صراع سوقٍ بين أبـاطرة المـال، وقـد تكـون محاولـة من ضابط ما للبزوغ مجددا إلى ساحة الأحداث، وقد تكـون رغبة في إبعاد أنظار الرأي العـام عـن قضـية ضـاغطة وخانقة.

إنه نوع مختلف من القوادة.. تشـترك فيـه أطـراف عديدة.. وكل له دور مميز.. عن قصد أو بدون.